القرآن الكريم
وأثره في الدراسات النحوية

عبد العال سالم مكرم

دكتوراه في اللغة العربية وآدابها بامتياز
مع مرتبة الشرف الأولى
من كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

المكتبة الأزهرية للتراث
٩ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر الشريف
محمد أحمد البابي
ت ٥١٢٠٨٤٧





القرآن الكريم
وأثره في الدراسات النحوية

تأليف

عبد العال سالم مكرم

دكتوراه في اللغة العربية وآدابها بامتياز
مع مرتبة الشرف الأولى
من كلية دار العلوم — جامعة القاهرة

النـــاشر

المكتبة الأزهرية للتراث

٩ درب الأتراك - خلف الجامع الأزهر الشريف ت : ٥١٢٠٨٤٧

الإهداء :

إلى أستاذنا الكبير

عبد السلام هارون

أقدّم ثمرة من ثمار غرسه ... .

وزهرة من روض علمه .

- ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب
وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس

« الإمام الشافعى »

- إن لغة القرآن أفصح أساليب العربيّة على الإطلاق .

« أبو زكريا الفرّاء »

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد؛ فقد كان يراودنى أمل كبير فى أن أكون جندياً من جنود القرآن ، أعيش فى ظلاله وأحيا فى رحابه ، وأترهّب فى محرابه ، فوفّقت إلى هذا الموضوع وهو: « أثر القرآن الكريم فى الدّراسات النحوية » وحينما بدأت السير فى طريقه . والعمل فى ميدانه ، أشفقت على نفسى ؛ لأن الموضوع طويل وعريض ، فسيح الأرجاء ، واسع الأطراف ، وأشفقت على نفسى لأن الموضوع فى القرآن ، وكل عمل علمى فى حقله ، يحتاج إلى مزيد من الجهود الصادقة ، والجهاد المضنى ، والدأب المستمر ، والإخلاص العميق ، وبعد تردد تسرب إلى نفسى ، صمّم عزمى ، وعقدت النية على أنى أعيش فى هذا الموضوع مهما كلفنى ذلك عناء وتعباً ؛ فإن العناء فى سبيل العلم لذة ، والتعب من أجل المعرفة سعادة .

ولا أريد أن أتحدث عن التضحيات النفسية أو الأسرية التى ضحيت بها من أجل هذا الموضوع ، فإن الموضوع جد خطير ، لأنه حول كتاب الله ، وما يبذل فى مضماره — مهما غلا ثمنه — قليل بالنسبة لما يجب أن يكون .

لقد راعنى ، وملك نفسى إعجاباً أن لغتنا العربية — على الرغم من صيحات الجهلة — دعاة العامية — ما زالت حية قوية ، لأنها أخذت من فيض القرآن ما يضمن لها طول البقاء . فقد أخذت منذ أربعة عشر قرناً ، تتقدم فى قوة وثبات فى طريق الحياة ، تاركة وراءها لغات أخرى انتقلت من ميدان الحياة إلى سجلات الآثار والمحفوظات .

وإنى كنت ألمح هذا الأثر ، أثر القرآن فى اللغة دون أن أتعمق فيه ، فلما حييت فى رحابه باحثاً مدققاً وضح لى هذا الأثر فى عدة مظاهر سجلتها فى بحثى تثبت أن القرآن الكريم كان يطلّ بوجهه العظيم فى كل مسألة من مسائل النحو ، وفى كل قضية من قضاياه .

رأيت أنه فى العصر الإسلامى الأول قامت حركة علمية لصيانة القرآن الكريم من العامية المستبدة . والعجمى الوافدة، تتمثل فى تنقيط المصحف تنقيط إعراب .

ورأيت أن العلماء لم يكتفوا بهذا ، بل تجاوزوه إلى دراسة الشعر العربى ، دراسة نقد وتمحيص من أجل أن يكون صورة صادقة للغة القرآن الكريم .

ورأيت أنه قامت حركة نحوية فى هذا العهد ترشد وتوجه وتلقن وتعلم ، من أجل أن تبقى للغة هيبتها وسلامتها لأنها لغة القرآن .

ومن أجل القرآن الكريم جمع سيبويه كتابه ليكون مناراً يهدى المتعلمين ، وبخاصة الأعاجم ، إلى لغة القرآن .

ومن أجل القرآن ألفت كتب فى موضوعات مختلفة فى التفسير ، وفى المعانى ، وفى الإعراب . وفى الغريب .

ومن أجل القرآن ازدهرت الحركة النحوية فى البصرة . وانتقلت إلى الكوفة ثم إلى بغداد ثم إلى الأندلس . ثم إلى مصر والشام .

ومن أجل القرآن . تعددت المناظرات . واحتدم النقاش وكثر الجدل . وفاضت كتب النحو بمعين لا ينضب من هذه المناظرات أو المناقشات .

ومن أجل القرآن قامت حركات التيسير النحوى على يد ابن مضاء القرطبي ثم على يد ابن هشام الذى جعل من القرآن الكريم ميدان تدريب ، ومجال إعراب ، ومضمار دراسة .

ومن أجل القرآن وبفضل معجزته الخالدة (يرجى أن تكون هذه اللغة بعد قرن من الزمان لغة الملايين ممن لم يتكلموها حتى الآن ، وفى طليعتهم أهل الهند ، والملايو المسلمون . ومعهم فى آسيا وأفريقيا شعوب تنمو وتزداد صلة بلغة القرآن على مر السنين) .

ومن أجل القرآن، لا نعبأ بما نلاقى من الجهاد فى سبيل إحياء لغته ؛ لأننا لا نحيا إلا به ، ولا نعيش إلا له .

وأسأل الله أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه .

إنه نعم المولى ونعم النصير . . .

عبد العال سالم مكرم

القاهرة فى ٣ من رمضان سنة ١٣٨٤هـ
الموافق ٥ من يناير سنة ١٩٦٥ م

محتويات البحث

الصفحة

الباب الأول
أثر القرآن الكريم فى المدارس النحوية ومناهجها
٤٥ — ٢١٤

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الباب الثانى

نحو القرآن

٢١٣ — ٣٤٨

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

القرآن الكريم
وأثره في الدراسات النحوية

التمهيد

١ ـ القرآن من حيث المعنى والاشتقاق :

تعرض اللغويون لأصل هذه الكلمة واشتقاقها ، وقد سجلت كتب المعاجم ما دار حولهم من خلاف .

ولم ينس السيوطى فى « الإتقان » أن يجمع خلاصة هذه الآراء فبين أن الشافعى كان يرى: « أن القرآن اسم علم غير مشتق خاص بكلام الله تعالى »[١] . على حين يرى الأشعرى والفراء والزجاج وقطرب أنه مشتق غير أنهم اختلفوا فى مادة اشتقاقه .

فالفراء يقول : « هو مشتق من القرائن لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضًا ، ويشابه بعضها بعضًا وهى قرائن » .

والزجاج يرى أنه: « وصف على فُعْلان مشتق من القَرْء بمعنى الجمع . ومنه قرأتُ الماء فى الحوض أى جمعته » .

وقطرب يقول : « إنما سمى قرآنًا ، لأن القارئ يظهره ، ويبينه من فيه أخذاً من قول العرب : ما قرأت الناقة سلى قط أى ما رمت بولد ، أى ما أسقطت ولداً أى ما حملت قط ، والقرآن يلفظه القارئ من فيه ويلقيه فيسميه قرآنًا »[٢] .

وبعد عرض هذه الآراء ذكر السيوطى أن رأى الشافعى أسلم الآراء ، فقال : « والمختار عندى فى هذه المسألة ما نص عليه الشافعى »[٣] .

ويرى ابن عطية : أن القرآن « مصدر من قولك قرأ الرجل ـ إذا تلا ـ يقرأ قرآنًا وقراءة » [٤] .

ويستدل ابن عطية لتأكيد مصدريته بقول حسان بن ثابت يرثى عثمان بن عفان رضى الله عنه :

---

(١) الإتقان للسيوطى : جـ ١ ص : ٥٠ بتصرف .
(٢) المرجع السابق .
(٣) نفس المصدر السابق ص : ٥١ .
(٤) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٢٨٣ .

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحًا وقرآنا

أى قراءة[١] .

٢ – توثيق النص القرآنى :

ليس هناك كتاب مقدس وصل إلى ذروة التوثيق كالقرآن الكريم ، وهذا سر عظمته ، ومفتاح خلوده (إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون)[٢]

وقد سُجِّل القرآن الكريم تسجيلا رائعًا فى مصحف لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ظل « ينقله أهل المشرق والمغرب عن أمثالهم جيلا جيلا ، لا يختلف فيه مؤمن ولا كافر منصف غير معاند للمشاهدة . . لا يشكون ولا يختلفون فى أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب أتى به ، وأخبر أن الله عز وجل أوحى به إليه ، وأن من اتبعه أخذه عنه كذلك ، ثم أخذ عن أولئك حتى بلغ إلينا » [٣] .

وقد مر توثيق النص القرآنى فى مراحل ثلاث :

١ – توثيقه فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم :

كانت الخطوة الأولى لتوثيق النص القرآنى فى هذه الفترة كتابته حين النزول ومنع كتابة شىء سواه حتى لا يختلط به ما ليس منه يدل على ذلك ما رواه أبو سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تكتبوا عنى شيئًا سوى القرآن ، فمن كتب عنى شيئًا سوى القرآن فليمحه »[٤] .

وبهذا النهى توقف الصحابة عن كتابة أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم صيانة للقرآن الكريم .

وقد جاء النهى عن كتابة الأحاديث النبوية صريحًا ، فعن أبى سعيد الخدرى قال : « استأذنت النبى صلى الله عليه وسلم أن أكتب الحديث فأبى أن يأذن لى »[٥] .

---

(١) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٢٨٣ .
الشمط : محركة بياض الرأس يخالطه سواد .

(٢) الحجر آية ٩ .

(٣) الفصل فى الملل والأهواء والنحل : ص ٨١ ج ٢ لابن حزم .

(٤) تقييد العلم للخطيب البغدادى : ص ٢٩ . (٥) المرجع السابق : ص ٣٢ .

وهذا النهى لا يمنع منعاً باتاً كتابة الأحاديث ، لأنه حيث وجدت القدرة العلمية التى تستطيع أن تميز بين كلام الله تعالى وكلام رسوله عليه السلام فلا وجه حينئذ للمنع .

ومن هنا صح لعبد الله بن عمرو أن يكتب الأحاديث ، وأن ينفرد وحده فى هذا المجال ، ثقة به لتميزه ببعض الخصائص .

يقول أبو هريرة : «ما أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر حديثاً منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب »[١] .

وروى ابن سعد عن إسحاق بن يحيى عن مجاهد أنه قال : « رأيت عند عبد الله ابن عمرو صحيفة فسألته عنها فقال : هذه الصادقة ، فيها ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بينى وبينه فيها أحد »[٢] .

أليس هذا يدل على منزلة عبد الله بن عمرو ، وأنه لفقهه فى الدين وتميزه عن غيره من الصحابة مُنِحَ هذه الصفة على حين منع غيره ولو كانوا ممن يجيدون الكتابة .

ولا أدل على ذلك من أبى هريرة نفسه ، فقد كان من الكاتبين ومع ذلك فقد نهى عن كتابة الأحاديث .

قال أبو هريرة : « خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونحن نكتب الأحاديث ، فقال : ما هذا الذى تكتبون ؟ قلنا : أحاديث سمعناها منك ! قال : أكتاباً غير كتاب الله تريدون ؟ ما أضل الأمم من قبلكم إلا ما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى »[٣] .

* * *

على ضوء ما ذكرت أستطيع أن أقول : إن النبى عليه السلام وضع الأمر فى نصابه حينما منع كتابة الأحاديث بصفة عامة ، وإن كان قد رخص فى ذلك لبعض الصحابة لأسباب خاصة .

ومعنى ذلك أن القرآن الكريم كان موثقاً توثيقاً مكيناً فى عهده صلى الله عليه وسلم ، حيث كتب كله بأقلام كتّاب الوحى ، وغيرهم من الصحابة الكاتبين

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة : ج ٤ ص ١١٢ .
(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد : ج ٧ ص ١٨٩ القسم الثانى — ليدن .
(٣) تقييد العلم : ص ٣٣ للخطيب البغدادى .

بَيْدَ أنه لم يجمع فى مصحف ، لأن الحاجة لم تكن ماسة إليه إذ ذاك حيث كان الصحابة يتسابقون فى حفظه ويتبارون فى كتابته ، والرسول عليه السلام بين ظهرانيهم ، يتلو عليهم آياته ، ويبين لهم أحكامه ، ويسوق لهم من قصصه وعظاته ما تلين به القلوب ، وتقشعر له الأبدان .

على أن السيوطى فى « الإتقان » وضح السبب فى عدم جمع القرآن فى مصحف على عهد النبي عليه السلام بقوله : « قال الخطابى : إنما لم يجمع صلى الله عليه وسلم القرآن فى المصحف لما كان يترقبه من ورود ناسخ لبعض أحكامه ، أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ، ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك ، وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة »[1] .

نقد بعض المستشرقين :

راعنى ما ذكره الدكتور « أرثر جفرى » فى مقدمته لكتاب « المصاحف » حيث قال ما نصه : « الرأى الشائع فى أن القرآن الكريم كتب فى عهد النبي عليه السلام لا يقبله المستشرقون لأنه يخالف ما جاء فى أحاديث أخرى ، أنه قبض صلى الله عليه وسلم ولم يجمع فى القرآن شىء »[2] . ويقتنع « أرثر جفرى » بوجهة نظرهم مستنداً إلى دليل آخر فيقول : « وهذا يطابق ما روى من خوف عمر بن الخطاب وأبى بكر الصديق لما استحر القتل بالقراء يوم اليمامة . . .

وسبب الخوف هو قتل القراء الذين كانوا قد حفظوا القرآن ولو كان القرآن قد جمع وكتب لما كانت هناك علة لخوفهما »[3] .

وأطلت التفكير فى هذا القول فهديت إلى أن وراءه التشكيك فى نص القرآن الكريم ، لأن الذاكرة مهما أوتيت من القوة لا تستطيع أن تمسك على كل ما فيها فترة طويلة ، وذلك يؤدى إلى نقص فى النص القرآنى أو زيادة عليه ، ويكون شأنه شأن الشعر المروى عرضة للتغيير والتبديل .

وهذا القول لا يستند إلى دليل ، ولا يقوم على حجة ، وذلك لأن ادعاء أن النبي عليه السلام قُبِضَ ولم يجمع فى القرآن شىء فليس المراد منه أن القرآن لم يكن

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن : جـ ١ ص : ٥٧ .
(٢) المصاحف : ص ٥ ابن أبى داود .
(٣) المرجع السابق والصفحة بتصرف .

مكتوبًا حينذاك ، بل المراد أنه لم يجمع فى مصحف ، وقد قدمت السبب فى ذلك .

وليس هناك أصرح من الروايات التى تثبت كتابة القرآن فى عهد الرسول عليه السلام ، والتى تؤكد: « أن القرآن كان مجموعًا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه ما نزلت آية إلا وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من يكتب له أن يضعها فى موضع كذا من سورة كذا »[1] .

وأما خوف عمر بن الخطاب ، وأبى بكر الصديق حين استحر القتل بالقراء يوم اليمامة فالاستدلال به فى غير موضعه ، لأن خوفهما زيادة تحرٍّ فى صيانة القرآن الكريم وحفظه ليلتقى المحفوظ بالمكتوب ، فلا تكون هناك فجوة تبعد بينهما ، وذلك لأن طريقة أداء هذا المكتوب لا يتأتى إلا عن طريق التلقين والرواية ، ومن ثم نشأ خوف الخليفتين الجليلين من أن يموت القراء فتتعثر طريقة الأداء .

وأمّا الخطوة الثانية فى توثيق نص القرآن على عهد النبى عليه السلام فقد كانت تتمثل فى مبادرة الصحابة رضوان الله عليهم بحفظه وكثرة تلاوته حتى تظل الذاكرة واعية له فى كل وقت .

« نقل الرواة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمرو بن العاص اقرأ القرآن فى كذا ليلة . . يدعوه إلى التيسير ، وهو يقول : إنى أطيق أكثر من ذلك إلى أن قال له : اقرأ القرآن فى ثلاث ليال »[2] .

واشتهر جماعة من الصحابة غير عبد الله بن عمرو بحفظه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمثال : « أبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبى زيد بن سعيد ، وعبد الله بن مسعود ، وعلى بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وأبى بكر الصديق ، وعمر ، وعائشة ، وحفصة ، وأم سلمة ، وغيرهم كثيرون »[3] .

وكانت الخطوة الثالثة فى التوثيق أن الصحابة كانوا يعرضون ما يحفظونه على رسول الله صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن مسعود الذى يقول : « قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ علىّ ، ففتحت سورة النساء ، فلما بلغت : (فكيف

---

(١) مقدمتان فى علوم القرآن ص : ٢٧ .
(٢) المرجع السابق : ص ٢٧ .
(٣) دائرة معارف القرن العشرين : ص ٦٦٦ محمد فريد وجدى المجلد السابع .

إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً)[١] رأيت عينيه تذرفان من الدمع فقال : حسبك الآن »[٢] .

والخطوة الأخيرة فى التوثيق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه فى السنة التى لحق فيها بالرفيق الأعلى عرض على جبريل القرآن مرتين[٣] .

ومعنى ذلك أن القرآن الكريم كما هو مكتوب فى المصحف العثمانى الذى بين أيدينا هو القرآن الكريم الذى نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العرضة الأخيرة بترتيبه من غير تقديم أو تأخير ، وبدون زيادة أو نقصان .

وفى هذا يسجل السيوطى رأى الإمام البغوى فى الإتقان فيقول : « الصحابة رضى الله عنهم جمعوا بين الدفتين القرآن الذى أنزله الله على رسوله من غير أن زادوا أو نقصوا منه شيئاً خوف ذهاب بعضه بذهاب حفظته فكتبوه كما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير أن قدموا شيئاً أو أخروا ، أو وضعوا له ترتيباً لم يأخذوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقن أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذى هو الآن فى مصاحفنا بتوقيف جبريل إياه على ذلك ، وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا فى سورة كذا . فثبت أن سعى الصحابة كان فى جمعه فى موضع واحد لا فى ترتيبه ، فإن القرآن مكتوب فى اللوح المحفوظ على هذا الترتيب »[٤] .

٢ ــ توثيقه فى عهد الخليفة أبى بكر :

فى عهد أبى بكر رضى الله عنه بدأت المرحلة الثانية من مراحل توثيق النص القرآنى .

وكانت ظروف الدولة الإسلامية بمقتضى الأحداث التى وقعت فيها تستوجب من أبى بكر أن يقف هذا الموقف الكريم من القرآن العظيم فيعمل على جمعه فى مصحف صوناً له من التحريف ، ومبالغة فى الدقة والتحرى .

---

(١) سورة النساء : آية ٣٣ .
(٢) نقلا عن « أبى على الفارسى » للدكتور عبد الفتاح شلبى : ص ١١
(٣) المرجع السابق والصفحة بتصرف .
(٤) الإتقان : جـ ١ ص ٦١ . مطبعة الحلبى .

يحدثنا زيد بن ثابت كاتب الوحى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : « أرسل إلىّ أبو بكر عقب مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن ، فقلت لعمر : كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال عمر : هو والله خير ، فلم يزل يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر : إنك شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن ، اجمعه . فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن .

قلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : هو والله خير ، فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح الله له صدر أبى بكر وعمر ، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب[1] واللخاف[2] ، وصدور الرجال» [3] .

وبذلك استطاع زيد أن يجمع القرآن الكريم من العسب واللخاف ، وأفواه الرجال فى مصحف موحد ، بيد أن هناك روايات أخرى تثبت أن الذى كتب فى عهد أبى بكر يتمثل فى صحف لا فى مصحف يجمع القرآن بين لوحين ، وتستند هذه الروايات إلى أن عثمان بن عفان بعث إلى حفصة التى كانت تحتفظ بالصحف التى جمعت فى عهد أبى بكر بعد وفاة أبيها عمر ، بعث إليها « أن أرسلى إلينا الصحف ننسخها فى المصاحف ، ثم نردها إليك »[4].

وواضح أن الصحف غير المصاحف ، فإذا وضعنا هذه الروايات بجانب الروايات الأخرى التى تبين أن أبا بكر « أول من جمع القرآن فى المصحف »[5]

---

(١) العسب : جمع عسيب وهو جريد النخل ، كانوا يكشطون الخوص ، ويكتبون فى الطرف العريض .

(٢) اللخاف : بكسر اللام ، وبخاء معجمة خفيفة ، آخره فاء جمع لخفة بفتح اللام وسكون الخاء وهى الحجارة الرقاق (انظر معنى الكلمتين فى الإتقان : جـ ١ ص ٥٨ – ٥٩) .

(٣) الإتقان : جـ ١ ص ٥٧ .

(٤) الإتقان : جـ ١ ص ٥٩ .

(٥) المرجع السابق والصفحة

يتضح لنا أن بينهما تنافياً لا نستطيع من خلاله أن نثبت ما جمعه أبو بكر ، هل هو صحف أو مصحف ؟ وقد أخرجني من هذه الحيرة مؤلف المباني حيث يقرر أنه لا تنافي بين الروايات التي تشير إلى أن أبا بكر جمع القرآن في صحف وبين الروايات التي تبين أنه جمع القرآن في مصحف ، « وذلك أنه جمع القرآن ، وجعله أجزاء متفرقة أعشاراً ، أو أسباعاً وأقل وأكثر ، فسميت بذلك الأجزاء ، وما كانت بين الأخير صحفاً وصحيفة ، وكان له فيها غرض ، وذلك أنه أجدى وأحوط من جمعه في مصحف واحد . . .

ويحتمل أيضاً أنه جمع الصحف التي كانت في أيدي الناس مكتوباً فيها ، وحصلت عنده ثم نسخ منها جامعاً بين لوحين ، وكانت الصحف محتفظاً بها عنده ، ثم عند عمر ، ثم عند حفصة ، وإنما حفظوها ، لأنها هي الأصل ، وقد كانت عرضت وعرف صحتها فلذلك اعتمد عثمان عليها »[1] .

وليس هناك شك في أن جمع القرآن في عهد أبي بكر كان يسير على خطة علمية منظمة تتميز بالدقة والإتقان ، والمبالغة في الاحتياط فعن عبد الرحمن بن حاطب قال : « قدم عمر فقال : من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن فليأت به . . . ، وكان زيد لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان »[2] .

ويعلق السيوطي على هذا الخبر الأخير بقوله : « وهذا يدل على أن زيداً كان لا يكتفي بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به من تلقاه سماعاً مع كون زيد كان يحفظ ، فكان يفعل ذلك مبالغة في الاحتياط »[3] .

ومن المسلم به أن جمع أبي بكر للقرآن كان مشتملا على سبعة الأحرف التي نزل القرآن بها ، ولم يخص أبو بكر في جمعها حرفاً بعينه .

تعدد المصاحف :

وبجانب مصحف أبي بكر كانت هناك مصاحف خاصة لبعض كبار الصحابة الذين سجلوا فيها ما سمعوه من النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يحاول

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن : ص ٦٤ .   (٢) الإتقان : جـ ١ ص ٥٨ .
(٣) الإتقان في علوم القرآن : جـ ١ ص ٥٨ .

أبو بكر أن يمنع القراءة فى هذه المصاحف لقرب عهده من عهد النبي عليه السلام ، ولم تحدث وقائع ذات بال فى قراءة القرآن تدل على خلاف ، أو تشير إلى نزاع ، لأن القرآن الكريم أنزل على سبعة أحرف للتيسير على الأمة ، والترغيب فى تلاوة القرآن باللهجات التى يسهل على ألسنتهم النطق بها . ومن ثم أباح أبو بكر تعدد هذه المصاحف وأشهر هذه المصاحف مصحف على ، ومصحف أبيّ ، ومصحف ابن مسعود ، أما مصحف على فعن ابن سيرين قال : « قال على : لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم آليت ألا آخذ علىّ ردائى إلا لصلاة جمعة حتى أجمع القرآن فجمعته »[1] .

وهذا يدل على أن فكرة جمع القرآن فى مصحف كانت مختمرة فى ذهن علىّ قبل أن يبدأ عمر مشاوراته مع الخليفة للقيام بهذا العمل . وأما مصحف ابن مسعود ، فقد سجل فيه ابن مسعود القراءة التى سمعها من النبي عليه السلام ، وقد قال ابن عباس عنه : إنه « شهد ما نسخ منه وما بدل ، فقراءته الأخيرة »[2] .

ومعنى ذلك أن ابن مسعود شهد العرضة الأخيرة ، فقراءته صورة لها ، ومصحفه مشتمل عليها .

وكذلك كان مصحف أبيّ تسجيلا لقراءته التى رواها وسمعها من النبي عليه السلام ، وأبيّ فى مجال القراءة علم يشار إليه ، لأن النبي عليه السلام قال عنه « أقرؤكم أبيّ »[3] .

ونحن إذا نظرنا إلى هذه المصاحف لا نجد اختلافاً كبيراً بينها ، وإن وجد بعض الاختلاف فمرجعه ترتيب السور لا اختلاف النص بالزيادة أو النقصان ، وقد بين صاحب المبانى النسر فى ذلك بقوله : « إن القراء كان الواحد منهم يقرأ سورة البقرة ، ثم يقرأ النساء أو الأعراف أو نحو ذلك من غير ولاء للسور بقروض توقف عليه ، وذلك أن الواحد منهم إذا حفظ سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كتبها ، ثم خرج فى سرية فنزل فى وقت تغيبه سور فإنه كان إذا رجع ،

---

(١) الإتقان ، جـ ١ ص ٥٧ .

(٢) النشر : جـ ١ ص ٣٢ .

(٣) مقدمتان فى علوم القرآن : ص ٥٠ .

فأخذ فى حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته ويتبع ما فاته على حسب ما يتسهل له فيقع فيما يكتبه تقديم وتأخير من هذا الوجه » [١] .

ويستند مؤلف المبانى فى رأيه هذا إلى ما أخبر به « يوسف بن ماهك » حيث قال : « إنى لعند عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها إذ جاء أعرابى فقال : يا أم المؤمنين : أرينى مصحفك ، قالت لم ؟ قال لعلى أؤلف القرآن عليه ، فإنا نقرؤه غير مؤلف قالت : وما يضرك أيّهُ قرأت قبل ؟ إنما أنزل أول ما أنزل من القرآن سور المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا أناب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شىء : لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر ، ولو نزل : لا تزنوا لقالوا : لا ندع الزنا ، وقد نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، ـ وإنى لجارية بمكة ألعب ـ (والساعة أدهى وأمر) [٢] وما نزلت سورة البقرة إلا وأنا عنده ، قال : فأخرج المصحف ، فأمليت عليه السور » [٣] .

قال مؤلف المبانى معلقاً : « ألا ترى أنه اكتفى بإملاء السور عليه إذ لم يكن ما عنده وما فى مصحف عائشة خلاف إلا فى توالى السور ، وقد قالت عائشة : وما يضرك أيه قرأت قبل » [٤] ؟

ويرد ابن قتيبة على الذين يزعمون أن عبد الله بن مسعود لا توجد فى مصحفه فاتحة الكتاب فيقول : « كيف يظن به ذلك ، وهو من أشد الصحابة عناية بالقرآن ؟ ولكنه ذهب فيما يظن أهل النظر إلى أن القرآن إنما كتب وجمع بين اللوحين مخافة الشك والنسيان والزيادة والنقصان ، ورأى ذلك لا يجوز على سورة الحمد لقصرها .. فلما أمن عليها العلة التى من أجلها كتب المصحف ترك كتابتها وهو يعلم أنها من القرآن » [٥] .

من أجل تعدد المصاحف بجوار مصحف أبى بكر ، وانتشار القراء فى الأمصار تعددت القراءات ، وثار الجدل ، واحتدم النزاع ، واتسعت الفروق بين القراءات ، وأطلت الفتنة برأسها على كتاب هذه الأمة ، فهيأ الله الخليفة الورع عثمان بن عفان

---

(١) مقدمتان فى علوم القرآن : ص ٣٢ .
(٢) سورة القمر آية : ٤٦ .
(٣) مقدمتان فى علوم القرآن : ص ٣٣ ، ٣٤ .
(٤) نفس المرجع والصفحة .
(٥) مشكل القرآن : ابن قتيبة : ص ٣٥ بتصرف .

ليقضى على كل فتنة ، تحاول أن تمس جلال القرآن الكريم ، وبتوفيق الله وإلهامه قام عثمان بالمرحلة الثالثة لتوثيق نص القرآن الكريم ، وها نحن أولاء نطرق باب الحديث فيها .

٣ — توثيق النص القرآنى فى عهد عثمان رضى الله عنه :

« حدث ابن شهاب عن أنس بن مالك أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ابن عفان ، وكان يغازى أهل الشام مع أهل العراق مع فتح إرمينية[١] وأذربيجان[٢] فأفزعه اختلافهم فى القراءة قال : يا أمير المؤمنين : أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى الكتاب كما اختلفت اليهود والنصارى ، فبعث عثمان إلى حفصة أن أرسلى إلينا بالصحف ننسخها فى المصاحف ، ثم نردها عليك ، فأرسلتها إليه ، فأمر عثمان زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن ينسخوا الصحف فى المصاحف »[٣] .

فلما تم لهم ذلك ، ونقلت الصحف فى المصاحف « بعث عثمان إلى كل أفق مصحفاً من تلك المصاحف التى نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق »[٤] .

على ضوء هذا النص يتضح لنا أن هذه المرحلة فى الحركة القرآنية التى قام بها عثمان رضى الله عنه امتداد للمرحلة السابقة التى قام بها أبو بكر ، غير أن الجديد فى حركة عثمان أنه جمع الناس على مصحف واحد وحرق ما عداه على حين كانت مصاحف كبار الصحابة تقرأ على عهد أبى بكر ، وكانت مصونة لم تمس .

ومن هنا وجهت موجات من النقد لعثمان رضى الله عنه ، وحاولت بعض كتب الطبقات والتاريخ أن تجعل من ابن مسعود مصدراً لهذا النقد ، فقد قال ابن شهاب : « أخبرنى عبد الله بن عبد الله بن عتبة أن عبد الله بن مسعود قال : يا معشر المسلمين

---

(١) بكسر أوله ، وياء ساكنة وكسر النون ، وياء خفيفة مفتوحة اسم لصقع عظيم فى جهة الشمال (معجم البلدان جـ ١ ص ٢١٩) .

(٢) بالفتح ثم السكون ، وفتح الراء ، وكسر الباء الموحدة ، وياء ساكنة وجيم يتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم وهو إقليم واسع ومن أشهر مدائنها تبريز (معجم البلدان : جـ ١ ص ١٧٢) .

(٣) مقدمتان فى علوم القرآن : ص ١٨ — ١٩ .

(٤) المرجع السابق والصفحة .

أعزل عن كتابة المصحف ، ويولاها رجل والله ، لقد أسلمت . وإنه لفى صلب رجل كافر – يريد زيد بن ثابت . . . . قال ابن شهاب : فبلغنى أنه كره ذلك من مقالة ابن مسعود رجال من أفاضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم »[١] .

ووقفت أمام هذا الخبر طويلا ، كيف يصدر هذا من ابن مسعود ؟ قلت : لعل عثمان رضى الله عنه انفرد بهذا العمل وحده دون أن يستشير أولى الرأى من كبار الصحابة وربما كانت الفتن التى أعلنت عن نفسها تجاه القرآن والقراءات ، تتطلب عملاسريعًا حاسمًا يضع الأمر فى نصابه ، ومن ثمّ لم يكن هناك ما يدعو لأخذ الآراء أو مناقشتها فى أمر خطير يتطلب عملا عاجلا سريعًا .

وفى غمار هذه الأحداث تولى زيد كتابة المصحف دون ابن مسعود مما أثار انفعاله فى عمل يتطلب جهوداً لا ينفرد بها عثمان أو زيد أقول : كنت أميل إلى هذا الاتجاه ، وأميل إلى أن ثورة ابن مسعود انفعالات صدرت ، لأنه كان يود أن يسهم فى هذا العمل الخطير الذى تتوحد به الأمة لولا أنى وقفت على نص آخر يثبت أن عمل عثمان جاء ثمرة لإجماع الصحابة ، وأنه لم ينفرد برأيه فى هذا العمل الخطير ، وبيان ذلك ما رواه مصعب بن سعد قال : « لما كثر اختلاف الناس فى القرآن قالوا : قراءة ابن مسعود ، وقراءة سالم مولى حذيفة ، قال فجمع أصحابَ محمد صلى الله عليه وسلم عثمانُ بن عفان فقال : إنى رأيت أن أكتب مصاحف على حرف زيد بن ثابت ، ثم أبعث بها إلى الأمصار ، قالوا نِعْم ما رأيت »[٢] .

إذن فعثمان رضى الله عنه جمع أصحاب محمد عليه السلام ، واستشارهم فى هذا الأمر ، فقالوا : نِعْم ما رأيت .

ومن هنا لا يصح فى رأيى أن يقف ابن مسعود بعد هذا الاجماع موقف المعارض لأنه من أكابر الصحابة الذين يعرفون للإجماع قدسيته وجلاله .

أكبر الظن أنها رواية مدسوسة نسبت إليه وهو منها برىء أو لعله حينما حرق عثمان مصحفه لم يستطع أن يكتم انفعاله فقال ما قال عن زيد ، ثم أعلن عن شعوره

---

(١) مقدمتان فى علوم القرآن : ص ٢٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ٤٤ ، ٤٥ .

نحو مصحفه الذى امتدت إليه ألسنة اللهب فقال: « لو تملكت كما ملكوا لصنعت بمصحفهم مثل ما صنعوا »[١] وحينما هدأ انفعاله ، وعلم أنها رغبة الخليفة وأولى الأمر سلم بهذا العمل ، ورضى به ، وقد أسعفنى فى الاستدلال على هذا الرأى ما رأيته بعد طول بحث فى كتاب المصاحف حيث وضع مؤلفه عنوانًا جاء فيه: « رضا عبد الله بن مسعود لجمع عثمان رضى الله عنه فى المصاحف » ، فارتاحت نفسى ، لأنى لم أسغ موقف عبد الله بن مسعود من عثمان رضى الله عنه الذى تصوره كتب التاريخ .

وقد جاء تحت هذا العنوان ما نصه: « عن عثمان بن حسان العامرى عن فلفلة الجعفى قال : فزعت فيمن فزع إلى عبد الله فى المصاحف ، فدخلنا عليه ، فقال رجل من القوم : إنا لم نأتك زائرين ، ولكنا جئنا حين راعنا هذا الخبر ، فقال : إن القرآن أنزل على نبيكم من سبعة أبواب على سبعة أحرف أو حروف »[٢] .

أليس فى هذا النص ما يرد كل اتهام يوجه إلى هذا الصحابى الجليل ابن مسعود رضى الله عنه ؟

ومالى أذهب بعيداً ، وهذا علىّ كرم الله وجهه الذى يحاول التاريخ أن يجعله خصمًا لبنى أمية يشيد بعمل عثمان ، ويبين أنه ما فعل ذلك لهوى فى نفسه أو استبداد برأيه فيقول: « يا معشر الناس اتقوا الله عز وجل، وإياكم والغلو فى عثمان وقولكم حراق المصاحف فوالله ما حرقها إلا عن كلامنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم »[٣]

اللغة التى كتب بها القرآن فى هذه المرحلة :

أما اللغة التى كتب بها زيد بن ثابت فى عهد عثمان المصحف فهى لغة قريش لأن القرآن الكريم « نزل بلسان قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أفصح العرب وهو من قريش ، وقريش من ولد إسماعيل ، وولد إسماعيل أفصح من اليمن الذين هم من ولد يعرب بن قحطان »[٤].

---

(١) الطراز : ج ٣ ص ٤٦٠ .
(٢) المصاحف : ص ١٨ .
(٣) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٤٦ .
(٤) الزينة : ج ١ ص ١٤٦ .

وقد قال عثمان رضى الله عنه للرهط القرشيين الثلاثة : « إذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت فى شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم ففعلوا »[١] .

قال الزهرى : « فاختلفوا فى التابوت ، فقال زيد : هو التابوه ، وقال النفر القرشيون هو التابوت فرفع الأمر إلى عثمان فقال : اكتبوه بلسان قريش فإن القرآن نزل بلسانهم »[٢] .

وأما الأمصار التى وجهت إليها هذه المصاحف فلا ينسى « الدانى » أن يبينها فيقول : « أكثر العلماء على أن عثمان بن عفان رضى الله عنه لما كتب المصحف جعله على أربع نسخ ، وبعث إلى كل ناحية من النواحى بواحدة منهن ، فوجه إلى الكوفة إحداهن ، وإلى البصرة أخرى ، وإلى الشام الثالثة ، وأمسك عند نفسه واحدة .

وقد قيل : إنه جعله سبع نسخ ، وقد وجه من ذلك أيضاً نسخة إلى مكة ونسخة إلى اليمن ، ونسخة إلى البحرين والأول أصح وعليه الأئمة »[٣] .

وبذلك توج عثمان رضى الله عنه خلافته بتوثيق نص القرآن الكريم ووحدته الأمر الذى جعل مصحفه هو مصحف المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها إلى يوم الدين ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وقبل الحديث عن النقطة التالية ، وهى رسم المصحف أحب أن أوضح أن المصاحف التى بقيت بعد حرق عثمان لها مصاحف مشكوك فيها ، لأن الأمة أجمعت على مصحف واحد هو المصحف العثمانى ، ويرد محمد بن الهيصم على هؤلاء الذين يدعون أن لأبىّ مصحفاً يخالف مصحف عثمان فيقول : « ليس يعرف لأبىّ مصحف يخالف هذا المصحف إلا ما ينسب إليه بخبر الواحد دون الجمع الذى يلزم اليقين ، وإنما كانت قراءته هذه القراءة التى عليها العامة » .

قال : « وقد ذكر بعض مشايخنا رحمهم الله أنه رأى مصحفاً منسوباً إلى أبىّ خالف ببعض حروفه حروف هذا المصحف ، لكنا لا نأمن أن يكون ذلك من جهة بعض من يحب الافتخار بالغريب ، فإن هذه بلية قد أضرت بالدين ،

---

(١) الإتقان : جـ ١ ص ٥٩ .
(٢) الزينة : جـ ١ ص ١٤٦ .
(٣) المقنع للدانى ص ٩ .

وأخلت بمصالح المسلمين ، وطرقت الملحدين إلى الطعن فى أركان الإسلام ، وسهلت عليهم الشغب فى أمره ؛ وقد نرى من المفتئتين(١) نواب الملوك ، وعبيد أرباب الأموال ، وأبناء الدنيا إذا لم يجدوا للقرآن وعلوم الدين عندهم موقعاً فيتقربون إليهم بغرائب الكتب ، وإذا أعوزهم الغريب الذى يستذرع به أخذوا بعض الكتب المعروفة يزيدون فيها وينقصون ، ويقدمون ويؤخرون ويعنونونه بعنوان بديع ليتسببوا بذلك إلى استخراج شىء منهم .

فعلى هذا النحو لا يؤمن أحدهم أن يَعْمِد إلى مصحف فيقدم منه سوراً ويؤخر أخرى ، ويحرف ألفاظاً ؛ ثم يزعم أنه مصحف علىّ أو مصحف عبد الله أو مصحف أبىّ وليس غرض البائس من ذلك إلا أن يحمله إلى بعض الملوك فيقول : إن خزانة مثلك يجب ألا تخلو من نسخة من كل مصحف ليستخرج من حطامه شيئاً ، ولا يبالى بما كان من جناية على الدين وأهله »(٢) .

٣ — رسم المصحف :

قبل أن أتحدث عن رسم المصحف أحب أن أبين فى إيجاز « موضوع الكتابة العربية » هل كان العرب فى جاهليتهم وصدر الإسلام يجيدون الكتابة ؟ وإذا كانوا كذلك ، فهل كانت الكتابة أمراً شائعاً بينهم ؟ وهل وصلوا فيها إلى درجة الإتقان ؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة أقرر أن الكتابة العربية كانت معهودة أيام الجاهلية بمكة .

جاء فى مجلة المشرق ما نصه : « من الفصول المفيدة التى اطلعنا عليها فى أحد الكتب المخطوطة العزيزة التى لقيناها فى مدينة " ستراسبورغ " فصل نقلناه من الجزء الثانى من كتاب " الخبر عن البشر " تأليف الإمام المقريزى جمع فيه الكاتب فوائد عن حال الكتابة عند العرب فى أول الإسلام ، وقد جاء فيه :

" إن الكتابة كانت أيام الجاهلية بمكة ، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة كان أول من علم بها الكتابة من المسلمين عبد الله بن سعيد

---

(١) فى القاموس : افتأت على الباطل اختلقه ، وبرأيه استبد .

(٢) مقدمتان فى علوم القرآن : ص ٤٧ ، ٤٨ .

ابن أمية ، أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلم الكتابة بالمدينة، وكان كاتباً محسناً . . . ثم كان ممن أسر ببدر ، ولا مال له فقبل منه أن يعلم عشرة من غلمان الأنصار الكتابة ، ويخلى لسبيله ، فيومئذ تعلم الكتابة زيد بن ثابت فى جماعة من غلمان الأنصار" .

ثم قال المقريزى : وكان أول الخطوط العربية الخط المكى ، وبعده الخط المدنى ، ثم الخط البصرى ، ثم الخط الكوفى »[١] .

فالكتابة إذاً كانت معروفة فى الجاهلية ، ولما جاء الإسلام زاد انتشارها ، وبخاصة فى المدينة بعد موقعة غزوة بدر حيث عرض على الأسرى الكاتبين إطلاق سراحهم إذا علّم كل منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة .

ويرى الدكتور « منصور فهمى » أن المدينة تقدمت على مكة فى الكتابة ، وأنها أسبق منها فى هذا المجال يقول: « أما المدينة فجاء فى السِّيَر ما يفيد أن النبى عليه السلام حين دخلها مهاجراً ، وجد فيها يهودياً يعلم الصبيان ، وكان فيها جماعة من الرجال يكتبون ، منهم سعيد بن زرارة ، والمنذر بن عمرو ، وأُبىّ ابن كعب ، وزيد بن ثابت وغيرهم ، ومن هذا يبدو أن المدينة تقدمت على مكة فى الكتابة »[٢] .

والذى أميل إليه أن مكة هى التى تقدمت على المدينة فى الكتابة لأسباب أجملها فيما يأتى :

١ ــ مكة كانت حلقة اتصال بين أجزاء الجزيرة العربية وغيرها من البلاد المجاورة وبهذا الموقع كانت تفيد من معارف القادمين عليها .

٢ ــ أهل مكة كانت رحلاتهم الصيفية إلى اليمن ، والشتائية إلى الشام لا تنقطع ، واليمن مهد الحضارة العربية فى الجزيرة ، والشام موطن الفينقيين الذين « حولوا كتابة المصريين التى قامت على أساس الأشكال والصور إلى حروف هجائية سميت بالخط الآرامى »[٣] .

---

(١) مجلة المشرق السنة العاشرة : ص ٤٧٨ .

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق المجلد : ٣٢ جـ ١ ص ١٠٨ .

(٣) المرجع السابق ص : ١٠٥ .

٣ — فى مكة كانت تقام الأسواق التى يؤمها العرب من كل ناحية والتجارة فى غالب أحوالها تقوم على الكتابة .

٤ — لو كانت المدينة تنتشر بها الكتابة حينما دخلها النبى عليه السلام لم تكن هناك حاجة إلى فداء الأسرى الكاتبين بتعليم كل فرد منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة ، لأن الإسلام فى هذا الوقت كان فى حاجة إلى المال الذى يقوى الشوكة ، ويعوّض المهاجرين الذين تركوا أموالهم وأرضهم فى مكة .

أقول : إن الرسول عليه السلام رأى أن المدينة ستكون قاعدة الإسلام التى يزحف منها على أرجاء المعمورة ، فأراد أن يحمى هذا القرآن ويصونه فجعل نشر الكتابة أهم فداء يخدم الفكرة الإسلامية التى تحيا بين دفتى القرآن الكريم .

ما المراد بالرسم؟ :

يقصد بالرسم رسم الحروف الهجائية التى تدل على الكلام (أو هو بلغة أهل الفن : قدرة موصولة بحركات القلم بين الأنامل وفقاً لمذاهب أو لقواعد)[١] .

ومن المعروف أن رسم الكلمات فى القرآن كان غاية ما وصل إليه فن الرسم الإملائى فى هذا العهد ، وسجل القرآن الكريم بهذا الرسم ، وأطلق عليه الرسم العثمانى ، ولا زال هذا الرسم سنة متبعة فى مصاحفنا لا تخضع للتغيير أو التبديل .

ومن ثم قال السيوطى : « قال أشهب : سئل مالك هل يكتب المصحف على ما أحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال : لا : إلا على الكتبة الأولى »[٢] .

ومعنى ذلك أن رسم القرآن الذى كتب به زيد بن ثابت فى عهد عثمان المصحف الإمام توقيفى « فقد نسبوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لمعاوية أحد كتبة الوحى : ألق الدواة ، وحرف القلم . . . ولا تعور الميم ، وحسن الله ، ومد الرحمن ، وجود الرحيم ، وضع قلمك على أذنك اليسرى ، فإنه أذكر لك »[٣] .

والحق الذى يقال فى هذا المجال : إن الاعتراف بأن رسم المصحف توقيفى اعتماداً على هذا النص أمر يحتاج إلى بحث .

---

(١) مجلة المجمع العربى بدمشق المجلد ٢٢ جـ ١ ص ١٠٦ .

(٢) الإتقان جـ ٢ ص ١٦٧ .

(٣) مباحث فى علوم القرآن : ص ١٠٥ .

ولو صح هذا الحديث فإنه لايدل على أن الرسم توقيفى . فما الصلة بين الرسم وبين تحريف القلم ، أو مد الرحمن ، وتجويد الرحيم ؟

أغلب الظن أن النبى عليه السلام أراد من الكاتب التأنى فى الكتابه ليحسن رسمه ، وتجود حروفه ، وتحسين الرسم غير الرسم ، ومن ثم قال : لا تعور الميم وجود الرحيم إلخ .

ولا أدل على ذلك من أن عثمان رضى الله عنه حينما كتب المصحف وضع للثلاثة القرشيين القاعدة العامة التى على أساسها يكتبون: « إذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت فى شيء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم »[1] .

من هذا يتبين أن الرسم الذى سار عليه عثمان ، أو بمعنى آخر سار عليه الكتبة فى المصحف العثمانى اصطلاحى يسير على قواعد الكتابة التى كانوا بها يكتبون .

ولما اتخذ المصحف هذا الرسم شعاراً له أصبح وقفاً عليه وسنّة متبعة لا تخالف ، ولذلك حكمه ، فإن رسوم الهجاء تتغير جرياً على سنة التطور ، وتختلف فى تغيرها من زمن إلى زمن ، بل من شعب إلى شعب . فصيانة لكتاب الله من عبث العابثين ، وإغلاقاً لباب التغيير فيه ، وإحداث ما ليس منه أصبح هذا الرسم العثمانى مقدساً لا يمس .

ولذلك قال الإمام أحمد : «يحرم مخالفة خط مصحف عثمان فى واو أو ياء أو ألف أو غير ذلك »[2] .

وقال البيهقى فى شعب الإيمان : « من كتب مصحفاً فينبغى أن يحافظ على الهجاء الذى كتبوا به المصاحف ، ولا يخالفهم فيه ولا يغير مما كتبوا شيئاً فإنهم كانوا أكثر علماً ، وأصدق قلباً ولساناً ، وأعظم أمانة منا ، فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدراكاً عليهم »[3] .

والتزام الرسم العثمانى ، ومخالفته فى كثير من الأحيان للرسم الإملائى المستحدث يبرز لنا مشكلة فحواها أن التزام الرسم العثمانى يحول بين المتعلمين وبين حفظ

---

(١) الاتقان: ج ١ ص ٥٩ .

(٢) مفتاح السعادة : ج ٢ ص ٢٢٥ .

(٣) مفتاح السعادة : ج ٢ ص ٢٢٥ .

القرآن الكريم لأن رسمه يخالف الرسم الذى تعودوا ، والقواعد الإملائية التى يكتبون بها فى شتى مجالات المعرفة .

ولكن هذه المشكلة لم يقف أمامها علماء الإسلام مكتوفى الأيدى فقد ذللوا صعوبة الرسم العثمانى ، بل جعلوه فنًّا يدرس وتؤلف فيه الكتب التى تبين مسالكه وتوضح طرقه .

فصاحب « مفتاح السعادة » يبين فى كتابه حدود هذا العلم ، وموضوعه وغايته فيقول : « موضوعه : رسم خط المصحف من الحذف والزيادة والهمز ، والبدل ، والفصل والوصل ، وما فيه قراءتان فكتب على أحدهما »[١] .

وغايته : « حفظ المصاحف الكريمة عن مخالفة المصحف الإمام » [٢] .

ولم ينس أن يبين لنا الكتب التى صنفت فى هذا العلم فيقول : « وصنف فى هذا الفن أبو عمرو الدانى (المقنع) ، وأبو العباس المراكشى (عنوان الدليل فى مرسوم خط التنزيل) . والقصيدة الرائية الموسومة (بالعقيلة) للشيخ الشاطبى »[٣] .

صور من اختلاف الرسم العثمانى عن الرسم الإملائى :

ذكر ابن قتيبة فى كتابه « تأويل مشكل القرآن » أن الرسم العثمانى اختلف عن الرسم الإملائى فى عدة صور ؛ فألف التثنية تحذف فى هجاء هذا المصحف فى كل مكان مثل : « قال رجلن » .

وكتب كتّاب المصاحف : الصلوة ، والزكوة ، والحيوة بالواو ، ونحن لا نكتب : الصلاة ، والقناة إلا بالألف ، ولا فرق بين تلك الحروف وبين هذه .

وكتبوا : الربو بالواو ، وكتبوا : « فمال[٤] الذين كفروا » بلام منفردة وكتبوا : «أولا أذبحنه» بزيادة ألف ، وكذلك « ولاأوضعوا خلالكم» بزيادة ألف بعد لام الألف .

ثم قال ابن قتيبة : «وهذا أكثر فى المصحف من أن نستقصيه »[٥] .

على أن الرسم العثمانى لم يسر على قواعد مطردة ، فكثير من الكلمات القرآنية

---

(١) مفتاح السعادة : جـ ٢ ص ٢٢٩ .
(٢) نفس المرجع والصفحة .
(٣) نفس المرجع والصفحة .
(٤) المعارج : ٣٦ .
(٥) تأويل مشكل القرآن : ص ٤١ .

رسمت فى موضع برسم خاص ، وفى موضع آخر برسم مخالف وذلك ككلمة : « لدا » فعن خلف قال : سمعت الكسائى يقول : (لدا الباب)[١] كتبت فى « يوسف » بألف .

قال أبو عمرو : « واتفقت المصاحف على ذلك ، واختلفت فى (لدى الحناجر)[٢] فى (المؤمن) فرسم فى بعضها بالياء ، وفى بعضها بالألف وأكثرها على الياء »[٣] .

وحاول المفسرون وضع حل لهذا الإشكال فقالوا : « معنى الذى فى يوسف "عند" والذى فى غافر "فى" فلذلك فرق بينهما فى الكتابة »[٤] .

وأدلى النحويون برأيهم فى هذا الإشكال فقالوا : « المرسوم بالألف على اللفظ والمرسوم بالياء لانقلاب الألف ياء مع الإضافة إلى المكنّى ، كما رسم علىٰ وإلىٰ كذلك »[٥] .

ومن صور الاختلاف أيضاً فى الرسم العثمانى نفسه ، وعدم جريه على قواعد مطردة كتابة «عما» متصلة ، ثم كتابتها منفصلة .

قال أبو عمرو : «كل ما فى كتاب الله عز وجل من ذكر « عما » فهو بغير نون إلا حرفاً واحداً فى الأعراف قوله : (عن ما نهوا عنه)[٦] فإنه بالنون . ثم قال الدانى : حدثنا محمد بن على ، قال : حدثنا ابن الأنبارى ، قال : « (عن ما نهوا عنه) حرفان لم يقطع فى كتاب الله عز وجل غيرهما »[٧] .

وذكر صاحب « الاقتضاب » فى (باب « ما » إذا اتصلت وقد كتبت فى المصحف وهى اسم مقطوعة وموصولة) كتبوا : (إن ماتوعدون لآت)[٨] مقطوعة ، وكتبوا : (إنما صنعوا كيد ساحر)[٩] موصولة وكلاهما بمعنى الاسم »[١٠]

---

(١) يوسف : آية ٢٥ .
(٢) غافر : آية ١٨ .
(٣) المقنع ص ٦٥ .
(٤) المقنع ص ٦٥ .
(٥) نفس المصدر والصفحة .
(٦) الأعراف : ١٦٦ .
(٧) المقنع ص : ٦٩ .
(٨) الأنعام : آية ١٣٤ .
(٩) سورة طه : ٦٩ .
(١٠) الاقتضاب : جـ ١ ص ١٦٣ .

ولم يفت السيوطى فى « الإتقان » أن يتحدث عن قواعد الرسم الكتابى للمصحف العثمانى ، ويرجعها إلى ست قواعد[1] غير أنه يذكر أن هناك كلمات لم تخضع لهذه القواعد الست فيقول ما نصه : (« فرع » فى الحذف الذى لم يدخل تحت القاعدة حذف الألف ، «ذرية ضعافًا» «مراغمًا» «خادعهم» إلخ ما نص عليه فى «الإتقان»[2]) على أية حال كانت إن الرسم العثمانى له نهجه الخاص ، وطريقته المنفردة وسواء أكان خاضعًا لقواعد معينة أم خارجًا عنها فى بعض المواضع فهو سنة متبعة ، وبذلك وضع الأمر فى نصابه فكل محاولة تجديدية للخروج بهذا الرسم عن تقليده المعروف محاولة مردودة .

وقد بين الزمخشرى هذا المعنى إذ يقول فى قوله تعالى : (وقالوا مال هذا الرسول)[3] « وقعت اللام فى المصحف مفصولة عن "هذا" خارجة عن أوضاع الخط العربى ، وخط المصحف سنة لا تغير »[4] .

ولم يفته أيضًا أن يبين فى موضع آخر لِمَ خالف الرسم العثمانى الخط المألوف فيقول : « فإن قلت : كيف خط فى المصحف (ولا أوضعوا خلالكم)[5] بزيادة ألف ، قلت : كانت الفتحة تكتب ألفًا قبل الخط العربى ، والخط العربى اخترع قريبًا من نزول القرآن وقد بقى من ذلك الألف أثر فى الطباع ، فكتبوا صورة الهمزة ألفًا ، وفتحتها ألفًا أخرى ، ونحو : (أولا أذبحنه) »[6] .

وقبل أن ننهى الحديث فى هذا الموضوع أرى أن أسجل نص الفتوى التى أصدرتها لجنة الفتوى بالأزهر بشأن صدد اقتراح كتابة القرآن على قواعد الرسم المعتاد المتبع الآن ، جاء فى هذه الفتوى ما نصه :

« ترى لجنة الفتوى رفض هذا الرسم ، والوقوف عند المأثور من كتابة المصحف وهجائه ، وذلك لأن القرآن الكريم كتب وقت نزوله على النبى صلى الله عليه وسلم ، ومضى عهده صلى الله عليه وسلم ، والقرآن على هذه الكتْبة ولم يحدث

---

(١) الاتقان : جـ ٢ ص ٦٧ .
(٢) نفس المصدر : ص ٦٧ ، ص ١٦٨
(٣) الفرقان : آية ٧ .
(٤) الكشاف للزمخشرى جـ ٣ ص ٢٠٩ .
(٥) التوبة : ٤٧ .
(٦) الكشاف : جـ ٢ ص ٢١٧ .

فيه تغيير ولا تبديل ، وقد كتبت به مصاحف عثمان ، ووزعت على الأمصار لتكون إماماً للمسلمين ، وأقرّ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عمل عثمان رضى الله عنه ، ولم يخالفه أحد فيما فعل ، واستمر المصحف مكتوباً بهذا الرسم فى عهد بقية الصحابة والتابعين ، وتابعى التابعين والأئمة المجتهدين فى عصورهم المختلفة ، ولم ينقل عن أحد من هؤلاء جميعاً أنه رأى تغيير هجاء المصحف عما رسم به أولا إلى تلك القواعد التى حدثت فى عهد ازدهار التأليف والتدوين فى البصرة والكوفة ، بل ظل مصطلح القرآن قائماً مستقلا بنفسه ، بعيداً عن التأثير بتلك القواعد .

أما ما يراه « أبو بكر الباقلانى » من أن الرسم العثمانى لا يلزم أن يتبع فى كتابة المصحف فهو رأى ضعيف ، لأن الأئمة فى جميع العصور المختلفة درجوا فى التزامه فى كتابة المصحف ، ولأن سد ذرائع الفساد . — مهما كانت بعيدة — أصل من أصول الشريعة الإسلامية التى تبنى الأحكام عليها ، وما كان موقف الأئمة من الرسم العثمانى إلا بدافع هذا الأصل العظيم ، مبالغة فى حفظ القرآن وصونه »[1] .

الرسم والقراءة :

وإذا كان رسم المصحف العثمانى لا يخالف ، ولا يصح الخروج عن رسمه فهل هذا يعنى أن هذا الرسم تلزمنا القراءة به وأنه صورة للكلمات القرآنية المنطوقة ، وأنه بهذا الاعتبار يحدد طريقة القراءة أو الأداء كما يحدد طريقة الرسم أو الكتابة ؟

الحق الذى لا مرية فيه أن الرسم غير القراءة ، لأن القراءة مصدرها الرواية ، والرسم مصدره طريقة الكتابة المعروفة إذ ذاك وبناء على هذا أننا نقرأ الآية ، وننطق بكلماتها كما رويت لا كما رسمت ،ولو سرنا فى طريق الرسم وحده لخرجنا بالقرآن عن حقيقته التى نزل بها ، وترتب على ذلك أننا نقرأ كلمات من القرآن بطريقة لم ترو عن النبى عليه السلام .

---

(١) مجلة الأزهر ، المجلد ٧ ص ٧٣١ .

من أجل ذلك يصح لنا أن نقرر أن القراءة هى الأصل ، والرسم تابع لها وقد تختلف القراءة عن الرسم فى بعض المواطن « فيتعذر اتباع الرسم كما إذا كان قبل الألف التى هى صورة الهمزة ساكن نحو السُّوأى [1] فإنه لا تجوز القراءة به لمخالفته اللغة ، وعدم صحته نقلا »[2] .

وقد حاول المستشرق « جولد تسيهر » أن يرجع نشأة الكثرة من القراءات المختلفة إلى رسم المصحف ، ونوجز رأيه هنا على أن نرجع إليه بالتفصيل عند الحديث عن رسم المصحف وأثره فى الدراسات النحوية .

يقول ذلك المستشرق : « وترجع نشأة قسم كبير من هذه الاختلافات — يقصد الاختلاف فى القراءات — إلى خصوصية الخط العربى الذى يقدم هيكله المرسوم مقادير صوتية مختلفة تبعًا لاختلاف النقاط الموضوعة فوق هذا الهيكل أو تحته ، وعدد تلك النقاط . . . إلى أن يقول : وإذًا فاختلاف تحلية هيكل الرسم بالنقط واختلاف الحركات . . . كانا هما السبب الأول فى نشأة حركة اختلاف القراءات فى نص لم يكن منقوطًا ، أصلا أو لم تتحر الدقة فى نقطة أو تحريكة »[3]

وقد جانب الصواب المستشرق حينما عرض هذه المغالطة التى تتجافى عن الواقع وعن التاريخ .

أما مجافاتها للواقع ، فإنه لو كانت القراءات ترجع إلى ما ذهب إليه لراعتنا هذه الكثرة الهائلة من القراءات التى يحتملها الرسم ، والتى لم تثبت أو لم ترو عن النبى صلى الله عليه وسلم .

ذلك لأن الرسم تحتمل الكلمة فيه ، وبخاصة إذا لم تكن منقوطة أو مجردة من الحركات وجوهًا عدة من القراءات .

والقراءات التى بين أيدينا ، والتى صنفها العلماء ، ودققوا فى عرضها وتثبتوا من سندها قراءات معروفة محدودة ، وكلها ترجع إلى الرواية والنقل ، لا إلى الكتابة والرسم .

وأما مجافاتها للتاريخ ، فإن عثمان رضى الله عنه جرّد المصحف من النقط

---

(١) الروم : ١٠ .
(٢) شرح الشاطبية ص ٧٦ .
(٣) التفسير مذاهب الإسلامى ص ٨ — ٩ .

ليحتمل رسمه القراءات المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لا يحدده في قراءة بعينها ، أو حرف بعينه ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اتفقوا على صنيع عثمان فى المصحف ، وعلى رسمه . وبذلك كانت هذه القراءات العديدة لا ترجع إلى الرسم ، وإنما مرجعها الأول والأخير إلى السند والرواية .

والذى يدل على بطلان ما ذهب إليه ذلك المستشرق أنه لو كان ما ذهب إليه صحيحاً لصحت قراءة حماد الراوية (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها أباه)[١] بالباء الموحدة «وهذه قراءة منكرة بالاتفاق فليست من السبع ولا الأربع عشرة ، ولو كان مجرد الخط كافياً لاعتُمدت»[٢] .

ولو صح ما ذهب إليه المستشرق لصحت القراءة التى نسبت إلى حمزة الزيات من أعدائه (ذلك الكتاب لا زيت فيه)[٣] و[٤] .

والدليل الواضح الذى يهدم رأى المستشرق هو محاكمة ابن شنبوذ الذى ثار عليه العلماء من أجل رأيه الذى يقول فيه : «ما وافق خط المصحف العثمانى صحت القراءة به متى صح وجهه فى العربية بقطع النظر عن الرواية»[٥] .

هذا وقد رجع ابن شنبوذ عن رأيه لما أُدِّبَ وعذب واستتيب[٦] .

الرسم واللحن :

بين يدى روايات عدة تفيد أن الرسم العثمانى قد وقعت فيه أخطاء جعلت أعداء القرآن يتهمونه باللحن والخطأ.

من هذه الروايات «ما رواه أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه . قال : سألت عائشة رضى الله عنها عن لحن القرآن عن قوله : (إن هذان لساحران)[٧] ، وعن قوله : (والمقيمين الصلاة، والمؤتون الزكاة)[٨] . وعن قوله : (إن الذين آمنوا ،

---

(١) التوبة : ١١٤ .
(٢) هامش مذاهب التفسير الإسلامى ص ٩ .
(٣) البقرة : ٢ .
(٤) التصحيف للعسكرى ص ٩ .
(٥) هامش مذاهب التفسير الإسلامى ص ٨ .
(٦) هامش مذاهب التفسير الإسلامى ص ٨ .
(٧) طه : ٦٣ .
(٨) النساء : ١٦٢ .

والذين هادوا والصابئون)[١]، فقالت : يا بن أخي هذا عمل الكتّاب أخطئوا في الكتاب»[٢] .

ورواية أخرى عن عكرمة قال : «لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان رضي الله عنه فوجد فيها حروفاً من اللحن ، فقال : لا تغيروها فإن العرب ستغيرها أو قال ستعربها بألسنتها . لو كان الكاتب من ثقيف والمملي من هذيل لم يوجد فيه هذه »[٣] .

ورواية ثالثة : « عن ابن الأنباري عن سعيد بن جبير أنه كان يقرأ :(والمقيمين الصلاة)[٤] ، ويقول : هو لحن من الكاتب »[٥] .

هذه الروايات راعت السيوطي ، وكانت في نظره من الروايات المشكلة العصية حتى إنه يلمس من كلامه الإنكار عليها ، وعدم الإيمان بها انظر إليه يقول : « وهذه الآثار مشكلة جداً ، وكيف يظن بالصحابة أنهم يلحنون في الكلام ، فضلا عن القرآن : وهم الفصحاء اللد ، وكيف يظن بهم ذلك ثانياً في القرآن الذي تلقوه عن النبي صلى الله عليه وسلم كما أنزل ، وحفظوه ، وضبطوه وأتقنوه .

ثم كيف يظن بهم ثالثاً : اجتماعهم كلهم على الخطأ وكتابته .

ثم كيف يظن بهم رابعاً عدم تنبههم ورجوعهم عنه .

ثم كيف يظن أن القراءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ وهو مروي بالتواتر خلفاً عن سلف »[٦] .

ولم يكتف السيوطي بالإشارة إلى إنكار هذه الروايات ، لأن المقام مقام دفاع عن القرآن ، وهذه الروايات تفتح الطريق إلى النيل منه ، أقول : لم يكتف السيوطي بذلك بل أنكرها في صراحة ووضوح حيث قال : « وهذه الأمور مستحيلة عقلا وشرعاً ، وعادة »[٧] .

---

(١) المائدة : ٥ .
(٢) مفتاح السعادة جـ ٢ ص ٢٧٧ .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) النساء : ١٦٢ .
(٥) نفس المصدر ص ٢٧٨ .
(٦) « « ص : ٢٧٨ . جـ ٢ .
(٧) « « جـ ٢ ص ٢٧٨ .

ويعرض صاحب مفتاح السعادة حلولا عدة لهذه المشكلات ألخصها فيما يلي :

١ ـ ضعف السند فى حديث عثمان من ناحية ، وعدم التصديق من وجهة المنطق والفكر أن عثمان رضى الله عنه يترك للناس إماماً يقتدون به ، ثم يترك فيه لحناً لتقيمة العرب بألسنتها من ناحية أخرى .

٢ ـ قد يكون ما ذكره عثمان رضى الله عنه محمولا على الرمز والإشارة ومواضع الحذف نحو « الكتب » بلا ألف ، « الصبرين» فى الصابرين بلا ألف ، وما أشبه ذلك .

٣ ـ وقد يكون محمولا على مخالفة رسم الخط ، لأن خط المصحف خالف رسم الخط فى كثير من المواضع .

٤ ـ وأجابوا عن حديث عائشة فقالوا : إنه ليس فى إسناده ضعف لأن إسناده صحيح غير أنهم قالوا : إن المراد بالخطأ الخطأ فى اختيار الأولى من الأحرف السبعة لجمع الناس عليه .

٥ ـ وأجابوا عن حديث سعيد بن جبير أن المراد باللحن القراءة واللغة أى أنها لغة الذى كتبها وقراءته ، وفيها قراءة أخرى[1] .

رأى ومناقشة :

وفى رأيى أن الحديث الذى روى عن عثمان رضى الله عنه ، والإجابة عن إشكاله فيه نظر ، ذلك لأنه لو سلمنا بصحة هذا الحديث لما كان هناك إشكال يستلزم هذه الإجابات المتعددة التى لا تقنع ، وأيضاً لا تلزم ، فإن رسم المصحف فى نظرى لم يختلف عن رسم الخط المعهود فى زمنهم ، لأنهم كانوا هكذا يكتبون .

وأما التحسينات الإملائية ، فإنها جاءت بعد ذلك ، إذاً ، فالإجابة التى تقول : إن الرسم القرآنى خالف رسم الخط فى كثير من المواضع إجابة لا تستند إلى دليل .

وكذلك الإجابة التى تقول : إن عثمان رضى الله عنه رأى فى المصحف شيئاً كتب على غير لسان قريش كالتابوه والتابوت فوعد أنه سيقيمه على لسان قريش

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٧٨ — ٢٧٩ بتصرف .

فإنها لا تقوم على سند أيضًا ، فإن القرآن الكريم — كما سأقرره فيما بعد — يحتوى على الكثير من لغات العرب العديدة غير اللغة القرشية .

وأما إضعاف سند هذا الحديث ، فإنه اشتهر عن عثمان فى أكثر من رواية مما يدل على أن أصله قد يكون صحيحًا[١] .

وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف نخرج من هذا الإشكال ؟ أقول : إن عثمان حينما قال ما روى عنه فى الحديث السابق يريد أن يقرر الحقيقة التى قدمتها سابقًا ، وهى أن القراءة غير الرسم ، وأن القراءة مرجعها الرواية والنقل ، وأن الرسم قد يختلف مع القراءة ، فالعبرة حينئذ بالقراءة ، لا بالرسم .

ومن هنا ، أطلق عثمان عليها لحنًا حينما رأى أن هذه الحروف تختلف عن القراءة ، ولم يهتم بها ثقة منه أن العرب حينما يقرءون لا يقرءون بالرسم ، وإنما يقرءون بالرواية والنقل .

ولا أدل على ذلك من قوله : « لو كان المملى من هذيل ، والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا »[٢] .

ذلك لأن النفر الثلاثة الذين أملوا القرآن على زيد بن ثابت قرشيون ، والقراءات التى رويت عن النبى عليه السلام لم تكن وقفًا على لغة قريش ، ولهذا كانت هناك قراءات غير قرشية فإذا ما كتبت بلغة قريش أدى ذلك إلى مخالفة الرسم للقراءة .

من أجل هذا ترك عثمان رضى الله عنه المصحف على رسمه تاركًا العرب يقرءون بما رووا .

ويوضح هذا الاتجاه الذى ذهبت إليه ما روى من أن عاصما الجحدرى « كان يكتب الأحرف الثلاثة (إن هذان لساحران)[٣] . . إلخ على مثالها فى الإمام ، فإذا قرأها قرأ : إن هذين لساحران ، وقرأ : (والمقيمون الصلاة)[٤] وقرأ : (إن الذين آمنوا ، والذين هادوا والصابئين)[٥] ، وكان يقرأ أيضًا فى

---

(١) انظر المصاحف : ص ٣٢ — ٣٣ .
(٢) مفتاح السعادة : جـ ٢ ص : ٢٧٧ .
(٣) سورة طه : آية ٦٣ .
(٤) سورة النساء : آية ١٦٢ .
(٥) سورة المائدة : آية ٥ .

سورة البقرة : (والصابرون في البأساء والضراء)[١] . ويكتبها : والصابرين ، وإنما فرق بين القراءة والكتابة لقول عثمان رضى الله عنه : أرى فيه لحناً ، وستقيمه العرب بألسنتها ، فأقامه بلسانه ، وترك الرسم على حاله »[٢] .

هذا ويرى صاحب « مباحث في علوم القرآن » أن الملاحن التى يريدها عثمان رضى الله عنه « تتعلق بطريقة الرسم التى لابد أن ينالها التغيير على اختلاف البيئات والعصور .

أما النص القرآنى نفسه ، فلا يتغير فيه شىء لأنه مجموع فى صدور العلماء ، أخذه بعضهم عن بعض بالتلقى والمشافهة وطرق التواتر اليقينى »[٣] .

وفى حديث سعيد بن جبير تأكيد لما ذهبت إليه من أن المراد باللحن القراءة واللغة أى أنها لغة الذى كتبها وقراءته ، وفيها قراءة أخرى .

وبقى من هذه الروايات المشكلة حديث عائشة .

وأقول فى إشكال حديثها : لعل عائشة رضى الله عنها لم تكتب مصحفها على العرضة الأخيرة — وعائشة كان لها مصحف كما سبق بيانه . فلما رأت هذه الآية مختلفة عما فى مصحفها نسبت الخطأ إلى الكاتب .

دليلى فى هذا ما ذكره ابن أبى داود ، قال : « أخبرنا هشام عن زيد عن أبى يونس مولى عائشة قال : كتبت لعائشة مصحفاً فقالت : إذا مررت بآية الصلاة فلا تكتبها حتى أمليها عليك قال : فأملتها على : (حافظوا على الصلوات ، والصلاة الوسطى)[٤] وصلاة العصر »[٥] .

وفى رواية أخرى « عن القعقاع بن حكيم عن أبى يونس مولى عائشة أم المؤمنين أنه قال : أمرتنى عائشة رضى الله عنها أن أكتب لها مصحفاً ، ثم قالت : إذا بلغت هذه الآية : (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) ، فآذنى ، فلما بلغتها آذنتها فأملت على « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، وصلاة

---

(١) سورة البقرة : آية ١٧٧ .
(٢) تأويل مشكل القرآن : ص ٣٦ — ٣٧ .
(٣) مباحث فى علوم القرآن : ص ١١٤ .
(٤) سورة البقرة : آية ٢٣٨ .
(٥) المصاحف : ص ٨٤ .

العصر ، وقوموا لله قانتين » ثم قالت : سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] .

ولعل مصحف عائشة ظل هكذا لم يتناوله التغيير الذى قام به زيد فى كتابة المصاحف على العرضة الأخيرة .

يدل على ذلك ما رواه « ابن أبى حميد قال أخبرتنى حميدة قالت : أوصت لنا عائشة رضى الله عنها بمتاعها فكان فى مصحفها : (إن الله وملائكته يصلون على النبى)[٢] ، والذين يصلون الصفوف الأولى »[٣] .

المصحف العثمانى والقراءات :

وهنا يرد على أذهاننا هذا السؤال : هل المصاحف العثمانية مشتملة على الأحرف السبعة ؟

ويجيب ابن الجزرى عن هذا السؤال فيقول : « وأما كون المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة فإن هذه مسألة اختلف العلماء فيها : فذهب جماعات من الفقهاء والقراء والمتكلمين إلى أن المصاحف العثمانية مشتملة على جميع الأحرف السبعة . . . وذهب جماهير العلماء من السلف والخلف ، وأئمة المسلمين إلى أن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحملها رسمها من الأحرف السبعة فقط ، جامعة للعرضة الأخيرة التى عرضها النبى صلى الله عليه وسلم على جبريل عليه السلام ، متضمنة لها ، لم تترك حرفاً منها »[٤] .

والذى أراه فى هذا المقام أن عثمان رضى الله عنه حينما أمر زيداً بكتابة المصحف فإنما اختار حرفه لأنه كان شاهداً للعرضة الأخيرة ، وغض النظر عن الحروف الأخرى كحرف أبى ، وابن مسعود « ولا شك أن الحرف الواحد كلما كان أكثر استفاضة كان أحق بالقبول ، فلأجل ذلك اتفقوا على حرف زيد »[٥] .

والقراءات السبع التى جمعها الثقات تتمثل فى الرسم العثمانى . يقول صاحب الطراز : « فصار الذى فى أيدى القراء السبعة فى زماننا هذا هو حرف واحد وهو

---

(١) المصاحف : ص ٨٤ .
(٢) سورة الأحزاب : آية ٥٦ .
(٣) المصاحف : ص ٨٥ .
(٤) النشر فى القراءات العشر ج ١ ص ٣١ بتصرف .
(٥) الطراز ج ٣ ص ٤٦١ .

المتواتر ، وما عداه فإنه باقى الأحرف السبعة التى نزل القرآن بها ، وهى الشاذة المنقولة بالآحاد»[١] .

وإلى هنا نكتفى بهذا القدر فى الأحرف السبعة ورسم المصحف .

تحسين الرسم العثمانى :

ظل الرسم العثمانى محتفظاً بجوهره ، لم تعبث به يد التغيير إلى يومنا هذا ، وإلى أن يرث الله الأرض ، ومن عليها ، غير أن هنالك بعض تحسينات أدخلت على الرسم من غير أن تمس كيانه ، فالهمزة مثلا اتخذ كتاب المصاحف فيها طرقاً متعددة، ورسموها كالرقم (٧) سبعة فى مثل : يستهزىٔون، واستمر هذان إلى أن جاء الخليل بن أحمد ، وهو رجل العرب والعربية فأصلح الخطأ ، وكان مما ابتدعه رسم الهمزة قطعة ، وقد كان من أسلوبه فى التفكير أن يرجع بالأشياء إلى طبائعها . فلما رتب حروف الهجاء رتبها على مخارجها ، لا على ما ألف الناس من ترتيب لا يعرف أصله . . . ذاق الهمزة فوجدها أقرب صوت إلى العين ، ووجد من الناس من يبالغ فى تحقيقها ، فينطقها عيناً ، فاقتطع من العين رأسها ، وجعلها رسماً للهمزة ، وكتبها قطعة ، وشاع رسم الهمزة كما شاع اسمها أيضاً .

وأبى الناس أن يدخلوا رسم الخليل على المصحف زمناً ورأوه بدعة ، على أنه لم يلبث أن شاع ، وكتبه كتبة المصاحف ، ولكن الهمزة أثبتت مع بقاء الكتابة الأولى فكتبت يستهزئون بياء وهمزة معاً ، ويؤمنون بواو وهمزة أيضاً ليقرأ بالهمزة من حققها ، وبالياء والواو من سهلها ، وكان هذا أصل الازدواج فى كتابة الهمزة »[٢] .

ويذكر ابن أبى داود أن عبيد الله بن زياد « زاد فى المصاحف ألفى حرف »[٣]

---

(١) المرجع السابق: ص ٤٦٣ .

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق : مجلد ٣٢ جـ ١ ص ٢٠ ، من مقال المرحوم الأستاذ إبراهيم مصطفى « اقتراح بشأن كتابة الهمزة » .

(٣) المصاحف: ص ١١٧ .

يقصد إضافة الألف إلى كل كلمة حذفت منها ، قال ابن أبى داود : « وكان الذى زاده عبيد الله فى المصحف كان مكانه فى المصحف « قالو » قاف ، لام ، واو ، وكانو ، كاف ، نون ، واو ، فجعلها عبد الله. قالوا ، قاف ، ألف ، لام ، واو ، ألف ، وجعل كانوا « كاف ، ألف ، نون ، واو ، ألف »[1].

ومن الممكن للباحث أن يتقبل زيادة هذه الألف ، لأنها إلى التحسين أقرب منها إلى التغيير ، فـ (قالوا) ، و (كانوا) لا أثر لزيادة الألف فى نطقها ، فالرسم العثمانى مع هذه الزيادة لم تتغير معالمه .

على أن « الدانى » يبين لنا فى كتابه « المقنع » أن حذف الألف بعد واو الجمع لم تكن ظاهرة شائعة فى الرسم العثمانى ، وإنما حذفت هذه الألف فى مواضع معدودة ، وتركت فى كثير من المواضع يقول : « واتفقت المصاحف على حذف الألف بعد واو الجمع فى أصلين مطردين ، وأربعة أحرف ، فأما الأصلان ، فهما : جاءو ، وباءو حيث وقعا .

وأما الأربعة الأحرف ، فأولها فى البقرة (فإن فاءو) آية ٢٢٦ ، وفى الفرقان (وعتو عتواً كبيراً) آية ٢١ ، وفى سبأ (والذين سعو فى آياتنا) آية ٥ ، وفى الحشر (والذين تبوؤ الدار) آية ٩ .

وكذلك حذفت بعد الواو الأصلية فى موضع واحد ، هو قوله فى سورة النساء: (فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم)[2] لاغير وأثبتت بعد هذه المواضع الألف بعد واو الجمع ، وواو الأصل التى فى الفعل فى جميع القرآن نحو : (آمنوا) ، (ونفروا) (ونسوا الله)، (ولا تدعوا) ، (وإذا دعوا) ، (وأساءوا)، (واشتروا)، (واعتدوا) ثم قال « الدانى » : وما كان مثله حيث وقع . وسواء كان الفعل الذى الواو فيه لام فى موضع نصب أو رفع أو لوقوع الواو طرفاً فى الجميع »[3] .

تغيير الحجاج لمواضع فى الرسم العثمانى (تفنيد ومناقشة):

وإن تعجب فعجب قول من قال : «إن الحجاج بن يوسف غير فى مصحف

(١) المصاحف : ص ١١٧ .
(٢) سورة النساء : آية ٩٩ .
(٣) المقنع : لأبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى م ٥٤٤ هـ ص ٢٦ ، ٢٧ .

عثمان أحد عشر حرفًا ، قال : كانت فى البقرة آية : ٢٥٩ (لم يتسن وانظر) فغيرها (لم يتسنه)[1] بالهاء .

وكانت فى المائدة آية : ٤٨ (شريعة ومنهاجًا) فغيره (شرعة ومنهاجًا) وكانت فى يونس آية : ٢٢ (هو الذى ينشركم) فغيره (يسيركم) . وكانت فى يوسف آية : ٤٥ (أنا آتيكم بتأويله) فغيرها : (أنا أنبئكم بتأويله) .

وكانت فى المؤمنين آية : ٨٥ ، ٨٩ (سيقولون لله) لله ، لله ثلاثتهن فجعل الأخريين : الله الله .

وكانت فى الشعراء فى قصة نوح آية : ١١٦ (من المخرجين) وفى قصة لوط آية : ١٦٧ (من المرجومين) ، فغير قصة نوح (من المرجومين) وقصة لوط (من المخرجين) وكانت فى الزخرف آية : ٣٢ (نحن قسمنا بينهم معائشهم) فغيرها معيشتهم . . .

وكانت فى الحديد آية: ٧ (فالذين آمنوا منكم ، واتقوا لهم أجر كبير) فغيرها (منكم وأنفقوا) .

وكانت فى (إذا الشمس كورت) آية : ٨٤ (وما هو على الغيب بظنين) فغيرها (بضنين) [2] .

قرأت هذا النص فى كتاب المصاحف لابن أبى داود ، فأخذتنى الحيرة ، واستولى على نفس الشك ، ولا أبالغ إذا قلت ما راعنى نص فى كتاب المصاحف كهذا النص ، ذلك لأنه بعيد عن التحسين كل البعد ، فهو إن صح هدم للرسم العثمانى ، بل هدم للآيات القرآنية التى حدث فيها التغيير من ناحية المعنى فى كثير منها مما يفتح الباب أمام الزنادقة والطاعنين على كتاب الله تعالى .

وبدأت نفسى تشك فى هذا النص ، بل بدأ عقلى ينكره من أساسه ، وخرجت بعد بحث أنه مفترى على الحجاج ، والحجاج منه برىء نعم ، نحن لا ننكر أن الحجاج كما صوره التاريخ كان ظالمًا مستبدًا ، فهل حول ظلمه واستبداده إلى كتاب الله يغير فيه ويبدل . ذلك ما أشك فيه ، لأن الحجاج أصغر من هذا بكثير .

---

(١) المصاحف : ص ١١٧ ، ١١٨ بتصرف .
(٢) المرجع نفسه .

وأدلتي التي أعتمد عليها في دحض هذا الافتراء ما يأتي :

١ – ما ذكره ابن أبي داود نفسه حينما أراد ابن زياد إضافة ألفات إلى ألفي كلمة في القرآن لم يسكت الحجاج عن هذه الزيادة التي تعتبر في نظري تحسيناً للرسم لا تغييراً[1] ، فإنكار الحجاج لها تجعلني أشك في أن الحجاج الذي ينكر هذه الألف الزائدة يقوم بهذا الهدم والتغيير الذي رواه ابن أبي داود .

٢ – لو كان ما غيره الحجاج صحيحاً لتناقلته الرواة ، وسجلته كتب الطبقات ، فانفراد ابن أبي داود بهذا الخبر يدعو إلى الشك والريبة .

٣ – لعل أعداء الحجاج – وهم كثيرون – أذاعوا عنه ذلك للتشهير به ، والكيد له ، ورميه بالفجور حيث يعتدي على حرمات الرسم العثماني فيغير فيه ، ويبدل منه . وسند هذه الرواية في كتاب المصاحف يدل على أنها مهزوزة لا تقوم على الرواية العلمية .

قال ابن أبي داود : « قال أبو بكر ، كان في كتاب أبي : حدثنا رجل ، فسألت أبي من هو ؟ فقال : حدثنا عباد بن صهيب عن عوف بن أبي جميلة أن الحجاج بن يوسف غير في مصحف عثمان أحد عشر حرفاً »[2] فإبهام الرجل في كتاب أبيه يدل على أن هذا الخبر يجب أن يأخذ باحتراس .

٤ – حينما امتدت يد الحجاج العابثة إلى كتاب الله وإلى رسمه العثماني لتغير منه ما تغير فأين كان الخليفة إذ ذاك ؟

أكبر الظن أن الحجاج – وإن كان سيف دولة بني أمية – لا يستطيع أن يقدم على هذا بغير إذن الخليفة .

وأكبر الظن أن الخليفة لا يأذن لأنه راع لكتاب الله ، وفي الأمة أولو الرأي من علماء المسلمين ، لا يستطيعون أن يروا هذا فيسكتوا عنه ، أو يجاملوا فيه .

٥ – وإذا صح أن الخليفة والوالي اتفقا على ذلك ، وأن ظلمهما ألجم الألسنة ، وكمم الأفواه ، فلِمَ يبقى هذا المصحف الذي عبث برسمه بعد زوال ملك بني أمية وصولة الحجاج ؟ أقول: لِمَ لَمْ يُحرق هذا المصحف ، ويذاع في دولة بني العباس هذا المنكر الذي ارتكبته دولة بني أمية في شخص سيفها الحجاج ؟

---

(١) انظر : إنكار الحجاج لهذه الزيادة في المصاحف ص ١١٧ .

(٢) المصاحف : ١١٧ .

٦ ــ وأوضح الأدلة فى هذا المقام أن ابن أبى داود وجهت إليه وإلى رواياته نقدات من علماء الحديث وحفاظه تجعلنا لا نقبل كل ما يروى على علاته ، بل ندقق النظر فيه قبل التسليم بصحته واعتقاده .

وما لى أذهب بعيداً ، فلا أصف ابن أبى داود بالكذب وبخاصة فى هذه الرواية ، وقد وصفه بذلك أبوه أبو داود ، « فعن على بن الحسين بن الجنيد ، سمعت أبا داود يقول : ابنى عبد الله كذاب . ثم قال : قال ابن عدى : وكان ابن صاعد يقول : كفانا أبوه بما قال فيه »[1] .

وعلى الرغم من دفاع الذهبى عنه ، وتأويل ما قال أبوه فيه ،فإن العقل يؤيد هذا الاتجاه ، وبخاصة فى هذه الرواية التى ذكرها فى كتاب « المصاحف » بشأن تغيير الحجاج فى مواضع من المصحف العثمانى ، لأن هذه الرواية تخالف إجماع المسلمين فى أن الرسم العثمانى سنة متبعة لا تتغير ولا تتبدل . ومن العجب أن بعض المؤلفين فى الدراسات القرآنية فى العصر الحاضر يشيرون إلى إصلاح الحجاج للرسم القرآنى فى أحد عشر موضعاً ، وينقل ما قال ابن أبى داود من غير تعليق كأنه حجة مسلمة[2] .

٧ ــ هناك روايات تشير إلى أن الحجاج كان يتحرى الدقة فى كتابة المصاحف ، وأن الولاة المعاصرين له كانوا كذلك يفعلون حينما يتولون كتابة المصحف ، ولو أحدث الحجاج فيه تغييراً لأنكر عليه هؤلاء الولاة .

يدل على ذلك ما رواه جرجى زيدان عن المقريزى أنه قال : «كان الحجاج فى مقدمة من كتب المصاحف من الأمراء ، وفرقها فى الأمصار ، فبعث منها مصحفاً إلى مصر ، والوالى عليها يومئذ عبد العزيز بن مروان فغضب ، وقال : أيبعث إلى جند أنا فيه بمصحف وأمر فكتبوا له مصحفاً آخر بالغ فى ضبطه ، وأعلن بعد الفراغ من كتابته أن من وجد فيه حرفاً خطأً فله رأس أحمر ، وثلاثون ديناراً ، فوجد فيه أحد قراء الكوفة لفظة "نجعة" بدل " نعجة " فنال الجائزة »[3] .

على أن العلماء فى العصور الأولى جندوا أنفسهم لكل تغيير يحدث فى رسم

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبى : م ٧٤٨ هـ ط ثالثة حيدر آباد الدكن ١٩٥٦ جـ ٢ ص ٧٧٠،٧٧٢.
(٢) مباحث فى علوم القرآن : ص ١١٤ الدكتور صبحى الصالح .
(٣) تاريخ التمدن الإسلامى : ص ٦٠ جـ ٣ .

المصحف ليردّوا الحق إلى نصابه دفاعاً عن القرآن الكريم ، وإعزازاً لرسمه الذى أجمع العلماء عليه .

يقول الدانى : « حدثنا محمد بن أحمد ، قال : حدثنا محمد بن القسم قال : قال الفراء : حذفت واو الجمع فى المصحف فى قوله : (نسوا الله) [1] [التوبة آية : ٦٧] [الحشر آية : ١٩] قال أبو عمر (الدانى) : ولا نعلم أن ذلك كذلك فى شىء من مصاحف أهل الأمصار ، والذى حكى عن الفراء غلط من الناقل »[2] .

٥ — تأثر الرسم العثمانى بالحركة اللغوية والنحوية :

ولما بدأت الحركات اللغوية والنحوية تظهر على مسرح الثقافة العربية تأثر الرسم العثمانى بعض التأثر بهذه الحركات ، وكان الخلفاء ، والأمراء ، والولاة إذ ذاك يتنافسون فى كتابة المصاحف على مذاهب أهل التحقيق .

فالكوفيون مثلا يزعم بعضهم « أن ما كان من المقصور على ثلاثة أحرف ، وكان الحرف الأول مكسوراً أو مضموماً فجائز أن يكتب بالياء ، وإن كان أصله الواو فتكتب : ضحى بالياء ، وأنت تقول : ضحوة لضمة أوله ، وتكتب رضى بالياء ، وأنت تقول : الرضوان لكسر أوله . .

وأما أهل البصرة فيكتبون : هذا الألف إذا كان أصله الواو » [3] .

وهذا الخلاف بين البصريين والكوفيين يمتد إلى رسم المصحف ، فالبصريون يكتبون : والضحى بالألف ، على حين يكتبها الكوفيون بالياء .

وفى هذا يحدثنا ابن الأنبارى فيقول : « يحكى أن بعض أكابر أولاد طاهر سأل أبا العباس ثعلباً أن يكتب له مصحفاً على مذهب أهل التحقيق ، فكتب : والضحى بالياء .

ومن مذهب الكوفيين أنه إذا كانت كلمة من هذا النحو أولها ضمة أو كسرة كتبت بالياء ، وإن كانت من ذوات الواو ، والبصريون يكتبون بالألف ، فنظر

---

(١) سورة التوبة : آية ٦٧ .
(٢) المقنع : ص ٣٥ .
(٣) المقصور والممدود : ص ٦ ، ٧ .

المبرد فى ذلك المصحف فقال : ينبغى أن يكتب ، والضحى بالألف لأنه من ذوات الواو فجمع ابن طاهر بينهما .

فقال المبرد لثعلب : لم كتبت والضحى بالياء ؟ فقال لضمة أوله ، فقال له ، ولم إذن ضم أوله ، وهو من ذوات الواو وتكتبه بالياء ؟ فقال : لأن الضمة تشبه الواو ، وما أوله واو يكون آخره ياء، فتوهموا أن أوله واو ، فقال أبو العباس المبرد: أفلا يزول هذا التوهم إلى يوم القيامة »[١] ؟

٦ ــ إعجام القرآن الكريم :

المراد بالإعجام فى القرآن « تمييز الحروف المتشابهة بوضع نقاط لمنع اللبس ، فالهمزة فى الإعجام للسلب أى إزالة العجمة ، كما فى قولك شكوت إليه فأشكانى أى أزال شكواى »[٢] .

متى وضع الإعجام ؟

١ ــ يروى ابن خلكان حكاية عن أبى أحمد العسكرى فى كتاب «التصحيف» « أن الناس غبروا يقرءون فى مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه نيفاً وأربعين سنة إلى أيام عبد الملك بن مروان ، ثم كثر التصحيف ، وانتشر بالعراق ، ففزع الحجاج بن يوسف إلى كتّابه ، وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات ، فيقال : إن نصر بن عاصم قام بذلك ، فوضع النقط أفراداً وأزواجاً ، وخالف بين أماكنها ، فغبر الناس بذلك زماناً لا يكتبون إلا منقوطاً ، فكان مع استعمال النقط أيضاً يقع التصحيف ، فأحدثوا الإعجام ، فكانوا يتبعون النقط الإعجام ، فإذا أغفل الاستقصاء عن الكلمة فلم توف حقوقها اعترى التصحيف ، فالتمسوا حيلة ، فلم يقدروا فيها إلا على الأخذ من أفواه الرجال بالتلقين »[٣] .

والناظر إلى هذه الرواية يرى أن النقط غير الإعجام ، وأن الناس غبروا زماناً لا يكتبون فيه إلا منقوطاً ، ولم يكن هذا النقط حائلا دون وقوع القارئ فى

(١) نزهة الألبا ص : ٢٨٨ ، ٢٨٩ .
(٢) تاريخ القرآن : ص ٦٧ للزنجانى .
(٣) وفيات الأعيان : جـ ١ ص ١٢٥ ط ١٣١٠ .

الخطأ والتصحيف ، ومن ثم نشأت الحاجة إلى الإعجام ، فكانوا يُشْبِعون النقط الإعجام .

ومع هذا ، كان التصحيف يعترى بعض الكلمات فلم يجدوا مخرجاً من هذا كله غير الأخذ من أفواه الرجال بالتلقين .

وأنعمتُ النظر فى هذه الرواية ، فقلت : لعل المراد بالنقط الحركات التى أحدثها أبو الأسود الدؤلى ، وهى حركات الإعراب ، ولكن يمنع من قبول هذه الرواية عبارة : وضع النقط الذى قام به نصر بن عاصم أفراداً أو أزواجاً ، وهذا لا يتناسب مع شكل الحركات التى قام بها أبو الأسود الذى يقال : إنه أحضر كاتبه فقال له : « إذا رأيتنى قد فتحت فمى بالحرف فانقط نقطة فوقه إلى أعلاه ، وإن ضممت فمى فانقط نقطة بين يدى الحرف ، وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف »[1] .

وفى دوامة هذا البحث رأيت "جرجى زيدان" يلتبس عليه ما التبس علىّ وإذا به يخرج من هذا الإشكال بتخريج جميل ، فارتاحت نفسى لتخريجه .

يقول : « الظاهر أن النقط المذكورة هى من قبيل الإعجام لتمييز الحروف المتشابهة ولكن نصراً هذا لم ينقط إلا بضعة حروف مما يكثر وروده ، ويخشى الالتباس فيه ثم رأوا القراءة لا تضبط إلا بتنقيط كل الحروف كما هى الآن ، وهذا ما عبروا عنه بالإعجام »[2] .

وبهذا التفسير وضحت رواية ابن خلكان ، واستبان غامضها .

فالسبب إذن فى وضع التنقيط هو كثرة التصحيف وانتشاره بالعراق .

ويوافق المرحوم حفنى ناصف على هذه الرواية التى تثبت أن نصر بن عاصم قام بهذا الأمر غير أنه يضم إلى نصر ، يحيى بن يعمر العدوانى فى القيام بهذا الأمر فيقول : « وبعد البحث والتروى قرر نصر ، ويحيى إدخال الإصلاح الثانى ، وهو أن توضع النقط أفراداً وأزواجاً لتمييز الحروف المتشابهة »[3] .

---

(١) مجلة كلية الآداب (من مقال للمرحوم الأستاذ إبراهيم مصطفى « أول من وضع النحو ») ص ٧٣ المجلد ١٠ ج ٢ ديسمبر سنة ١٩٤٨ .

(٢) تاريخ التمدن الإسلامى ص : ٥٦ ج ٣ .

(٣) تاريخ الأدب : ص ٧١ حفنى ناصف .

٢ ــ ويرى ابن عطية أن الحجاج « أمر وهو والى العراق الحسن ، ويحيى ابن يعمر العدوانى بذلك »[١] ــ يقصد التنقيط ــ .

٣ ــ ويذكر الزركشى رواية عن الزبيدى فيقول :

« أسند الزبيدى فى كتاب الطبقات إلى المبرد : أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلى »[٢] .

وفى نفس الموضع يذكر أيضاً رواية عن أبى الفرج فيقول :

« ذكر أبو الفرج أن زياد بن أبى سفيان أمر أبا الأسود بنقط المصحف »[٣] .

ثم يأتى الزركشى بروايات مخالفة فيقول : « ذكر الجاحظ فى كتاب " الأمصار " أن نصر بن عاصم أول من نقط المصاحف ، وكان يقال له : نصر الحروف »[٤] .

وبعد أن دققت الفكر فى هذه الروايات رأيت أنها غير متباينة أو متضاربة .

ذلك لأن هذه الروايات تنسب تنقيط المصحف إلى أربعة رجال : الحسن ويحيى بن يعمر ، ونصر بن عاصم ، وأبو الأسود . فلم لا يقال : إن أبا الأسود قام بتنقيط المصحف حينما رأى اللحن فاشياً ، وهذا التنقيط للإعراب ثم اشترك تلميذاه : نصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر ومعهما الحسن فيما بعد فى إدخال الإصلاح الثانى وهو : وضع النقط أفراداً وأزواجاً لتمييز الحروف المتشابهة فمن قال : إن أبا الأسود هو أول من نقط المصحف كان قوله صحيحاً ، ومن قال : إن نصر بن عاصم أو يحيى بن يعمر هو الذى فعل ذلك لم يخرج عن الصواب ، لأن كلاً منهما اشترك فى هذا العمل الخطير الذى لا ينهض به فرد ، بل يحتاج إلى جهود أفراد .

وكما حدث الخلاف فى أول من نقط المصحف حدث خلاف أيضاً فى الزمن الذى حدثت فيه حركة الإعجام ، ذلك لأن نصوصاً عديدة ضمنتها كتب التاريخ

---

(١) مقدمتان فى علوم القرآن : ص ٢٧٦ .

(٢) البرهان فى علوم القرآن : جـ ١ : ص ٢٥٠ ، ٢٥١ للزركشى .

(٣) البرهان فى علوم القرآن حـ ١ : ص ٢٥٠ ، ٢٥١ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

والطبقات تثبت أن الإعجام لم يكن مستحدثاً أيام عبد الملك بن مروان ، بل كان تجديداً له .

ومعنى ذلك أن الإعجام كان ظاهرة واضحة فى الخط العربى وأن المصحف الذى جمع فى عهد أبى بكر كان معجماً إلى أن جرده عثمان رضى الله عنه ، وبعث به إلى الأمصار ليوحد الناس على نصه ، ويلزمهم القراءة برسمه حيث إن تنقيطه لا يساعد على قراءته بالأحرف السبعة .

ويمثل هذا الاتجاه من القدماء الزمخشرى وابن الجزرى .

فالزمخشرى يبين أن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « جرّدوا القرآن ليربو فيه صغيركم ، ولا ينأى عنه كبيركم » .

ويعلق الزمخشرى على هذا فيقول : « قيل أراد تجريده عن النقط والفواتح والعشور لئلا ينشأ نشء فيرى أنها من القرآن »[1] وابن الجزرى : يرى أنه « لما كتبوا تلك المصاحف جرّدوها من النقط والشكل ليحتمله ما لم يكن فى العرضة الأخيرة مما صح عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وإنما أخلوا المصاحف من النقط والشكل لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوّين شبيهة بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين . »[2] .

على أن حفنى ناصف ، وإن كان يرى أن ظاهرة الإعجام لم تفترق عن الخط العربى بأدلة ذكرها فى كتابه « تاريخ الأدب » فهو لا يرى أن المصحف كان قبل إعجامه منقطناً بهذا التنقيط المعهود الذى حدث أيام عبدالملك .

يقول منكراً على هؤلاء الذين يدعون هذا الادعاء ما نصه :

« وهذا الاستدلال خطأ مبنى على خطأ ، لأن النقط للإعجام أو الشكل لم يكن مستعملا فى زمن عثمان ، وإنما النقط الذى كان فى زمنه كان عبارة عن علامات خاصة باللغات التى كان الصحابة يقرءون بها ، والرواية مسوقة لبيان اختيار عثمان لغة قريش فى الكتابة وإيثارها على غيرها من لغات العرب ، فقدكانت الصحف المودعة عند حفصة مبيّنة فيها اللغات الأخرى بنقط على الحروف

---

(١) الفائق فى غريب الحديث : جـ ١ ص ١٨٦ .
(٢) النشر : جـ ١ ص ٣٣ .

اصطلحوا على وضعها للدلالة على الإمالة ، وضم ميم الجمع ، والإشمام ، والهمز ، والتسهيل ، وغير ذلك من القراءات التي رواها أهل القبائل عن النبي صلى الله عليه وسلم فأمر عثمان الكتبة أن يجردوا القرآن من هذه النقط ويكتبوه على لغة قريش فقط ، ففعلوا . فظهر أن النقط التي جردوا القرآن عنها لم تكن نقط إعجام ، ولا نقط شكل ، لأنه لا معنى للأمر بتجريد القرآن منها إذا كان لها وجود »(١)

هذا ويتفق مع الاتجاه الذي يقول : إن الإعجام ظاهرة جديدة لم تكن من قبل في الخط العربي ، وأنها حدثت فيما بعد ذلك — الدكتور خليل نامي حيث عرض للرواية التي تقول : « إن عامر بن جدرة هو الذي وضع الإعجام »(٢)

أي أن الخط العربي في نشأته كان يكتب بالتنقيط ، قال الباحث : « وهذا يخالف الواقع ، لأن الخط العربي في نشأته كان يكتب من غير تنقيط كما يظهر من النقوش العربية القديمة(٣) .

ويوفق بين الاتجاهين الدكتور ناصر الأسد فيقول : « إن أكثر الوثائق البردية التي عثر عليها مؤرخة في القرن الأول الهجري غير منقوطة ولا معجمة ، وذلك يعني أن إهمال النقط فيما عثرنا عليه من نقوش جاهلية لا يعني ضرورة أن النقط لم يكن معروفاً ولا مستعملا ، لأن إهمال النقط في النقوش وأوراق البردي الإسلامية لم يمنع وجود وثائق ونقوش منقوطة »(٤) .

وفي رأيي أن الإعجام نشأ مع الخط العربي ، لأن الحروف المعجمة تختلف في نقطها عن الحروف التي لم تعجم .

والقارئ لا يستطيع أن يميز بين هذين النوعين من الحروف « ويبعد كل البعد أن تكون الحروف موضوعة في أول أمرها على هذا اللبس المنافي لحكمة الواضعين الذاهب بحسن الاختراع فإما أن يكون لكل حرف شكل مخالف لسائر الحروف ، ثم اتحدت الأشكال المتقاربة ، وصارت شكلا واحداً بتساهل الكتاب ، وطول

---

(١) هامش تاريخ الأدب : ص : ٧٠ ، ٧١ حفني ناصف .

(٢) مجلة كلية الآداب — جامعة القاهرة مجلد ٣ مايو سنة ٩٣٥ ص : ٣ ، ٤ .

(٣) مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة مجلد ٣ ، مايو سنة ٩٣٥ ص ٣ ، ص ٤ .

(٤) مصادر الشعر الجاهلي ص ٥٧ ، ص ٥٨ .

الزمن ، وإما أن يكون بعض الأشكال موضوعًا لعدة أحرف ووضع الإعجام معها لتمييزها بعضها عن بعض »[١] .

ولما انتشرت الكتابة فى الجزيرة العربية وتمكن الكتاب من لغتهم كانوا يجردون كتبهم أحيانًا من النقط اعتمادًا على فهم القارئ ، وثقة فى فطنته ، وإيمانًا بذوقه وتقديرًا لأدبه ، قال أبو بكر الصولى : «كره الكتاب الشكل والإعجام إلا فى المواضع الملتبسة من كتب العظماء وإلى من دونهم »[٢] .

وخير ما يصور كراهة الإعجام ما قاله أبو نواس :

ياكاتبًا كتب الغداة يسبنى	من ذا يطيق براعة الكتاب
لم ترض بالإعجام حين كتبته	حتى شكلت عليه بالإعراب
أحسست سوء الفهم حين فعلته	أم لم تثق بى فى قراة كتاب[٣]

ومن هنا نجد أن بعض العلماء كره نقط القرآن الكريم « فالحسن وابن سيرين كانا يكرهان نقط المصحف » [٤] وقال مالك : « لا بأس بالنقط فى المصاحف التى تتعلم فيها العلماء ، أما الأمهات ، فلا »[٥] .

على أنه بعد أن استفحل اللحن ، واهتزت لغة العروبة استحب العلماء التنقيط وبخاصة تنقيط المصاحف .

وقد قال النووى : « نقط المصحف وشكله مستحب لأنه صيانة له من اللحن والتحريف »[٦] .

وقد أصبح النقط عادة مستحكمة يذم من أغفلها ، وجرد كتابته منها . أخبر محمد بن يحيى بن العباس ، قال : « أهدى أحمد بن إسماعيل الكاتب إلى صديق له دفترًا فيه حدود الفراء ، وكتب على ظهره :

خذه فقد سوغت منه مشبهًا	بالروض أو بالبرد فى تفويفـــه

(١) تاريخ الأدب : حفنى ناصف ص ٧٠ .

(٢) أدب الكتاب : أبو محمد محمد بن يحيى الصولى – المطبعة السلفية سنة ١٣٤١ ، ص ٥٧ .

(٣) أدب الكتاب : أبو محمد محمد بن يحيى الصولى – المطبعة السلفية سنة ١٣٤١ ، ص ٦١ .

(٤) المصاحف : ص ١٤١ .

(٥) الإتقان جـ ٢ ص ١٧١ . ط . الحلبى جـ ١ (ثالثة) .

(٦) الإتقان جـ ٢ ص ١٧١ . ط . الحلبى جـ ١ (ثالثة) .

نظم كما نظم السحاب سطوره   وتأنق الفراء فى تأليفه
وشكلته ونقطته فأمنت من   تصحيفه ، ونجوت من تحريفه
بستان خط غير أن ثماره   لا تجتنى إلا بشكل حروفه[1]

(١) التصحيف والتحريف : لأحمد العسكرى ص ١٦ .

الباب الأول

أثر القرآن الكريم فى المدارس النحوية ومناهجها

الفصل الأول

أثر القرآن الكريم فى نشأة النحو وتطوُّره إلى عصر سيبويه

كان النحو العربى وليداً لم تكتمل قواه ، ونما هذا الوليد فى ظلال الرعاية والتطور إلى أن ازدهر عوده ، واكتمل نموه؛ ليؤدى رسالته فى الحياة .

ونشأة النحو العربى مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالقرآن الكريم ولولا هذا القرآن لما نشأ هذا العلم الذى تمت له السيطرة فيما بعد على كل علم من علوم العربية وآدابها .

ومن أهم الأسباب التى جعلت أولى الأمر من المسلمين وعلمائهم يفكرون فى وضع اللبنة الأولى فى صرح هذا العلم اللحن فى قراءة القرآن الكريم .

وإذا كان اللحن فى قراءة القرآن سبباً مباشراً فى نشأة النحو يجدر بنا أن نلم بمعناه ، ونضع أيدينا على الزمن الذى حدث فيه ؛ لنتعرف على أسبابه، ونقف على دواعيه .

١ — معنى اللحن :

يقول ابن فارس : « اللام ، والحاء ، والنون »، بناءان يدل أحدهما على إمالة الشىء من جهته ، ويدل الآخر على الفطنة والذكاء .

فأما اللحن بسكون الحاء فإمالة الكلام عن جهته الصحيحة فى العربية يقال : لحن لحناً .

ومن هذا الباب قولهم : هو طيِّب اللحن ، وهو يقرأ بالألحان وذلك أنه إذا قرأ كذلك أزال الشىء عن جهته الصحيحة بالزيادة والنقصان فى ترنُّمه .

ومنه أيضاً اللحن فحوى الكلام ومعناه . قال الله تعالى : (ولتعرفنهم فى لحن القول)[1] وهذا هو الكلام المورى به ، المزال عن جهة الاستقامة والظهور .

والأصل الآخر : اللحن ، وهو الفطنة ، يقال : لحن يلحن لحناً وهو لحن ولاحن .

وفى الحديث : « لعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض »[2].

---

(١) محمد : ٣٠ .

(٢) معجم مقاييس اللغة جـ ٥ ص ٢٣٩ ، ص ٢٤٠ .

وروى القالى عن ابن الأعرابى أنه قال : « يقال : قد لحن الرجل يلحن لحناً فهو لاحن إذا أخطأ . ولحن يلحن لحنًا فهو لحن إذا أصاب وفطن .

وأنشد :

وحديث ألذه هو مما تشتهيه النفوس يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا نا ، وخير الحديث ما كان لحنا

معناه : وتصيب أحيانا »[١] .

فاللحن إذن على ما ذكره ابن فارس والقالى تشتمل مادته على الخطأ كما تشتمل على الفطنة والذكاء .

والفرق بينهما دقيق ، يظهره السياق ، ويوضحه الأسلوب . وقد التبست هذه التفرقة على علم من أعلام البيان وهو الجاحظ فوقع فى الخطأ .

يخبرنا يحيى بن على بن يحيى المنجم قال : « حدثنى أبى ، قال : قلت للجاحظ : إنى قرأت فى فصل من كتابك المسمى بكتاب " البيان والتبيين " : إنما يستحسن من النساء اللحن فى الكلام واستشهدت ببيتى مالك بن أسماء[٢] قال : هو كذلك فقال : أما سمعت بخبر هند بنت أسماء بن خارجة مع الحجاج حين لحنت فى كلامها فعاب ذلك عليها ، فاحتجت ببيتى أخيها ، فقال لها : إن أخاك أراد أن المرأة فطنة فهى تلحن بالكلام إلى غير الظاهر بالمعنى ، لتستر معناه ، وتورى عنه . وتفهمه من أرادت بالتعريض كما قال الله عز وجل : (ولتعرفنهم فى لحن القول)[٣] ، ولم يرد الخطأ من الكلام ، والخطأ لا يستحسن من أحد فوجم الجاحظ ساعة ، ثم قال : لو سقط إلى هذا الخبر أولا لما قلت ما تقدم ، فقلت له : فأصلحه ، فقال : الآن ! وقد سار به الكتاب فى الآفاق ؟ »[٤]

وقد يراد باللحن أيضاً اللغة ذكر الأصمعى وأبو زيد : أن اللحن اللغة ، ومنه قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه « تعلموا الفرائض والسنن واللحن كما تعلمون القرآن »[٥] .

---

(١) الأمالى للقالى ج ١ ص ٥ .
(٢) يعنى هذين البيتين اللذين أنشدهما ابن الأعرابى .
(٣) محمد : ٣٠ .
(٤) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ج ١٦ ص ٤٣ ، مطبعة التقدم .
(٥) الأمالى للقالى ج ١ ص ٥ .

مناقشة ابن فارس :

هذا ويرى ابن فارس أن « اللحن بمعنى الخطأ محدث . لم يكن فى العرب العاربة الذين تكلموا بطباعهم السليمة »[١] .

وفى هذا الرأى نظر . لأن اللحن بمعنى الخطأ عرف فى عهد الرسول عليه السلام مما يدل على أن زيغ اللسان عن طبيعته العربية . وخروجه عن نهجها فى الكلام كان يسمى لحناً . وقد قال النبى عليه السلام: « أنا من قريش ، ونشأت فى بنى سعد فأنّى لِىَ اللحن »[٢]

٢ – متى ظهر اللحن :

فى عهد الرسول عليه السلام دخل الإسلام طائفة من الموالى والعبيد الذين لا ينتسبون إلى أصل عربى . وتعلموا اللغة العربية محاكاة وتقليداً. غير أن ألسنتهم لم تكن تنطق بعربية خالصة ، فقد كانت اللكنات الأعجمية تسيطر على هذه الألسنة ، ومن ثمّ ظهر اللحن .

كان صهيب بن سنان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إنك لهائن ، يريد إنك لحائن . وصهيب بن سنان يرتضخ لكنة رومية »[٣] .

والشاعر سحيم المشهور بعبد بنى الحسحاس المعاصر للرسول عليه السلام « كان يرتطن لكنة أجنبية »[٤] .

وقد كان « سحيم هذا عبداً حبشيًّا قبيحًا اشتراه عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى ، وكتب إلى عثمان بن عفان أنى قد اشتريت لك غلامًا حبشيًّا شاعراً . فكتب إليه : لا حاجة لنا فيه ، إنما حظ أهل الشاعر منه إذا شبع أن يشبب بنسائهم ، وإذا جاع أن يهجوهم »[٥] .

---

(١) معجم مقاييس اللغة جـ ٥ ص ٢٣٩ .
(٢) مراتب النحويين لأبى الطيب عبد الواحد بن على اللغوى ص ٦ .
(٣) البيان والتبيين : للجاحظ جـ ١ ص ٧٢ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ط ثانية . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
(٤) العربية . يوهان فك ص ١٣ .
(٥) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٥٣ مطبعة المعاهد ط . ثانية .

وكان اللحن فى هذا العهد ظاهرة قبيحة ، تنفر منها الطباع ولا تستريح إليها النفوس ، لأنها إخلال بسلامة اللغة ، وتحطيم لمقاييسها .

ولذلك لا نعجب حينما نرى أن عمر بن الخطاب أمر بجلد من وقع فى اللحن كأنه إثم لا يكفر إلا بالجلد والتعذيب ، والحرمان من الرزق؛ فقد كتب كاتب لأبى موسى الأشعرى إلى عمر وكتب «من أبو موسى فكتب إليه عمر : سلام عليك . أما بعد فاضرب كاتبك سوطًا واحداً ، وأخر عطاءه سنة»[1] .

ولا أذهب بعيداً إذا قلت : إن اللحن امتد شره إلى قراءة القرآن الكريم فى هذه الفترة ، على عهد النبى عليه السلام .

فعن أبى الدرداء قال : «سمع النبى صلى الله عليه وسلم رجلا قرأ فلحن قال : أرشدوا أخاكم »[2] .

وفى رواية أخرى سجلها ابن جنى فى « الخصائص » «أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل »[3] ؛

ويعلق الرافعى على هذا الحديث مستدلا به على أن أوّلية اللحن كانت على عهد النبى عليه السلام فيقول : « فلو كان اللحن معروفًا فى العرب قبل ذلك العهد مستقر الأسباب التى يكون عنها لجاءت عبارة الحديث على غير هذا الوجه ، لأن الضلال خطأ كبير ، والإرشاد صواب أكبر منه فى معنى التضاد ، بل إن عبارة الحديث تكاد تنطق بأن ذلك اللحن كان أول لحن سمعه أفصح العرب ، صلى الله عليه وسلم »[4] .

ولما اتسعت رقعة الفتوح الإسلامية فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وفتحت الدولتان ، فارس والرومان ، امتد سيل العجمى على بناء اللغة العربية فأحدث فيه من الخلل ما جعله يوشك على الانهيار .

ومن أجل صيانة كتاب الله من كل تحريف ، وحفظه من كل تغيير ،

---

(١) مراتب النحويين ص ٦ .

(٢) كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال . لعلاء الدين على المتقى بن حسام المندى ، مطبعة دائرة المعارف النظامية — الهند جـ ١ ص ١٥١ .

(٣) الخصائص لابن جنى جـ ٢ ص ٨ مطبعة دار الكتب .

(٤) تاريخ آداب العرب للرافعى جـ ١ ص ٢٤٢ .

ومن أجل أن يبقى كتاب الله هو كتاب العربية الأكبر على الدوام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن أجل التقاء المسلمين على كتابهم كما أنزل من غير أن تمتد إليه يد العبث أو التحريف .

من أجل ذلك كله دعت الحاجة إلى علم يعرف به خطأ الكلام من صوابه؛ ليحافظ على بناء اللغة العربية التى أنزل بها القرآن الكريم ذلك العلم هو علم النحو .

أما كيف نشأ، وكيف تطور إلى أن أصبح قواعد منظمة فى أبواب متسقة تسير جنباً إلى جنب مع كتاب الله تحرس بناءه ، وتصون كيانه ، وتحافظ على نهجه ، فذلك ما سأتحدث عنه فى شىء من التفصيل .

نشأة النحو :

إذا وضعنا بين أيدينا كتب الرواة والمؤرخين لنصل من خلال قراءتها إلى حقيقة نشأة النحو ، نجد اضطراباً فى الرواية ، وتناقضاً واضحاً بين العلماء والمؤرخين .

ومما يدل على هذا التناقض أن كتاباً واحداً « كنزهة الألبا » لابن الأنبارى يشتمل على عدة روايات مختلفة فى هذا الموضوع مما يدعو إلى الشك والريبة .

وسأعرض لهذه الروايات العديدة ، مقارناً بينها ، لأصل إلى الحقيقة التى أنشدها فى هذا المجال .

فابن الأنبارى يروى عدة روايات مختلفة فى سبب وضع النحو ونشأته .

فمرة يقول : إن علياً كرم الله وجهه هو الذى وضع النحو « سمع أعرابياً يقرأ (لا يأكله إلا الخاطئين[1]) فوضع النحو[2] ». ومرة أخرى يجعل من على كرم الله وجهه مصدراً لمقاييس هذا العلم واصطلاحاته ، ويشترك معه فى هذا الجهد العلمى ، أبو الأسود الدؤلى . فيقول : « روى أبو الأسود قال : دخلت على

(١) الحاقة : ٣٧ .
(٢) نزهة الألبا ص ٧ .

أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام فوجدت فى يده رقعة، فقلت: ما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إنى تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء يعنى الأعاجم . فأردت أن أضع شيئًا يرجعون إليه . ويعتمدون عليه ثم ألقى إلىّ الرقعة وفيها مكتوب : الكلام كله اسم وفعل وحرف ، فالاسم ما أنبأ عن المسمّى ، والفعل ما أنبئ به . والحرف ما أفاد معنى . وقال لى : انح هذا النحو . وأضف إليه ما وقع إليك . . . » إلخ[1] .

وفى رواية ثالثة ينسب نشأة هذا العلم إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيقول : « قدم أعرابى فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : من يقرئنى شيئًا مما أنزل الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم ، فأقرأه رجل سورة (براءة) ، فقال: (إن الله برىء من المشركين ورسولِه)[2] بالجر ، فقال الأعرابى : أو قد برئ الله من رسوله ؟ إن يكن الله تعالى برئ من رسوله فأنا أبرأ منه ، فبلغ عمر عليه السلام مقالة الأعرابى فدعاه ، فقال : يا أعرابى أتبرأ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : إنى قدمت المدينة ، ولا علم لى بالقرآن . فسألت من يقرئنى . فأقرأنى هذا سورة « براءة » ، فقال : إن الله برئ من المشركين ورسولِه . فقلت : أوقد برئ الله تعالى من رسوله ؟ إن يكن الله تعالى برئ من رسوله فأنا أبرأ منه . فقال عمر رضى الله عنه : ليس هكذا يا أعرابى . فقال : كيف هى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : « إن الله برئ من المشركين ورسولُه » فقال الأعرابى : وأنا والله أبرأ ممن برئ الله ورسوله منهم ، فأمر عمر رضى الله عنه أن لا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة ، وأمر أبا الأسود الدؤلى أن يضع النحو »[3] .

وفى رواية رابعة « أن زياد بن أبيه بعث إلى أبى الأسود الدؤلى وقال له : يا أبا الأسود : إن هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت من ألسن العرب . فلو وضعت لهم شيئًا يقيمون به كلامهم . فأبى عليه فبعث زياد رجلا . وقال له : اقعد على طريق أبى الأسود فإذا مر بك فاقرأ شيئاً من القرآن . وتعمد اللحن فيه . فقعد ذلك

(١) نزهة الألبا : ص ٤ ـ ٥ .
(٢) سورة التوبة : آية : ٣ .
(٣) نزهة الألبا : ص ٨ ، ٩ .

الرجل على طريق أبي الأسود ، فلما مر به رفع صوته وقرأ : إن الله بريءٌ من المشركين ورسولِه ، فاستعظم أبو الأسود ذلك ، وقال : عز وجه الله تعالى أن يبرأ من رسوله ، ورجع من فوره إلى زياد ، فقال : يا هذا قد أجبتك إلى ما سألت ، ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن . فأبعث إليّ ثلاثين رجلا . فأحضرهم زياد ، فاختار منهم أبو الأسود عشرة ، ثم لم يزل يختارهم حتى اختار منهم رجلا من عبد القيس ، فقال : له : خذ المصحف وصبغاً يخالف المداد ، فإذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف ، وإذا ضممتهما فاجعل النقطة إلى جانب الحرف ، وإذا كسرتهما فاجعل النقطة في أسفله ، فإن أتبعت شيئاً من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين ، فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره ثم وضع المختصر المنسوب إليه بعد ذلك »[1] .

ويروى ابن الأنباري عن عاصم رواية خامسة تجعل أبا الأسود هو الذي ألحّ على زياد أمير البصرة بأن يأذن له « أن يضع للعرب ما يعرفون به كلامهم »[2] .

ورواية سادسة تفرد أبا الأسود بوضع النحو دون أن يشاركه فيه أحد . فقد قالت له ابنته « ما أحسنُ السماءِ ، فقال لها : نجومها ، فقالت : إني لم أرد هذا ، وإنما تعجبت من حسنها ، فقال لها : إذن فقولي : ما أحسنَ السماءَ ، فحينئذ وضع النحو وأول ما رسم منه باب التعجب » .

ورواية سابعة تبين أن أول من وضع النحو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج[3] .

ورواية ثامنة أن أول من وضع النحو نصر بن عاصم[4] .

ويميل ابن النديم في « الفهرست » إلى أن أبا الأسود هو الذي وضع النحو ، ووضع بعض مصطلحاته كالفاعل ، والمفعول...إلخ ما قدمته من هذه الروايات السابقة .

ودليله في هذا ما رواه محمد بن إسحاق « أنه كان بمدينة "الحديثة" رجل يقال له محمد بن الحسين . . . جمّاعة للكتب ، له خزانة لم أر لأحد مثلها

(١) نزهة الألبا : ص ١٢ .
(٢) نفس المصدر : ص ١٣ .
(٣) المرجع السابق : ص ١٤ .
(٤) نفس المصدر : ص ١٣ .

كثرة تحتوى على قطعة كبيرة من الكتب العربية فى النحو واللغة والأدب ، والكتب القديمة .

قال محمد بن إسحاق : فلقيت هذا الرجل دفعات ، فأنس بى وكان نفوراً ضنيناً بما عنده . خائفاً من بنى حمدان ، فأخرج لى قمطراً كبيراً . . . ورأيت فيه ما يدل على أن النحو عن أبى الأسود ما هذه حكايته ، وهى أربعة أوراق أحسبها من ورق الصين ترجمتها : هذه فيها كلام فى الفاعل والمفعول من أبى الأسود رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر ، وتحت هذا الخط بخط عتيق ، هذا خط علان النحوى ، وتحته هذا خط النضر بن شميل .

ثم لما مات هذا الرجل فقدنا القمطر ، وما كان فيه ، فما سمعنا له خبراً »[1]

ويتفق كتاب "الزينة" مع « نزهة الألبا » فى أن النحو وضعه أبو الأسود بأمر على بن أبى طالب رضى الله عنه ، معتمداً على حديث رواه الأصمعى قال : « سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : جاء أعرابى إلى على عليه السلام ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين . كيف تقرأ هذه الحروف ؟ لا يأكله إلا الخاطون ، كلنا والله يخطو ، قال : فتبسم أمير المؤمنين عليه السلام وقال : يا أعرابى : (لا يأكله إلا الخاطئون)[2] قال : صدقت والله يا أمير المؤمنين ، ما كان الله ليظلم عباده . ثم التفت أمير المؤمنين إلى أبى الأسود الدؤلى ، فقال : إن الأعاجم قد دخلت فى الدين كافة ، فضع للناس شيئاً يستدلون به على صلاح ألسنتهم ورسم له الرفع والنصب والخفض »[3] .

وابن جنى فى الخصائص « روى من حديث على رضى الله عنه مع الأعرابى الذى أقرأه المقرئ : (إن الله برىء من المشركين ورسولِه)[4] حتى قال الأعرابى : برئت من رسول الله . فأنكر ذلك على عليه السلام ، ورسم لأبى الأسود من عمل النحو ما رسمه مالا يجهل موضعه »[5] .

---

(١) الفهرست : ص ٦١ — ابن النديم ، المطبعة الرحمانية بمصر ط سنة ١٣٤٨ بتصرف .
(٢) سورة الحاقة : آية ٣٧ .
(٣) الزينة : ص ٧٢ .
(٤) سورة التوبة آية : ٣ .
(٥) الخصائص ج٢ ص : ٩ ابن جنى .

على حين يذكر ابن الأنبارى فى إحدى رواياته أن قصة الأعرابى وخطأه فى هذه الآية إنما كان مع عمر رضى الله عنه .

هذه الروايات المتضاربة المتعددة دفعت بعض العلماء المحدثين والمستشرقين إلى التشكك فيها ، والاحتراس منها ، لأنها لا تقوم على سند علمىّ متين ، ويكفى فى عدم الأخذ بها تناقضها واختلافها . وسأحاول فى إيجاز أن أعرض لآراء كل من بعض علماء العرب المحدثين والمستشرقين ، لنرى وجهات نظرهم التى وصلوا إليها فى هذا المجال .

أراء العلماء المحدثين من العرب :

يمثل هؤلاء العلماء الأستاذان المرحومان ، أحمد أمين ، وإبراهيم مصطفى . أما رأى أحمد أمين فيتلخص فى أن وضع النحو بالمصطلحات التى رويت عن أبى الأسود أمر لا يقبله العقل ، لأن طبيعة عصر أبى الأسود تأبى هذه التعاريف والتقاسيم .

ولكنه مع هذا لا ينكر أن نسبة النحو إلى أبى الأسود لها أساس صحيح « لأن الرواة اتفقوا على أن أبا الأسود قام بعمل من هذا النمط ، وهو ابتكار شكل المصحف : وهذه خطوة أولية فى سبيل النحو تتمشى مع قانون النشوء ، ويمكن أن تأتى من أبى الأسود »[1] .

ويستدل المرحوم أحمد أمين على رأيه بقوله : « والدليل على أنه لم يعرف رفعاً ولا نصباً أنه قال لكاتبه : إذا رأيتنى فتحت فمى بالحرف . . . إلخ . .
وهو تعبير ساذج يتفق وزمن أبى الأسود »[2] .

ويرى أستاذنا المرحوم إبراهيم مصطفى أن المصطلحات والقواعد التى وضعها أبو الأسود بأمر علىّ لا تتفق وطبيعة هذا العصر الذى عاش فيه أبو الأسود ، لأن الاصطلاحات النحوية لم تظهر إلا فى وقت متأخر .

ويؤيد رأيه بقوله : « تتبعنا كتب النحو الباقية بأيدينا لنعلم أقدم عالم نسب إليه

---

(١) ضحى الإسلام : جـ ٢ ص ٢٨٦ ط الثانية بتصرف .

(٢) المرجع السابق والصفحة ٢٨٨ .

رأى نحوى فى هذه الكتب ، وكان أول هذه الكتب كتاب سيبويه . .

ويلاحظ أول ما يلاحظ أننا لم نجد فى كتاب سيبويه ولا فيما بعده من الكتب رأيًا نحويًّا نسب إلى أبى الأسود »[1] .

ويخرج الأستاذ إبراهيم مصطفى من بحثه بحقيقة مؤداها أن عمل أبى الأسود فى مجال النحو هو وضع نقط الإعراب وضبط المصحف على نهج العربية »[2] ،

ولم ينس أن يبين سبب اختلاط الأمر على الرواة حيث نسبوا النحو إلى أبى الأسود فيقول : « إنهم كانوا يريدون بالنحو ضبط الكلام على سبيل العرب وسمتها فى القول . وفى اللسان : النحو انتحاء سمت العرب فى القول »[3] .

رأى المستشرقين :

أما المستشرقون فينكرون أن يكون النحو العربى من صنع أبى الأسود أو غيره من العرب لأنه من صنع اليونان أو الفرس أو الآراميين . والقليل منهم من يسلم بصحة نشأة النحو على يد العرب .

قال « ليتمان » فى محاضراته : « اختلف العلماء الأروبيون فى أصل هذا العلم . فمنهم من قال : إنه نقل عن اليونان إلى بلاد العرب . وقال آخرون : ليس كذلك وإنما كما تنبت الشجرة فى أرضها كذلك نبت علم النحو عند العرب»[4] .

ويرى « فون كريمر » أن الرواية التى تقول : إنّ تسرب الفساد إلى اللغة العربية كان هو السبب فى ضرورة وضع قواعد للنحو لإنقاذ اللغة العربية « رواية لا يعول عليها إطلاقًا ولا أساس لها ؛ فالنحو العربى من وضع الأجانب من الآراميين والفرس ، وقد أوجدته الحاجة التى أحس بها هؤلاء الأجانب لتعلم الكتابة العربية وقراءة اللغة العربية على وجه صحيح ، وعلى الأخص غير العرب الذين أرادوا أن يقفوا حياتهم للدراسات العلمية »[5] .

(١) مجلة كلية الآداب المجلد العاشر ج ٢ ديسمبر ١٩٤٨ : ص ٧١ بتصرف .
(٢) المرجع السابق : ص ٧٤ .
(٣) مجلة كلية الآداب ، المجلد العاشر : ج ٢ ديسمبر سنة ١٩٤٨ ص ٧٤ بتصرف .
(٤) ضحى الإسلام : ج ٢ ص ٢٩٢ .
(٥) الحضارة الإسلامية ، ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ، فون كريمر تعريب مصطفى بدر ص ٩٠ — دار الفكر العربى .

ويتفق الأستاذ مصطفى نظيف مع وجهة نظر المستشرقين القائلة بأن النحو من وضع الأجانب .

ويستدل لرأيه بأن « يعقوب الرهاوى » كان من معاصرى أبى الأسود وهو من « يعاقبة » السريان، تتلمذ على « سويرس سيبوخت » وبرع فى الفلسفة واللاهوت والنحو، والتاريخ ، ألف فى النحو السريانى كتاباً، اقتبس فيه الحركات والنقط . . ومحاولة أبى الأسود ، واقتباس الحركات والنقط فى العربية . كلاهما بدأ فى البصرة ، وكانت البصرة فى ذلك الحين موضع التقاء العرب بالفرس والسريان ، وأهل الهند ، وكانت لغة العلم والمعرفة فى ذلك العصر اللغة السريانية »[١] .

رأى ومناقشة :

لا أدرى لم احتدم الجدل ، وثار النقاش قديماً وحديثاً حول هذا الموضوع ؟

أكبر الظن أن المحدثين لا يسلمون فى كثير من الأحيان بسلامة آراء القدامى وبخاصة إذا تعددت رواياتهم ، واضطربت أقوالهم .

ومسألة نشأة النحو لبست شعار هذا الخلاف عند الأقدمين أنفسهم ، فمرة ينسبون وضع النحو إلى أبى الأسود ، وتارة إلى عبد الرحمن بن هرمز أو نصر بن عاصم .

ولا يقفون عند هذه الغاية من الخلاف ، بل يختلفون فى الزمن الذى حدثت فيه نشأة النحو . فبعضهم يقول : إنه فى عهد عمر ، وآخرون يقولون : إنه فى خلافة على أوفى عهد زياد . ومن أجل هذا التضارب فى نسبة النحو إلى واضعه ، وفى الزمن الذى ظهر فيه أنكر بعض المحدثين والمستشرقين نسبة النحو بتقاسيمه المعروفة ، واصطلاحاته المشهورة إلى أبى الأسود ، لأن هذا الزمن الذى تم فيه الوضع كانت تسيطر عليه الفطرة ، فلا منطق ولا جدل ، ولا علة ولا معلول . والذى يهم الباحث فى هذه المعركة هو أن اللحن فى القرآن الكريم هو الذى حدا بالأئمة والخلفاء والولاة أن يفكروا فى صيانة هذا القرآن .

ولا غرو أن يحدث ذلك على يد أبى الأسود . وهو «من أكمل الرجال رأياً ، وأسدهم عقلا »[٢] .

---

(١) مجلة المجمع اللغوى : جـ ٧ ص ٢٤٨ . (٢) البغية : ص ٢٧٤ .

وقد كان لأبى الأسود ذوق سليم فى تفهُّم الأساليب العربية يحتج بالقرآن الكريم على تصحيحها وتقويمها .

جاء فى « سمط اللآلى » و « أمالى المرتضى » و « الأغانى » و « الكامل » للمبرد ، و « إنباه الرواة » للقفطى أن أبا الأسود قال يرد على أصهاره « بنى قشير » وكانوا عثمانية ، وهو من المشهورين بالتشيع فى على أبياتًا . . . منها :

فإن يك حبهم رشداً أصبه ... وليس بمخطئٍ إن كان غيا

روى ابن الأنبارى بسنده عن أبى عبيدة العنزى قال : كتب معاوية إلى زياد كتابًا . وقال للرسول : إنك سترى إلى جانبه رجلا . فقل له : إن أمير المؤمنين يقول لك قد شككت فى قولك : فإن يك . . إلخ ، فقال له : فأجاب أبو الأسود : لا علم لك بالعربية . قال تعالى : (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين)[1] . فسكت معاوية لما بلغه احتجاج أبى الأسود . وهو يريد أن يقول : أفترى الله تعالى شك »[2] أقول : ليس عجيبًا من رجل يملك هذا الذوق السليم ، والحس المرهف والتأثر بأساوب القرآن الكريم أن يقوم بعمله فى وضع الأسس الأولى للنحو . ولا أعنى بالأسس . هذه المصطلحات التى سجلتها الروايات السابقة . لأنى أضع يدى فى يد من قال : إنها لا تتفق وطبيعة العصر الذى عاش فيه أبو الأسود . وإنما أعنى بها تنقيط المصحف تنقيط إعراب ، وبهذا التنقيط وضع الأساس الأول . أو الأسس الأولى للتطور النحوى فيما بعد « فنحو أبى الأسود هو فى الواقع تثبيت للنطق العربى حين قراءة القرآن ، فهو إذن قد وضع الجذور للنحو العربى .

ومن هذه النقطة ابتدأ النحو . فاتخذ له شكلا آخر ، فأصبح بعد توالى الأيام علمـًا مترامى الأطراف لا ساحل لخضمه »[3] .

وقد ساعد أبا الأسود على القيام بهذا العمل علمه بالعربية وبأساليبها كما

---

(١) سورة سبأ : آية ٢٤ .

(٢) نقلا عن مجلة كلية الآداب المجلد الثانى عشر ج ١ مايو سنة ١٩٥١ . ن مقال للدكتور عبد الوهاب حمودة (حول بحث أول من وضع النحو) ص ١٣٦ .

(٣) ديوان أبى الأسود ص : ٧٠ تحقيق عبد الكريم الدجيلى ط أولى : ١٩٥٤ شركة النشر والطباعة العراقية — بغداد .

قدمت . وحسه المرهف بمواقع الخطأ حينما تنحرف الألسنة عن جادة الصواب ، وقد رووا عنه أنه كان يقول : «إنى لأجد للحن غمراً كغمر اللّحم »[١] .

هذا والرواية التى تقول : إن عمر بن الخطاب هو الذى أمر أبا الأسود بوضع النحو – كما سجلها ابن الأنبارى – خطأ تاريخى تحتاج إلى تصحيح ، ولم يكن ابن الأنبارى وحده هو الذى لم ينتبه لخطأ هذه الرواية فقد شاركه فيها الزمخشرى فى كشافه حيث نسب إلى عمر وضع النحو وتعلم العربية[٢] بعد أن لحن القارئ أمامه ، فى آية التوبة المشهورة . وخطأ هذه الرواية يتضح فى أن عمر بن الخطاب لم يفد إلى العراق زمن الإسلام .

وواضح أن النحو العربى نشأ فى البصرة كما اتفق المؤرخون على ذلك .

ومن الممكن أن يكون عمر ذهب إلى العراق قبل الإسلام ، كما ذكر الهمدانى المتوفى (٣٣٤هـ) فى كتابه « الإكليل ج ٢ ص : ٣٥ المطبوع ببغداد سنة ١٩٣١ أن عمر وفد على النعمان بن المنذر وهو شاب فى فتية من قريش من أهل مكة »[٣]

أثر القرآن الكريم فى التطور النحوى إلى عصر سيبويه :

لم يكن اللحن فى عصر الرسول عليه السلام ، وعصر الخلفاء الراشدين ظاهرةً عامة ، تتسرب إلى كل طبقة ، وتمتد إلى ألسنة العوام والخواص ، بل كان محصوراً كما قلت فى فئة الموالى والعبيد الذين دخلوا الإسلام ، وعاشوا فى ظلال العربية التى خلق فيها القرآن الكريم روح القوة والفتوة ، وحاولوا محاكاتها ، والتحدث بها فكان من الطبيعى أن تنحرف ألسنتهم عن جادة الصواب فى بعض مواقف الكلام .

أما فى العصر الأموى حيث امتدت رقعة الدولة الإسلامية من المحيط إلى الخليج ، فقد انتظم فى سلك الإسلام كثير من الأجناس الذين كانوا يرتضخون لكنات مختلفة ؛ ومثل ذلك يقال فى الدولة العباسية حيث قويت شوكة الموالى ، وكان لهم من السطوة والبأس ما يجعلهم يديرون سفينة الأمور ، ويشتركون فى مقاليد الحكم .

---

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر : جـ ٧ ص ١٠٩ مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٣٥١ هـ .
(٢) انظر : الكشاف للزمخشرى : جـ ٢ ص ١٩١ .
(٣) نقلا عن هامش ديوان أبى الأسود : ص ٦٥ .

أقول : فى هذين العصرين بدأ اللحن يعلن عن نفسه وتسرب إلى البيوتات العربية فأفسد الكثير من ألسنتها وكان خطبه جسيما ، فلم يشمل العامة وحدهم ، بل امتدت سطوته إلى الخاصة بل إلى البلغاء والفصحاء .

ولم يكن مقصوراً على لحن اللسان عند التحدث فى مقامات الكلام المختلفة بل تجاوز ذلك إلى القرآن الكريم نفسه ولم يقع اللحن فى القراءة من الأعاجم والموالى وحدهم ، بل شاركهم فى ذلك من ولدوا فى بيئات عربية ، ونشأوا فى أحضان اللغة الفتية ، فكان الخطب جسيما ، والمصيبة بالغة ، وكانت مصيبته أشد ، حينما وقع العلماء والفصحاء فى شركه . وانحرفت ألسنتهم فى مجال قراءة القرآن الكريم عن جادة الصواب .

وهذه صورة من اللحن توضح حالته ، وتبين خطبه فى هذه الفترة من الزمان .

صور من لحن الخاصة فى القرآن الكريم :

١ ــ لحن الحجاج :

الحجاج كان يضرب به المثل فى الفصاحة والبلاغة ، وأحد الأربعة الذين اشتهروا بالفصاحة وتجنب اللحن ، والذين يتحدث عنهم الأصمعى فيقول : « أربعة لم يلحنوا فى جد ولا هزل ، الشعبى ، وعبد الملك بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، وابن القرية ، والحجاج أفصحهم »[١] .

ومع ذلك فقد رووا أنه لحن فى القرآن الكريم يحدثنا الجاحظ فيقول: « روى أبو الحسن أن الحجاج كان يقرأ « إنا من المجرمون [٢] منتقمون »[٣]

٢ ــ لحن الحسن البصرى :

الحسن البصرى ــ وإن كان من طبقة الموالى ــ قد كان له جهد عظيم فى محاكاة البلغاء والفصحاء حتى صار واحداً منهم فى قوة بيانه ، وامتلاكه لناصية اللغة مما جعل علماء اللغة يرفعونه إلى منزلة الحجاج فى مجال الفصاحة والبلاغة .

---

(١) أخبار الزجاجى لوحة ٣٠ نسخة مصورة مجموعة رقم ٢٢٠٩٦٧ مكتبة جامعة القاهرة .

(٢) السجدة : آية ٢٢ .

(٣) البيان والتبيين للجاحظ : جـ ٢ ص ٢١٨ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

روى الجاحظ أن « رؤبة بن العجاج ، وأبا عمرو بن العلاء زعما أنهما لم يريا قرويين أفصح من الحسن والحجاج »[١] .

ومع هذه الفصاحة فقد لحن الحسن البصرى فى القرآن ، فقد روى الجاحظ أن الحسن « غلط فى حرفين من القرآن مثل : (ص والقرآنُ)[٢] ، والحرف الآخر (وما تنزلت به[٣] الشياطون)[٤] .

٣ — وقد وصل اللحن فى القرآن إلى حد القراءة بما يدعو إلى الكفر، ويؤدى إلى الإلحاد .

« فسابق » الأعمى يقرأ (الخالق البارئ . المصوَّر)[٥] فكان « ابن جابان » إذا لقيه قال : يا سابق ما فعل الحرف الذى تشرك بالله فيه ؟

وقرأ : (ولا تَنْكِحوا المشركين حتى يؤمنوا)[٦]

وقال ابن « جابان » : « وإن آمنوا أيضاً لم ننكحهم * »[٧] .

٤ — وحدث أبو حرب قال : « حدثنى عبد الله بن سلمة الأفطس قال : سمعت أبا جعفر يخطب بعرفات : فقرأ هذه الآية (فمن تعجل فى يومين فلا ثمَّ عليه ، ومن تأخر فلا ثم عليه)[٨] موصولتين . قال : قلت : هذا فى الإثم لم يخرج منه »[٩] .

وإذا كان اللحن فى القرآن الكريم قد وصل إلى هذه الكثرة فمن باب أولى

---

(١) البيان والتبين : جـ ٢ ص ٢١٩ .
(٢) سورة ص : ١ ، ٢ .
(٣) سورة الشعراء : آية ٢١٠ .
(٤) نفس المرجع والصفحة .
(٥) سورة الحشر : آية ٢٤ .
(٦) سورة البقرة : آية ٢٢١ .
(٧) البيان والتبيين : جـ ٢ ص ٢١٩ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .
(*) فى حاشية التيمورية قوله : وإن آمنوا أيضاً لم تنكحهم، لأنه فى القراءة ولا تنكحوا بضم التاء، يقال : نكحت المرأة ، وأنكحتها غيرى . وفسره المفسرون على معنى ولا تنكحوا المشركين بناتكم ، فلما قرأ هذا بالفتح التبس فيه المذكر بالمؤنث فجاوبه ابن جابان على ذلك . (هامش البيان والتبيين جـ ٢ ص ٢١٩ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون) .
(٨) سورة البقرة آية : ٢٠٣ .
(٩) الأمالى : عن أبى عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن محمد يحيى بن المبارك اليزيدى م ٣١٠ ط أولى — الهند ص : ٩٠ .

أن يقع فى غيره ، وبخاصة فى أوساط العامة الذين تأثروا باللحن الوافد عليهم من مخالطيهم من الموالى والأعاجم ، وهذه بعض صور منه :

صور من اللحن فى غير القرآن الكريم :

١ ـ يعقد الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » باباً من لحن البلغاء يعرض فيه صوراً من هذا الوباء الشامل الذى تسرب إلى عامة الناس ، واقتحم ألسنة الخاصة من البلغاء ، وأرباب البيان مما يدل على أن التزام الأسلوب العربى فى متانة تركيبه، وسلامة عباراته، وصحة كلماته، كان لا يلتزمه إلا الخاصة من علماء اللغة « كأبى زيد النحوى ، وابن سعيد المعلم »[١] .

روى الجاحظ أنه « ارتفع إلى زياد رجل وأخوه فى ميراث ، فقال : إن أبونا مات ، وإن أخينا وثب على مال أبانا فأكله ، فأما زياد فقال : الذى أضعت من لسانك أضر عليك مما أضعت من مالك .

وأما القاضى فقال : فلا رحم الله أباك ، ولا نيّح عظم أخيك[٢] ، قم فى لعنة الله »[٣] .

٢ ـ وروى الجاحظ عن أبى الحسن قال : « أوفد زياد عبيد الله بن زياد إلى معاوية ، فكتب إليه معاوية ؛ إن ابنك كما وصفت ، ولكن قوِّم من لسانه » .

وكانت فى عبيد الله لكنة، لأنه كان نشأ بالأساورة[٤] مع أمه مرجانة ، وكان زياد قد زوجها من شيرويه الأسوارى ، وكان قال مرة : افتحوا سيوفكم ، يريد : سلّوا سيوفكم فقال (يزيد بن مفرغ) :

ويوم فتحت سيفك من بعيد   أضعت ، وكل أمرك للضياع[٥]

٣ ـ وقال رجل للحسن البصرى « يا أبو سعيد » قال : كسب الدراهم شغلك

---

(١) البيان والتبيين : جـ ٢ ص : ٢٢١ .

(٢) يقال : لانيح الله عظامه : لاصلبها ، ولا شد منها (البيان والتبيين جـ ٢ ص ٢٢٢ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

(٣) البيان والتبيين جـ ٢ ص : ٢٢٢ .

(٤) الأساورة : قوم من العجم بالبصرة نزلوا قديماً (هامش البيان والتبيين جـ ٢ ص ٢١٠) .

(٥) البيان والتبيين جـ ٢ ص : ٢١٠ ، ٢١١ .

أن تقول : يا أبا سعيد ، ثم قال : « تعلموا العلم للأديان ، والنحو للسان ، والطب للأبدان »[١] .

٤ — وقيل لأبى حنيفة : «ما تقول فى رجل أخذ صخرة فضرب بها رأس رجل فقتله أتقيده به ؟ قال : لا ، ولو ضرب رأسه بأبا قبيس »[٢]

إعلان الحرب على اللحن واللحانين فى هذا العهد :

على أن هذا اللحن لم يجد أرضًا خصبة ينبت فيها فى هذه الفترة من الزمان لأن العربية كانت لا تزال تحتل فى نفوس القوم منزلة كبيرة ، لذلك كانوا لا ينظرون بارتياح إلى هؤلاء الذين كانت تنحرف ألسنتهم سواء أكانوا من عامة الشعب أم من الخاصة ، وقد حفظ لنا التاريخ صوراً من ذم اللحن ، ومقاومته ، وإعلان الحرب عليه فى غير لين أو هوادة .

صور من ذم اللحن واللحانين :

١ — رووا أن عبد الملك بن مروان قال : اللحن هجنة على الشريف[٣] .

٢ — وقال مسلمة بن عبد الملك : إنى لأحب أن أسأل هذا الشيخ يعنى عمرو ابن مسلم ، فما يمنعنى منه إلا لحنه[٤] .

٣ — وقال إبان بن سعيد : اللحن فى الرجل ذى الهيبة كالدنس فى الثوب الجيد[٥] .

٤ — وكان عبد الله بن إدريس الذى روى عنه مالك بن أنس إذا لحن الرجل عنده فى كلامه لم يحدثه[٦] .

٥ — ويخطئ الحجاج فى القرآن الكريم . فيوجهه ابن يعمر ويرشده إلى الصواب ، وخوفًا من أن يشتهر أمر اللحن ينفيه الحجاج إلى خراسان حتى لا يكون ذلك فضيحة تلحق الحجاج وهو من هو فى الفصاحة والبلاغة .

---

(١) زهر الآداب جـ ١ ص : ١٤٥ ط الثانية — الرحمانية .

(٢) البيان والتبيين جـ ٢ ص : ٢١٢ .

(٣) البيان والتبيين : جـ ٢ ص : ٢١٦ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

(٤) المرجع السابق ص : ٢١٩ .

(٥) ألف ، باء : جـ ١ ص : ٤٦ : أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوى .

(٦) تاريخ بغداد جـ ٩ ص : ٤١٩ ، مطبعة السعادة .

قال ابن سلام : « أخبرني يونس بن حبيب قال : قال الحجاج لابن يعمر : أتسمعني ألحن ، قال : الأمير أفصح الناس ، قال : عزمت عليك أتسمعني ألحن ؟ قال حرفًا . قال أين ؟ قال في القرآن الكريم ، قال ذلك أشنع له .. فما هو ؟ قال تقول : (قل إن كان آباؤكم . . . أحبُّ إليكم من الله ورسوله)[١] قرأها بالرفع كأنه لما طال عليه الكلام نسى ما ابتدأ به .

قال يونس : فقال الحجاج : لا جرم ، لا تسمع لى لحنًا أبدًا فألحقه بخراسان ، وعليها يزيد بن المهلب »[٢] .

٦ — وفى سبيل سلامة اللغة كان الولاة والقضاة لا يسمعون إلا لمن صح لسانه وكمل بيانه حتى ولو كان اللاحنون أصحاب حق ، وطلاب عدل كأن الخطأ فى اللغة جرم لا يقاس به جرم ، وذنب لا يطاوله ذنب ، وقد روى الجاحظ فى ذلك قصة رجل وأخيه رفعت إلى زياد فى ميراث ، وقد سبق بيانها[٣] .

نمو الحركة النحوية :

وكان أكبر خطوة فى سبيل مقاومة اللحن والقضاء عليه تطور الحركة النحوية ونموها على يد تلامذة أبى الأسود ، ذلك الذى بدأ هذه الحركة بتنقيط المصحف تنقيط إعراب .

وأشهر هؤلاء التلاميذ : «عنبسة الفيل ، وميمون الأقرن ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، ويحيى بن يعمر »[٤] .

على أن السيوطى فى « المزهر » يوضح فى شىء من التفصيل سلسلة التدرج النحوى فى مدرسة أبى الأسود إلى أن تولى قيادتها عبد الله بن أبى إسحاق فيقول : « وأما فيما روينا عن الخليل ، فإنه ذكر أن أبرع أصحاب أبى الأسود عنبسة الفيل وأن ميمونًا الأقرن أخذ عنه بعد أبى الأسود فرأس الناس بعد عنبسة وزاد فى الشرح ثم توفى وليس فى أصحابه أحد مثل عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى »[٥] .

---

(١) سورة التوبة : آية ٢٤ .
(٢) طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلام الجمحى ص ١٣ دار المعارف .
(٣) ص : ٦٠ من هذا البحث .
(٤) نزهة الألبا : ص ١٥ .
(٥) المزهر : جـ ٢ ص ٣٩٨ ط ثانية — الحلبى .

وعلى يد عبد الله بن أبى إسحاق ازدهرت الحركة النحوية ، وأفسحت الطريق أمامها لتسير فى قوة وثبات حتى يتسلم قيادتها الخليل وتلميذه سيبويه، فتتطور إلى مدارس ومناهج ، وآراء ومذاهب ، وذلك ما سأتحدث عنه فيما بعد إن شاء الله — فى شىء من التفصيل .

والذى يعنينى فى هذا المجال أن أبين أن عبد الله بن أبى إسحاق كان أول من علل النحو ، وكان شديد التجريد للقياس[1] ، « وهذا القياس كان يقوم فى الحركة إذ ذاك » بحكم الفطرة والسجية فمن الطبيعى أن يقارن الإنسان بين الأشياء فيعرف منها المشتبه فيها والمختلف ، ويبحث عن الأوصاف التى تتلقى فيها الأمور المتشابهة ، والظواهر المتقاربة ، ثم يستنبط بعد ذلك من هذه الظواهر ، أو من هذه الأشباه والنظائر مقاييسه وأصوله »[2] .

ولم يكتف عبد الله بن أبى إسحاق بدراسة النحو عن طريق التلقين والتعليم وإنما حاول أن يسجل بعض نشاطه العلمى فى هذا المضمار فى بعض كتب تحفظ القواعد والأصول ، ولا غرو فهو « أعلم أهل البصرة وأمثلهم ففرع النحو وقاسه . وتكلم فى الهمز حتى عمل فيه كتاباً أملاه »[3] .

واشترك معه فى تطور الحركة النحوية فى هذه الفترة أبو عمرو بن العلاء وكان أبو عمرو يمثل اللغة العربية فى أساليبها ومفرداتها ، فقد جمع منها الكثير الذى يعز على العد والإحصاء ، وقد لقب بشيخ الرواة . وقد قال عنه يونس فى هذا المجال كما تحدث ابن سلام :

« لو كان أحد ينبغى أن يؤخذ بقوله كله فى شىء واحد كان ينبغى لقول أبى عمرو بن العلاء فى العربية أن يؤخذ كله ، ولكن ليس أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك »[4] .

ويقول عنه أبو عبيدة : « أبو عمرو أعلم الناس بالقراءات والعربية »[5] .

---

(١) نزهة الألبا : ص ٢٢ .
(٢) المدرسة النحوية فى مصر والشام : ص ٢١٤ مخطوط عبد العال سالم .
(٣) المزهر : ج ٢ ص ٣٩٨ ط ثانية — الحلبى .
(٤) طبقات الشعراء : محمد بن سلام الجمحى ص ١١ : المطبعة المحمودية .
(٥) البغية : ص ٢٦٧ .

وكما كان ابن أبي إسحاق مؤلفًا وممليًا لآرائه ورواياته كذلك كان أبو عمرو، فقد قالوا : « وكانت دفاتره ملء بيته إلى السقف ثم تنسك فأحرقها»[١] .

ولولوع أبي عمرو باللغة ، وشدة حبه لها ، وشغفه بها ، ما رواه متحدثًا عن تحريه ، وضبطه لأصولها : قال : « كنت هاربًا من الحجاج بن يوسف . وكان يشتبه عليّ "فرجة" هل هو بالفتح أو بالضم فسمعت قائلا يقول :

ربما تجزع النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال

بفتح الفاء من فرجة . ثم قال : ألا إنه قد مات الحجاج . قال أبو عمرو : فما أدرى بأيهما كنت أشد فرحًا بقوله : فرجة — أم بقوله مات الحجاج »[٢] .

مظاهر الحركة النحوية :

وقد كانت هذه الحركة تتمثل فى عدة مظاهر مختلفة :

١ — **المظهر الأول :** صيانة الأسلوب العربى من كل تحريف ، لأن التساهل فيه ، وغض النظر عنه يوقع فى التساهل فى قراءة القرآن من غير ضبط صحيح ، أو أداء سليم .

لهذا ، فقد سمح نحاة هذا العصر وعلى رأسهم ابن أبي إسحاق وأبو عمرو ابن العلاء لأنفسهم أن يكونوا أوصياء على غيرهم من رجالات البيان ، وفحول الشعراء.

فعبد الله بن أبي إسحاق يتصدى للفرزدق فى مواقف عديدة ينقد شعره ، ويزرى به ، لخروجه عن القواعد والأصول التى وضعوها بعد الاستقراء والقياس للأساليب العربية ، يقول ابن الأنبارى : « روى أبو عمرو أن ابن أبي إسحاق سمع الفرزدق ينشد :

وعض زمان يابن مروان لم يدع من المال إلا مسحتاً أو مجلف

فقال له ابن أبي إسحاق على أى شىء ترفع أو مجلف . فقال : على ما يسوءك وينوءك »[٣] .

ومما يجدر ذكره فى هذا الموضع أن الخلافات النحوية التى تسربت إلى

---

(١) البغية ص ٢٦٧ .
(٢) مجلة الأزهر — م ٢٤ ص : ٥٩ ، ٦٠ من مقال : جهود المسلمين فى النحو والبلاغة للأستاذ محمد عرفة .
(٣) نزهة الألبا ص ٢٤ .

النحو ، وأطلت بوجهها فى كل مسألة من مسائله ، بدأت فى هذه الفترة ، وبدأت بين رأسين من بناة هذه الحركة فى هذه الفترة ، بين ابن أبى إسحاق وبين أبى عمرو ، ففى القصة السابقة انتصر أبو عمرو للفرزدق فقال : « أصبت وهو جائز على المعنى أى أنه لم يبق سواه »(١) .

وأبو عمرو بن العلاء يسمح لنفسه بنقد النابغة الذبيانى ، فقد « قرأ الأصمعى على أبى عمرو بن العلاء شعر النابغة الذبيانى ، فلما بلغ قوله فى وصف الناقة :

مقذوفة بدخيس النحض بازلها ... له صريف صريف القعو بالمسد(٢)

قال له أبو عمرو : ما أضر عليه فى ناقته ما وصف ، فقال له : وكيف ؟ قال : لأن صريف الفحول من النشاط ، وصريف الإناث من الإعياء والضجر كذا تكلمت العرب ، فرآه بسكوته مستزيداً . فقال : ألم تسمع قول ربيعة بن مقروم الضبى :

كِنازُ البضيع جُمَاليَّةٌ ... إذا ما بَغَمْنَ تراها كَتُوما(٣)(٤)

والناظر إلى هذا النقد يرى أن الحركة النحوية واللغوية التى امتد سلطانها إلى نصوص الشعر العربى فى الجاهلية أو الإسلام ، تصحح ما تُصحَّح وتنقد ما تنقد . أقول : إن هذه الحركة كان المسيِّر لها ، والدافع إليها الحرص على سلامة القرآن

---

(١) نزهة الألبا ص ٢٤ .

(٢) الناقة المقذوفة : أى مرمية باللحم .
الدخيس : اللحم الصلب المكتنز .
النحض : اللحم نفسه ، والقطعة الضخمة منه تسمى نحضة .
البازل : قال الجوهرى : بزل البعير يبزل بزولا فطر نابه أى انشق فهو بازل : كرا كان أو أنثى وذلك فى السنة التاسعة .
الصريف : الصوت .
القعو : قال الجوهرى : القعو : خشبتان فى البكرة فيهما المحور فإن كانا من حديد فهو خطاف .

(٣) دراسات فى نقد الأدب العربى من الجاهلية إلى القرن الثالث ص ٨٦ ، ٨٧ الدكتور بدوى طبانة ج ١ ط ثانية – طبع مخيمر .

(٤) الكناز : الناقة الصلبة اللحم .
البضيع : اللحم .
ناقة جمالية : وثيقة تشبه الجمل فى خلقها وشدتها وعظمها .
بغام الناقة : صوت لا تفصح به .
(انظر لسان العرب فى هذه المواد) .

الكريم ، والحفاظ على أسلوبه ، حتى يظل مصونًا من عبث العابثين ، وبذلك كان أثر القرآن الكريم فى نمو هذه الحركة وتطورها قويًّا مكينًا .

٢ــ المظهر الثانى لهذه الحركة : تعدد حلقات النحو واللغة فى المساجد وبهذه الحلقات العلمية كما يقول المرحوم الرافعى : « انحصر اللحن القبيح الذى هو مادة العامية فى الزعانف من الطبقات الوضيعة كالمحترفين وأهل الأسواق .

وكان الخطيب البليغ "خالد بن صفوان" ــ توفى فى أوائل الدولة العباسية ــ يدخل على بلال بن أبى بردة يحدثه فيلحن فلما كثر ذلك على بلال قال له : أتحدثنى أحاديث الخلفاء ، وتلحن لحن "السقاءات" فكان خالد بعد ذلك يأتى المسجد ويتعلم الإعراب »[1] .

ومن الممكن أن يقال فى هذا الموضع : إن حلقات النحو كانت تأخذ طريقها إلى الانتشار قبل أن يظهر سيبويه على مسرحه وذلك أمر ضرورى توجبه الحاجة وتدعو إليه الظروف الاجتماعية إذ ذاك . لأن كثرة الفتوح ، وما تبعها من كثرة الاختلاط بين العرب وغيرهم من الأسباب التى تجعل هؤلاء العلماء لا يفترون عن نشر موازين النحو صيانة للألسنة وحفاظًا على القرآن الكريم ، هذه ناحية .

وناحية أخرى يمكن أن نضيفها فى هذا المجال . وهى : رغبة الموالى والعجم فى الإلمام باللغة ليشاركوا فى نهضتها ويسهموا فى حركتها وليشعروا بجمال القرآن وبلاغته ، فيملك عليهم مسامعهم كما يملك على غيرهم من العرب .

يقول الأستاذ أمين الخولى : « ولما عزتهم الممارسة اللغوية والتلقى المباشر فزعوا إلى الطريقة الثانية . وهى المدارسة وكسب اللغة بالتعلم . وهى طريقة تحتاج إلى القواعد ، والأصول ، والضوابط ، والأسس التى يراض بها متعلم اللغة ، فذهبوا يلتمسون هذه الخصائص والمعالم اللغوية . والقوانين التعليمية واستقرءوا من مجموعهم فى اللغة ما استقرءوا »[2] .

٣ــ العناية بالتراث الأدبى الجاهلى والإسلامى اهتموا به وأقاموا حوله دراسات لغوية ونحوية للإفادة منه فى إقامة قواعد النحو ، واستخلاص شواهده ، فلم يعد

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى جـ ١ ص ٢٤٤ ، ص ٢٤٥ .
(٢) محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية ص١٣ أمين الخولى ط معهد الدراسات العربية العالية .

النحو مقصوراً على العناية بالقرآن ، وإنما مضى يفيد من مظاهر الفن القولى فى سبيل من خدمة القرآن كذلك »[١] .

٤ ـ تعليل الظواهر اللغوية بعد ضبطها ، وسلامة تراكيبها ، وحاول النحاة تعميم هذا التعليل ، وتعميقه ، وأخذت أقيستهم تلبس شكل القوانين وقد قلت سابقاً : إن ابن أبى إسحاق ، كان أول من علل النحو ، وفرع النحو وقاسه[٢].

٥ ـ التأليف النحوى واللغوى :

ومن مظاهر هذه الحركة: ظهور عدة مؤلفات فى النحو واللغة ، حقاً إنها قليلة ، ولكن القلة بداية الكثرة ، فهذه المؤلفات أثارت الأذهان ، وعبدت الطريق أمام المؤلفات التى حدثت بعد ذلك ، ويكفيهم فخراً أنهم مهدوا السبيل للنحاة الذين خلفوهم .

فعبد الله بن أبى إسحاق « تكلم فى الهمز حتى عمل فيه كتاباً أملاه »[٣] وأبو عمرو بن العلاء « كانت دفاتره ملء بيته إلى السقف »[٤] .

وعيسى بن عمر الثقفى أخذ عن أبى عمرو بن العلاء ، وعبد الله بن أبى إسحاق صنف فى النحو « الإكمال ، والجامع » وفيهما يقول تلميذه الخليل :

بطل النحو جميعاً كله غير ما أحدثه عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر[٥]

وعلى الرغم من إنكار السيرافى لهذين الكتابين حيث ذكر أنهما « لم يقعا إلينا ، ولا رأينا أحداً ذكر أنه رآهما[٦] » فإننا نسلم بصحة وجودهما ، لأننا لم نر أحداً أنكر كتاب الهمز لابن أبى إسحاق لعدم وجوده ، كما أننا نعترف بأن التفكير فى التأليف ومزاولته كان قبل ذلك على يد أساتذته الذين تحدثت عنهم وبخاصة أبو عمرو ، وابن أبى إسحاق .

---

(١) المجتمعات الإسلامية ، ص ٢٨٨ بتصرف .
(٢) المزهر حـ ٢ ص ٣٩٨ – الحلبى .
(٣) نفس المصدر والصفحة .
(٤) البغية ص ٢٦٧ .
(٥) البغية ص ٢٧٠ .
(٦) نفس المصدر والصفحة .

٦ ــ اختلاط الدراسات النحوية واللغوية فى هذه الفترة :

من مظاهر الحركة النحوية فى هذه الفترة أنها كانت ممتزجة بالحركة اللغوية فليس هناك فواصل أو حدود تحول بين التقاء هاتين الحركتين ، وذلك أمر لا يتنافى مع طبيعة هذه الفترة ، فأبو عمرو ، ويونس ، والخليل كانوا رواة للغة يجوبون الجزيرة العربية ، ويرحلون إلى البادية لتلقى اللغة عن مصادرها الأولى وقد تم لهم ما أرادوا ، وفى ضوء ما جمعوا حاولوا أن يضعوا القواعد ، ويرسموا الأسس ويوضحوا الأساليب.

فالصلة إذن بين النحو واللغة لا تنفصم عراها على مدى الأزمان وبخاصة فى هذه الفترة التى جمعت فيها اللغة ، ثم وضع النحو وتطور فى ضوء ما جمع منها .

يقول عبد اللطيف البغدادى فى الصلة بين اللغة والنحو ما نصه :

« اعلم أن اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه ، وأما النحوى فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوى ، ويقيس عليه ومثالهما المحدث والفقيه ، فشأن المحدث نقل الحديث برمته ، ثم إن الفقيه يتلقاه ، ويتصرف فيه ، ويبسط فيه علله ويقيس عليه الأمثال والأشباه »[1] .

وفى هذا العهد كان المتصدرون لوضع الأصول النحوية ، ومقاييسها هم اللغويون الذين كان لهم فضل جمعها ، ومن هنا اختلطت المسائل اللغوية والنحوية على يدهم مما جعل هذا الاختلاط من أوضح مظاهر هذه الحركة .

أمثلة توضح ذلك :

١ ــ حدثنا محمد بن سلام قال : سمعت يونس النحوى يقول فى قوله عز وجل : (فاليوم ننجيك ببدنك)[2] ننجيك : نجعلك على نجوة من الأرض وهى المكان المرتفع . . وأنشد لأوس بن حجر :

دان مسف فويق الأرض هيدبه ... يكاد يدفعه من قام بالراح
فمَن بِنَجْوَتِهِ كمن بعقوته ... والمستكن كمن يمشى بقرواح[3] [4]

---

(١) ضحى الإسلام جـ ٢ ص ٢٧٧ .

(٢) يونس : ٩٢ .

(٣) ذيل الأمالى والنوادر لأبى على القالى ص ١٨ و ١٩ ط ثانية دار الكتب .

(٤) البيت منسوب فى اللسان لعبيد . العقوة والعقاة الساحة وما حولها من الدار (اللسان جـ ١٩ ص ٣١١) ط أولى الأميرية : القرواح : البارز الذى ليس يستره من السماء شىء ، وقيل هو : الأرض البُرزة للشمس (اللسان جـ ٣ ص ٣٩٦) .

٢ ـــ وأبو عمرو بن العلاء كان فى مجال الآيات القرآنية يقرأ بما روى ، ولا يكتفى بذلك بل يصحح هذه القراءة بما ، سمع و بما قال العرب .

فعن أبى عبيدة قال : « سمعت أبا عمرو بن العلاء يقرأ (لتخذت عليه أجراً)[1] فسألته عنه فقال : هى لغة فصيحة وأنشد قول الممزق العبدى :

وقد تخذت رجلى إلى جنب غرزها نسيفاً[2] كأفحوص القطاة المطرق[3]

٣ ـــ وقد كان أبو عمرو : يقرأ « مالك يوم الدين » ملك بإسكان اللام كما يقال : فخذ ، وجمعه على هذا ملك وملوك[4] .

٧ ـــ الاختلافات النحوية فى الدراسات القرآنية :

لم تكن الاختلافات النحوية فى الدراسات القرآنية وقفاً على المدارس النحوية التى ظهرت فيما بعد ، والتى سنتحدث عنها فى الفصل التالى . وإنما وجدت طريقها إلى هؤلاء النحاة اللغويين الذين ظهروا فى هذه الفترة .

حقاً إنهم بصريون، نشئوا فى البصرة ، ومهدوا الطريق لمن جاء بعدهم كسيبويه وغيره ، بيد أنهم لم يلبسوا شعار التعصب الذى كان واضحاً فى مدرسة البصرة التى دعم أركانها ، ورفع لواءها الخليل، وتلميذه سيبويه فهم إن اختلفوا فى الدراسات النحوية حول آيات من كتاب الله ، فليس الاختلاف الذى يوجب التعصب ، ويصد عن الحق كما كان ذلك ملموساً فى مدرسة البصرة واختلافها مع مدرسة الكوفة .

---

(١) الكهف : ٧٧ .

(٢) النسيف : أثر كدم الحمار . وأثر ركض الرجل بجنبى البعير إذا انحص عنه الوبر (لسان العرب جـ ١١ ص ٢٤٢) .

الأفحوص مبيض القطاة لأنها تفحص الموضع ثم تبيض فيه (اللسان جـ ٨ / ٣٣٠) المطرق : قال ابن سيده : طرقت القطاه وهى مطرق حان خروج بيضها . (اللسان جـ ١٢ ص ٩٣) .

(٣) الأشباه والنظائر السيوطى جـ ٣ ص ٤١ ط الهند .

(٤) مشكل إعراب القرآن : لأبى محمد مكى بن أبى طالب الأندلسى مخطوط رقم ٢٣٢ ـــ تفسير ـــ ورقة / ٣ .

تراجم موجزة لأشهر النحاة
وطائفة من آرائهم النحوية فى مجال
القرآن الكريم

١ – عبد الله بن أبى إسحاق :

تولى زعامة النحو العربى بعد عنبسة الفيل الذى أخذ عن أبى الأسود[١] .

وهو – وإن كان معاصراً لأبى عمرو بن العلاء – نسيج وحده فى مجال القياس والعلة .

فقد كان ابن أبى إسحاق : « أول من بعج النحو ، ومد القياس وشرح العلل »[٢] .

ولابن أبى إسحاق ذهن وقاد ، وذكاء حاد ، ولعل هذا هو السر فى مده القياس ، وشرحه العلل .

وقد سئل يونس بن حبيب عن ابن أبى إسحاق وعلمه فقال : هو والنحو سواء أى هو الغاية .

وقيل له : فأين علمه من علم الناس اليوم؟ قال : لو كان اليوم فى الناس أحد لا يعلم إلا علمه لضحك منه .

ولو كان فيهم من له ذهنه ، ونفاذه ، ونظره كان أعلم الناس »[٣] .

وكان (ابن سيرين) ممن يعيبون على عبد الله بن أبى إسحاق شدة تمسكه بالنحو ، وتعلقه بأقيسته وقضاياه ولكنه فى النهاية أذعن لابن أبى إسحاق ، وعرف فضله وقيمة هذا النحو الذى يتكلم فيه .

يدل على ذلك ما رواه القفطى فى « إنباه الرواة » قال : « اجتمع ابن أبى إسحاق مع ابن سيرين فى جنازة ، فقال ابن سيرين : (كذلك إنما يخشى اللهُ

(١) الفهرست لابن النديم ص ٦٨ مطبعة الاستقامة .
(٢) انباه الرواة للقفطى جـ ٢ ص ١٠٥ طبع دار الكتب .
(٣) نفس المصدر والجزء والصفحة .

من عباده العلماءَ»[١] فقال ابن أبي إسحاق: كفرت يا أبا بكر بعيبك على هؤلاء الذين يقيمون كتاب الله ؟ فقال ابن سيرين : إن كنت أخطأت فأنا أستغفر الله ، ورجع إلى حلقته »[٢] .

وقد توفي «عبد الله بن أبي إسحاق وقتادة بن دعامة في يوم واحد ، فشيع الأدباء والأشراف جنازة ابن أبي إسحاق وشيع النساك والفقهاء جنازة قتادة بن دعامة»[٣] .

هذا وكانت وفاة عبد الله سنة سبع عشرة ومائة وهو ابن ثمان وثمانين سنة[٤] .

من آرائه :

١ - (هن أطهر لكم) [٥] :

كان ابن أبي إسحاق يقرأ (هن أطهرَ لكم) بالنصب ، وقد ضعف سيبويه هذه القراءة ، على حين دافع عنها ابن جنى في كتابه «المحتسب» .

قال ابن جنى : «ذكر سيبويه هذه القراءة وضعفها . . وإنما قبح ذلك عنده ، لأنه ذهب إلى أنه جعل (هن) فصلا — وليست بين أحد الجزأين اللذين هما مبتدأ وخبر ونحو ذلك كقولك : ظننت زيداً هو خيراً منك ، وكان زيدٌ هو القائم وأنا من بعد أرى أن لهذه القراءة وجهًا صحيحًا ، وهو أن نجعل (هن) أحد جزأي الجملة ، ونجعلها خبراً (لبناتى) كقولك : زيد أخوك هو ، ونجعل (أطهر) حالا من (هن) ، أو من (بناتى) والعامل فيه معنى الإشارة كقولك : هذا زيد هو قائمًا أو جالساً أو نحو ذلك ، فعلى هذا مجازه »[٦]

٢ - من قبل ومن دبر [٧] :

قال ابن جنى في المحتسب : ومن ذلك قراءة ابن أبي إسحاق «من» قُبُلُ و« من » دُبُرُ . بثلاث ضمات من غير تنوين .

---

(١) فاطر آية : ٨ .
(٢) الإنباه جـ ٢ ص ١٠٧ .
(٣) نفس المصدر ص ١٠٨ .
(٤) نفس المصدر ص ١٠٧ .
(٥) هود آية : ٧٨ .
(٦) المحتسب لابن جنى جـ١ ص٤٠٥ ، ص ٤٠٦ . رقم ٣٧٩-تفسير تيمور دار الكتب (مخطوط).
(٧) يوسف ٢٦ .

قال أبو الفتح : ينبغى أن يكونا غايتين كقول الله سبحانه (لله الأمرَ من قبلُ ومن بعدُ)[١] كأنه يريد وقدّت قميصه من دبره ، وإن كان قميصه قُدّ من قبله ، فلما حذف المضاف إليه أعنى الهاء ، وهى مرادة — صار المضاف غاية نفسه بعد ما كان المضاف إليه غاية له . وهذا حديث مفهوم فى قول الله سبحانه « من قبل ومن بعد » فبُنى هنا كما بُنى هنالك على الضم .

ووكّد البناء أن (قبل ودبر) يكونان ظرفين ألا ترى إلى قول الفرزدق :

يطاعن قُبُلَ الخيل وهو أمامها ويطعن عن أدبارها إن تولّتِ

وقال الله سبحانه : (ومن الليل فسبحة وأدبار السجود)[٢]، فنصبه على الظرف وهو جمع دُبُر[٣] .

٣ — والمقيمى الصلاة [٤] :

قال ابن جنى فى المحتسب : « ومن ذلك قراءة ابن أبى إسحاق والحسن ورويت عن أبى عمرو (والمقيمى الصلاةَ) بالنصب . قال أبو الفتح ، أراد المقيمين فحذف النون تخفيفاً لالتعاقبها الإضافة ، وشبه ذلك باللذين والذين فى قوله :

فإن الذى حانت بفلج دماؤهم هم القوم كل القوم يا أم خالد

حذف النونَ من الذين تخفيفاً لطول الاسم ، فأما الإضافة فساقطة هنا وعليه قول الأخطل :

أبنى كليبَ إن عمىَّ اللذا قتلا الملوك ، وفكّكا الأغلالا

حذف نونَ اللذان كما ذكرنا »[٥] .

٤ — ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين [٦] :

قال سيبويه : فالرفع على وجهين : فأحدهما أن يشرك الآخر الأول . والآخر على حد قولك : دعنى ولا أعود فإنى ممن لا يعود ، فإنما يسأل الترك ، وقد

---

(١) الروم (٤) .
(٢) ق : ٤٠ .
(٣) المحتسب جـ ١ ص ٤٢٠ ص ٤٢١ . نسخة رقم ٣٧٩ — تفسير (تيمور) .
(٤) الحج آية : ٣٥ .
(٥) المحتسب جـ ٢ ص ١١٥ .
(٦) الأنعام : ٢٧ .

أوجب على نفسه أن لا عودة له البتة . ترك أو لم يترك ، ولم يرد أن يسأل أن يجتمع له الترك وأن لا يعود .

وأما عبد الله بن أبي إسحاق فكان ينصب هذه الآية [١].

٢ ـ أبو عمرو بن العلاء :

كان معاصراً لابن أبي إسحاق ، وهو : أبو عمرو بن العلاء بن عمار بن العريان[٢]

وأخبر الرياشي عن الأصمعي قال : قلت لأبي عمرو :

ما اسمك ؟ فقال لي : أبو عمرو . قال : وكان نقش خاتمه :

إن امرأ دنياه أكبر همـــه   مستمسك منها بحبل غرور

وهذا البيت له ، وكان رجلا صالحاً ، ولا نعرف له شعراً إلا هذا البيت[٣] .

أخذ أبو عمرو عن جماعة من التابعين ، وقرأ القرآن على سعيد بن جبير ومجاهد وروى عن أنس بن مالك وعطاء وطائفة .

وقد قال أبو عبيدة عنه : أبو عمرو أعلم الناس بالقراءات والعربية ، وأيام العرب .

وكان من تلامذته اليزيدي ، وعبد الله بن المبارك ، وخلق وأخذ عنه الأدب أبو عُبيدة ، والأصمعي[٤] .

وقد أشاد بأبي عمرو يونس بن حبيب الذي روى عنه أنه قال : « لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء واحد كان ينبغي لقول أبي عمرو بن العلاء في العربية أن يؤخذ كله ، ولكن ليس أحد إلا وأنت آخذ من قوله ، وتارك »[٥] .

ولمنزلة أبي عمرو بن العلاء في اللغة والنحو كان المتأخرون من النحاة يدافعون عنه ، ولا ينسبون الخطأ إليه .

---

(١) الكتاب : جـ ١ ص ٤٢٦ المطبعة الأميرية .
(٢) مراتب النحويين لأبي الطيب : ص ١٣ مطبعة نهضة مصر بالفجالة .
(٣) المرجع السابق : ص ١٤ .
(٤) البغية : ص ٢٦٧ بتصرف .
(٥) طبقات الشعراء لابن سلام : ص ١١ المطبعة المحمودية .

فعن ابن الأنبارى أنه قال : « أما ما روى عن أبى عمرو من إدغام الراء فى اللام فى قوله عز وجل (يغفر لكم خطاياكم)[1] ، فالعلماء ينسبون الغلط فى ذلك إلى الراوى لا إلى أبى عمرو ولعل أبا عمرو أخفى الراء فخفى على الراوى فتوهَّمه إدغاماً »[2] .

من آرائه :

١ — فنعِمّا هى [3] :

روى عن أبى عمرو ونافع بإسكان العين[4] .

ولم يوافق محمد بن يزيد على إسكان العين ، ويرى أنه محال فيقول : « فأما الذى حكى عن أبى عمرو ونافع من إسكان العين فمحال »[5] .

ولم يقف عند إصدار هذا الرأى ، بل حاول أن يعلل لِـمَ كان محالا ؟ فيقول : «أما إسكان العين ، والميم مشددة فلا يقدر أحد أن ينطق به»[6] .

٢ — يا جبال أوبى معه والطير [7] :

كان أبو عمرو يقرأ (والطيرَ) بالنصب ويقول : « على إضمار وسخرنا الطير لقوله على أثر هذا (ولسليمان الريحَ)[8] أى سخرنا الريح »[9] .

٣ — ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد [10] :

كان أبو عمرو يصحح قراءة النصب فيقول : « خرجت من الخندق يعنى خندق البصرة حتى صرت إلى مكة لم أسمع أحداً يقول : اضرب أيُّهم أفضل ، أى كلهم ينصبون »[11] .

---

(١) سورة البقرة آية : ٥٨ .
(٢) أسرار العربية لابن الأنبارى : ص ٤٢٥ ، ص ٢٦ ٤ مطبعة الترقى بدمشق .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٧١ .
(٤) إعراب القرآن لأبى جعفر النحاس ورقة ٢٣ مخطوط رقم ٤٨ تفسير — دار الكتب .
(٥) المرجع السابق .
(٦) المرجع السابق .
(٧) سورة سبأ : آية ١٠ .
(٨) سبأ : آية ١٢ .
(٩) طبقات الشعراء : ص ١٤ ط المحمودية .
(١٠) سورة مريم : آية ٦٩ .
(١١) البيان فى غريب إعراب القرآن لابن الأنبارى ورقة : ٢٥١ .

٤ ـ فأصدق وأكن من الصالحين [١] :

قرأ أبو عمرو : (وأكون) بنصب الفعل عطفاً على(فأصدق) ، و(فأصدق) منصوب على جواب التمنى فى قوله : (لولا أخرتنى) [٢] .

٥ ـ يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين [٣] :

كان أبو عمرو يقرأ «بالرفع (نكذب)و(نكون)معطوفان على(نرد)، فيدخلان فى التمنى دخول (نرد) فيه أى وليتنا لا نكذب ، وقد قال بعد: وإنهم لكاذبون[٤] »

٣ ـ عيسى بن عمر الثقفى :

قال الخليل : « وأخذ العلم عن أبى عمرو : أبو عمر عيسى بن عمر الثقفى ، وكان أفصح الناس »[٥] .

ويقول ابن النديم : « ويروى عنه قراءات ، وهو بصرى من متقدمى نحويى البصرة »[٦] .

ونسبته إلى ثقيف نسبة ولاء لا نسبة نسب ، فهو مولى « خالد بن الوليد نزل فى ثقيف فنسب إليهم »[٧] ، وكان يتقعَّر فى كلامه . حكى عنه الجوهرى فى «الصِّحاح» وغيره أنه سقط عن حمار ، فاجتمع إليه الناس فقال: ما لى أراكم تكأكأتم علىَّ ـ كتكأكئكم على ذى جِنة افرنقعوا عنى[٨] .

أما مصنفاته فى النحو فيذكر ابن النديم أن له كتابين :

١ ـ كتاب الجامع . ٢ ـ كتاب المكمل .

وقد ذكر الخليل هذين الكتابين فقال :

بطل النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر

---

(١) سورة المنافقون : آية ١٠ .
(٢) إعراب القرآن جـ ٨ . للسمين الحلبى مخطوط رقم ١٠٧ تفسير ـ دار الكتب
(٣) سورة الأنعام : آية ٢٧ .
(٤) إعراب القرآن للسفاقسى جـ ١ نسخة رقم ٢٢٢ تفسير ـ دار الكتب .
(٥) مراتب النحويين ص ٢١ .
(٦) الفهرست : ص ٦٨ ابن النديم .
(٧) البغية ص : ٣٧٠ .
(٨) المصدر نفسه والصفحة .

ذاك إكمال وهذا جـــامع فهما للناس شمس وقمر[١].

ومات عيسى بن عمر في سنة تسع وأربعين ومائة قبل أبي عمرو بخمس سنين أو ست[٢].

هذا ، وقد كان لعيسى بن عمر منهج واضح في لغة العرب ، فقد كان من منهجه أنه لا يحيط إنسان بهذه اللغة ، ولما وضع كتابًا فيها قال له أحد العلماء: « أخبرني عن هذا الذى وضعته فى كتابك أيدخل فيه كلام العرب كله ؟ قال : لا ، قلت : فمنْ تكلم خلافك واحتذى ما كانت العرب تتكلم به تراه مخطئًا ؟ قال : لا ، قلت : فما ينفع كتابك[٣] !

فهذه القصة — إن صحت — تدل على منزلة عيسى بن عمر فى العربية ، وأن سائله تحرج أن يحيد عن نهج كتابه ، أو يبتعد عن احتذائه فى كلامه ، ومن ثَمّ ألقى عليه سؤاله ظنًّا منه أن يجيب عيسى بن عمر عنه بأنه لا مفر من أن يكون كتابه منهج العربية ، وأصولها التى تحتذى .

ولعل التصنيف النحوى واللغوى كان أول من شق طريقه فى نظام وترتيب ، وتشذيب وتهذيب ، وتنسيق ، وتبويب عيسى بن عمر .

فقد قال ابن الأنبارى : « إن عيسى بن عمر وضع كتابه على الأكثر ، وبوبه ، وهذبه ، وسمى ما شذ عن الأكثر لغات »[٤] .

ومن منهج عيسى بن عمر الاعتماد على كلام العرب والهرب من التأويلات والتعليلات .

يدل على ذلك أن « الحسن بن قحطبة » عند مقدمه « مدينة السلام » جمع الكسائى والأصمعى ، وعيسى بن عمر .

فألقى عيسى بن عمر على الكسائى مسألة ، فذهب الكسائى يوجه احتمالاتها فقال له عيسى : « عافاك الله : إنما أريد كلام العرب ، وليس هذا الذى تأتى به بكلامها »[٥] .

---

(١) الفهرست ص : ٦٨ ، ٦٩ بتصرف .
(٢) مراتب النحويين ص : ٢١ .
(٣) إنباه الرواة جـ ٢ ص : ٣٧٥ .
(٤) إنباه الرواة جـ ٢ ص : ٣٧٥ .
(٥) المصدر نفسه ص : ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

من آرائه

١ — سنفرغ لكم أيها الثقلان[١] :

قال أبو جعفر النحاس « وقرأ عيسى سنفرغ لكم بكسر النون وفتح الراء »[٢]

٢ — ولكن تصديقُ الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة [٣] :

قال ابن جنى : «قراءة عيسى الثقفى برفع الثلاثة الأحرف ، أى ولكن هو تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة ، فحذف المبتدأ وبقى الخبر »[٤] . وعلى هذه القراءة يقيس ابن جنى فيقول : «ويجوز على هذا الرفع فى قوله تعالى : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسولُ الله ، وخاتم النبيين)[٥] ، أى ولكن هو رسول الله »[٦]

٣ — الزانية والزانى فاجلدوا [٧] :

كان عيسى بن عمر يقرأ : (الزانيةَ والزانىَ) بالنصب قال أبو الفتح : « وهذا منصوب بفعل مضمر أى اجلدوا الزانية والزانى ، فلما أضمر الفعل الناصب فسره بقوله : فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة وجاز دخول الفاء فى هذا الوجه لأنه موضع أمر ، ولا يجوز زيداً فضربته لأنه خبر »[٨] .

٤ — من نهار بلاغاً [٩] :

وقرأ عيسى (من نهار بلاغًا) قال أبو الفتح : « هو على فعل مضمر أى بلغوا أو بلّغوا بلاغًا »[١٠] .

---

(١) سورة الرحمن : آية ٢١ .
(٢) إعراب القرآن : أبى جعفر النحاس ورقة : ٢١٥ — مخطوط رقم : ١٧٨ — تفسير .
(٣) سورة يوسف : آية ١١١ .
(٤) المحتسب ج ١ ص : ٤٣٦ .
(٥) سورة الأحزاب : آية ٤٠ .
(٦) المحتسب ج ١ ص : ٤٣٦ .
(٧) سورة النور آية : ٢ . ٣
(٨) المحتسب ج ٢ ص : ١٣٨ .
(٩) سورة الأحقاف آية : ٣٥ .
(١٠) المحتسب ج ٢ ص : ٣٣٢ .

٥ — فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر [١] :

قال سيبويه فى الكتاب : « هذا باب من أبواب إن ، تقول : قال عمرو : إن زيداً خيرُ الناس ، وذلك لأنك أردت أن تحكى قوله ، ولا يجوز أن تعمل قال فى إنَّ كما لا يجوز لك أن تعملها فى زيد وأشباهه إذا قلت : قال عمرو : زيدٌ خير الناس ، فإن لا تعمل فيها ، قال كما لا تعمل قال فيما تعمل فيه "أنّ" لأن "أن" تجعل الكلام شأناً ، ثم قال سيبويه :

وكان عيسى يقرأ هذا الحرف (فدعا ربه إنى مغلوب فانتصر) أراد أن يحكى كما قال عز وجل :(والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم)[٢] كأنه قال : والله أعلم : قالوا : ما نعبدهم»[٣] .

٤ — يونس بن حبيب :

اختلف فى نسبه هل هو عربى الأصل أو أعجمى تعرّب ؟ فأبو الحسن الخزاز قال : « أراه مولى لبنى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة»[٤] . ولكنه لم يقطع برأى فاصل فى هذا الأمر ، وبدأ الشك يتسرب إلى نفسه فقال : « فلا أدرى هو مولى أم لا »[٥] .

ويذكر أبو الطيب أنه « أخذ عن أبى عمرو»[٦] ويؤيد هذه الرواية ما ذكره ابن النديم أن يونس بن حبيب « حكى عنه أنه قال : لم أسمع من عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى »[٧] ثم قال ابن النديم : « وكان يونس من أصحاب أبى عمرو بن العلاء »[٨] .

وكان ليونس فى عصره منزلة كبيرة فى نفوس طلاب العلم ، فحلقته بالبصرة

---

(١) سورة القمر آية : ١٠ .
(٢) سورة الزمر : آية ٣ .
(٣) الكتاب جـ ١ ص : ٤٧١ .
(٤) الفهرست ص : ٦٩ .
(٥) المرجع السابق .
(٦) مراتب النحويين ص : ٢٢ .
(٧) الفهرست : ص : ٦٩ .
(٨) المرجع السابق .

« ينتابها طلاب العلم ، وأهل الأدب ، وفصحاء الأعراب ، ووفود البادية »[١] .

ولبراعة يونس فى النحو واللغة « روى عنه سيبويه فأكثر »[٢] .

ويبدو للباحث أن نحو يونس كان نواة للنحو الكوفى الذى تطور إلى أصول ومقاييس على يد أساتذة مدرسة الكوفة التى سنتحدث عنها فيما بعد . إن شاء الله .

يدل على ذلك ما رواه السيوطى : أن يونس بن حبيب « له قياس فى النحو ومذاهب ينفرد بها ، سمع منه الكسائى والفراء »[٣] « وعاش يونس عمراً طويلاً ، فأبو العباس ثعلب يقول : جاوز يونس المائة»[٤] .

ولعل هذا العمر الطويل ساعده على كثرة البحث والإنتاج « فلم تكن له همة إلا طلب العلم ، ومحادثة الرجال ، وله من الكتب : كتاب "معانى القرآن ، كتاب اللغات ، كتاب النوادر الكبير ، كتاب الأمثال ، كتاب النوادر الصغير"»[٥] .

هذا وكانت وفاته « سنة اثنتين وثمانين ومائة »[٦] .

من آرائه :

١ – أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم [٧] :

قال العكبرى : « الهمزة عند سيبويه فى موضعها ، والفاء تدل على تعلق الشرط بما قبله .

وقال يونس : الهمزة فى مثل هذا حقها أن تدخل على جواب الشرط تقديره : أتنقلبون على أعقابكم إن مات لأن الغرض للتنبيه أو التوبيخ على هذا الفعل المشروط »[٨] وينتصر العكبرى لسيبويه ، ويبين أن مذهبه هو الحق فيقول : « ومذهب سيبويه الحق لوجهين :

---

(١) الفهرست ص : ٦٩ .
(٢) البغية ص : ٤٢٦ .
(٣) المرجع نفسه والصفحة .
(٤) الفهرست ص : ٦٩ .
(٥) المرجع نفسه والصفحة .
(٦) مراتب النحويين ص : ٢٢ ، البغية ص : ٤٢٦ .
(٧) سورة آل عمران آية : ١٤٤ .
(٨) إملاء مامن به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات ص ١٥٠ ج ١ تأليف أبى البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله العكبرى المتوفى : ٦١٦ هـ ط أولى الحلبى .

أحدهما : أنك لو قدمت الجواب لم يكن للفاء وجه ، إذ لا يصح أن تقول : أتزورنى فإن زرتك . . .

والثانى : أن الهمزة لها صدر الكلام ، وإنْ لها صدر الكلام وقد وقعتا فى موضعهما ، والمعنى يتم بدخول الهمزة على جملة الشرط والجواب ، لأنهما كالشيء الواحد»[١] .

٢ — أيُّهم أشد على الرحمن عتيا [٢] :

قال يونس : (لننزعن) بمنزلة الأفعال التى تلغى ، فرفع (أيهم) بالابتداء .

وقال سيبويه : (أيهم) مبنى على الضم ، لأنها خالفت أخواتها فى الحذف ، لأنك لو قلت : رأيت الذى أفضل منك ، ومَن أفضل منك كان قبيحاً حتى تقول : من هو أفضل ، والحذف فى أيهم جائز .

قال أبو جعفر : وما علمت أن أحداً من النحويين إلا خطّأ سيبويه فى هذا . سمعت أبا إسحاق يقول : ما يبين لى أن سيبويه غلط فى كتابه إلا فى موضعين ، هذا أحدهما :

قال : وقد أعلمنا سيبويه إعراب أيّا ، وهى مفردة ، لأنها تضاف ، فكيف يبنيها وهى مضافة[٣] .

على أن ابن الأنبارى لم يعجبه رأى يونس هذا فنقده وبين خطأه .

قال ابن الأنبارى « وزعم يونس بن حبيب البصرى أن (أيهم) مرفوع بالابتداء و (أشد) خبره ، ويعلق (لننزعن) عن العمل ، وينزل منزلة أفعال القلب نحو ظننت وحسبت ، وعملت ، وما أشبهها .

قال ابن الأنبارى : وهذا ضعيف لأن هذا الفعل ليس من أفعال القلوب بشيء بل هو فعل كسائر الأفعال المؤثرة ، فينبغى أن لا يلغى كما لا يُلْغَى غيره من سائر الأفعال المؤثرة»[٤] .

---

(١) إملاء ما من به الرحمن للعكبرى جـ ١ ص ١٥٠ .

(٢) سورة مريم آية : ٦٩ .

(٣) إعراب القرآن لأبى جعفر النحاس ورقة ١١٣ ، مخطوط رقم ٤٨ — تفسير دار الكتب .

(٤) البيان فى غريب إعراب القرآن ورقة ٢٥١ مخطوط رقم ٦٤٤ — تفسير — دار الكتب . ابن الأنبارى .

وقد تأثر الكوفيون بمذهب يونس ، فلم يخرج رأيهم عن رأيه فى هذه المسألة وهذا مما يدل على انتفاع الكوفيين بمذهب يونس وأقيسته .

قال ابن الأنبارى فى الموضع نفسه : « وأما الكوفيون فذهبوا إلى أن الضمة فى أيهم ضمة إعراب ، وأنه مرفوع بالابتداء ، وأشد خبره . . . وأن لننزعن ملغى لم يعمل »[١] .

٣ ــ ابن مالك يعتد برأى يونس اعتماداً على القراءة الشاذة :

قال الأشمونى : « مضارع كان إذا جزم بالسكون ، ولم يتصل به ضمير نصب ، وقد وليه متحرك تحذف النون على جهة الجواز ، لا على جهة الوجوب نحو : (وإن تك حسنة) فى القراءتين »[٢] .

وأجاز يونس الحذف . وإن ولىَ نون المضارع ساكن تمسكًا بقوله :

فإن لم تك المرآة أبدت وسامة فقد أبدت المرآة جبهة صيغم[٣]

وحمل على الضرورة .

قال الناظم : وبقوله أقول . إذ لا ضرورة لإمكان أن يقال :

فإن تكن المرأة أخفت وسامة .

وقد قرئ شاذًا (لم يك الذين[٤] كفروا) [٥] .

هذا وآراء يونس النحوية فى كتاب سيبويه متعدّدة ، وقد أكثر من النقل عنه ، كما قلت سابقًا ، حيث تعددت مواضع هذا النقل فبلغت ١٥٥ مرة[٦] .

٥ ــ الخليل بن أحمد :

لئن كان أساتذة الخليل الذين تلقى عنهم مباشرة أو بواسطة أعاجم فقد كان الخليل عربيًا يعتز بعروبته .

---

(١) البيان فى غريب إعراب القرآن ؛ ورقة : ٢٥١ .

(٢) سورة النساء آية : ٤٠ ، القراءتان قراءة الرفع على التمام والنصب على النقصان .

(٣) قاله الخنجر بن صخر الأسدى (العينى) .

(٤) سورة البينة آية : ١ .

(٥) شرح الأشمونى جـ ١ ص : ٢٤٥ ــ الحلبى .

(٦) مجلة كلية الآداب المجلد العاشر جـ ٢ ــ ديسمبر سنة ١٩٤٨ ص : ٧٢ (بحث أول ن وضع النحو للمرحوم الأستاذ إبراهيم مصطفى) .

فعن المبرد قال : « أخبرنا عبد الله بن محمد التوّجيّ ، وأبو عثمان المازنى ، وأبو إسحاق الزيادى قالوا : قال رجل للخليل بن أحمد : من أى العرب أنت ؟ فقال : فراهيدى . . ثم سأله آخر فقال : فَرْهودى .

قال المبرد : قوله : « فراهيدى » انتسب إلى فراهيد بن مالك بن فهم بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد ، وكان من أنفسهم صحيح النسب ، معروف الأهل . وقوله : فَرْهودى « انتسب إلى واحد الفراهيد ، وهو فُرْهُود ، والفراهيد صغار الغنم »[١] .

ذكاؤه وعلمه :

كان الخليل ذكيًّا فطنًا يضرب به المثل فى هذا المجال ، وقد تحدث محمد ابن سلام عن ذكائه وفطنته فقال :

« سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل ابن أحمد ولا أجمع ، ولا كان فى العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع »[٢] .

وتحدث أبو محمد التوجى قال : « اجتمعنا بمكة أدباء كل أفق — فتذاكرنا أمر العلماء ، فجعل أهل كل بلد يرفعون علماءهم ويصفونهم ويقدمونهم حتى جرى ذكر الخليل فلم يبق أحد إلا قال : الخليل أذكى العرب ، وهو مفتاح العلوم ومصرفها »[٣] .

وقد كان الخليل ذا أفق واسع ، وعقلية نادرة ، وفكر متقد ، فأسهم فى كل علم من علوم العربية .

ففى مجال اللغة : ألف كتاب (العين) الذى لم يسبق إليه ، ومهما اختلف الرواة فى نسبة هذا الكتاب للخليل ، فإن ذكاء الخليل يقضى بأن يكون (العين) من صنعته وابتكاره وفى مجال النحو ، قال السيرافى عنه : « كان الغاية فى استخراج مسائل النحو ، وتصحيح القياس فيه »[٤] .

---

(١) مراتب النحويين : ص : ٢٨ .
(٢) المصدر نفسه والصفحة .
(٣) المصدر نفسه ص : ٢٩ .
(٤) البغية ص : ٢٤٣ .

ويكفى الخليل فى مجال النحو أن يكون تلميذه سيبويه، وعامة الحكاية فى كتابه عنه ، وكلما قال سيبويه : و(سألته) أو (قال) من غير أن يذكر قائله فهو الخليل »[١] .

وفى مجال الشعر استطاع أن يحصر أشعار العرب ، ويستخرج العروض بها ، ويقال: «إنه دعا بمكة أن يرزقه الله تعالى علماً لم يسبق له فرجع ، وفتح عليه بالعروض»[٢] .

وهكذا كان الخليل لغوياً ، وعروضياً ، ونحوياً ، ولم يتهيأ لأحد ممن سبقه أن يصل إلى ما وصل إليه فى هذه المجالات كلها .

وهنا يرد إلى أذهاننا هذا السؤال ، لِمَ لَمْ يؤلف الخليل فى النحو كما ألف فى اللغة ، وكما ألف فى العروض ؟

يجيب السيوطى عن ذلك فيقول : « لم يرضَ أن يؤلف فيه حرفاً ، أو يرسم منه رسماً نزاهة بنفسه ، وترفعاً بقدره إذ كان قد تقدم إلى القول عليه ، والتأليف فيه فكره أن يكون لمن تقدمه تالياً ، وعلى نظر من سبقه محتذياً ، واكتفى فى ذلك بما أوحى إلى سيبويه من علمه ، ولقّنه من دقائق نظره ، ونتائج فكره ، ولطائف حكمته ، فحمل سيبويه ذلكَ عنه وتقلده ، وألف فيه الكتاب الذى أعجز من تقدم قبله كما امتنع على من تأخر بعده[٣] » .

وقد توفى الخليل سنة خمس وسبعين ومائة ، وقيل سنة سبعين ، وقيل ستين وله أربع وسبعون سنة[٤] .

من آرائه :

١ ــ إياك نعبد[٥] :

قال مكى : « إيَّا عند الخليل اسم مضمر أضيف إلى الكاف »[٦] .

---

(١) البغية ص : ٢٤٤ .
(٢) المصدر نفسه والصفحة .
(٣) المزهر جـ ١ ص : ٨٠ ، ٨١ مطبعة الحلبى الطبعة الثالثة .
(٤) البغية ص : ٢٤٥ .
(٥) فاتحة الكتاب آية : ٥ .
(٦) مشكل إعراب القرآن ورقة : ٣ لأبى محمد مكى بن أبى طالب مخطوط رقم : ٢٣٢ .

نقد هذا الرأى :

قال مكى : « وهو شاذ لا يعلم اسم مضمر أضيف إلى غيره »[١] .

وقال المنتجب بن أبى العز الهمذانى المقرئ :

« وأما ما حكاه الخليل عن بعض العرب : إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيَّا الشّوابّ ، فليس سبيل مثله أن يعترض على السماع والقياس جميعاً ، ألا ترى أنه لم يسمع منهم إياك وإيا الباطل ، ولا حكى عنهم تأكيد اللواحق التى تلحقه من الكاف والهاء والياء فتركهم ما ذكرت دلّ على شذوذ هذه الحكاية وأن (إيّا) وحده اسم ، وما بعده حرف يفيد الخطاب تارة والغيبة أخرى ، والتكلم ثالثة»[٢] .

٢ — وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة [٣] :

قال أبو على فى « الإغفال » : قال الزجاج : «تمسنا نصب بلن ، وقد اختلف النحويون فى تفسير علة النصب بلن . فروى عن الخليل فيها قولان : أحدهما أنها تنصب كما تنصب أن ، وليس ما بعدها بصلة لها ، لأن لن يفعل نفى سيفعل فيقدم ما بعدها عليها نحو قولك : " زيداً لن أضرب " .

وقد روى سيبويه عن بعض أصحاب الخليل عن الخليل أنه قال : الأصل فى لن لا أن ، ولكن الحذف وقع استخفافاً .

وزعم سيبويه أن ذلك ليس بجيد ، ولو كان كذلك لم يجز زيداً لن أضرب»[٤] .

ولم يسكت أبو على فى موطن الدفاع عن الخليل ، بل أراد أن يصد عنه هجمات الزجاج ، مبيناً أنه تجنى عليه .

قال أبو على : «فأما هذا الموضع ففيه غلط فى الحكاية ، وهو ما ذكر فى لن من أنه روى عن الخليل فيه قولان ، ولم يرو عنه فيه إلا قول واحد ، وهو ما رواه عنه سيبويه .

قال سيبويه فى "لن" أما الخليل فزعم أنها : لا أن ولكنهم حذفوا لكثرته

---

(١) مشكل اعراب القرآن لأبى محمد مكى ، ورقة : ٣ .

(٢) إعراب القرآن المجيد : للمنتجب بن أبى العز ورقة رقم ١ مخطوط رقم ٧٤ م .

(٣) سورة البقرة آية : ٨٠ .

(٤) الإغفال لأبى على الفارسى ص : ٢١٩ مخطوط رقم ٦٩٩ تفسير — دار الكتب .

فى كلامهم . . . فهذا ما روى عن الخليل فى لن ، ولم يرو عنه فيها غيره ، ولم يروعنه أنها تنصب كما تنصب أن ، وما ذكره أيضاً من قوله : روى سيبويه عن بعض أصحاب الخليل إنما حكى هو نفسه عن الخليل . . .

والروايتان عن الخليل إنما هما فى (إذاً) وليس فى (لن) فتوهمها أبو إسحاق فى لن »[1] .

٣ – وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات إلخ ..[2] :

« فتحت أن هنا ، لأن التقدير بأن لهم ، وموضع أن وما عملت فيه نصب ببشر ، لأن حرف الجر إذا حذف وصل الفعل بنفسه ، هذا مذهب سيبويه .

وأجاز الخليل أن يكون فى موضع جر بالباء المحذوفة لأنه موضع تزاد فيه فكأنها ملفوظ بها ، ولا يجوز ذلك مع غير أن لو قلت : بشره بأنه مخلد فى الجنة جاز حذف الباء لطول الكلام ، ولو قلت : بشره الخلود لم يجز وهذا أصل يتكرر فى القرآن كثيراً فتأمله »[3] .

وبعد : فنكتفى بهذا القدر اليسير من الأمثلة التى تدل على ذلك المجهود الجبار الذى قام به أعلام هذه الفترة فى خدمة النحو وتطوره فى ضوء القرآن الكريم ، وفى ضوء أساليبه التى لم تخرج عن سنن العربية .

وظل القرآن الكريم مشعلا ينير الطريق لدراسات النحو حتى تعددت مسائله وتفرعت أصوله ، وكثرت قضاياه ، وذلك ما سأبينه فى وضوح وجلاء فى الفصل الثانى من هذا الباب إن شاء الله تحت عنوان القرآن الكريم وأثره فى المدارس النحوية ومناهجها .

---

(١) الإغفال ص : ٢١٩ ، ٢٢٠ بتصرف .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٥ .

(٣) ملتقط من كتاب التبيان فى إعراب القرآن للعكبرى من كتب خليل أيبك الصفدى ورقة : ٥ مخطوط رقم : ٩ – تفسير – مكتبة سوهاج .

الفصل الثانى

«أثر القرآن الكريم فى اتجاهات المدارس النّحويّة»

(١)

فى مدرسة البصرة

قبل أن أعرض أثر القرآن الكريم فى مدرسة البصرة أحب أن أبين أن البصرة أغلب سكانها « من القبائل العربية التى كانت تقيم فى شرقى الجزيرة العربية ، وبخاصة منطقة الخليج الفارسى . . .

وكانت تقع على ممر عدة طرق تجارية مهمة ، ولذلك أصبحت مركزاً لحياة اقتصادية ، نشيطة ، واسعة»[١] .

ولم تكن البصرة فى عزلة عن الأعاجم والموالى الذين بدءوا يكتسحون الحواضر الإسلامية بسبب الفتوح « فقد جاء عبيد الله بن زياد بألفين من الأتراك الذين أسرهم فى حملاته فى أواسط آسيا ، فأسكنهم البصرة ، وجعلهم فى العطاء ، ومنحهم من الأرزاق [٢] .

ومن هنا ظهر اللحن ، واستبد بالخاصة والعامة ، مما جعل الولاة والخلفاء يفكرون فى وضع الأسس التى تصون بناء اللغة ، وتحفظها من عبث العابثين .

وكان من أهم هذه الأسس الاشتغال بالدراسة النحوية ووضع القواعد ، كما بينت سابقاً .

من أجل هذا أقرر هنا أن علماء البصرة احتضنوا الدراسة النحوية لأنها فى بلدهم نشأت ، وفى مدينتهم تكونت ، وعلى يدهم أخذت تنمو شيئاً فشيئاً ، وتتطور حيناً بعد حين حتى تسلم راية هذا العلم الخليل بن أحمد الذى غذى بعلمه

---

(١) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة ص : ٦ للدكتور صالح أحمد العلى ، مطبعة المعارف ببغداد سنة ١٩٥٣ .

(٢) المرجع السابق ص : ٧٢ .

تلميذه النّابه سيبويه ، فتطورت على يده ، وامتدت إليها حرارة الحياة ، وسرت فى عروقها شعلة النشاط والتجدد .

أثر سيبويه فى مدرسة البصرة :

وبفضل سيبويه تكونت مدرسة البصرة ، واستقرت قواعدها وتحددت مناهجها وتميزت مسائلها .

وإنى أعتبر بحق أن الجهود الأولى التى بذلها النحاة السابقون قبل أن يظهر سيبويه على مسرح هذه الدراسة — كانت بذوراً طيبة نمت وترعرعت ، ولكنها لم تنضج ثمارها ولم تؤت أكلها إلا على يد سيبويه .

ولهذا لا يصح لنا أن نسوّر الحركة النحوية فى هذه الفترة بحواجز تحدد معالمها ، وتميز خصائصها كما كان ذلك فى عصر سيبويه .

هذا ، ولم تكن هذه الحركة وقفًا على البصريين وحدهم ، بل شرب من معينها ، واقتبس من نورها نحاة الكوفة ، ولا أدل على ذلك من أن يونس بن حبيب البصرى « سمع منه الكسائى والفراء ، وكانت له حلقة بالبصرة ينتابها أهل العلم وطلاب الأدب ، وفصحاء الأعراب والبادية »[١] .

وإنى أعتبر بحق أن مدرسة البصرة لم تكن وليدة على يد سيبويه لأنها ولدت قبل ذلك ، ولكن هذا الوليد لم يكتمل شبابه ويورق عوده إلا على يد سيبويه .

وذلك لأن كتابه الذى أعجز من قبله ، وعز على من بعده كان قبلة النحو ومصدره ، فمن معينه شرب النحاة على اختلاف العصور ، وامتداد الأزمنة ، ومن أقيسته وقضاياه تفرع النحو ، وتعددت مسائله ، وضاقت عن الحصر توجيهاته .

ولم يكن الكتاب وقفًا على مدن العراق الثلاث ، بل سارت به الركبان إلى غيرها من أقاليم العالم الإسلامى .

فمن المصريين الذين شربوا من معينه « أبو على أحمد بن جعفر الدينورى المصرى ، وكان يخرج من منزل ختنه ثعلب ، فيتخطى أصحابه ، ويمضى معه محبرته ودفتره فيقرأ كتاب سيبويه على المبرد »[٢] .

---

(١) بغية الوعاة ص : ٤٢٦ .

(٢) طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص : ٢٣٤ ط أولى سنة ١٩٥٤ م .

« وكان أبو على قد أخذ قبل ذلك هذا الكتاب من المازنى فى البصرة »[١] .

وأبو الحسن محمد بن الوليد بن ولاد « لقى المبرد وثعلب ، وأقام ثمانية أعوام يدرس كتاب سيبويه على المبرد »[٢] .

ولحرص أبى الحسين على كتاب سيبويه أراد أن ينقل نسخة الكتاب من المبرد « وكان المبرد يضنّ بها ضنًّا شديداً فكلم ابنه على أن يجعل له فى كل كتاب منه جُعلا قد سمّاه ، فأجابه إلى ذلك ، فأكمل نَسْخه »[٣] .

وفى الأندلس : اشتهر جماعة من النحويين بحفظه ، والإلمام به « فمن أقدم من وقفنا عليه ممن حفظوا كتاب سيبويه هو حمدون النحوى المتوفى بعد المائتين .

وفى القرن الثالث كان من أشهر حفاظه (الأفشين القرطبى) المتوفى سنة ٣٠٩ هـ وقد أخذه فى مصر عن أبى جعفر الدينورى رواية »[٤]. وقد بلغ الأمر فى الأندلس « بمروان النحوى المتوفى سنة ٤٨٩ هـ أنه عكف على كتاب سيبويه ثمانية عشر عامًا لا يعرف سواه »[٥] .

ويقول الدكتور : أمين السيد حينما تناول فى رسالته (الاتجاهات النحوية فى الأندلس وأثرها فى تطوير النحو) — كتاب سيبويه ما نصه : « وكان للكتاب عندهم الدرجة الرفيعة ، فقد حل من نفوسهم فى المنزلة السامية التى جعلتهم يقبلون عليه رواية وانتساخًا ، ودراسة وإقراء ، وشرحًا وتعليقًا ، وبيانًا لما أشكل من مسائله ، وإملاءً عليه أو على جزء منه إلى غير ذلك »[٦] .

وفى العصور المتأخرة كان لسيبويه ولكتابه منزلة خاصة ، فالزمخشرى ألمع نجم فى عصره يشيد بكتاب سيبويه ، ويعلى من قدره عند تعرضه لرأى سيبويه فى « مهما » من قوله تعالى : (وقالوا مهما تأتنا به من آية) [٧] فيقول : « وإنه يجب الجثو بين يدى الناظر فى كتاب سيبويه »[٨] .

---

(١) البغية ص : ١٣٠ . (٢) طبقات النحويين واللغويين ص : ٢٣٦ .
(٣) المصدر نفسه ص : ٢٣٦ .
(٤) تاريخ آداب العرب : للرافعى جـ ٣ ص : ٣٣٢ بتصرف .
(٥) البغية ص : ٢١٢ .
(٦) الاتجاهات النحوية فى الأندلس ، وأثرها فى تطوير النحو : للدكتور : أمين السيد ص ١١٤ رسالة دكتوراه مخطوطة . (٧) سورة الأعراف : آية ١٣٢ .
(٨) الكشاف جـ ٢ ص : ١٦٥ الزمخشرى .

ولما جلس أبو حيان فى القاهرة مجلسَ الأستاذ « التزم أن لا يقرئ أحداً إلا إن كان فى كتاب سيبويه ، أو (التسهيل) لابن مالك أو فى تصانيفه »[١].

هذا الكتاب الذى تحدثنا عن فضله فى شىء من الإيجاز كان مصدراً لمدرسة البصرة فى مجال الدراسة النحوية .

وقبل أن أقف إزاء مدرسة البصرة لأتبين منهجها فى دراسة النحو ، ومدى تأثر هذا المنهج بالقرآن الكريم فى تقعيد قاعدة أو استخراج حكم ، أو استنباط دليل ، أو توجيه آية ، أو تخريج إعراب — أحب أن أعرض لرأى المستشرق « فايل » فى إنكاره لمدرستَىِ البصرة والكوفة لنقف على مدى صحة هذه الدعوى .

رأى فايل فى إنكار مدارس النحو :

فى مقدمة كتاب «الإنصاف» لابن الأنبارى أنكر (جواتولد فايل) «الألمانى» وجود مدرستى البصرة والكوفة اعتقاداً منه أن الدراسة النحوية كانت مختلطة . وأن نحاة الكوفة أخذوا من نحو البصرة ، فليس هناك مسوغ لتمزيق هذه الدراسة وتجزئتها إلى مدارس إقليمية ، وكلها مقتبسة من منبع واحد ومستمدة من مورد معين ألا وهو المورد البصرى .

وينسب هذا المستشرق الخلاف الذى تميزت به الكوفة عن البصرة إلى تأثر الكوفيين ، وبخاصة الكسائى والفراء بيونس بن حبيب البصرى الذى كان له مذهب خاص ، وأقيسة تفرد بها ، خالف فيها الخليل وسيبويه »[٢] .

ونحن لا نقبل ما يذهب إليه « فايل » لأن إنكار مدرستى البصرة والكوفة تجن على الحقيقة ، ومبالغة لا مسوّغ لها ، وذلك لأن اشتراك مدرستّى البصرة والكوفة فى بعض الأسس ، ليس معناه امتزاجهما ومحو الفروق بينهما .

وكأن هذا المستشرق يريد أن يحوّل الفكر إلى مادة ، تقبل التجزئة وتخضع للتقسيم .

والحقيقة أنه إذا قلنا : إن هناك مدرسة بصرية أو كوفية فليس معناه إقامة

---

(١) نكت الهميان ج ١ ص ٢٨٠ صلاح الصفدى ط سنة ١٩١٠ بمصر .

(٢) من مقال للدكتور عبدالله درويش عنوانه (تطور النحو العربى) بمجلة الأزهر م ٣١ ، نوفمبر سنة ١٩٥٩ ص : ٤٦٠ .

الحواجز والسدود بين هاتين المدرستين لأن كثيراً من الحركات الفكرية قد تتداخل في العصور المختلفة مع أن لكل عصر سماته ومميزاته ، وسيتضح لنا في هذا الفصل الفروق الشاسعة بين مدرستي البصرة والكوفة في المناهج والخصائص .

منهج مدرسة البصرة في الدراسة النحوية :

الصبغة العامة للمذهب البصري أنه مذهب حاول أن يدخل مسائل النحو في (بودقة) المنطق بأقيسته وتعليلاته ، وفروضه وتأويلاته قبل الرجوع إلى كلام الله وكلام العرب لعرض هذه المسائل في ضوئهما .

ومن هنا كان من أهم ما يرتكز عليه المذهب البصري هو القياس .

ما القياس ؟

القياس كما عرّفه صاحب (التعريفات) هو «عبارة عن رد الشيء إلى نظيره»[١]

ويقول ابن الأنباري: « القياس في عرف العلماء عبارة عن تقدير الفرع بحكم الأصل . . . وقيل : هو إلحاق الفرع بالأصل بجامع ، وقيل هو : اعتبار الشيء بالشيء بجامع ، وهذه الحدود كلها متقاربة »[٢].

متى ظهر القياس ؟

يرجع بعض الباحثين نشأة القياس في النحو العربي إلى تأثر نحاة العرب بالمنطق اليوناني « فقد استطاع أرسطو أن يقرب بين منطقه واللغة اليونانية ، إن لم يكن قد جعلهما منطبقتين تمام الانطباق .

وأعجب المفكرون في الأمم الأخرى بمنطق أرسطو ، وحاولوا صب لغاتهم في تلك القوالب . . إلى أن قال ذلك الباحث :

لذلك لا نعجب حين نرى اللغويين القدماء من العرب قد سلكوا هذا المسلك من الربط بين اللغة والمنطق ، وأن نشهد في بحوثهم اللغوية من الأقيسة والاستنباطات مالا يمت لروح العربية بصلة ما»[٣] .

---

(١) التعريفات ص : ١٥٩ السيد على بن محمد السيد – مطبعة الحلبي .

(٢) لمع الأدلة لابن الأنباري ص : ٩٣ مطبعة الجامعة السورية .

(٣) من أسرار اللغة ص ١١٦ – ١١٧ نقلا من بحث الدكتور إبراهيم مدكور عنوانه : « منطق أرسطو والنحو العربي » . ط ثانية مطبعة لجنة البيان العربي .

والذى أراه فى هذا المقام أن نشأة القياس فى النحو العربى نشأة فطرية وقد ظهر على يد نحاة البصرة الأول قبل أن يترجم منطق اليونان .

وقد كان القياس بصورته الفطرية على عهد النبي عليه السلام ، وأن بعض الأحكام الشرعية كان يقوم عليه .

« روى معاذ بن جبل رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له : كيف تصنع إن عرض لك قضاء ؟ قال : أقضى بما فى كتاب الله ، قال : فإن لم يكن ، قال : فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فإن لم يكن فى سنة رسول الله ، قال : أجتهد رأيى ، ولا آلو : قال معاذ : فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدرى . ثم قال : الحمد لله الذى وفق رسول سول الله لما يرضى رسول الله »[١] .

وفى هذا دليل على أن من أصول التشريع الاجتهاد بالرأى وهو القياس .

ودليل آخر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب إلى قاضيه بالبصرة أبى موسى الأشعرى : « الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة . اعرف الأشباه وقس الأمور عند ذلك » [٢] .

وفى هذا ما يدل على أن القياس فطرة وطبيعة ، وأنه نشأ فى النحو كذلك .

على أن بعض الباحثين يؤكد أن فكرة القياس « لم توضع فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى عصر صحابته كقياس الأشباه بالنظائر ، والأمثال بالأمثال فحسب ، بل وضع فى العصر الأول والعصر الثانى قواعد للقياس ، وشرائط للعلة واستند هذا الباحث إلى أبى حيان صاحب البحر إذ يقول :

« إن الصحابة تكلموا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم فى العلل »[٣] ولعل هذه البذور الأولى الفطرية للقياس تغذت بلبان الثقافة اليونانية حينما ترجمت علوم اليونان ، فنمت أصول القياس ، وتشابكت فروعه ، واستخدم فى علم الكلام والفقه مما جعل النحاة فى هذه الفترة يقتفون أثره فى مدارس الكلام والفقه ،

---

(١) أصول الأحكام الشرعية : ص : ١٢ للأستاذ على حسب الله ط أولى مطبعة العلوم .

(٢) المرجع السابق : والصفحة .

(٣) مناهج البحث عند مفكرى الإسلام تأليف الدكتور على سامى النشار ص : ٥٧ ط أولى - دار الفكر العربى .

ومن ثم تسربت أصوله ، وتعددت فروعه فى مدارس النحو كذلك ؛ يدل على ذلك ما قاله ابن جنى : «إن أصحابنا انتزعوا العلل من كتب محمد بن الحسن ، وجمعوها منه بالملاطفة والرفق »[1] . وفى الموضع نفسه نقل السيوطى عن ابن جنى قوله : « إذا أداك القياس ، إلى شىء ما ، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشىء آخر على قياس غيره ، فدع ما كنت عليه ، ثم علق عليه بقوله : وهذا يشبهه فى أصول الفقه نقض الاجتهاد إذا بان النص بخلافه »[2] .

الثورة على المنطق اليونانى فى النحو :

على أن هذا المنطق الأرسطى لم يكن موضع إعجاب عند النحاة جميعًا ، فقد تنكر له الأحرار منهم ، وسجل لنا أبو حيان التوحيدى فى كتابه « الإمتاع والمؤانسة » المناقشة التى دارت بين السيرافى النحوى ، ومتّى المنطقى ، والتى استطاع فيها السيرافى أن يبين لمتّى المنطقى أن لكل لغة أسلوبها ، وخصائصها وأن المنطق اليونانى لا يستطيع بمقاييسه أن يوحّد بين هذه اللغات ، وأن قوانينه عاجزة عن أن تدمج لغة بأخرى .

يقول أبو سعيد مخاطبًا متّى : « على أن ها هنا سرًّا ما علق بك ولا أسفر لعقلك ، وهو أن تعلم أن لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها فى أسمائها ، وأفعالها وحروفها ، وتأليفها ، وتقديمها وتأخيرها . . وسعتها وضيقها ونظمها ونثرها ، وسجعها ووزنها . . . ، وغير ذلك مما يطول ذكره . وما أظن أحداً يدفع هذا الحكم ، أو يشك فى صوابه ممّن يرجع إلى مسكة من عقل ، أو نصيب من إنصاف »[3] .

ويوضح لنا أبو حيان التوحيدى الفرق بين قياس النحويين ، وقياس الفلاسفة أن أقيسة النحو لا تخضع لما تخضع له أقيسة المنطق فيقول : « سئل بعض العلماء بالنحو واللغة فقيل له : أيستمر القياس فى جميع ما يذهب إليه فى الألفاظ ؟ فقال : لا ، فقال السائل : فينكسر القياس فى جميع ذلك ؟ فقال : لا

(١) الاقتراح ص : ٨٦ .
(٢) المرجع السابق والصفحة .
(٣) الإمتاع والمؤانسة جـ ١ ص : ١١٦ أبو حيان التوحيدى ط لجنة التأليف والترجمة والنشر .

فقيل له فما السبب ؟ فقال : لا أدرى ، ولكن القياس يفزع إليه فى موضع ويفزع منه فى موضع »[١] .

قال أبو على مسكويه مفسراً هذا الكلام : « أما قياس النحويين فليس مبنيًّا على أوائل ضروزرية ، فلذلك لا يستمر ، وإنما أجاب هذا الرجل العالم بالنحو عن القياس الذى يخص صناعته ولم يلزمه إلا ذلك .

فأما الفيلسوف ، فقياساته كلها مستمرة لا ينكسر منها شىء لا سيّما ضرب من القياس وهو المسمَّى برهانًا» [٢] .

القياس ومدرسة البصرة :

قلت فيما سبق : إن القياس بدأ فى زمن مبكر على يد نحاة البصرة القدامى قبل أن يظهر على مسرح الدراسة النحوية بعد ذلك ، وبنيت أن عبد الله بن أبى إسحاق الحضرمى كان شديد التجريدللقياس ،ويقال : إنه كان أشد تجريداً للقياس من أبى عمرو بن العلاء »[٣] .

ونمت بذور القياس على يد سيبويه ، فقد أكثر من القياس وتوسع فيه .

والناظر إلى كتابه يجد فيه أمثلة كثيرة للأقيسة المختلفة المتعددة مما يدل على أن القياس وصل على يده إلى كامل نضجه ، وتمام قوته ، وأنه أصبح أساسًا من أسس الدراسة النحوية التى تبنى عليها القواعد ، وقد بلغ الأمر بسيبويه « أنه لم يقف عند استقراء الأمر الواقع ، بل يفترض فروضًا نظرية ، ويعطيها أحكامًا خاصة»[٤] .

وهنا يرد إلى أذهاننا هذا السؤال : إذا كان البصريون بلغ بهم الأمر فى الاعتداد بالقياس إلى هذا الحد أعنى حد الفروض النظرية ، وإعطائها أحكامًا خاصة فمن أين استمد البصريون اللغة التى قاسوا عليها ؟ وهذا ما نجيب عنه فى النقطة التالية .

---

(١) الهوامل والشوامل : ص : ٢٩٣ ، ٢٩٤ — لأبى حيان التوحيدى ومسكويه مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة : ١٩٥١ .

(٢) المرجع السابق ص : ٢٩٤ .

(٣) نزهة الألبا ص : ٢٢ .

(٤) مجلة الأزهر المجلد ٢٣ ص : ٤١ من مقال : منطق أرسطو والنحو العربى للدكتور إبراهيم مدكور جـ ١٠ يونيو سنة ١٩٥٢ .

المصادر اللغوية للقياس عند البصريين :

١ ـ القبائل البدوية التى ابتعدت عن المؤثرات الأجنبية :

لم يكن البصريون يأخذون اللغة من كل قبيلة ، لأن القبائل عندهم لا تتساوى فى الفصاحة فهناك قبائل عاشت فى عزلة تامة ، وأغلقت عليها باب الصحراء ، فكملت لها لغتها ، وصينت من كل تحريف .

وهناك قبائل اتصلت بغيرها ، وتأثرت بهذا الاتصال عن طريق الاختلاط أو الجوار وهذه القبائل يحترس من لغتها ولا يؤخذ عنها ، لأنها لم تكن فى عزلة تامة تصون اللغة من كل عبث يمتد إليها .

ويحدد أبو نصر الفارابى فى كتابه المسمى « بالألفاظ والحروف » القبائل التى اعتمد عليها البصريون فى أخذ اللغة عنها ، والقياس عليها : قال ما نصه :

« والذين نقلت عنهم اللغة العربية ، وبهم اقتدى ، وعنهم أخذ اللسان العربى من بين قبائل العرب ، هم قيس وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل فى الغريب وفى الإعراب ، ثم هذيل ، وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم »[١] .

وكان البصريون يعيبون على الكوفيين أنهم « يأخذون اللغة عن أكلة الشواريز[٢] وباعة الكواميخ» [٣] [٤] .

٢ ـ أشعار العرب الجاهليين والمخضرمين :

من منهج الدراسة النحوية فى مدرسة البصرة الاعتماد على أشعار العرب الجاهليين والمخضرمين .

يقول الرافعى : « وأشعار العرب الذين يحتج بهم محصورة فى الطبقتين من الجاهليين والمخضرمين . أما الشعراء الإسلاميون كجرير والفرزدق ، فأكثر النحاة على عدم جواز الاستشهاد بشعرهم»[٥] .

---

(١) الاقتراح ص : ٢٤ ط أولى حيدر آباد .
(٢) الشواريز : الألبان الثخينة .
(٣) الكواميخ : المخللات تشهى بها الطعام .
(٤) المرجع نفسه ص : ١٠٠ .
(٥) تاريخ آداب العرب للرافعى ج ١. ص : ٣٦٩ .

ولعل سائلا يسأل : إذا كان البصريون ينهجون هذا المنهج الدقيق الوعر فى تقعيد القواعد ، واستنباط الأحكام ، ووضع المقاييس فلم احتج سيبويه عميدهم ببشار بن برد وهو من شعراء العباسيين الذين تم فى عهدهم اختلاط العرب بغيرهم ؟ فالجواب عن ذلك « أن سيبويه عاب أحرفاً على بشار ، ونسبه فيها إلى الغلط كالوجلى من الوجل ، وجمع نون "حوت" على نينان ، فهجاه بشار ، فتوقاه سيبويه بعد ذلك وكان إذا سئل عن شىء فأجاب عنه ، ووجد له شاهداً من شعر بشار احتج به استكفافًا لشره وتوفى بشار سنة ١٦٨ هـ وقد نيف على التسعين »[1] .

على أن هذه القصة التى ذكرها الرافعى ، ونقلها فى كتابه لا تقبل على علاتها وذلك أن أستاذنا الأستاذ عبد السلام هارون تفضل فأطلعنى على فهرس شواهد سيبويه التى استشهد بها فى كتابه ، فلم نجد لبشار بيتاً واحداً من بين هذه الشواهد ، مما يدل على أن قصة استشهاد سيبويه بشعر بشار استكفافًا لشره قصة تحتاج إلى نظر .

وكنا نود أن يسير البصريون على منهجهم الدقيق فى جمع الشعر العربى ، ونسبته إلى قائليه ، وبناء القواعد عليه ، لتطمئن النفوس ويسلم المنهج من الانحراف ، ولكن ذلك لم يتحقق ، ففى كتاب سيبويه خمسون بيتًا ، لا يعرف قائلها .

قال الجرمى « فى كتاب سيبويه ألف وخمسون بيتًا سألته عنها ، فعرف ألفًا ، ولم يعرف الخمسين »[2] .

٣ ـ القرآن الكريم :

لم يختلف أحد من النحاة فى أن القرآن الكريم أصل من أصول الاستشهاد فى اللغة ، والنحو ، لأنه كتاب الله المنزل على نبيه فى أسلوب عربى ، فى القمة من الرقى والكمال .

والقرآن الكريم نزل بلغة قريش ، وقريش كما قال عنها أبو نصر الفارابى «كانت أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق»[3] :

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى جـ ١ ص : ٣٦٩ .
(٢) المرجع السابق ص : ٣٧٢ .
(٣) المزهر جـ ١ ص : ١٢٨ مطبعة السعادة .

هذا ، وقد استبعد البصريون من منهجهم الاستشهاد بالقراءات إلا إذا كان هناك شعر يسندها ، أو كلام عربى يؤيدها ، أو قياس يدعمها .

واستبعدوا كذلك من منهجهم الاعتماد على الحديث الشريف فى تقعيد القواعد .

وسار على دربهم فى هذا المجال بعض النحاة المتأخرين كالحسن بن الضائع وأبى حيان .

يقول أبو الحسن بن الضائع فى شرح الجمل : « تجويز الرواية بالمعنى هو السبب عندى فى ترك الأئمة كسيبويه وغيره الاستشهاد على إثبات اللغة بالحديث ، واعتمدوا فى ذلك على القرآن وصريح النقل عن العرب ، ولولا تصريح العلماء بجواز النقل بالمعنى فى الحديث لكان الأولى فى إثبات فصيح اللغة كلام النبى صلى الله عليه وسلم لأنه أفصح العرب »[1] .

نقد ومناقشة للمنهج البصرى :

الواقع أن منهج البصريين فى الدراسة النحوية منهج تعوزه الدقة وينقصه الكمال ، ذلك لأننا إذا تناولنا المصدر الأول للغة عندهم ، وهو المتمثل فى قبائل البادية التى ابتعدت عن المؤثرات الأجنبية نجد أن هذا المصدر لا يقوم على أساس علمى متين . فحصر اللغة العربية فى سلامة بنائها ، وصحة تراكيبها ، ومتانة عباراتها ، فى قبائل معينة أمر يجانب الصواب ، ويبتعد عن الحكمة .

وعلى فرض أن هذه القبائل عاشت سجينة فى بيئاتها البدوية لم تحاول أن تتصل بغيرها ، وتسد الطريق على من يحاول أن يطرق أبوابها — وهو أمر لا يقبله العقل وبخاصة فى هذه الصحراء المجدبة التى تتطلب ظروف الحياة فيها السعى والكدح ، والسير فى مناكب الأرض من أجل الحياة — أقول على فرض أنها لو كانت كذلك ، وأن لغتها ترتدى ثوب القدسية لفصاحتها لنزل بها القرآن الكريم الذى أعجز العرب ، ولكنه نزل بلغة قريش ، وقريش لم تكن فى معزل عن العالم الخارجى ، لأن مكة موطن قريش كانت قبلة العرب فى الجاهلية والإسلام ، يفدون إليها من كل فج عميق، يقول الأستاذ السباعى بيومى متحدثاً عن وفادة

---

(١) خزانة الأدب للبغدادى : جـ ١ ص : ٢٣ المطبعة السلفية سنة ١٣٤٧ هـ .

العرب إلى مكة : « العرب فى الحج ، وفى الاعتمار يفدون إلى البيت الحرام فينقل العرب إلى لغتهم ما يستحسنونه من ألفاظ وعبارات حتى اتسعت لغة قريش .

ولم تكن قريش محل وفادة فحسب ، بل كانت بحكم عملها التجارى لا تزال تقطع بلاد العرب برحلة الشتاء والصيف إلى اليمن جنوباً والشام شمالا »[1] .

ولم يقل أحد: إن لغة قريش ضعيفة لا يحتج بها ، لأنها لم تكن فى معزل عن غيرها ، ولأن أصحابها كانوا يقومون برحلات عديدة صيفاً وشتاء إلى أطراف الجزيرة العربية فى اليمن وفى الشام ولو قيل ذلك لرفض الاحتجاج بالقرآن الكريم، لأنه بلغتهم نزل .

الحق أن البصريين فى تحديدهم لهذه القبائل جانبوا الصواب والحق ما قاله الفراء بصدد تأييد مذهب أهل السنة فى « أن القرآن الكريم نزل بأفصح اللغات ، ويرد على بعض علماء الشعر ، ورواة الأخبار التاريخية عن عرب البادية الذين لا يريدون أن يلتمسوا إعجاز القرآن فى قوالبه اللغوية ، بل يرون كمال الفصاحة فى لغة عرب البادية ، ثم يختلفون : الكوفيون والبصريون والمدنيون والمكيون حول أى القبائل أفصح ؟ حسب اختلاف جوار كل منهم لقبيل من العرب ، فيذهب الفراء رداً على جميع هؤلاء إلى أن لغة القرآن أفصح أساليب العربية على الإطلاق»[2] .

ويشيد ابن فارس بلهجة قريش أو بلغتها حيث يقول :

« إن قريشاً أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة ، وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب ، واختار منهم محمداً صلى الله عليه وسلم فجعل قريشاً قطان حرمه ، وولاة بيته ، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاكمون إلى قريش فى دارهم ، وكانت قريش مع فصاحتها ، وحسن لغاتها ، ورقة ألسنتها ، إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم ، وأصفى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التى طبعوا عليها ، فصاروا بذلك أفصح العرب»[3] .

---

(١) تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى للسباعى بيومى ص : ٥٨ مطبعة العلوم .
(٢) العربية : يوهان فك ص : ٥ .
(٣) المزهر للسيوطى جـ ١ ص : ٢١٠ ط ثالثة الحلبى .

رأى فى الفصاحة :

وفى رأيى أن الفصاحة لا ترجع إلى حصرها فى قبائل معينة كما كان يرى البصريون وإنما مدار الفصاحة فى الكلمة على كثرة استعمال العرب لها .

فالكلمة اللغوية «كالعملة فى خزانة البنك ، لها قوة التعامل ولكنها لا تمثل تعاملا بالفعل .

أما الكلمات الواقعية أى فى الكلام فهى عملة جارية سيارة لها نشاطها ، وقيمتها الواقعية»[١] .

ولم يغب هذا المعنى عن ذهن بعض علماء العربية الأفذاذ كالزمخشرى فقد سأله سائل عن حديث عمر رضى الله عنه «لولا الخِلِّيفَى لأذنت ، أى لولا كثرة الاشتغال بالخلافة ، والذهول بسببها عن تعهد أوقات الأذان لأذنت ، أهو قياسى[٢] أم سماعى؟ فقال : هذا الباب كثير الاستعمال فينبغي أن يكون قياسيًّا[٣] ويبين (ابن جماعة) مصدر هذا الحديث والروايات فيه فيقول : «ساق حديث عمر ابن الأثير فى النهاية عنه بلفظ : لو أطقت الأذان مع الخليفى لأذنت .

وابن سعد فى الطبقات بسنده إليه بلفظ : لو كنت أطيق الأذان مع الخِلِّيفَى لأذنت .

قال الخوارزمى : قال العمرانى : سألت صاحب الكشاف ، فقلت : الفعيلى أهو على القياس أم مقصور على السماع ، فقال : هو كثير الاستعمال ، فينبغى أن يكون قياسيًّا»[٤] .

هذا ، وليس من السهولة أن يدعى البصريون أنهم حينما يحصرون اللغة فى قبائل معينة يكونون بذلك قد وضعوا يدهم على ما فى اللغة من تراكيب ، وعلى كل ما فيها من أساليب ، وعلى كل ما فيها من غريب ، وعلى كل ما فيها من لهجات ،

---

(١) اللغة بين الفرد والمجتمع ص : ١٩ تأليف اوتوجسبرس ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب : مكتبة الأنجلو المصرية .

(٢) فى موضوع ما يبنى لتكثير الفعل والمبالغة فيه كالحثيثى أى الحث الكثير (شرح الجاربردى ص ٦٦) .

(٣) شرح الجاربردى على الشافية ص : ٦٦ دار الطباعة العامرة سنة ١٣١٠ هـ .

(٤) حاشية ابن جماعة على الشافية ص : ٦٦ الطبعة نفسها .

لأن اللغة أعز من أن يحاط بها ، وأكبر من أن تحصر فى مجموعة من النصوص أو الأساليب ..

يدل على ذلك قول بعضهم : « يا رسول الله ، إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه ، ونحن العرب حقًّا ، فقال : إن ربى علمنى فتعلمت . . .

وكذلك فى الغريب ، ليس كلها يستوى فى العلم به ، ولا كلامها كله واضح عندها ، بل منه المبتذل ، ومنه الغريب الوحشى الذى إنما يعرفه العالم منهم ، وقد يختلفون فى الحرف كما نختلف ، ويقول العالم فى الشيء يسأل عنه من اللغة لا نعرفه ، ويعرفه غيره فيخبر به »[1] .

ومن الأخطاء البصرية التى لا تغتفر إبعادهم القراءات عن مجال الدراسة النحوية ، وبهذا الإبعاد حرموا النحو من مصدر كبير كان من الممكن أن تبنى فى ضوئه القواعد ، وتحرر الأصول .

نعم إنهم أخذوا ببعض القراءات ، ولكنها ليست وحدها فى الميدان ، فمعها من الأدلة الأخرى ما يسندها ، ويعزز الأخذ بها .

وقد قال السيوطى ناقداً البصريين فى هذا المجال : « كان قوم من النحاة المتقدمين يعيبون على عاصم وحمزة وابن عامر قراءات بعيدة فى العربية ، وينسبونهم إلى اللحن ، وهم مخطئون فى ذلك ، فإن قراءاتهم ثابتة بالأسانيد المتواترة الصحيحة التى لا مطعن فيها ، وثبوت ذلك دليل على جوازه فى العربية »[2] .

كذلك حرم البصريون اللغة مورداً لغويًّا كبيراً وهو الحديث الشريف ، وقد أثبت خطأ هذا المنهج البصرى فى مجال الحديث الشريف فى بحثى الذى قدمته « للماجستير »[3] .

ومن أخطاء البصريين اعتدادهم بالمنطق والعقل ، وتجنبهم الرواية والنقل

---

(١) المسائل : لوحة : ٥ لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة : نسخة مصورة رقم ٢٢٠٩٦٧ مكتبة جامعة القاهرة .

(٢) الاقتراح : ص : ١٧ .

(٣) المدرسة النحوية فى مصر والشام فى القرنين السابع والثامن من الهجرة مخطوط ص : ١٩٥ إلى ٢٠٧ عبد العال سالم : مكتبة دار العلوم .

فى كثير من المسائل النحوية حكموا أقيستهم وما يتبعها من تعليلات ، مع أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، بل هى كائن حى ينمو فى إطار من بيئته ، يتفاعل معها ، ويتأثر بها ، ولا ينفصل عنها ، فمن الظلم أن نخضع هذا الكائن لمقاييس تعوقه عن الانطلاق والنمو والحركة ، تعوقه عن أن يؤدى دوره فى الحياة ، ويقوم برسالته فى المجتمع .

فى قوله تعالى : (إن كنتم للرؤيا تعبرون)[1] يقول (التصريح) مبينًا (للتوضيح) « الأصل — والله أعلم — إن كنتم تعبرون الرؤيا ، فلما أخر الفعل ، وقدم معموله عليه ضعف عمله فقوى باللام ، وليست اللام المقوية زائدة محضة لما تخيل فى العامل من الضعف الذى نزل منزلة اللازم ، ولا معدية محضة لا طراد صحة إسقاطها ، بل هى بينهما ، فلها منزلة بين منزلتين وهو مشكل ، فإن الزائدة المحضة لا تتعلق بشىء وغير الزائدة تتعلق بالعامل الذى قوته عند (الموضح) ، فتكون متعلقة غير متعلقة فى آن واحد ، وهو ممتنع لأدائه إلى الجمع بين متنافيين »[2] .

هذا مثل واحد من أمثلة عديدة فلسفت النحو ، وجعلته منطقًا وعقلا قبل أن يكون رواية ونقلا ، وقد اقتدى المتأخرون بالبصريين فى هذا المضمار مما عقّد النحو ، وصعب مسائله مع أن هذا المنطق يقف فى عدة مسائل نحوية موقف العاجز الذى يرى المشكلة أكبر منه فيقابلها بالصمت والتسليم .

وقد برهن الدكتور إبراهيم أنيس على أن الظواهر النحوية تختلف كل الاختلاف عن المنطق بأدلة ثلاثة :

١ — جموع القلة تصغر على صيغتها ، ويعاد عليها الضمير مفرداً مثل قوله تعالى : (وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه)[3] .

ثم قال : وقد حدثونا أن مما أخذته الخنساء على قول حسان :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

أنه آثر جمع القلة فى الجفنات والأسياف ، ولا ينسجم مثل هذا فى المبالغة والمدح وكان الأجدر بالشاعر أن يقول : الجفان ، والسيوف .

---

(١) سورة يوسف آية : ٤٣ .
(٢) شرح التصريح على التوضيح جـ ٢ ص : ١١ مطبعة الحلبى .
(٣) سورة النحل آية : ٦٦ .

ويستدل الدكتور أنيس — على أن فكرة اختصاص القلة بصيغ والكثرة بصيغ لم تكن من الظواهر الملتزمة فى اللغة العربية — بالقرآن الكريم الذى ملئ بأمثال الآيات : (وهم فى الغرفات آمنون)[١] ! ، (إن المسلمين والمسلمات)[٢] ، (ثلاثة قروء)[٣] هذا ولا يشفع للنحاة قولهم فى نهاية الحديث عن صيغ القلة والكثرة إن العرب قد تستعمل هذه مكان تلك ، والعكس ، لحكمة ما ، لأن مثل هذا القول يحمل فى ثناياه دليل ضعف الرأى الذى ذهبوا إليه[٤] .

٢ — اختلاف الجمع اللغوى والجمع المنطقى :

يقول : إن اللغات تسلك مسالك متعددة فى علاج الإفراد والجمع ، فالجسم الإنسانى يشتمل على أعضاء مزدوجة كالعينين والأذنين ، واليدين والرجلين . وكلها مما يسمى بالمثنى ، ولكن اللغة فى أساليبها قد تستعملها مفردة ، ويتقبلها السامع دون ملاحظة واعتراض . . . وهكذا استحل المتنبى لنفسه أن يقول :

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا بأننى خير من تسعى به قدم

أى تسعى به قدمان . . إلى غير ذلك من شواهد كثيرة تجيزها اللغة ، ولا يجيزها المنطق .

ثم قال : «فإذا أضيف إلى هذا استعمال الجمع وإرادة المثنى كما فى قوله تعالى : (إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) [٥] وفى قوله تعالى : (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما)[٦] ، وقوله تعالى : (هذان خصمان اختصموا)[٧] . وجدنا من كل هذا أن اللغة لا تسلك فى علاج الأفراد والتثنية مسلكاً منطقياً[٨] .

كذلك علاج اللغة للمفرد والجمع أمره عجب ، وشواهده لا تكاد تقع تحت

---

(١) سورة سبأ آية : ٣٧ .
(٢) سورة الأحزاب آية : ٣٥ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٢٨ .
(٤) من أسرار اللغة ص : ٨٥ بتصرف ط لجنة البيان العربى .
(٥) سورة التحريم آية : ٤ .
(٦) سورة المائدة آية : ٣٨ .
(٧) سورة الحج آية : ١٩ .
(٨) من أسرار اللغة ص : ٨٨ ، ٨٩ بتصرف .

حصر ، فقد يستعمل المفرد، ويراد به الجمع ، ومن ذلك قوله تعالى: (وإن كنتم جنبًا)[١] وقوله تعالى : (هؤلاء ضيفي) [٢] وقوله تعالى: (فإنهم عدوٌّ لي)[٣] »[٤].

٣ ـ التذكير والتأنيث :

يقول الدكتور أنيس : « نرى النحاة من العرب يقسمون التأنيث إلى مؤنث حقيقي ، ومؤنث مجازى ، ولكل منهما أحكامه اللغوية .

ومع هذا نرى اللغة تقبل نصوصًا مثل: المرأة الكاعب، والناهد، والعانس، والحامل ، والمرضع .

وقد ذكَّر الله الطاغوت في قوله تعالى: (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به) [٥] وأنَّث في قوله تعالى: (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها)[٦] [٧] .

من هذه الأدلة كلها نستطيع أن نقول : إن اعتماد البصريين على المنطق في دراستهم النحوية جعل مقاييسهم مضطربة، ومنطقهم مختلا ، لأن اللغة لا تخضع لحتمية المنطق الذي يصنع المقدمات لاستخلاص النتائج .

القياس البصري والقرآن الكريم :

كثير من المسائل النحوية كان من الممكن إن تقوم على القرآن وحده؛ لأن وجه الاستشهاد بها واضح بين لا يحتاج إلى جدل أو مناقشة ، ولكن البصريين لم يَنْسوا أقيستهم إزاءها فتركوا الاستدلال بها اعتماداً على هذه المقاييس ، وكان الأحرى بهم أن يحطّموا هذه المقاييس ليأخذوا بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أما الدليل على ما أقول فيتضح فيما يأتي :

---

(١) سورة المائدة : آية ٦ .
(٢) الحجر : آية ٦٨ .
(٣) الشعراء آية : ٧٧ .
(٤) من أسرار اللغة ص : ٩٠ بتصرف .
(٥) سورة النساء آية : ٦٠ .
(٦) سورة الزمر آية : ٢٧ .
(٧) أسرار اللغة ص : ٩٦ بتصرف .

١ ـ تقديم خبر ليس عليها :

جمهور البصريين يمنعون أن يتقدم خبر ليس عليها ، قاسوها على عسى وخبر عسى لا يتقدم عليها اتفاقًا ، والجامع بينهما الجمود[١] .

مع أنه كان يجب أن يُترك القياس فى هذا الموضع مع وجود الآية القرآنية التى تنطق بالجواز .

ومن هنا أجاز « قدماء المصريين والفراء ، وابن برهان والزمخشرى والشلوبين وابن عصفور من المتأخرين جواز تقديم الخبر عليها بنحو قوله تعالى : (ألا يوم يأتيهم ليس مصروفًا عنهم)[٢] »[٣] .

٢ ـ فى تقديم معمول اسم الفعل عليه :

ذهب الكوفيون إلى أن عليك ودونك ، وعندك فى الإغراء يجوز تقديم معمولاتها عليها نحو : زيداً عليك ، وعمراً عندك ، وبكراً دونك .

واحتج الكوفيون بالنقل من القرآن الكريم ، فقد قال الله تعالى : (كتاب الله عليكم)[٤] فدل على جواز تقديمه .

أما البصريون فقد نقضوا هذا النقل القرآنى بالقياس فقالوا : الدليل على أنه لا يجوز تقديم معمولاتها عليها أن هذه الألفاظ فرع على الفعل فى العمل ، لأنها إنما عملت عمله لقيامها مقامه ، فينبغى أن لا تتصرف تصرفه ، فوجب أن لا يجوز تقديم معمولاتها عليها ، وصار هذا كما نقول فى الحال إذا كان العامل فيها غير فعل ، فإنه لا يجوز تقديمها عليه لعدم تصرفه ، فكذلك ها هنا ، إذ لو قلنا : إنه يتصرف عملُها ، ويجوز تقديم معمولاتها عليها لأدى ذلك إلى التسوية بين الفرع والأصل وذلك لا يجوز ، لأن الفروع أبداً تنحط عن درجات الأصول[٥] .

---

(١) شرح التصريح جـ ١ ص : ١٨٨ ط الحلبى .
(٢) سورة هود آية : ٨ .
(٣) شرح التصريح جـ ١ ص : ١٨٨ .
(٤) سورة النساء آية : ٢٤ .
(٥) الإنصاف لابن الأنبارى : جـ ١ ص : ٢٢٨ ، ٢٢٩ المسألة ٢٧ الطبعة الرابعة مطبعة السعادة (بتصرف) .

٣ ــ عامل الجزم فى جواب الشرط :

ذهب الكوفيون إلى أن جواب الشرط مجزوم على الجوار .

واحتجوا بأن قالوا: إنما قلنا إنه مجزوم على الجوار ، لأن جواب الشرط مجاور لفعل الشرط ، لازم له ، لا يكاد ينفك عنه ، فلما كان منه بهذه المنزلة فى الجوار حمل عليه فى الجزم ، فكان مجزوماً على الجوار والحمل على الجوار كثير . قال الله تعالى :(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين)[1] وجه الدليل أنه قال (المشركين) بالخفض على الجوار وإن كان معطوفاً على (الذين) فهو مرفوع ، لأنه اسم يكن ، وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا : إن العامل هو حرف الشرط وذلك لأن حرف الشرط يقتضى جواب الشرط كما يقتضى فعل الشرط وكما وجب أن يعمل فى فعل الشرط فكذلك يجب أن يعمل فى جواب الشرط[2].

وإذا كان للقياس البصرى هذا الشأن حتّى فى مجال الدراسة القرآنية فهل يطبق هذا القياس الذى صنعوه من مادة مضطربة ، ولغات متباينة، على الآيات القرآنية ليتحكم فيها ، ويفرض سلطانه عليها .

الحق أن القرآن الكريم لا يخضع لأقيسة البصرة ، ولا لأقيسة الكوفة لأنه مصدر القياس ، والأصل الذى يجب أن يقاس عليه ، فكيف ينقلب الأصل فرعاً ، والمصدر تابعاً .

وقد عرف النحاة هذا المعنى ، وبينوا أن القرآن الكريم لا يخضع لقياس العربية وهذا هو الدليل :

١ ــ قال أبو جعفر النحاس عند إعرابه لقوله تعالى : (يوم هم على النار يفتنون)[3] :

اختلف فى نصب يوم ، فقال أبو إسحاق : موضعه نصب ، والمعنى يقع الجزاء يوم هم على النار .

---

(١) سورة البينة آية : ١ .
(٢) الإنصاف فى مسائل الخلاف : ابن الأنبارى ج ٢ ص: ٦٠٢ – ٦٠٨ المسألة ٨٤ بتصرف .
(٣) سورة الذاريات آية : ١٣ .

والنحويون غيره يقولون : يوم فى موضع رفع على البدل من قوله تعالى : (أيّان يوم الدين) ثم قال أبو جعفر : لا نعلم أحداً رفعه ولا خفضه ، والقياس يوجب إجازة هذين[١] .

٢ – وقال ابن خالويه عند إعرابه لقوله تعالى:(مالك يوم الدين)[٢] : يجوز فى النحو : مالكٌ يومَ الدين بالرفع على معنى هو مالك ولا يقرأ به ، لأن القراءة سنة ، ولا تحمل على قياس العربية[٣] .

على أن البصريين لم يلتزموا القياس فى كل مسائلهم ، ذلك لأنهم حطموا هذا القياس أمام جملة سمعت من العرب ، أو حكاية حكيت عنهم ،وعجبت من هذا المنهج المضطرب! كيف لا يأخذون بالآيات القرآنية التى عرضتها فيما سبق ، ويلجئون إزاءها إلى التأويل والتخريج؟على حين يقفون مكتوفى الأيدى أمام كلمة أو جملة سمعت عن العرب ولم تخضع لمقاييسهم ، ولا يملكون فى مجالها إلا أن يحنوا رؤوسهم إجلالا لها .

أنا لا أنكر أن القياس فى اللغة له مكانته ، وإذا استعمل استعمالا صحيحاً أغنى اللغة وأثراها ، ولكن يجب إزاء هذا القياس أن نحترم السماع ، فاللغة رواية ونقل ، لا منطق ولا عقل .

ورحم الله أبا على الذى يقول : « إن الغرض فيما ندونه من هذه الدواوين ونتبعه من هذه القوانين إنما هو ليلحقَ من ليس من أهل اللغة بأهلها، ويستوى من ليس بفصيح ، ومن هو فصيح ، فإذا ورد السماع بشىء لم يبق غرض مطلوب ، وعدل عن القياس إلى السماع »[٤] .

وقد قال سيبويه فى هذا المعنى قبل أن يقول أبو على ، ذكر نصه الزمخشرى فقال « النسب بغير يائه مادل عليه بالصيغة نحو عواج ، وبنات ، ودارع ، ولابن ، ثم قال : فإن قلت : أهو قياس كالنسب بالعلامة أم يقصر على السماع ؟ قلت :

---

(١) إعراب القرآن لأبى جعفر النحاس ؛ جـ ٣ ص : ١٨٤ مخطوط رقم ١٧٨ تفسير – تيمور . دار الكتب .

(٢) سورة الفاتحة آية : ٤ .

(٣) إعراب القرآن : لابن خالويه ورقة ١٠ مخطوط رقم ٧ تفسير ، مكتبة الشنقيطى – دار الكتب ص ٢٣ ، ٢٤ من المطبوعة .

(٤) المنسف لابن جنى : جـ . ص : ٢٧٩ ط الحلبى ط أولى سنة ١٩٥٤ .

بل يقصر على السماع ،وقال سيبويه : وليس فى كل شىء قيل هذا ، ألا ترى أنك لا تقول : لصاحب البر برّار ولصاحب الفاكهة فكّاه ، ولا لصاحب الشعر شعّار ، ولا لصاحب الدقيق دقّاق» [١] .

وقد قال المبرد ذلك أيضًا فقال ما نصه : « فَعَال فى الأمر من الثلاثى مسموع فلا يقال : قَوَام ، وقَعَاد فى قم ، واقعد ، إذ ليس لأحد أن يبتدع صيغة لم يقلها العرب ، وليس لنا فى أبنية المبالغة أن نقيس فلا نقول فى شاكر ، وغافر ، شكير وغفير »[٢] .

من هذا الذى قدمت يتبين لنا أن النحويين البصريين لم يكونوا ملمين بكل ما قال العرب ، وإذا كان الشأن كذلك ، فليس من المنطق أن نحكم المنطق فى مجموعة من الأساليب .

وقد قال السيوطى فى هذا المجال ما نصه فى معرض النداء بالهمزة : « ذكر فى شرح التسهيل أن النداء بها قليل فى كلام العرب ، وتبعه ابن الصّائغ فى حواشى المغنى ، وما قالاه مردود ، فقد وقفت لذلك على أكثر من ثلثمائة شاهد ، وأفردتها بتأليف [٣] .

أما الأمثلة التى تدل على أن البصريين خالفوا مقاييسهم إزاء حكاية أو جملة سمعت من العرب فكثيرة عديدة أذكر منها ما يلى :

١ — قال السيوطى : « وإذا علم ما يجب فيه تأخير الخبر وما يمنع علم أن ما عداهما يجوز فيه التقديم والتأخير . . ثم قال السيوطى : ومنع الكوفيون تقديم الخبر فى غير نحو فى داره زيد ، وإنما أجازه الكوفيون ، ولم يجيزوا قائم زيد ، وضربته زيد ، لأن الضمير فى قولك فى داره زيد غير معتمد عليه ، ألا ترى أن المقصود فى الدار زيد . . . واحتج البصريون بالسماع حكى : تميمىٌّ أنا ، ومشنوء من يشنؤك »[٤]

٢ — وابن جنى ينقل عن سيبويه زعيم مدرسة البصرة أن إيّا من إياك فى قوله

(١) المحاجاة بالمسائل النحوية لجار الله الزمخشرى مخطوط رقم ٢٨ ش دار الكتب ص ٦٩
(٢) شرح الرضى على الكافية جـ ٢ ص : ٧٢ مطبعة مجمع الرضى سنة ١٢٧٥ هـ .
(٣) همع الهوامع جـ ١ ص : ١٧٢ مطبعة السعادة ط أولى
(٤) همع الهوامع جـ ١ ص : ١٠٣ . بتصرف .

تعالى : (إياك نعبد)[١] اسم مضمر مضاف إلى الكاف لحكاية شاذة سمعها من بعض الأعراب شيخه الخليل : إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب[٢] .

الأصول البصرية والقرآن الكريم :

وكما عز على البصريين أن يتناسوا مقاييسهم أمام النصوص الصريحة من القرآن الكريم عزّ عليهم أيضًا أن يتناسوا أصولهم التى ترتكز على الفلسفة والمنطق أمام هذه النصوص .

وهذه صور من المسائل النحوية التى اعتمدوا فيها على أصولهم فى حين أنهم أغمضوا عيونهم عن الآيات القرآنية التى كان من الممكن أن تكون دعامة قوية لهذه المسائل النحوية .

١ ــ فى العطف على اسم إن بالرفع قبل مجىء الخبر :

ذهب الكوفيون إلى أنه يجوز العطف على موضع (إنّ) قبل تمام الخبر ، واحتج الكوفيون بقوله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى)[٣] وجه الدليل أنه عطف (الصابئون) على موضع إن قبل تمام الخبر ، وهو قوله : (من آمن بالله واليوم الآخر) وأما البصريون فاحتجوا بأن قالوا : « الدليل على أن ذلك لا يجوز أنك إذا قلت : إنك وزيد قائمان وجب أن يكون زيد مرفوعًا بالابتداء ووجب أن يكون عاملا فى خبر زيد ، وتكون إن عاملة فى خبر الكاف ، وقد اجتمعا فى لفظ واحد فلو قلنا : إنه يجوز فيه العطف قبل تمام الخبر لأدى ذلك إلى أن يعمل فى اسم واحد عاملان ، وذلك محال »[٤] .

٢ ــ فى معنى إن ، ومعنى اللام بعدها :

ذهب الكوفيون إلى أن « إن » إذا جاءت بعدها اللام تكون بمعنى ما ، واللام بمعنى إلا .

---

(١) سورة الفاتحة آية : ٥ .
(٢) سر صناعة الإعراب لابن جنى ج ١ ص : ٣١١ مطبعة الحلبى .
(٣) سورة المائدة آية : ٦٩ .
(٤) الإنصاف ج ١ ص : ١٨٥ ، ١٨٦ المسألة ٢٣ بتصرف .

واحتجوا بقول الله تعالى: (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك)[١] أى وما كادوا إلا يستفزونك . وقال تعالى : (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم) [٢] أى وما كادوا إلا يزلقونك .

وقال تعالى :(ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا)[٣] أى : ما كان وعد ربنا إلا مفعولا .

وذهب البصريون إلى أنها مخففة من الثقيلة . واللام بعدها لام التأكيد واحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا : إنها مخففة من الثقيلة لأنا وجدنا لها فى كلام العرب نظيراً ، وأنا أجمعنا على أنه يجوز تخفيف إن ؛ وإن اختلفنا فى بطلان عملها مع التخفيف ، وقلنا إن اللام لام التأكيد ؛ لأن لها أيضًا نظيراً فى كلام العرب ، وكون اللام للتأكيد فى كلامهم مما لا ينكر لكثرته فحكمنا على اللام بما له نظير فى كلامهم فأما كون اللام بمعنى إلا فهو شىء ليس له نظير فى كلامهم ، والمصير إلى ما له نظير فى كلامهم أولى من المصير إلى ما ليس له نظير[٤] .

٣ – عمل أن المصدرية محذوفة من غير بدل :

ذهب الكوفيون إلى أن(أن)الخفيفة تعمل فى الفعل المضارع النصب مع الحذف من غير بدل .

واحتجوا بأن قالوا : الدليل على أنه يجوز إعمالها مع الحذف قراءة عبد الله ابن مسعود : (وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدوا إلا الله) [٥] فنصب « لا تعبدوا » بأن مقدرة ؛ لأن التقدير فيه : أن لا تعبدوا إلا الله ، فحذف أن ، وأعملها مع الحذف فدل على أنها تعمل النصب مع الحذف وذهب البصريون إلى أنها لا تعمل مع الحذف من غير بدل .

واحتجوا بأن قالوا : الدليل على أنها لا يجوز إعمالها مع الحذف أنها حرف

---

(١) سورة الإسراء آية : ٧٦ .
(٢) سورة القلم آية : ٥١ .
(٣) سورة الإسراء آية : ١٠٨ .
(٤) الإنصاف جـ ٢ ص : ٦٤٠ – ٦٤٢ المسألة ٩٠ بتصرف .
(٥) سورة البقرة آية : ٨٣ .

نصب من عوامل الأفعال ، وعوامل الأفعال ضعيفة ، فينبغى أن لا تعمل مع الحذف من غير بدل .

والذى يدل على ذلك أنّ أنّ المشدّدة التى تنصب الأسماء لا تعمل مع الحذف وإذا كانت أنّ المشددة لا تعمل مع الحذف . فإن الخفيفة أولى أن لا تعمل ، وذلك لوجهين :

أحدهما : أنّ أنّ المشددة من عوامل الأسماء، وأن الخفيفة من عوامل الأفعال وعوامل الأسماء أقوى من عوامل الأفعال . وإذا كانت أنّ المشددة لا تعمل مع الحذف وهى الأقوى ، فإن لا تعمل أن الخفيفة مع الحذف ، وهى الأضعف كان ذلك من طريق الأولى .

والثانى : أن الخفيفة إنما عملت النصب لأنها أشبهت أن المشددة ، وإذا كان الأصل المشبه به لا ينصب مع الحذف . فالفرع المشبه أولى أن لا ينصب مع الحذف ، لأنه يؤدى إلى أن يكون الفرع أقوى من الأصل ، وذلك لا يجوز[1] .

٤ ــ هل تأتى أو بمعنى الواو ، وبمعنى بل ؟

ذهب الكوفيون إلى أن أو تكون بمعنى الواو ، وبمعنى بل . واحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا ذلك لأنه قد جاء ذلك كثيراً فى كتاب الله تعالى ، قال الله تعالى : (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون)[2] فقيل فى التفسير : إنها بمعنى بل ، أى بل يزيدون ، وقيل إنها بمعنى الواو أى ويزيدون .

وقال تعالى :(ولا تطع منهم آثماً أو كفورا)[3] أى وكفورا . وذهب البصريون إلى أنها لا تكون بمعنى الواو ، ولا بمعنى بل ، واحتجوا بأن قالوا : «الأصل فى أو أن تكون لأحد الشيئين على الإبهام بخلاف الواو ، وبل ، لأن الواو معناها الجمع بين الشيئين ، وبل معناها الإضراب ، وكلاهما مخالف لمعنى أو ، والأصل فى كل حرف أن لا يدل إلا على ما وضع له ، ولا يدل على معنى حرف

---

(١) الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى ج ٢ ص : ٥٦٠ – ٥٦٢ بتصرف المسألة : ٧٧ .
(٢) سورة الصافات آية : ١٤٧ .
(٣) سورة الإنسان آية : ٢٤ .

آخر فنحن تمسكنا بالأصل ، ومن تمسك بالأصل استغنى عن إقامة الدليل ،.ومن عدل عن الأصل بقى مرتهناً بإقامة الدليل»[١] .

٥ ـ القول فى إن الشرطية هل تقع بمعنى إذ ؟ :

ذهب الكوفيون إلى أن إن الشرطية تقع بمعنى إذ .

واحتجوا بقول الله تعالى : (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا)[٢] أى : وإذ كنتم فى ريب ، لأن إن الشرطية تفيد الشك بخلاف إذ ألا ترى أنه لا يجوز أن تقول . إن قامت القيامة كان كذا لما تقتضيه من معنى الشك ، ولو قلت : إذ قامت القيامة أو إذا قامت القيامة كان جائزاً لأن إذ وإذا ليس فيهما معنى الشك ، وإذا ثبت أن إن الشرطية فيها معنى الشك ، فلا يجوز أن تكون هاهنا الشرطية لأنه لا شك أنهم كانوا فى شك فدل على أنها بمعنى إذ . وقال تعالى : (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقِىَ من الربا إن كنتم مؤمنين)[٣] أى إذ كنتم مؤمنين لأنه لا شك فى كونهم مؤمنين ، ولهذا خاطبهم فى صدر الآية بالإيمان ، فقال : (يا أيها الذين آمنوا) فدل على أنها بمعنى إذ : وذهب البصريون إلى أنها لا تقع بمعنى إذ .

واحتجوا بأن قالوا : أجمعنا على أن الأصل فى (إن) أن تكون شرطـًا والأصل فى إذ أن تكون ظرفـًا ، والأصل فى كل حرف أن يكون دالاً على ما وضع له فى الأصل ، فمن تمسك بالأصل ، فقد تمسك باستصحاب الحال ، ومن عدل عن الأصل بقى مرتهنـًا بإقامة الدليل ، ولا دليل لهم يدل على ما ذهبوا إليه[٤] .

٦ ـ هل تأتى ألفاظ الإشارة أسماء موصولة ؟ :

ذهب الكوفيون إلى أن (هذا) وما أشبهه من أسماء الإشارة يكون بمعنى الذى ، والأسماء الموصولة نحو « هذا قال ذاك زيد » أى الذى قال ذاك زيد .

واحتجوا بقول الله تعالى : (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم) [٥] والتقدير فيه ،

---

(١) الإنصاف : جـ ٢ ص : ٤٧٨ – ٤٨١ بتصرف المسألة : ٦٧ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٣ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٧٨ .
(٤) الإنصاف جـ ٢ ص : ٦٣٢ – ٦٣٤ بتصرف المسألة ٨٨ .
(٥) سورة البقرة آية : ٨٥ .

ثم أنتم الذين تقتلون أنفسكم ، فأنتم مبتدأ ، وهؤلاء خبره ،وتقتلون صلة هؤلاء .

وذهب البصريون إلى أنه لا يكون بمعنى الذى ، وكذلك أسماء الإشارة لا تكون بمعنى الأسماء الموصولة .

واحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا ذلك ، لأن الأصل فى هذا ، وما أشبهه من أسماء الإشارة أن يكون دالا على الإشارة ، والذى ، وسائر الموصولات ليست فى معناها ، فينبغى أن لا يحمل عليها ، وهذا تمسك بالأصل ، واستصحاب الحال[1] .

أثر القرآن الكريم فى التخريجات النحوية عند البصريين :

البصريون ــ كما قلت ــ معترفون بأن القرآن الكريم أصل من أصول الاستشهاد غير أنهم صعب عليهم أن يحطموا ما بنوه من مقاييس وأن يهدموا ما شيّدوه من أصول ،وفى الوقت نفسه عز عليهم ألا يغترفوا من معين القرآن الكريم فى تقعيد القاعدة ، وبناء الحكم فلجئوا إلى التأويل والتخريج .

وبالتأويلات والتخريجات تزاحمت مسائل النحو ، ففى كل مسألة قولان لا ، بل أقوال ، وفى كل مشكلة رأيان ، لا ، بل آراء .

واهتزت القواعد من هذا الاضطراب الذى تورط فيه البصريون وسار على دربهم فى هذا المضمار النحاة المتأخرون .

هذا ، ولم يضق بهذه التأويلات المتعلمون فحسب ، بل شاركهم فى ذلك الخلفاء والأمراء ، ذلك لأن اللغة يجب أن تبتعد عن ميادين التأويلات والتخريجات حتى لا تضطرب المعانى ، وتختلط الأفكار ، والإعراب فرع المعنى كما يقولون .

حدث أحمد بن يحيى ثعلب قال : «كان ابن قادم مع إسحاق بن إبراهيم المصعبى ، فكتب كاتبه ميمون بن إبراهيم إلى المأمون كتاباً فيه : وهذا المال مالاً يجب على فلان ،فخط المأمون على « مالا » ووقع بخطه فى حاشية الكتاب : أتكاتبنى بلحن يا إسحاق ، فاشتد ذلك عليه . قال : فحدثنى ابن قادم ، قال : أتانى ميمون ، فقال : الله الله فىّ ، احتل لى ، فحضرت ، فسألنى إسحاق عن الحرف ، فقلت : الوجه وهذا المال مالٌ ، ومالاً يجوز على تأويل ، لأخلص

---

(١) الإنصاف جـ ٢ ص : ٧١٧ إلى ٧١٩ المسألة ١٠٣ بتصرف .

الكاتب ، فقال إسحاق لكاتبه : فقد عفوت عنك . فدعنى من يجوز ، وألزم صحيح الإعراب »[١] .

وكنا نود تقديساً للقرآن الكريم ، وللغته الفصحى ألا يكون هذا القرآن موضعاً للتأويلات ، ومسرحاً للتخريجات ، ما لم تكن هناك ضرورة تدعو إلى ذلك ، ولكن هكذا شاء القدر أن يلتزم البصريون منهج التخريج والتأويل فى كتاب الله تبارك وتعالى من غير أن تكون هناك ضرورة ملحَّة لتقيم أصلا من أصول الدين ، أو تحافظ على سلامة عقيدة من عقائده أما الأدلة التى اعتمد عليها فيما قلت فعديدة . أكتفى منها بما يأتى :

١ — فى وقوع الفعل الماضى حالا :

ذهب الكوفيون إلى أن الفعل الماضى يجوز أن يقع حالا واحتجوا بقوله تعالى : (أوجاءوكم حَصِرَتْ صدورهم)[٢] فحصرت فعل ماض ، وهو فى موضع الحال ، وتقديره حصرةً صدورهم إلخ .

وأما البصريُّون فذهبوا إلى أنه لا يجوز أن يقع حالا ؟

وخرجوا الآية القرآنية التى احتج بها الكوفيون فقالوا :

أما احتجاجهم بقوله تعالى : (أو جاءوكم حصرت صدورهم) فلا حجة لهم فيه وذلك من أربعة أوجه : .

الوجه الأول : أن تكون صفة لقوم المجرور فى أول الآية . وهو قوله تعالى : (إلا الذين يصلون إلى قوم) .

والوجه الثانى : أن تكون صفة لقوم مقدر . ويكون التقدير فيه : أو جاءوكم قوماً حصرت صدورهم ، والماضى إذا وقع صفة لموصوف محذوف جاز أن يقع حالا بالإجماع .

والوجه الثالث : أن يكون خبراً بعد خبر ، كأنه قال : أو جاءوكم ، ثم أخبر فقال : حصرت صدورهم .

---

(١) أدب الكتاب ص : ١٢٩ .

(٢) سورة النساء آية : ٩٠ .

والوجه الرابع : أن يكون محمولاً على الدعاء ، لا على الحال ، كأنه قال : ضيّق الله صدورهم[١] .

٢ ـ العطف على اسم إن بالرفع قبل مجيء الخبر :

سبق أن بينت أن الكوفيين يجوّزون ذلك محتجين بقوله تعالى : (إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئون ، والنصارى)[٢][٣] .

ولكن البصريين يتأولون ذلك ، يقول ابن الأنبارى : « وما استدل به الكوفيون فلا حجة لهم فيه من وجهين :

أحدهما : أنا نقول فى الآية تقديم وتأخير ، والتقدير فيه : إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، ومن آمن بالله واليوم الآخر فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والصابئون ، والنصارى كذلك .

والوجه الثانى : أن يجعل قوله : من آمن بالله ، واليوم الآخر خبر الصابئين النصارى ، وتضمر للذين آمنوا ، والذين هادوا مثل الذى أظهرت للصابئين والنصارى ألا ترى أنك تقول : زيد وعمرو قائم ، فتجعل قائماً خبراً لعمرو ، وتضمر لزيد خبراً آخر مثل الذى أظهرت لعمرو .

وإن شئت جعلته خبراً لزيد ، وأضمرت لعمرو خبراً »[٤] .

٣ ـ ورود الحال مصدراً :

قال السيوطى ؛ ورد الحال مصدراً بكثرة ، قال أبو حيان : وهو أكثر من وروده نعتًا ، فمنه : (ثم ادعهن يأتينك سعيًا)[٥] ،(والذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانية)[٦] ، (وادعوه خوفًا وطمعًا)[٧] ، (ثم إنى دعوتهم جهارا)[٨] .

---

(١) الإنصاف جـ ١ ص : ٢٥٢ – ٢٥٤ المسألة ٣٢ .
(٢) سورة المائدة آية : ٦٩ .
(٣) الإنصاف جـ ١ ص : ١٨٥ المسألة ٢٣ .
(٤) أسرار العربية ص : ١٥٣ .
(٥) سورة البقرة آية : ٢٦٠ .
(٦) سورة البقرة آية : ٢٧٤ .
(٧) سورة الأعراف آية : ٥٦ .
(٨) سورة نوح آية : ٨ .

اختلف النحويون فى ورود الحال مصدراً ، فالكوفيون يقولون : إن المنصوبات فى الآيات مفاعيل مطلقة للأفعال السابقة .

والبصريون ذهبوا إلى أنها مصادر فى موضع الحال مؤولة بالمشتق أى ساعياً ومُسرِّاً . وخائفين ، وطائعين .

وقال بعضهم : هى مصادر على حذف مضاف أى إتيان ركض فى قولهم أتيته ركضاً ، وسَير عدو . فى قولهم أتيته عدواً[١] .

٤ – إلا بمعنى الواو :

ذهب الكوفيون إلى أن إلا تكون بمعنى الواو ، وذهب البصريون إلى أنها لا تكون بمعنى الواو .

واحتج الكوفيون بقوله تعالى : (لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم) [٢] أى ولا الذين ظلموا ، يعنى والذين ظلموا لا يكون لهم أيضاً حجة .

وتأول البصريون هذه الآية بأن (إلا) ها هنا استثناء منقطع والمعنى : لكن الذين ظلموا يحتجون عليكم بغير حجة[٣] .

٥ – زيادة واو العطف :

ذهب الكوفيون إلى أن الواو العاطفة يجوز أن تقع زائدة ، وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز .

واحتج الكوفيون بقوله تعالى : (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها)[٤] ، قالوا : الواو زائدة ، لأن التقدير فيه (فتحت أبوابها) لأنه جواب لقوله : حتى إذا جاءوها كما قال تعالى فى صفة سَوْق أهل النار إليها : (حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها)[٥] ولا فرق بين الآيتين .

وتأول البصريون هذه الآية فقالوا : إن الواو عاطفة ، وليست بزائدة ، وأما جواب إذا فمحذوف ، والتقدير فيه : حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها فازوا ونعموا[٦] .

---

(١) همع الهوامع : جـ ١ ص : ٢٣٨ بتصرف . (٢) سورة البقرة آية : ١٥٠ .
(٣) الإنصاف جـ ١ ص : ٢٦٦ ، ٢٦٧ بتصرف المسألة ٣٥ .
(٤) سورة الزمر آية : ٧٣ . (٥) سورة الزمر آية : ٧١ .
(٦) الإنصاف جـ ٢ ص : ٤٥٦ – ٤٥٩ المسألة ٦٤ بتصرف .

٦ - إنْ الواقعة بعد (ما) أنافية مؤكِّدة أم زائدة ؟

ذهب الكوفيون إلى أن (إنْ) إذا وقعت بعد ما نحو : ما إن زيد قائم، فإنها بمعنى ما ، وذهب البصريون إلى أنها زائدة ، واحتج الكوفيون بقوله تعالى : (إن أنتم إلا بشر مثلنا)[1] أى ما أنتم . وقال تعالى : (إن نحن إلا بشر مثلكم)[2] أى ما نحن .

وقال تعالى : (قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين)[3] .

وقال تعالى : (قل إن كان للرحمن ولد)[4] أى ما كان للرحمن ولد إلى غير ذلك، فإذا ثبت أنها تكون بمعنى (ما) جاز أن يجمع بينها و بين (ما) لتأكيد النفى كالجمع بين (إن) (واللام) لتوكيد الإثبات .

وقال البصريون : إن (إنْ) فى قوله تعالى: (بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين) ليست بمعنى ما ، وإنما هى هنا شرطية وجوابه مقدر ، والتقدير فيه : إن كنتم مؤمنين فأى إيمان يأمر بعبادة عجل من دون الله تعالى .

وكذلك قوله تعالى : (قل إن كان للرحمن ولد ، فأنا أول العابدين) لا نسلم أيضاً أنها ها هنا بمعنى ما ، وإنما هى شرطية ، وجوابه فأنا أول العابدين أى الآنفين من قولهم : عَبِد الرجل يعْبَدُ عبَداً فهو عَبِد، وعابد إذا أنِفَ[5].

البصريون والاستشهاد بالقرآن الكريم :

منهج البصريين فى دراسة النحو ، وتقويم مسائله ، وبناء قواعده منهج غير مطرد ولا بد أن يكون كذلك ، لأن اللغة ظاهرة اجتماعية لا تخضع للتحديد ، ولا تقبل التقسيم شأنها شأن الكائن الحى ينمو متفاعلا مع بيئته التى تموج بشتى المظاهر المختلفة مما يصعب على الباحث تقنين هذه المظاهر ، أو تحديدها بأطر تتحكم فيها المقاييس ، لأن هذه المظاهر أكبر من أن تقاس ، وأعظم من أن تقنّن .

---

(١) سورة إبراهيم آية : ١٠ .
(٢) سورة إبراهيم آية : ١١ .
(٣) سورة البقرة آية : ٩٣ .
(٤) سورة الزخرف آية : ٨١ .
(٥) الإنصاف جـ٢ ص : ٦٣٦ — ٦٣٧ المسألة ٨٩ بتصرف .

وهذا هو السبب فى رأيى فى اضطراب منهج البصريين لأنهم حاولوا إخضاع اللغة للمقاييس . فنشأ الاضطراب ، وعزّ الصواب ، ولو حوّلوا وجهتهم إلى القرآن الكريم ، وهو الجامع لأفصح اللغات وأقوى اللهجات ، وأعظم الأساليب وجعلوه أصلا يحتذى بغض النظر عن أن يكون بجانبه شعر يعزز ، أو أصل يقوى ، أو مقياس يُدْعِم ، لو فعلوا ذلك لسهل النحو ، ولانت مصاعبه ، وذللت مسالكه ، ولو فعلوا ذلك لكانت اللغة فى مأمن من هذا الاضطراب الذى أوشك أن تمتد جذوره إلى كل مسألة من مسائلها .

نعم ، إن البصريين فعلوا ذلك فى قليل من المسائل ، وكنا نود أن يصبح القليل كثيراً . ولكن هكذا شاء منهجهم أن يشربوا من هذا المورد فى غير ارتواء ، مع أن عذوبة مائه كانت تقتضى منهم أن ينهلوا منه ما شاءوا أن ينهلوا .

أما هذه المسائل القليلة التى اعتمدوا فيها على القرآن الكريم ، فأهمها ما يأتى :

١ — القول فى العامل فى الخبر بعد ما النافية النّصبَ :

ذهب الكوفيون إلى أن (ما) فى لغة أهل الحجاز لا تعمل فى الخبر وهو منصوب بحذف حرف الخفض .

وذهب البصريون إلى أنها تعمل فى الخبر ، وهو منصوب بها قال البصريون : كان القياس يقتضى ألا تعمل إلا أنه وجد بينها وبين (ليس) مشابهة اقتضت أن تعمل عملها وهى لغة القرآن .

قال الله تعالى : (ما هذا بشرا)[١] ، وقال تعالى : (ما هن أمهاتهم)[٢] [٣] .

٢ — القول فى تقديم خبر ليس عليها :

ذهب الكوفيون إلى أنه لا يجوز تقديم خبر ليس عليها ، وذهب البصريون إلى أنه يجوز تقديم خبر ليس عليها .

---

(١) سورة يوسف آية ٣١ .
(٢) سورة المجادلة آية ٢ .
(٣) الإنصاف جـ ١ ص ١٦٥ ، ١٦٦ م ١٩ .

واحتج البصريون بقوله تعالى: (ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم)[١] وجه الدليل من هذه الآية أنه قدم معمول خبر ليس على ليس فإن قوله : (يوم يأتيهم) يتعلق بمصروف وقد قدمه على ليس ولو لم يجز تقديم خبر ليس على ليس ، لما جاز تقديم معمول خبرها عليها ، لأن المعمول لا يقع إلا حيث يقع العامل[٢] .

٣ ـ فى تقديم الحال على عاملها :

قال السيوطى : فى تقديم الحال على عاملها مذاهب : أحدها : المنع مطلقاً وعليه الجرمى تشبيهاً بالتمييز ، والثانى : الجواز مطلقاً . . وهو الأصح وعليه الجمهور قياساً على المفعول به . . وقد ورد به السماع . قال تعالى : (خاشعة أبصارهم يخرجون)[٣][٤] .

٤ ـ مجىء المصدر موضع الحال :

قال أبو حيان فى ارتشاف الضَّرَب : مجىء المصدر موضع الحال مذهب سيبويه ، وجمهور البصريين ، يدل على ذلك قوله تعالى : (ثم ادعهن يأتينك سعياً)[٥].(الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية)[٦] . (وادعوه خوفاً وطمعاً)[٧] (ثم إنى دعوتهم جهاراً)[٨][٩] .

٥ ـ دخول اللام على حرف التنفيس :

منع الكوفيون دخول اللام على حرف التنفيس ، وغلطهم البصريون لوروده فى قوله تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى)[١٠][١١] .

---

(١) سورة هود آية ٨ .
(٢) الإنصاف جـ ١ ص : ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٣ .
(٣) سورة القلم آية ٤٣ .
(٤) الهمع جـ ١ ص ٢٤١ و ٢٤٢
(٥) سورة البقرة آية ٢٦٠ .
(٦) سورة البقرة آية ٢٧٤ .
(٧) سورة الأعراف آية ٥٦ .
(٨) سورة نوح آية ٨ .
(٩) ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبى حيان(مخطوط رقم ١١٠٦ نحو ، دار الكتب ص ٢٣٣
(١٠) سورة الضحى آية ٥ .
(١١) الهمع جزء ١ ص ١٤٠ .

٦ ـــ خبر الفعل الناقص إذا كان ماضياً :

قال السيوطى : وشرط ما تدخل عليه صار وما بمعناها، ودام، وزال وأخواتها، أن لا يكون خبره فعلا ماضيًا ، فلا يقال صار زيد علم . وكذا البواقى ، لأنها تفهم الدوام على الفعل، أو اتصاله بزمن الإخبار، والماضى يفهم الانقطاع فتدافعا . وهذا متفق عليه. واختلف فى جواز دخول بقية أفعال الباب على ما خبره ماض. فالصحيح الجواز مطلقًا . وعليه البصريون لكثرته فى كلامهم نظمًا ونثراً كثرة توجب القياس. قال تعالى: (إن كان قميصه قد)[1]، (إن كنت قلته) [2] (إن كنتم آمنتم)[3]، (أوَ لم تكونوا أقسمتم)[4] [5] .

هذا وحاول البصريون زيادة على ما سبق أن يستخدموا الشواهد القرآنية لتأييد مقاييسهم . وأصولهم النحوية فى مسائل عديدة أذكر منها ما يأتى :

١ ـــ القول فى تقديم معمول اسم الفعل عليه :

ذهب البصريون إلى أنه لا يجوز تقديم معمول اسم الفعل عليه ، واحتجوا بأن هذه الألفاظ فرع على الفعل فى العمل ، لأنها إنما عملت عمله لقيامها مقامه ، فينبغى أن لا تتصرف تصرفه ، فوجب أن لا يجوز تقديم معمولاتها عليها ، وصار هذا كما نقول فى الحال إذا كان العامل فيها غير فعل ، فإنه لا يجوز تقديمها عليه لعدم تصرفه فكذلك هاهنا إذ لو قلنا : إنه يتصرف عملها . ويجوز تقديم معمولاتها عليها لأدى ذلك إلى التسوية بين الفرع والأصل وذلك لا يجوز ، لأن الفروع أبداً تنحط عن درجات الأصول ، ويرد البصريون على الكوفيين الذين جوّزوا ذلك محتجين بقوله تعالى: (كتاب الله عليكم)[6] أن كتاب الله ليس منصوبًا بعليكم ، وإنما هو منصوب لأنه مصدر . والعامل فيه فعل مقدر وإنما قدر هذا الفعل ، ولم يظهر؛ لدلالة ما تقدم عليه من قوله : (حرمت عليكم أمهاتكم

---

(١) سورة يوسف : آية ٢٦ .
(٢) سورة المائدة : آية ١١٦ .
(٣) سورة الأنفال: آية ٤١ .
(٤) سورة إبراهيم: آية ٤٤ .
(٥) الهمع جـ ١ ص ١١٣ .
(٦) سورة النساء : آية ٢٤ .

وبناتكم ، وأخواتكم وعماتكم ، وخالاتكم) ، فإن فيه دلالة على أن ذلك مكتوب عليهم ، فلما قدر هذا الفعل . ولم يظهر بقى التقدير فيه : كتاب الله عليكم . ثم أضيف المصدر إلى الفاعل كقوله تعالى : (وترى الجبال تحسبها جامدة . وهى تمر مرّ السحاب صنع الله)[١] فنصب صنع على المصدر بفعل مقدر . وإنما قدر هذا الفعل ولم يظهر لدلالة ما تقدم عليه من الكلام ، والتقدير فيه ؛ صنَع صنعا الله ، وحذف الفعل وأضيف المصدر إلى الفاعل لأنه يضاف إلى الفاعل كما يضاف إلى المفعول. ثم قال : وإضافة المصدر إلى الفاعل أكثر من أن تحصى قال الله تعالى : (ولولا دفع اللهِ الناس)[٢] فأضاف المصدر إلى اسم الله تعالى وهو الفاعل[٣] .

٢ ــ حاشا في الاستثناء فعل ، أو حرف ، أو ذات وجهين :

ذهب الكوفيون إلى أن (حاشا) فى الاستثناء فعل ماض .

وذهب البصريون إلى أنه حرف جر .

احتج البصريون بأن قالوا : الدليل على أنه ليس بفعل ، وأنه حرف أنه لا يجوز دخول (ما) عليه . فلا يقال : ما حاشا زيداً ، كما يقال : ما خلا زيداً ، وما عدا عمراً ، ولو كان فعلا كما زعموا لجاز أن يقال : ما حاشا زيداً ، فلما لم يقولوا ذلك دل على فساد ما ذهبوا إليه . . .

وأما قولهم : إن لام الجر تتعلق به ، قلنا لا نسلم ، فإن اللام فى قولهم (حاش لله)زائدة لا تتعلق بشيء . كقوله تعالى : (للذين هم لربهم يرهبون)[٤] لأن التقدير فيه يرهبون ربهم ، واللام زائدة لا تتعلق بشيء ، وكقوله تعالى : (ألم يعلم بأن الله يرى)[٥] ــ أى ألم يعلم أن الله ، والباء زائدة لا تتعلق بشيء . وكقوله تعالى : (اقرأ باسم ربك)[٦] ــ أى اقرأ اسم ربك وكقوله تعالى : (ولا تلقوا بأيدكم إلى

---

(١) سورة النمل ، آية ٨٨ .
(٢) سورة الحج ، آية ٤٠ .
(٣) الإنصاف جزء ١ ص ٢٢٨ و ٢٣١ م ٢٧ بتصرف .
(٤) سورة الأعراف ، آية ١٥٤ .
(٥) سورة العلق ، آية : ١٤ .
(٦) سورة العلق ، آية : ١ .

التهلكة)[١] — أى ولا تلقوا أيديكم وقوله تعالى (تنبت بالدهن)[٢] أى تنبت الدهن » [٣] .

* * *

وإلى هنا نقف عن الحديث فى أثر القرآن الكريم فى مدرسة البصرة بعد أن عرضنا لهذا الأثر ، وبينا أن القرآن الكريم كانت آياته موضع بحث ونقاش فى إطار النحو البصرى بأصوله ومقاييسه . ولا شك أن هذا البحث وهذا النقاش عاد على الدراسات النحوية بالازدهار . والنمو . والحياة والحركة ،وكل ذلك بفضل القرآن الكريم . وأثره الجم فى هذه الدراسات النحوية .

أقول نكتفى بهذا القدر لننتقل إلى النقطة التالية ، وهى أثر القرآن الكريم فى مدرسة الكوفة .

(٢)

فى مدرسة الكوفة

نشأة الكوفة :

«أنشأتها الجيوش الإسلامية التى اشتركت فى معركة(القادسية) ، وفتح المدائن فى العراق ، وكان أغلب سكانها العرب من أهل اليمن ، وشمال الجزيرة العربية ، وهى تضم عدداً كبيراً من أهل البيوتات العربية القديمة التى كان لها مركز مرموق فى الجاهلية[٤].

منهجها فى الدراسة النحوية :

نشأت المدرسة الكوفية بعد أن تطورت المدرسة البصرية ، ووصلت إلى القمة فى هذا التطور . ذلك لأن أقيستها . وأصولها ، وتعليلاتها استقرت ونضجت ، ونمت وقويت ، فلما نشأت مدرسة الكوفة بعد ذلك كانت مدرسة البصرة ينبوعاً لها ، يمدها بالنمو والحياة .

يدل على ذلك أن أبا جعفر الرؤاسى شيخ الكوفيين إنما عرف بالبصرة كما

---

(١) سورة البقرة آية : ١٩٥ . (٢) سورة المؤمنون : آية ٢٠ .

(٣) الإنصاف جـ ١ ص : ٢٧٨ — ٢٨٣ المسألة ٣٧ بتصرف .

(٤) التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الأول الهجرى ص ٥ .

قال المبرد[١] ، وقد قال عنه الزبيدى : كان أستاذ أهل الكوفة فى النحو ، وأخذ عن عيسى بن عمر[٢] ، وبعد أن نبغ فى هذه الدراسات النحوية ذهب إلى الكوفة ليذيع فيها علم البصرة ، وقد تتلمذ عليه علماء النحو من بعده الكسائى ، والفراء .

والكسائى عميد مدرسة الكوفة خرج إلى البصرة ، فلقى الخليل ، وجلس فى حلقته ، فقال له رجل من الأعراب تركت أسد الكوفة ، وتميما ، وعندها الفصاحة وجئت إلى البصرة ؟ . فقال الكسائى للخليل : من أين أخذت علمك هذا ؟ فقال من بوادى الحجاز ، ونجد ، وتهامة ، فخرج ورجع ، وقد أنفذ خمس عشرة قنينة حبراً فى الكتابة عن العرب سوى ما حفظ ، فقدم البصرة فوجد الخليل قد مات ، وفى موضعه يونس ، فجرت بينهما مسائل ، أقر له فيها يونس ، وصدّره فى موضعه[٣] .

وأقبل الطلاب على علماء الكوفة يأخذون عنهم النحو ، ويتلقون عليهم مسائله وأصوله . وأصبح للكوفيين منهج خاص ، تكوّن بعد طول النظر ، وكثرة الجدل ، ومن أجل هذا المنهج الكوفى المغاير فى بعض أسسه للمنهج البصرى نشأ الخلاف بين المدرستين ، واحتدم النزاع بين الطائفتين ، وكان لكل مدرسة أنصار وأتباع . أما المنهج البصرى فقد سبق بيانه ، وأما المنهج الكوفى ، فيتلخص فيما يأتى :

١ — الاستشهاد بلهجات عرب الأرياف الذين وثقوا بلغتهم على حين رفض البصريون الاستشهاد بها . ومن ثمّ فقد عاب البصريون على الكوفيين أنهم « يأخذون اللغة عن أكلة الشواريز[٤] وباعة الكواميخ[٥] »[٦] .

٢ — القياس على القليل النادر ، لأن ما ورد من اللغة يعد قليلا بالنسبة لما ضاع منها ، مستندين إلى كلمة أبى عمرو فى هذا حيث قال : « ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله ، ولو جاءكم لجاءكم علم وافر ، وشعر كثير »[٧] .

---

(١) البغية ص ٣٣ .
(٢) المرجع نفسه ص ٣٤ .
(٣) المرجع نفسه ص ٣٣٦ .
(٤) الشواريز : الألبان الثخينة .
(٥) الكواميخ : المخللات تشهى بها الطعام .
(٦) الاقتراح ص ١٠٠ .
(٧) المرجع نفسه ص ٢٧ .

٣ – الاستشهاد بالشعر العربى فى الجاهلية والإسلام ، ولو كان ما وصل إليهم منه بيت واحد .

قال الأندلسى فى (شرح المفصل) : « الكوفيون لو سمعوا بيتًا واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول ، جعلوه أصلا . وبوّبوا عليه » [١] .

٤ – الاستشهاد بالقراءات : فلم يكونوا رجال فاسفة . ولا دعاة منطق ، يحكمون المنطق فى اللغة . ويفرضون أقيسته عليها كما كان يفعل البصريون ، ومن ثم قبلوا قراءات القرآن التى تتجافى عن المنطق وأساليبه ، لأنها تقوم على الرواية والنقل ، وبنوا كثيراً من القواعد النحوية عليها .

٥ – الاستشهاد بالقرآن الكريم : وإذا كان الكوفيون يفتحون باب الاحتجاج بلغة عرب الأرياف على مصراعيه . ويأخذون عن كل العرب ، ويتقبلون اللغة من كل القبائل ، لا يفضلون لغة على لغة . فإنهم فى مجال القرآن الكريم . كانوا أكثر من البصريين فى الاستدلال بآياته ، والاحتجاج بأساليبه ؛ ذلك لأنهم يؤمنون أن القرآن جاء بلغات مختلفة فصيحة ، فهو أحق بالقبول ، وأجدر بالأخذ ، حينما تبنى قاعدة ، أو يقرَّر حُكْم . أو يُصحح أسلوب .

يقول أبو الفتح بن جنى فى قوله تعالى : (إنك ميت وإنهم ميتون) [٢] : « فأمَّا قول الله عز وجل : (أوَ من كان ميْتًا فأحييناه) [٣] . ثم قال فى موضع آخر : (إنك ميِّت وإنهم ميتون) فلا يدل على أن الذى يقول : ميْت هو الذى يقول ميِّت . لأن القرآن قد جاء بلغات مختلفة ، وإن كانت كلها فصيحة » [٤] .

---

(١) الاقتراح ص ١٠٠ .

(٢) الزمر آية : ٣٠ .

(٣) الأنعام آية : ١٢٢ .

(٤) المنصف جـ ٢ ص ١٧ .

أثر القرآن الكريم فى نحو مدرسة الكوفة

بينت فى حديثى عن مدرسة البصرة أن النحويين جميعًا لم يحدث بينهم كبير خلاف فى أن يكون القرآن الكريم مصدراً لبناء القواعد . غير أن هناك طائفة من الأساليب القرآنية لم تخضع لأقيسة البصريين ، فرفضوا الأخذ بها ، وحاولوا تأويلها، وتخريجها لتتفق مع مقاييسهم ، ومع هذا لم يثنوا صدورهم عن طائفة من الأساليب القرآنية التى اتفقت مع الأصول فى كثير من الأحايين أو لم تتفق معها فى أحايين أخرى قليلة .

أمّا الكوفيون فكانوا أوسع أفقًا فى مجال القرآن والاستشهاد به من البصريين فقبلوا كل ما جاء من القرآن الكريم مؤثرين فى أحايين كثيرة عدم التأويل والتخريج ، والأخذ بظواهر الآيات .

وكان هذا المنهج سليماً لو أنهم ساروا على نهجه ، وسلكوا فى دَرْبه ، فى كل ما أوردوه من مسائل ، أو عرضوه من قضايا . ولكنهم مع الأسف لم يحكموا هذا المنهج فى كل ما ورد من الآيات القرآنية ، ذلك لأنهم راعتهم الأقيسة البصرية ، فنسجوا على منوالها واغترفوا من معينها ، وخضعوا لسلطانها ، فى موضوعات عدة من المسائل النحوية ، التى كان يجب أن تسكت فيها هذه المقاييس لتنطق الشواهد القرآنية ، لتكون الفيصل فى هذه الموضوعات .

وحاولت أن أتبين مصدر هذا الاضطراب فى المنهج الكوفى ، فوضعت يدى على العلة فى هذا ، ووضح لى سبب الاضطراب .

وذلك لأن مصدر الدراسة النحوية للكوفيين هو المذهب البصرى الذى احتواه كتاب سيبويه ، والمذهب البصرى كما وضحت سابقًا يقوم على المنطق والقياس فى أكثر مسائله ، ومن هنا كان من الطبيعى أن يترك المذهب البصرى رواسبه فى المذهب الكوفى ، لأنه منه نشأ ، وعنه صدر ، وبخاصة فى مجال القياس والعلة . يدل على ذلك أن الكسائى « خدم أبا عمرو بن العلاء نحواً من سبع عشرة سنة لكنه لاختلاطه بأعراب (الأبُلّة) فسد علمه ، ولذلك احتاج إلى قراءة كتاب سيبويه ، وهو مع ذلك إمام الكوفيين »[1] .

---

(١) الاقتراح ص ١٠١ .

وأما الفراء تلميذه النابه فقد انتفع بكتاب سيبويه انتفاعًا كبيراً ، ولا أدل على ذلك من كلمة ثعلب فى هذا المقام فقد قال : « مات الفراء وتحت رأسه كتاب سيبويه »[١] .

فلا غرابة إذن أن تتسرب هذه المقاييس البصرية إلى نحوهم فتؤثر فيه وتؤثر فيهم فيغرمون بالقياس فى مواضع عديدة من نحوهم وإن كان لقياسهم صبغة تختلف عن صبغة القياس عند البصريين. أما الأمثلة التى توضح ما عرضت ، وتبين ما سجلت ، فكثيرة عديدة ، نذكر منها ما يأتى :

طائفة من المسائل النحوية التى استشهد لها الكوفيون بالقرآن الكريم :

١ ــ مِنْ تستعمل فى الزمان كما تستعمل فى المكان عند الكوفيين

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه[٢]) فأدخل من على (أول يوم) وهو ظرف زمان[٣] .

٢ ــ جواز تقديم معمول اسم الفعل عليه :

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : (كتاب الله عليكم[٤]) فنصب كتاب الله بعليكم[٥] .

٣ ــ إضافة الصفة إلى جنسها أو إلى موصوفها من غير تأويل إذا اختلف اللفظان :

الكوفيون يجوزون ذلك من غير تأويل كقولهم : جرد قطيفة ، وسحق عمامة .

واحتجوا بقوله تعالى : (حق اليقين[٦]) ، (ولدار الآخرة)[٧] ، (بجانب الغربىّ)[٨][٩] .

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٦ ص ١٢٢ .
(٢) التوبة : آية ١٠٨ .
(٣) أسرار العربية لابن الأنبارى ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .
(٤) النساء : آية ٢٤ .
(٥) أسرار العربية ص ١٦٥ .
(٦) الواقعة : آية ٩٥ .
(٧) يوسف : آية ١٠٩ .
(٨) القصص : آية ٤٤ .
(٩) شرح التصريح جـ ٢ ص ٣٤ . .

٤ ــ إذا عند الكوفيين تختص بالجمل الفعلية :

ويقع شرطها وجوابها ماضيين نحو : (وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض)[١] ومضارعين نحو: (إذا يتلى عليهم يخرون)[٢] ، ومختلفين نحو : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم)[٣] [٤] .

٥ ــ نداء اسم الإشارة :

الكوفيون يذهبون إلى جواز ذلك محتجين بقوله تعالى : (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم)[٥] أى يا هؤلاء [٦] .

٦ ــ أسماء الإشارة يجوز أن تستعمل موصلات :

يذهب الكوفيون إلى أن أسماء الإشارة كلها يجوز أن تستعمل موصولات وخرّجوا عليه : (وما تلك بيمنك يا موسى)[٧] وقوله تعالى : (ها أنتم هؤلاء حاججتم[٨]. أى الذين حاججتم[٩] .

٧ ــ إلاّ بمعنى واو العطف :

قال السيوطى : وأثبت الكوفيون العطف بإلا ، وجعلوا منه قوله تعالى : (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك)[١٠] أى وما شاء ربك[١١] .

٨ ــ لولا بمعنى لم :

قال ابن الشجرى: زعم قوم من الكوفيين أنّ (لولا) قد تستعمل بمعنى (لم) . واحتج بقوله تعالى : (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس)[١٢]

---

(١) الإسراء : آية ٨٣ .
(٢) الإسراء : آية ١٠٧ .
(٣) المائدة : آية ٨٣ .
(٤) شرح التصريح جـ ٢ ص ٤٠ .
(٥) البقرة: آية ٨٥ .
(٦) شرح التصريح جـ ٢ ص ١٦٤ .
(٧) طه : آية ١٧ .
(٨) آل عمران ٦٦ .
(٩) الهمع جـ ١ ص ٨٤ .
(١٠) هود : آية ١٠٧ .
(١١) الهمع جـ ٢ ص ١٣٨.
(١٢) يونس : آية ٩٨ .

قال معناه : لم تكن قرية آمنت عند نزول العذاب فنفعها إيمانها إلا قوم يونس . وكذلك (فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم)[١][٢] .

٩ — (إنْ) إذا جاءت بعدها اللام تكون بمعنى (ما) . واللام بمعنى إلا .

واحتجوا بقوله تعالى : (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها)[٣] أى : وما كادوا إلا يستفزونك[٤] .

١٠ — أو تكون بمعنى الواو . وبمعنى بل :

واحتجوا بقوله تعالى : (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون)[٥] أى بل يزيدون ، وقيل إنها بمعنى الواو أى ويزيدون[٦] .

١١ — إن الشرطية تقع بمعنى إذ :

واحتجوا بقوله تعالى : (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا)[٧] أى وإذ كنتم فى ريب لأن إن الشرطية تفيد الشك . بخلاف إذ . . . وإذا ثبت أنّ إن الشرطية فيها معنى الشك ، فلا يجوز أن تكون ها هنا الشرطية لأنه لاشك أنهم كانوا فى شك . فدل على أنها بمعنى إذ[٨] .

١٢ — فى العطف على اسم إن بالرفع قبل مجىء الخبر :

ذهب الكوفيون إلى أنه يجوز العطف على موضع إن قبل تمام الخبر واحتجوا بقوله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا ، والصابئون والنصارى)[٩] ووجه الدليل أنه عطف (الصابئون) على موضع إن قبل تمام الخبر ، وهو قوله : (من آمن بالله واليوم الآخر)[١٠] .

---

(١) هود : آية ١٦ .
(٢) أمالى بن الشجرى جـ ٢ ص ٢١٢ ط أولى : حيدر آباد سنة ١٣٤٩ .
(٣) الإسراء : آية ٧٦ .
(٤) الإنصاف جـ ٢ المسألة / ٩٠ ص ٦٤٠ .
(٥) الصافات : آية ١٤٧ .
(٦) الإنصاف جـ ٢ ص ٤٧٨ م ٦٧ .
(٧) البقرة : آية ٢٣ .
(٨) الإنصاف جـ ٢ ص ٦٣٢ م ٨٨ .
(٩) المائدة : آية ٦٩ .
(١٠) الإنصاف جـ ١ ص ١٨٥ ، ص ١٨٦ م ٢٣ .

١٣ — وقوع واو العطف زائدة :

الكوفيون قالوا : الدليل على ذلك قوله تعالى : (حتّى إذا جاءوها وفتحت أبوابها)[١] فالواو زائدة لأن التقدير فيه فتحت أبوابها، لأنه جواب لقوله : (حتّى إذا جاءوها)[٢] .

١٤ — الفعل الماضي يقع حالا بدون قيد ولا شرط :

ذهب الكوفيون إلى ذلك ، واحتجوا بقول الله تعالى: (أو جاءوكم حصرت صدورهم)[٢][٣] فحصرت فعل ماض، وهو فى موضع الحال ، وتقديره : حصرةً صدورهم .

وذهب البصريون إلى أنه لا يجوز أن يقع حالا .

وأجمعوا على أنه إذا كانت معه قد أو كان وصفًا لمحذوف فإنه يجوز أن يقع حالا[٤] .

طائفة من المسائل الكوفية التى اعتمدوا فيها على القياس والأصول :

١ — فى تقديم خبر ليس عليها :

ذهب الكوفيون إلى أنه لا يجوز تقديم خبر ليس عليها :

واحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا : إنه لا يجوز تقديم خبر ليس عليها وذلك لأن ليس فعل غير متصرف ، فلا يجرى مجرى الفعل المتصرف ، كما أجريت كان مجراه لأنها متصرفة . . . وإذا كان كذلك فوجب أن لا يجرى مجرى ما كان فعلا متصرفًا فوجب أن لا يجوز تقديم خبره عليه كما كان ذلك فى الفعل المتصرف ، لأن الفعل إنما يتصرف عمله إذا كان متصرفًا فى نفسه ، فأما إذا كان غير متصرف فى نفسه فينبغى أن لا يتصرف عمله ، فلهذا قلنا لا يجوز تقديم خبره عليه .

وهكذا اشتغل الكوفيون بالقياس العقلى ، وخالفوا منهجهم مع وجود الآية القرآنية التى تجيز تقديم خبر ليس عليها ، والتى اعتمد عليها البصريون كذلك فى هذا الجواز وهى قوله تعالى : (ألا يوم يأتيهم ليس مصروفًا عنهم)[٥] يقول

---

(١) الزمر : آية ٧٣ .
(٢) النساء : آية ٩٠ .
(٣) الإنصاف جـ ٢ ص ٤٥٦ ، ص ٤٥٧ م ٦٤ .
(٤) الإنصاف جـ ١ ص ٢٥٢ م ٣٢ .
(٥) هود : آية ٨ .

ابن الأنبارى : وجه الدليل من هذه الآية أنه قدم معمول خبر ليس على ليس ، فإن قوله : (يوم يأتيهم) يتعلق بمصروف وقد قدمه على ليس ، ولو لم يجز تقديم خبر ليس على ليس لما جاز تقديم معمول خبرها عليها ، لأن المعمول لا يقع إلا حيث يقع العامل[١] .

٢ — عمل (ما) النافية فى الخبر :

ذهب الكوفيون إلى أن (ما) فى لغة أهل الحجاز لا تعمل فى الخبر وهو منصوب بحذف حرف الخفض .

وذهب البصريون إلى أنها تعمل فى الخبر ، وهو منصوب بها .

واحتج الكوفيون فقالوا : إنما قلنا إنها لا تعمل فى الخبر ، وذلك لأن القياس فى ما ألا تكون عاملة البتة ، لأن الحرف إنما يكون عاملا إذا كان مختصاً كحرف الخفض لما اختص بالأسماء عمل فيها ، وإذا كان غير مختص فوجب ألا يعمل كحرف الاستفهام ، والعطف ؛ لأنه تارة يدخل على الاسم نحو ما زيد قائم ، وتارة يدخل على الفعل نحو ما يقوم زيد ، فلمّا كانت مشتركة بين الاسم والفعل وجب ألا تعمل ، ولهذا كانت مهملة غير معملة فى لغة بنى تميم وهو القياس .

وهكذا ترك الكوفيون لغة القرآن فى عمل ما النافية ، والتى اعتمد عليها البصريون يقول ابن الأنبارى عارضاً لكلام البصريين : أما قولهم « إن القياس يقتضى ألا تعمل » قلنا كان هذا هو القياس إلا أنه وجد بينها وبين ليس مشابهة اقتضت أن تعمل عملها وهى لغة القرآن قال الله تعالى : (ما هذا بشراً)[٢] . وقال تعالى : (ما هن أمهاتهم)[٣][٤] .

٣ — رافع الخبر بعد إن المؤكدة :

ذهب الكوفيون إلى أنّ إنّ وأخواتها لا ترفع الخبر .

وذهب البصريون إلى أنها ترفع الخبر .

---

(١) الإنصاف جـ ١ ص ١٦٠ — ١٦٢ م ١٨ .
(٢) يوسف : آية ٣١ .
(٣) المجادلة : آية ٢ .
(٤) الإنصاف جـ ١ ص ١٦٥ ، ص ١٦٦ م ١٩) .

واحتج الكوفيون بأن قالوا : أجمعنا على أن الأصل فى هذه الأحرف ألاّ تنصب الاسم ، وإنما نصبته ، لأنها أشبهت الفعل ، فإذا كانت إنما عملت ، لأنها أشبهت الفعل فهى فرع عليه ، وإذا كانت فرعاً عليه ، فهى أضعف منه ، لأن الفرع أبداً يكون أضعف من الأصل . فينبغى ألاّ يعمل فى الخبر جرياً على القياس فى حط الفروع عن الأصول . لأنا لو أعملناه لأدى ذلك إلى التسوية بينهما ، وذلك لا يجوز ، فوجب أن يكون باقياً على رفعه قبل دخولها .

ويرد البصريون قياس الكوفيين بالقرآن الكريم : قال ابن الأنبارى شارحاً قولهم : « والذى يدل على فساد ما ادعيتموه من ضعف عملها أنها تعمل فى الاسم إذا فصلت بينها وبينه بظرف أو حرف جر نحو قوله تعالى : (إن لدينا أنكالا) [1] (إن فى ذلك لآية) [2] . وما أشبه ذلك » [3] .

٤ ــ فى تقديم الحال على الفعل العامل فيها :

ذهب الكوفيون إلى أنه لا يجوز تقديم الحال على الفعل العامل فيها مع الاسم الظاهر . نحو : راكباً جاء زيد ، ويجوز مع المضمر نحو راكباً جئت .

واحتجوا بأن قالوا : إنما قلنا : لا يجوز تقديم الحال على العامل فيها وذلك لأنه يؤدى إلى تقديم المضمر على المظهر ، لأنك إذا قلت : راكباً جاء زيد ، كان فى راكباً ضمير زيد ، وقد تقدم عليه وتقديم المضمر على المظهر لا يجوز . ورد البصريون هذا الأصل الكوفى بقولهم : وقول الكوفيين : «إنما لم يجز تقديم الحال ، لأنه يؤدىٰ إلى تقديم المضمر على المظهر » قلنا : هذا فاسد ، وذلك لأنه وإن كان مقدماً فى اللفظ إلا أنه مؤخر فى التقدير ، وإذا كان مؤخراً فى التقدير جاز فيه التقديم . قال الله تعالى : (فأوجس فى نفسه خيفة موسى) [4] فالضمير فى نفسه عائد إلى موسى وإن كان مؤخراً فى اللفظ ، إلا أنه لما كان فى تقدير التأخير جاز التقديم [5] .

---

(١) المزمل : آية ١٢ .
(٢) البقرة : آية ٢٤٨ .
(٣) الإنصاف جـ ١ ص ١٧٦ – ١٧٨ م ٢٢ .
(٤) طه : آية ٦٧ .
(٥) الإنصاف جـ ١ ص ٢٥٠ ، ٢٥١ م ٣١ .

أثر القرآن الكريم فى الخلافات النحوية بين المدرستين من جهة الإعراب والتقدير :

هناك بعض آيات من القرآن الكريم لم تكن موضع خلاف عند المدرستين ، أو نزاع فى الاستشهاد بها بين الطائفتين ، ولكن امتد إليها الخلاف من زاوية الإعراب والتقدير ، فالمدرسة البصرية نظرت إليها فى ضوء مقاييسها وأصولها ، والمدرسة الكوفية كذلك نظرت إليها من زاوية منهجها ومذهبها ، وقد بينا منهج كل من المدرستين ، وعرفنا أن المنهجين يختلفان كثيراً ، ولا يتفقان إلا فى قليل من الأحيان .

أما هذه الآيات القرآنية التى امتد إليها الجدل ، وثار حولها النزاع فكثيرة ، لا أستطيع حصرها ، ولكنى أكتفى بنماذج منها لتكون دليلا على ما أقول :

١ — إنا كل شىء خلقناه بقدر [١] :

قال ابن الشجرى : أجمع البصريون على أن رفعه أجود ؛ لأنه لم يتقدم ما يقتضى إضمار ناصب .

وقال الكوفيون : نصبه أجود ، لأنه قد تقدم عامل ناصب ، وهو (إن) فاقتضى ذلك إضمار (خلقنا) ، وقوله : خلقناه مفسر للضمير [٢] .

٢ — فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله [٣] :

قال العكبرى : (بالله) يتعلق بشهادات عند البصريين ، لأنه أقرب وبشهادة عند الكوفيين لأنه أول العاملين [٤] .

٣ — قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن [٥] :

قال العكبرى : وما فى هذه السورة من (أنّ) فبعضه مفتوح ، وبعضه مكسور . وفى بعضه اختلاف ، فما كان معطوفاً على (أنه استمع) فهو مفتوح لا غير لأنها

---

(١) القمر : آية ٤٩ .
(٢) أمالى ابن الشجرى ص ٣٣٩ جـ ١ .
(٣) النور : آية ٦ .
(٤) إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات : جـ ٢ ص ١٥٤ .
(٥) الجن : آية ١ .

مصدرية، وموضعها رفع بأوحى ، وما كان معطوفًا على (إنا سمعنا) فهو مكسور لأنه حكى بعد القول .

وما صح أن يكون معطوفًا على الهاء فى به كان على قول الكوفيين على تقدير : وبأن : ولا يجيزه البصريون لأن حرف الجر يلزم إعادته عندهم هنا [١] .

٤ – يسألونك ماذا ينفقون ؟ [٢] :

قال العكبرى : فى (ماذا) مذهبان للعرب : أحدهما أن تجعل ما استفهامًا بمعنى أى شىء ، وذا بمعنى الذى ، وينفقون صلته ، والعائد محذوف فتكون ما مبتدأ ، وذا وصلته خبراً .

ولا تجعل ذا بمعنى الذى إلا مع ما عند البصريين . وأجاز الكوفيون ذلك مع غيرها . والمذهب الثانى أن تجعل (ما) (وذا) بمنزلة اسم واحد للاستفهام ، وموضعه هنا نصب بينفقون[٣] .

٥ – فإذا نُقِر فى الناقور[٤] :

قال الزمخشرى : فإن قلت : بم انتصب (إذا)، وكيف صح أن يقع (يومئذ) ظرفًا لـ (يوم عسير) : قلت : انتصب إذا بما دل عليه الجزاء، لأن المعنى : فإذا نقر فى الناقور عسر الأمر على الكافرين .

قال السَّمين : ولا يجوز أن يعمل فيه نفس عسير ، لأن الصفة لا تعمل فيما قبل موصوفها عند البصريين ، ولذلك رد على الزمخشرى قوله : (إن فى أنفسهم) متعلق ببليغاً فى قوله من سورة النساء : (وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغًا)[٥] والكوفيون يجيزون ذلك[٦] .

---

(١) إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب جـ ٢ ص ٢٧٠ .
(٢) البقرة : آية ٢١٥ .
(٣) إملاء ما من به الرحمن جـ ١ ص ٩١ .
(٤) المدثر : آية ٨ .
(٥) النساء : آية ٦٣ .
(٦) إعراب القرآن للسمين الحلبى مخطوط جـ ٨ رقم ١٠٧ – تفسير – دار الكتب .

٦ — وما كان الله ليعذبهم [١] ، لم يكن الله ليغفر لهم[٢] :

(يعذب) و(يغفر) منصوبان بأن مضمرة بعد اللام عند البصريين لا باللام ، واللام متعلقة بمحذوف ، لا زائدة . . وخالفهم الكوفيون [٣] .

موازنة بين المنهجين البصرى والكوفى

وضح مما تقدم من الأمثلة السابقة أن منهج البصريين غير متماسك، كما أن منهج الكوفيين لم يكن كاملا مضبوطاً ، فكلا المنهجين يحتاج إلى تقويم ، أو تهذيب .

أما منهج البصريين فعواره فى أنه حبس اللغة فى قوقعة المنطق وعاقها عن الانطلاق مع أن اللغات الإنسانية جميعها تخضع لظروف اجتماعية ، وتتطور تبعاً لتطور المجتمعات .

وقد قال فندريس : « من الخطأ أن نعد اللغة كائناً مثالياً تتطور مستقلة عن البشر ، وتتبع أغراضها الخاصة بها . إن اللغة لا توجد خارج أولئك الذين يفكرون ويتكلمون ، إنما تمتد جذورها فى أعماق الضمير الفردى ومن هنا تستمد قوتها لتتفتح على شفاه الناس ، غير أن الضمير الفردى ليس إلا عنصراً من عناصر الضمير الجمعى .

وعلى هذا فتطور اللغات ، ليس إلا مظهراً من مظاهر تطور الجماعات»[٤] .

ونحن إذا نظرنا إلى لغة العرب وجدناها لغة واسعة ، تفرعت إلى لهجات عديدة ، وتطورت هذه اللهجات تبعاً لتطور القبيلة ، وتغير ظروف المجتمع ، فلكل قبيلة لهجة تلتزمها فى كلامها ، فمن الظلم البيّن للغة حصرها فى طائفة من النصوص أو فى قبائل معينة من قبائل العرب .

حكى أبو العباس عن أبى عثمان عن أبى زيد أنه قال : « سمعت عمرو بن عبيد

---

(١) الأنفال : آية ٣٣ .
(٢) النساء : آية ١٦٨ .
(٣) شرح التصريح ج ٢ ص ٢٣٥ .
(٤) اللغة : ج . فندريس . تعريب : الأستاذين عبد الحميد الدواخلى، ومحمد القصاص ص ٤٣٤ . مطبعة : لجنة البيان العربى .

يقرأ : (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جأن)[١] فظننته قد لحن إلى أن سمعت العرب تقول : شأبة ، ودأبة .

قال أبو العباس : « فقلت لأبي عثمان : أتقيس هذا ؟ قال : لا . ولا أقبله»[٢] فهذه الحكاية تصبور لنا منهج البصريين الذى كان يمثله أبو عثمان ، لأنه رفض أن يقيس على هذه اللغة . وهنا نتساءل . لِمَ رفض أبو عثمان القياس عليها ؟ أكبر الظن أنّه رفض ذلك لأن دنيا اللغة عنده محدودة فى نطاق معين وهو المتمثل فى القبائل البدوية التى يعتمد عليها البصريون ، والتى تقدم ذكرها . ومن لغة هذه القبائل وضعوا مقاييسهم ، فإذا ما وردت لغة أخرى عن العرب لا تخضع لهذه المقاييس حكموا بأنها شاذة ولست أدرى من أين أتى لها هذا الشذوذ ؟ مع أنها من العرب سمعت ، وعنهم صدرت ، ورحم الله ابن جنى فقد حطم مقياس البصريين فى القياس ، مع أنه كان ينزع إليهم ، ويميل إلى آرائهم فى كثير من الأحيان . قال رحمه الله : « واعلم أنه إذا أدّاك القياس إلى شىء ما ، ثم سمعت العرب قد نطقت فيه بشىء آخر على قياس غيره ، فدع ما كنت عليه إلى ما هم عليه ، فإن سمعت من آخر مثل ما أجزته ، فأنت فيه مخير ، تستعمل أيهما شئت . فإن صح عندك أن العرب لم تنطق بقياسك أنت كنت على ما أجمعوا عليه البتة وأعددت[٣] ما كان قياسك أدّاك إليه لشاعر مولد، أو لساجع ، أو لضرورة ، لأنه على قياس كلامهم »[٤] .

أقول : قد أخطأ البصريون فى منهجهم هذا ، وكان عليهم أن يأخذوا من كل العرب ما لم تفسد الألسنة باللحن ، أو تتعقد بكثرة الدخيل ، وبخاصة إذا علموا أن تقسيمهم للظواهر اللغوية فى مجموعات معينة لتقبل مجموعة من القبائل ولترفض أخرى عمل غير منهجى لأن الظواهر الاجتماعية « ومن بينها الظواهر اللغوية لا يمكن أن تقسم تقسيما دقيقاً ، لأنها تتداخل فيما بينها ، ولا شك أنك تعلم أن التقسيم التاريخى للعصور الأدبية مثلا لا ينتهى عند قيام دولة أو سقوط

---

(١) الرحمن : آية ٣٩ .

(٢) المنصف (ابن جنى جـ ١ ص ٢٨١) .

(٣) ويعنى ابن جنى بذلك أن هذا القياس غير جدير باستعمال فصيح ، وإنما يستعمله الشاعر المولد أو الذى اضطرته ضرورة السجع والشعر .

(٤) الخصائص جـ ١ ص ١٢٦ .

أخرى"؛ لأن التطور أمر تدريجى ، وأن التقسيم التاريخى أمر اعتبارى" »[1] .

من أجل هذا لا نقول : إن لغات العرب منفصلة بعضها عن بعض فهى متداخلة ومهما أخذنا من قبيلة ، ورفضنا الأخذ من أخرى ، فإن ذلك لا يجعل ما أخذناه سليماً من التأثر بالقبائل الأخرى التى رفضنا الأخذ عنها . ومن هنا كثرت أسماء المسميات ، وتعددت اللغات فى كثير من المسائل النحوية . يدل على ذلك قصة الأسماء العديدة للكلب . فقد روى أكثر مؤرخى المعرى أنه عثر وهو داخل إلى مجلس الشريف المرتضى فى بغداد برجُل . فقال : هذا مغضباً : من هذا الكلب ؟ فقال المعرى بكل هدوء : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً.

وقد حفزت هذه الكلمة الجلال السيوطى فى القرن التاسع الهجرى إلى تتبع كتب اللغة باحثاً منقباً حتى عثر على هذه الأسماء السبعين فنظمها فى أرجوزة سماها : « التّبرّى من معرّة المعرّى»[2] .

وواضح أن القبيلة الواحدة لم تضع للكلب سبعين اسماً ، فالكلب عندها لا يكاد يعرف إلا باسم واحد ، أما هذه الأسماء الكثيرة فإنها أسماء لقبائل عديدة .

الحقيقة أن منهج الكوفيين فى مجال السماع أسلم بكثير من منهج البصريين ، وأن احترام السماع ، مهما كان قليلا أمر لا يرفض ، فاللغة كائن حىٌّ متطورٌ ، فمن الظلم أن نحد انطلاقها ، وأن نكتم أنفاسها بهذه القيود الثقيلة التى وضعها البصريون ، فمن قال : إن هذه الأقيسة التى لم تولد نتيجة استقراء كامل ، أو استيعاب دقيق للغة يمكن أن تكون مصدراً لهذه اللغة . رحم الله أبا حنيفة فقد « طلب النحو فى أول أمره فذهب يقيس فلم يجئ ، وأراد أن يكون فيه أستاذاً قال : قلب وقلوب . وكلب وكلوب فقيل له : كلب وكلاب ، فتركه ووقع فى الفقه »[3].

ورحم الله الشافعى الذى قال فى هذا المقام : « ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب ، وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس »[4].

---

(١) اللغة بين الفرد والمجتمع : أوتوجسبرسن ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب ص ٥٧ .

(٢) النقد واللغة فى رسالة الغفران : الدكتور أمجد الطرابلسى ص ٣٤ ، ٣٥ مطبعة الجامعة السورية سنة ١٩٥١ م .

(٣) الرد على أبى بكر الخطيب البغدادى ص ٣ : للملك المعظم عيسى . مطبعة السعادة ط أولى .

(٤) صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام ص ١٥ . لجلال الدين السيوطى مطبعة السعادة أولى تحقيق على سامى النشار .

على أن الكوفيين يؤخذ عليهم أنهم لم يسلموا من أمر هذه المقاييس ، فقاسوا ولكن أقيستهم خانها التوفيق فى كثير من المواضع ، وبخاصة فى مجال الآيات القرآنية ، التى اعتمدوا على المقاييس فى مجالها ، ورفضوا الاستشهاد بها . وإنى أعيب على هؤلاء وهؤلاء التزامهم التعليل والتأويل فى مجال القرآن الكريم ، وإذا صح لابن سنان الخفاجى أن يقول : « إن النظر إذا سلط على علل النحويين لم يثبت معه إلا الفذ الفرد ، بل لا يثبت شيء البتة . ولذلك كان المصيب منهم المحصل أن يقول : هكذا قالت العرب من غير زيادة على ذلك»[1] يصح لى أن أقول : إن المصيب من الطائفتين ، والمنهجىّ من الفريقين من يتخذ القرآن الكريم موضع استشهاد فى كل ما يُصدر أو يُورِد . وإن من وصل إلى قمة الحق من قال : هكذا قال القرآن . ذلك ، لأن القرآن الكريم مصدر موثق ، مصدر لم يأته الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، نزل بلغة قريش وغيرها من لغات العرب. وكان الأحرى بالنحاة جميعًا أن يتزاحموا على مورده ، ويسيروا على هُدًى من نوره فى كل قاعدة يقعدونها ، وفى كل مسألة يحررونها ، وفى كل مشكلة يحاولون حلها .

والفرّاءُ « يرد على بعض علماء الشعر ، ورواة الأخبار التاريخية الذين لا يريدون أن يلتمسوا إعجاز القرآن فى قوالبه اللغوية بل يَرَوْن كمال الفصاحة فى لغة عرب البادية . . .

فيقول رادًّا على جميع هؤلاء : إنّ لغة القرآن أفصح أساليب العربية على الإطلاق »[2] .

---

(١) سر الفصاحة لأبى محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى ، مطبعة صبيح ص ٣٣.

(٢) العربية : ص ٤ و ص ٥ (يوهان فك) بتصرف .

(٣)

فى مدرسة بغداد

عرض موجز لنشأة المذهب البغدادى :

نشأة بغداد وتمصيرها :

يحدثنا ياقوت عن نشأة بغداد ، وأول من جعلها مدينة ومصّرها فيقول :

« كان أول من مصّرها ، وجعلها مدينة المنصور بالله أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، ثانى الخلفاء ، وانتقل إليها . وهى مدينة كان قد اختطها أخوه أبو العباس السفاح قرب الكوفة وشرع فى عمارتها سنة ١٢٥ هـ ، ونزلها سنة ١٢٩ هـ .

وكان سبب عمارتها أن أهل الكوفة كانوا يفسدون جنده ، فبلغه ذلك من فعلهم ، فانتقل عنهم يرتاد موضعها . .

ثم قال : هذا موضع صالح للبناء ، فإن الماء تأتيه من الفرات ، ودجلة وجماعة الأنهار ، ولا يحمل الجند والرعية إلا مثله ، فخط البناء ، وقدر المدينة ، ووضع أول لبنة بيده فقال : بسم الله ، والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين . ثم قال : ابنوا على بركة الله[١] .

نشأة المذهب البغدادى :

ينكر بعض الباحثين وجود مذهب بغدادى فيقول : « لم تكن هناك فيما أرى مدرسة بغدادية ، قائمة بنفسها ، لها تعاليمها ، غاية ما فى الأمر أن رجالا خلطوا بين المدرستين البصرية والكوفية ، فرأوا رأيًا من هذه ، ورأيًا من الأخرى ، وإن كانوا فى مذهبهم الأصيل يميلون إلى هذه أو يميلون إلى تلك ، فيكونون بصريين أو كوفيين فحسب» [٢] .

وهذا الإنكار للمذهب البغدادى لا نسلم بصحته ، لأن آراء البغداديين ضمتها كتب النحو ، وكانت لهم آراء مستقلة لا تسير فى موكب آراء البصريين ، أو

---

(١) معجم البلدان لياقوت ص ٦٧٩ ، ص ٦٨٠ جـ ١ ط ليدن .

(٢) أبو على الفارسى للدكتور عبد الفتاح شلبى ص ٤٤٦ ، ص ٤٤٧ .

تتبع خطى الكوفيين ، ويكفى أن أحيل الباحث إلى كتب النحو التى تخرجنا عليها كالهمع ، والتصريح ، والأشمونى ؛ ليرى صحة ما أقول .

على أن اختيار البغداديين لرأى بصرى أو كوفى يدل على أن لهم نظرات خاصة ومقاييس معينة ، يستخدمونها فى تفضيل رأى على رأى ، أو إيثار مذهب على مذهب .

أما كيف نشأ المذهب البغدادى فذلك بيانه :

بعد تمصير بغداد أصبحت عاصمة للدولة الإسلامية ، ومقرًّا لحكم الخلفاء العباسيين وعلى يد هؤلاء ، نمت بغداد ، وازدهرت حضارتها ، وتعددت جوانب الثقافة فيها ، وصارت مشعل نور ، ومصباح ثقافة ، ومركز إشعاع فكرى .

لهذا كله لم نر عجبًا أن يفد إليها الكثير من علماء الكوفة والبصرة على اختلاف مذاهبهم ، وتعدد مناهجهم .

على أن بغداد حظيت بعلماء الكوفة قبل أن تحظى بعلماء البصرة ، لأن الكوفة أقرب إلى بغداد من البصرة .

فلما اشتهر أمر علماء الكوفة فيها ، وذاع صيتهم ، وقربهم الخلفاء إليهم أقبل علماء البصرة إلى بغداد لينعموا بما ينعم به الكوفيون .

أشهر نحاة الكوفة الوافدين إلى بغداد :

وأشهر نحاة الكوفة الذين اتجهوا إلى بغداد الكسائى الذى اتخذه الرشيد مؤدبًا لولده ، وكان أثيراً عنده «حتى أخرجه من طبقة المؤدبين إلى طبقة الجلساء المؤانسين»[١].

وهذه المنزلة التى وصل إليها الكسائى عند الرشيد أوغرت صدر أبى يوسف القاضى عليه فقال لأمير المؤمنين : « قد سعد بك هذا الكوفى وشغلك فقال الرشيد : النحو يستفرغنى لأننى أستدل به على القرآن والشعر»[٢] واقتفى أثر الكسائى إلى بغداد الفراء :

وكان الفراء تلميذاً للكسائى فى بغداد ، مع أنه كان من أنداده فى الكوفة ، أخذ نحوه من الرؤاسى كما أخذ الكسائى .

يحدثنا ثعلب فى هذا فيقول : « كان الرؤاسى أستاذ الكسائى والفراء . وقال

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٣ ص ١٦٨ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٧٥ .

الفراء : لما خرج الكسائى إلى بغداد ، قال لى الرؤاسى : قد خرج الكسائى إلى بغداد ، وأنت أميز منه ، فجئت إلى بغداد ، فرأيت الكسائى فسألته عن مسائل الرؤاسى ، فأجابنى بخلاف ما عندى ، فغمزت قوماً من علماء الكوفة كانوا معى ، فقال : مالك قد أنكرت ، لعلك من أهل الكوفة ، فقلت : نعم فقال : الرؤاسى يقول كذا، وكذا وليس صواباً وسمعتُ العرب تقول : كذا وكذا حتى أتى على مسائلى فلزمته » [1] .

ومن هنا صح للفراء بعد ذلك أن يرد على من مدحه فى النحو حيث جعله فى منزلة الكسائى وعلمه فيقول ما نصه : « مدحنى رجل من النحويين فقال : ما اختلافك إلى الكسائى وأنت مثله فى النحو ، فأعجبتنى نفسى فأتيته فناظرته مناظرة الأكفاء ، فكأنى كنت طائراً يغرف من البحر بمنقاره »[2] ولمنزلة الفراء فى النحو اتخذه المأمون مؤدباً لولديه « فلما كان يوماً أراد الفراء أن ينهض إلى حوائجه ، فابتدرا إلى نعل الفراء ليقدّماها له ، فتنازعا ، أيهما يقدمها له ، ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما واحدة »[3] .

أشهر نحاة البصرة الوافدين إلى بغداد :

ولعل هذا المجد الأدبى الذى وصل إليه الكوفيون فى بغداد هو الذى حدا بسيبويه البصرى ، وزعيم مدرسة البصرة أن يرد إلى بغداد ، ليتألق نجمه فيها ، ولكن القدر كان أكبر من أمله ، فتغلب عليه الكسائى الكوفى فى مناظرة مشهورة بينهما ، وفى مسألة نحوية خلدت فى التاريخ ، وهى المسألة الزنبورية ، ولم يطب المقام لسيبويه فى بغداد ، فخرج منها محطم القلب ، مكسور النفس ، وكان ذلك سبباً من أسباب موته بعد ذلك كما يقول الرواة . وقد نفذ إلى بغداد من نحاة البصرة قبل سيبويه ، اليزيدى البصرى يحيى بن المبارك مؤدب المأمون[4] ، الذى استطاع بطريقته الخاصة أن يتسلق سلّم المجد منافساً لعتاة الكوفيين عند خلفاء بغداد .

وعز على اليزيدى هذا أن يهزم سيبويه ، وتفضح البصرة ممثلة فى هزيمته ، فأراد

---

(١) نزهة الألبا ص ٦٦ .
(٢) معجم الأدباء جـ ١٣ ص ١٩٢
(٣) نزهة الألبا ص ١٣٠ .
(٤) البغية ص ٤١٥ .

أن يأخذ بثأره ، وينتقم له « فسأل اليزيدى الكسائى بحضرة الرشيد قال : انظر : (أفى هذا الشعر عيب ؟) وأنشده :

ما رأينا خرّبا نقـ ـر عنه البيض صقر[1]
لا يكون العيْر مهراً لا يكون المهر مهر

فقال الكسائى : قد أقوى الشاعر ، فقال له اليزيدى : انظر فيه ، فقال : أقوى لا بد أن ينصب المهر الثانى على أنه خبر كان .

قال : فضرب اليزيدى بقلنسوته الأرض ، وقال : أنا أبو محمد : الشعر صواب وإنما ابتدأ فقال : المهر مهر . . فقال له يحيى بن خالد : أتكتنى بحضرة أمير المؤمنين ، وتكشف رأسك ، والله لخطأ الكسائى مع أدبه أحب إلينا من صوابك مع سوء فعلك . فقال اليزيدى : لذة الغلبة أنستنى من هذا ما أحسن» [2] .

ومن البصريين الذين جاءوا إلى بغداد ليرفعوا معرة الهزيمة التى حلت بسيبويه وبالبصرة معاً الأخفش البصرى .

حدث عن نفسه فقال : « لما ناظر سيبويه الكسائى ، ورجع وُجِّهَ إلىَّ فعرفنى خبره ، ومضى إلى (الأهواز) وودعنى ، فوردت بغداد فرأيت مسجد الكسائى ، فصليت خلفه الغداة ، فلما انفتل من صلاته ، وقعدوا بين يديه : الفراء والأحمر ، وابن سعدان ، سلمت عليه ، وسألته عن مائة مسألة فأجاب بجوابات خطأته فى جميعها ، فأراد أصحابه الوثوب علىَّ فنعهم عنى ، ولم يقطعنى ما رأيتهم عليه ، مما كنت فيه ولما فرغت قال لى : بالله أنت أبو الحسن سعيد بن مسعدة ؟ فقلت : نعم ، فقام إلىَّ وعانقنى ، وأجلسنى إلى جانبه» [3] .

وعلى الرغم من انتصار اليزيدى على الكسائى ، وتخطئة الأخفش له ، فقد ظل للكوفيين سلطانهم فى بغداد ، ومنزلتهم لدى الخلفاء والأمراء .

لهذا ظل المذهب الكوفى فى بغداد هو المذهب السائد .

---

(١) الخرب — ذكر الحبارى ، ونقر الطائر البيض : ثقبه . يقول ما علمنا أن الصقر ينقب عن بيض الحبارى يريد ليخرج صقرا ، فهو ينكر مثل هذا ، ويتبعه بمثال يوضحه فيقول : لا يكون العير مهراً ثم أكده تأكيدا لفظياً فقال : لا يكون ثانية ، وأكد أن الشىء لا يخرج عن طبعه ومعدنه بقوله : فالمهر مهر لا يتحول (هامش معجم الأدباء ج ١٣ ص ١٧٨) .

(٢) معجم الأدباء ج ١٣ ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٣) البغية ص ٢٥٨ .

وكبر على البصريين أن يبتعدوا عن مقر الخلافة ، ولا يكون لهم فى رحاب الخلفاء بما يكون للكوفيين ، ومن ثم أخذوا يفدون إلى بغداد ، وأعدوا أنفسهم للمعارك الفكرية الرهيبة التى قد تدور بينهم وبين الكوفيين فى ساحات بغداد .

فصالح بن إسحاق أبو عمر الجرمى يفد إلى بغداد ، ويناظر الفراء : « قال الفراء للجرمى :. أخبرنى عن قولهم : زيد منطلق ، لِمَ رفعوا زيداً ؟ فقال له الجرمى : بالابتداء . قال له الفراء : ما معنى الابتداء؟ قال : تعريته عن العوامل، قال له الفراء : فأظهره . . . قال له الجرمى : هذا معنى لا يظهر، قال له الفراء فمثله إذاً . فقال الجرمى : لا يتمثل . فقال الفراء : ما رأيت كاليوم عاملا لا يظهر، ولا يتمثل ؟

فقال له الجرمى : أخبرنى عن قولهم : زيد ضربته ، لِمَ رفعتم زيداً ؟ فقال بالهاء العائدة على زيد . فقال الجرمى : الهاء اسم فكيف يرفع الاسم ؟ فقال الفراء : نحن لا نبالى من هذا ، فإنا نجعل كل واحد من الاسمين إذا قلت : زيد منطلق رافعاً لصاحبه . فقال الجرمى : يجوز أن يكون كذلك فى زيد منطلق ، لأن كل اسم منهما مرفوع فى نفسه ، فجاز أن يرفع الآخر .

وأما الهاء فى ضربته فى محل النصب ، فكيف ترفع الاسم ؟ فقال الفراء : لا نرفعه بالهاء ، وإنما رفعناه بالعائد على زيد . قال الجرمى : ما معنى العائد ؟ قال الفراء معنى لا يظهر ، قال الجرمى : أظهره . قال الفراء؛ لا يمكن إظهاره ، قال الجرمى : فمثّله . قال : لا يتمثل. قال الجرمى: لقد وقعت فيما فررت منه »[١] .

ويبدو أنه بهذه المناظرات التفت البغداديون إلى البصريين مما مكن لهم وزاد فى بأسهم . ويكفى البصريين فخراً أن (الواثق) الخليفة العباسى فى بغداد أرسل إلى (أبى عثمان المازنى) ليستفتيه فى مشكلة نحوية مع أن نحاة الكوفة يملئون بغداد .

يقول أبو الطيب : « أخبرنى على بن محمد الخداشى قال بلغنا أن مغنية غنت بحضرة الواثق :

أظليم إن مصابكم رجــلا أهدى السلام تحية ظلم[٢]

---

(١) الإنصاف جـ ١ ص ٤٩ م ٥ .

(٢) نسب قوم منهم ابن هشام فى مغنى اللبيب هذا الشاهد إلى العرجى ، ونسبه آخرون إلى الحارث ابن خالد المخزومى (هامش شرح شذور الذهب ص ٣٦١ تحقيق محمد محيى الدين) .

فرد عليها الواثق ، وقال : إن مصابكم رجل ، فأعادت : إن مصابكم رجلا فأعاد الرد عليها ، فقالت : لقنني هذا أعلم أهل زمانه ، قال : ومن هو : قالت : المازني. قال عليّ به ، فأشخص إليه ، فلما مثل بين يديه . . . قال : كيف تروى : أظليم إن مصابكم رجلاً وتمم البيت ، فقال : وأين خبر إن ؟ قال : قوله : ظلم» ومعنى مصابكم إصابتكم ، قال صدقت . . . وأمر له بمال [1] .

وظل البغداديون فى بغداد يأخذون عن هؤلاء وهؤلاء حتى ورد بغداد زعيمان من زعماء النحو ، أحدهما : ثعلب زعيم مدرسة الكوفة ، وثانيهما : المبرد زعيم مدرسة البصرة ، وكان بين الزعيمين مناظرات شغلت أذهان الرأى العام البغدادى ؛ وقد تجلى فى هذه المناظرات منهج المدرستين ، فالمدرسة الكوفية : الصبغة العامة فى منهجها الرواية والسماع . والمدرسة البصرية : الصبغة العامة فى منهجها : المنطق والفلسفة ، تجلى ذلك فى المناظرات التى حدثت بين المبرد وثعلب ، فى مجلس محمد ابن عبد الله بن طاهر، وذلك أن المبرد سأل ثعلبًا عن همزة(بين بين) أساكنة هى أم متحركة ؟ قال ثعلب : لا ساكنة ولا متحركة ، يريد أن حركتها روم فقال المبرد : قوله : لا ساكنة « قد أقر أنها متحركة . وقوله : لا متحركة قد أقر أنها ساكنة ، فهى ساكنة لا ساكنة ، ومتحركة لا متحركة »[2] وفى مجلس آخر اجتمع ثعلب والمبرد فى مجلس محمد بن عبد الله بن طاهر فسألهما عن قول الله عز وجل : (إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم) [3] : كم فيه لغة ؟ قال المبرد : قلت : بُرَآءُ على مثال كرماء ، وبِرَاءُ على مثال : كرام . . فقال ثعلب : و(براه) أيها الأمير . فقال : ما تقول : يا محمد ، فقلت : – والقائل المبرد – أيها الأمير : سله من أين ؟ قال : من أين قلت ؟ . قال – والقائل ثعلب – حدثنى سلمة عن الفراء أنه سمع أعرابية تقول : "ألا فى السوة أنتن" : أتريد ألا فى السوءة فطرحت الهمزة ، فأخذ المبرد يأتى بالحجة تلو الحجة ، وبالدليل بعد الدليل وكان آخر ما قال : لا يترك كتاب الله ، وإجماع العرب لقول أعرابية رعناء »[4] .

---

(١) مراتب النحويين ص ٧٨ .

(٢) أبو على الفارسى للدكتور عبد الفتاح شلبى ص ٤٤٤ ، نقلا عن مجالس اللغويين والنحاة .

(٣) الممتحنة : آية ٤ .

(٤) أبو على الفارسى للدكتور عبد الفتاح شلبى ص ٤٤٠ و ٤٤١ .

وهكذا فتحت بغداد ذراعيها للبصريين كما فتحتهما للكوفيين ، وهكذا عاش الكوفيون والبصريون فى بغداد يتنافسون ويتناظرون مما روج مسائل النحو ، ولفت أنظار الدارسين إلى الدراسة النحوية ، فظهر جماعة من النحاة البغداديين ، أخذوا عن المذهبين وخلطوا بينهما ، فلم يفضلوا مذهباً على مذهب إلا إذا كان له فى نظرهم ما يؤيده من دليل وبرهان . وكان هذا الخلط نواة للمذهب البغدادى الذى تكون فيما بعد .

الخلط بين المذهبين فى بغداد :

من النحاة الذين خلطوا المذهبين فى بغداد أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى[١]، وأبو الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق الأعرابى الوشاء[٢] .

وابن كيسان محمد بن أحمد بن إبراهيم بن كيسان ، كان يحفظ المذهب البصرى والكوفى لأنه أخذ عن المبرد وثعلب[٣] .

والأخفش الصغير ، على بن سليمان بن الفضل النحوى قرأ على ثعلب والمبرد[٤].

وظل نحاة بغداد ينهلون من معين المدرستين ، ويأخذون بأصح المذهبين مع نظرات خاصة يستخدمونها فى الأدلة ليفضلوا رأياً على رأى ، وليؤثروا مذهباً على مذهب ، وقد تكون فى ضوء هذه النظرات آراء مستقلة عرفوا بها ، ونسبت إليهم مما سأبينه فيما بعد إن شاء الله .

أقول : ظلوا كذلك حتى تسلم زعامة هذه المدرسة أبو على الفارسى وتلميذه ابن جنى ، فتطور المذهب على يديهما .

تطور المذهب البغدادى على يد الفارسى وابن جنى :

فعلى يد الشيخ وتلميذه ذابت الفوارق بين المذهبين ، فليس هناك مذهب بصرى أو كوفى ، وإنما هنالك مذهب بغدادى لا يتعصب لهؤلاء ، ولا ينحاز إلى هؤلاء ما دام لهذا المذهب دليل يبعث فيه الحياة ، ويكتب له الخلود .

---

(١) البغية ص ١٣٢ .
(٢) الفهرست لابن النديم ص ١٣٢ .
(٣) البغية ص ٨ .
(٤) البغية ص ٣٣٨ .

وقد صوّر هذا المنهج البغدادى ابن جنى تصويراً رائعاً ، دل على عقلية لا تتأثر بالماضى ، عقلية حرة ، لا تضفى القدسية على مذهب ما ، لأن الحق أكبر من هذه القدسية .

يقول رحمه الله فى مبحث زيادة الهاء فى كتابه « سر الصناعة » : « ورأيت أبا محمد بن درستويه قد أنحى على أحمد بن يحيى فى هذا الموضع من كتابه : الموصوف "بشرح الفصيح" ، وظلمه ، وغصبه حقه . والأمر عندى بخلاف ما ذهب إليه ابن درستويه فى كثير مما ألزمه إياه ، وما كنت أراه بهذه المنزلة ، ولقد كنت أعتقد فيه الترفع عنها ، وإن كان من أصحابى وقائلا بقول مشيخة البصرة فى غالب أمره ، وكان أحمد بن يحيى كوفيًّا قلبًا ، وقالبًا ، فالحق أحق أن يتبع أين حلّ »[1] .

ويبدو أن النحو فى الفترة التى لمع فيها نجم أبى على وتلميذه ابن جنى كانت ألمع الفترات فى تاريخ بغداد ، ذلك لأن بغداد فى هذه الفترة كان يحكمها «بنو بويه» وقد ظهر من بينهم حاكم مرموق وهو «عضد الدولة» ولم يكن عضد الدولة أعظم البويهين فحسب ، بل كان أيضًا أعظم حاكم فى زمانه ، لقد طوى تحت صولجانه فى سنة ٩٧٧م كل الدويلات الصغيرة التى ظهرت فى عهد الحكام البويهين فى فارس والعراق ، فألف من المجموع إمبراطورية كادت تصل فى الاتساع إلى إمبراطورية هارون الرشيد[2] وقد اتصل أبو على الفارسى بعضد الدولة : « وله صنف "الإيضاح" فى النحو ، "والتكملة" فى التصريف ، ويقال : إنه لما عمل الإيضاح استصغره ، وقال : ما زدت على ما أعرف شيئًا ، وإنما يصلح هذا للصبيان ، فمضى ، وصنف "التكملة" ، وحملها إليه فلما وقف عليها . قال : غضب الشيخ ، وجاء بما لا نفهمه نحن ولا هو »[3] .

وقد اشتهرت هذه الحقبة من تاريخ النحو فى بغداد بالفلسفة والمنطق ، يدل على ذلك هذه التعليمات الكثيرة ، وهذه الأقيسة العديدة ، وهذه المقدمات المنطقية

---

(١) سر الصناعة : ابن جنى ص ٢٩٣ مخطوط رقم ٥٨١٦ هـ — دار الكتب ، والمطبوع جـ ١ ينتهى بحرف الكاف فى ص ١٤٦ من هذا الكتاب المخطوط .

(٢) تاريخ العرب : ص ٦١٠ ، ص ٦١١ فيليب خورى حتى ، ترجمة الدكتور المرحوم محمد مبروك نافع ط ثانية سنة ١٩٤٩ .

(٣) البغية : ٢١٦ .

التى لا تحصر ، والتى تظهر بوضوح فى نحو أبى على ، وفى أقيسة ابن جنى وفى تعليلات الرمانى .

ومما يدل على أن البغداديين اشتغلوا بالفلسفة إلى الحد الذى نافسوا فيه البصريين ما كتبه الشيخ أبو رشيد سعيد بن محمد بن سعيد النيسابورى فى كتابه : الموسوم بكتاب « المسائل فى الخلاف بين البصريين والبغداديين »[1] وهذا الخلاف يدور حول الجنس والفصل ، والفلسفة والمنطق .

ولا أشك أن النحاة الذين يعيشون فى هذا الجو لابد أن يتأثروا بما فيه ، ومن هنا صح لأبى على الفارسى أن يقول فى الرمانى كلمته المشهورة : « إن كان النحو ما يقوله الرمانى هو النحو ، فليس معنا منه شيء ، وإن كان ما نقوله نحن فليس معه منه شيء » [2] .

* * *

ولما اشتدت الحوادث فى بغداد ، وكثرت الفتن بها ، هجر الكثير من العلماء بغداد وفروا إلى الأندلس ، والشام ، ومصر .

وأوشكت الثقافة فى بغداد أن تنهار بعد أن كانت بغداد مركز إشعاع ، وموئل فكر ، ومصدر معرفة .

من أجل ذلك ، ومن أجل أن يبقى لبغداد مركزها العلمى تأسست بها المدرسة النظامية ، فاشتهر أمرها ، وأقبل الطلاب عليها « وتقرر بها للعلماء أجور مقدرة ، ومعنى هذا أن علماء هذه المدرسة كانوا فى غنى عن الكسب من طريق آخر غير طريق العلم »[3] .

وحظى النحو البغدادى فى هذه المرحلة برجلين اشتهرا بالدراسات النحوية وهما ابن الشجرى ، هبة الله بن على الذى كان « أوحد زمانه ، وفرد أوانه فى علم العربية ، ومعرفة اللغة » [4] .

وابن الأنبارى الذى تتلمذ على ابن الشجرى[5] ، والذى صار معيداً فى المدرسة النظامية[6] .

---

(١) المسائل فى الخلاف بين البصريين والبغداديين مطبوع بليدن . مكتبة جامعة القاهرة رقم ٤٣٤٥ .
(٢) البغية ٣١٤ .
(٣) الخطط : المقريزى جـ ٢ ص ٣٦٢ بتصرف ، دار الطباعة المصرية ببولاق سنة ١٢٧٠ هـ .
(٤) البغية ص ٤٠٧ . (٥) البغية ص ٣٠١ .
(٦) البغية ص ٣٠١ .

أثر القرآن الكريم فى مدرسة بغداد

ولم تكن مدرسة بغداد بمعزل عن تأثير القرآن فيها ، غير أن المسائل العامة التى نسبت إلى البغداديين، وأثر فيها القرآن الكريم ، قليلة بالنسبة للمسائل العامة عند البصريين أو الكوفيين .

ويرجع ذلك إلى أن النحو البصرى ، وقرينه النحو الكوفى كان لهما سلطان كبير ، فى كتب النحاة المتقدمين منهم والمتأخرين، ومن ثمّ قلت هذه المسائل العامة لهذه المدرسة ، وإن كان لأعلامها آراء خاصة ، ومذاهب واضحة ، وتوجيهات بينة امتلأت بها الكتب النحوية حتى فاضت .

أما المسائل العامة التى نسبت إلى المذهب البغدادى فى إطار من القرآن الكريم فأهمها ما يلى :

١ ــ اسم لا النافية للجنس :

قال السيوطى : الجمهور على أن الاسم الواقع بعد (لا) إذا كان عاملا فيما بعده يلتزم تنوينه ، وإعرابه مطلقًا .

وذهب البغداديون إلى جواز بنائه إن كان عاملا فى ظرف أو مجرور نحو : (ولا جدال فى الحج) [١][٢] .

٢ ــ تعريف الحال :

قال السيوطى : يجب فى الحال التنكير، لأنها خبر فى المعنى ، ولئلا يتوهم كونها نعتًا عند نصب صاحبها أو خفاء إعرابها. هذا مذهب الجمهور . وجوز يونس والبغداديون تعريفها نحو : جاء زيد الراكب قياسًا على الخبر وعلى ما سمع من ذلك . يقصدون قراءة : (لَيَخْرُجَنّ الأعز منها الأذلّ)[٣][٤] .

---

(١) سورة البقرة آية : ١٩٧ .
(٢) همع الهوامع جـ ١ ص : ١٤٧ .
(٣) سورة المنافقون آية : ٨ .
(٤) الهمع جـ ١ ص : ٢٣٩ .

٣ ــ حذف الموصول إذا عُلِم :

فى ذلك مذاهب : أحدها الجواز فى الاسمى غير « أل » دون الحرفى غير « أن » وعليه الكوفيون والبغداديون ، والأخفش ، وابن مالك واحتجوا بالسماع . .
قال تعالى : (آمنا بالذى أنزل إلينا ، وأنزل إليكم)[١] ، لأن المنزل إلينا ليس المنزل إليهم . وقال تعالى : (ومن آياته يريكم البرق)[٢] أى أن يريكم[٣] .

على أن للبغداديين أخطاء وقعوا فيها بصفة عامة حيث لم يلتزموا الرجوع إلى القرآن فى كثير من مسائلهم .

وذلك أنه من مذهبهم فى باب التنازع أن يكون للجملة الثانية بالأولى تعلق ، وأوجب البغداديون العطف فى هذا الباب .

روى السيوطى : أن « ابن الدهان نقل عن البغداديين اشتراط العطف فى هذا الباب . والمشترط ذلك محجوج بقوله تعالى : (هاؤم اقرءوا كتابيه)[٤] وقوله تعالى : (آتونى أفرغ عليه قطراً)[٥] »[٦] .

هذه طائفة من المسائل النحوية التى تأثرت بالقرآن الكريم ، ونسبت بصفة عامة إلى مدرسة بغداد . .

أما رجال هذه المدرسة ، وآراؤهم فى النحو على هدى من القرآن الكريم وفى ضوء من نوره ، فذلك مالا أستطيع حصره أو عده ، وأكتفى فى هذا المجال بعرض آراء لأشهر نحاة بغداد ، منذ أن ظهرت الدراسة فيها إلى أن تحولت عنها هذه الدراسة إلى مصر والشام بعد سقوطها تحت أقدام التتار .

ولا شك أن نحاة هذه المدرسة تأثر بعضهم ببعض ، وإن سلكوا مذاهب متعددة وآراء متباينة ، وبهذه التأثر نظموا فى عقد واحد « وليست المدرسة إلا أستاذاً مؤثراً وتلاميذ متأثرين »[٧] .

---

(١) سورة العنكبوت آية : ٤٦ .
(٢) سورة الرعد آية ، ١٢ .
(٣) الهمع ج ١ ص : ٨٨ ، ص : ٨٩ .
(٤) سورة الحاقة آية : ١٩ .
(٥) سورة الكهف آية : ٩٦ .
(٦) الأشباه والنظائر للسيوطى ج ٣ ص : ١٢١ .
(٧) مدرسة الكوفة : الدكتور مهدى المخزومى ص : ١٢٩ . دار المعارف ببغداد سنة ١٩٥٥ .

هذا وأشهر النحاة الذين سنعرض لآرائهم النحوية من زاوية القرآن الكريم فى هذا المقام هم : ابن كيسان ، الزجاج ، الفارسى ، ابن جنى ، ابن الشجرى ، ابن الأنبارى .

أثر القرآن الكريم فى آراء نحاة مدرسة بغداد

١ – الزجاج [١] : توفى سنة ٣١١ هـ

إبراهيم بن السرى بن سهل أبو إسحاق الزجاج ، لزم المبرد فى بغداد وأخذ عنه النحو – وهو وإن كان بصرى الطابع ، ينزع منزع البصريين ، إلا أنه لم يكن كذلك فى جميع أحواله ، فقد كانت له آراء مستقلة ، تدل على عقلية ممتازة وفكر وقاد .

طائفة من آرائه :

١ – واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحامَ [٢] :

قال : « القراءة الجيدة نصب الأرحام . المعنى : واتقوا الأرحام أن تقطعوها فأما الجر فى الأرحام فخطأ فى العربية لا يجوز إلا فى اضطرار شعر ، وخطأ أيضاً فى أمر الدين عظيم ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا تحلفوا بآبائكم » فكيف يكون تتساءلون به و بالرحم على ذا . . . فأما العربية ، فإجماع النحويين أنه يقبح أن ينسق باسم ظاهر على اسم مضمر فى حال الجر إلا باظهار الجار ، يستقبح النحويون مررت به وزيد إلا مع إظهار الخافض حتى يقولوا : بك وبزيد [٣] .

٢ – المص [٤] :

قال الزجاج : وقال بعض النحويين : موضع هذه الحروف رفع بما بعدها قال : المص (كتاب) ، كتاب مرتفع بالمص ، وكان معناه : المص حروف

---

(١) ترجمته بالبغية ص : ١٧٩ .
(٢) سورة النساء آية : ١ .
(٣) معانى القرآن : للزجاج ورقة رقم ١ ، ٢ مخطوط رقم ١١١ م – تفسير دار الكتب .
(٤) الأعراف ١ .

كتاب أنزل إليك . وهذا لوكان كما وصف لكان بعد هذه الحروف أبداً ذكر الكتاب .

فقوله: « (الٓمٓ الله لا إله إلا هو)[١] يدل على أن (الٓمٓ) لا رافع لها على قوله . ثم قال الزجاج بعد أن عرض لسور عديدة تبتدئ بهذه الحروف :

وقد أجمع النحويون على أن قوله عز وجل :(كتاب أنزلناه إليك) مرفوع بغير هذه الحروف . المعنى : هذا كتاب أنزل إليك . ويجب على قائل هذا القول التثبت .. ولو كان كما يصف لكان مضمراً شيئين ، وكان المعنى (الٓمٓ) بعض حروف كتاب أنزل إليك ، فيكون قد أضمر المضاف ، وما أضيف إليه ، وهذا ليس بجائز »[٢] .

٣ ــ ما فعلوه إلا قليل منهم [٣] :

« فأما رفع إلا قليل منهم ، فعلى البدل من الواو ، المعنى ما فعله إلا قليل منهم والنصب جائز فى غير القرآن على معنى : ما فعلوه : استثنى قليلا منهم[٤] .

٤ ــ فأينما تولوا فثَمَّ وجهُ الله [٥] :

قال : ثَمَّ موضعه نصب ، لكنه مبنى على الفتح . . وإنما بُنِيَ على الفتح لالتقاء الساكنين .

وثَمَّ فى المكان إشارة بمنزلة هناك زيد، فإذا أردت المكان القريب قلت : هنا زيد ، وإذا أردت المكان المتراخى عنك ، قلت : ثَمَّ زيد وهناك زيد . وإنما منعتَ (ثَمَّ) الإعراب لإبهامها .

ولا أعلم أحداً شرح هذا الشرح ، لأن هذا غير موجود فى كتبهم[٦] .

---

(١) سورة آل عمران آية : ١ ، ٢ .
(٢) معانى القرآن : ورقة ١٢٥ .
(٣) سورة النساء آية : ٦٦ .
(٤) معانى القرآن : ورقة : ٢٨ .
(٥) سورة البقرة آية : ١١٥ .
(٦) الإغفال : لأبى على الفارسى ص : ٢٨٢ مخطوط رقم ٦٩٩ ــ تفسير دار الكتب .

٢ – ابن كيسان[1] : توفى سنة ٣٢٠ هـ

محمد بن إبراهيم بن كيسان أبو الحسن النحوى من نحاة بغداد و «كان ابن الأنبارى يتعصب عليه ، ويقول : خلط المذهبين ، فلم يضبط منهما شيئًا»[2].

وفى رأى ابن الأنبارى نظر ، ذلك لأن ابن كيسان يكاد لا تخلو مسألة من مسائل النحو ، إلا له رأى فيها ، ورجل شأنه هكذا لابد أن يكون ضابطًا فاهمًا.

وإنى لأستريح فى هذا المجال إلى قول أبى بكر بن مجاهد فيه ، وهو : «أبو الحسن بن كيسان أنحى من الشيخين ، يعنى المبرد ، وثعلب»[3] .

طائفة من آرائه :

١ – حال المجرور يتقدم عليه :

قال أبو الفتح عثمان : تقول : مررت بهند جالسةً ، ولا يجوز : مررت جالسة بهند ، لأن حال المجرور لا يتقدم عليه . وهذا قول جميع النحويين إلا ابن كيسان فإنه أجاز تقديم حال المجرور عليه . .

واحتج بقوله عز وجل : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾[4] . قال : إلا للناس كافة ، أى إلى الناس ، يقال : خرج القوم كافة ، ولقيتهم كافة كما قال تعالى : «أدخلوا فى السلم كافة»[5][6] » .

٢ – ذو الأداة أعرف من الموصول :

قال ناظر الجيش : «وذهب ابن كيسان إلى أن ذا الأداة أعرف من الموصول وشبهته أن ذا الأداة توصف بالموصول كقوله تعالى : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى﴾[7] ، والموصوف به إما مساو ، وإما دون الموصوف ، ولا قائل بالمساواة ، فثبت كون الذى أقل تعريفًا من الكتاب»[8] .

---

(١) ترجمته بالبغية ص : ٨ .
(٢) معجم الأدباء جـ ١٧ ص : ١٣٩ .
(٣) المرجع نفسه ص : ١٣٧ .
(٤) سورة سبأ آية : ٢٨ .
(٥) سورة البقرة آية : ٢٠٨ .
(٦) أمالى ابن الشجرى جـ ٢ ص : ٢٨٠ م ٧١ .
(٧) سورة الأنعام آية : ٩١ .
(٨) تمهيد القواعد لناظر الجيش ص : ٧٢ مخطوط رقم ٣٤٩ نحو – دار الكتب .

٣ – إياك نعبد [١] :

إيًّا عند الخليل وغيره اسم مضمر أضيف إلى الكاف . وحكى ابن كيسان أن الكاف هي الاسم ، وإيًّا أتى بها لتعتمد الكاف عليها ، إذ لا تقوم بنفسها[٢] .

٣ – أبو علي الفارسي [٣] : توفي سنة ٣٣٧ هـ :

أخذ عن الزجاج ، وطوَّف بلاد الشام ، وقال كثير من تلامذته : إنه أعلم من المبرد .

ومن أشهر تلاميذه ابن جني وعيسى الربعي .

طائفة من آرائه :

١ – يرد على الزجاج في قوله تعالى : (إياك نعبد)[٤] وسلاحه في هذا الرد المنطق والفلسفة : قال : – والقائل الزجاج – في قوله تعالى : (إياك نعبد) ، (إياك) نصبه لوقوع الفعل عليه ، وموضع الكاف في إياك خفض بإضافة إيًّا إليها ، وإيا اسم للمضمر المنصوب ، إلا أنه ظاهر يضاف إلى سائر المضمرات نحو قولك : إياك ضربت ، وإياك حدثت ، ولو قلت : إيا زيد حدثت كان قبيحًا ، لأنه خص به المضمَر . . . إلخ . .

قال أبو علي أيده الله : الذي يدل على أن هذا الاسم مضمر ليس بمظهر أنه في جميع الأحوال منصوب الموضع ، وليس في الأسماء الظاهرة اسم يلزمه الانتصاب ، ولا يرتفع إلا ما كان ظرفًا ، وليس إيا بظرف ، فتلزم إجازة هذا الحكم عليه ، فكونه منتصبًا أبداً دليل أنه ليس بظاهر .

ويدل أيضًا على أنه ليس بظاهر تغير ذاته ، وامتناع ثباته في حال الرفع والجر ، وليس كذلك الأسماء الظاهرة . ألا ترى أنها تعتقب عليها الحركات في

---

(١) سورة الفاتحة آية : ٥ .

(٢) مشكل إعراب القرآن : أبو محمد مكي بن أبي طالب الأندلسي ورقة ٣ مخطوط رقم ٢٣٢ تفسير – دار الكتب .

(٣) ترجمته بالبغية ص : ٢١٦ .

(٤) سورة الفاتحة آية : ٥ .

آخرها ، ويحكم لها بها فى موضعها من غير تغيير نفسها ، فمخالفة هذا الاسم فى هذا الذى وصفناه للمظهر تدل على أنه مضمر ليس بمظهر [١] .

٢ – يوجه رأى أبى الحسن الأخفش ، ناقداً للزجاج فى قوله تعالى : (وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله)[٢] .

قال : والقائل الزجاج – فى قوله تعالى : (وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله) زعم الأخفش أنّ أنْ هنا زيادة ، والمعنى لا نقاتل .

قال وقال غيره : المعنى : وما لنا فى أن لا نقاتل ، وأسقط فى .

وقال بعض النحويين : إنما دخلت أنْ ، لأن الكلام مالك تفعل كذا ، وكذا قال : والقائل الزجاج – والقول الصحيح أنّ أنْ لا يلغى هنا . ، والمعنى : وأى شىء لنا فى أن لا نقاتل ، أى شىء لنا فى ترك القتال

قال أبو على :

وقد قال أبو الحسن فى قوله تعالى : (وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله) (وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه)[٣] ونحوه أنّ(أنْ)زائدة ولغو كأنه قال : ما لكم لا تأكلون ، وما لكم لا تقاتلون . وقد قال فى نحو ذلك : إن المعنى : وما لكم فى أن لا تأكلوا ، فكأن أبا الحسن حمل الآية على وجهين ، والقول الثانى واضح ، وتكون أن مع حرف الجر فى موضع نصب بالحال ، كقوله تعالى : (فما لهم عن التذكرة معرضين)[٤] ونحو ذلك ، ثم حذف حرف الجر فسدت أن مع صلتها ذلك المسد ، والحال فى الأصل هو الجالب للحرف إلا أنه ترك إظهاره لدلالة المنصوب عنه عليه .

ووجه قول أبى الحسن الآخر : أن (أنْ) لغو ، إنها مثل « إذن » يكون لغواً كما تكون ، وكما تكون عوامل الأسماء لغواً ، ولا يمنعها كونها لغواً من العمل فى معمولها كما لم يمنع عوامل الأسماء كقوله تعالى :(فما منكم من أحد عنه حاجزين)[٥][٦]

---

(١) الإغفال : لأبى على الفارسى ص : ٣٠ ، ٣١ مخطوط رقم ٦٩٩ – تفسير دار الكتب .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٤٦ .
(٣) سورة الأنعام آية : ١١٩ .
(٤) سورة المدثر آية : ٤٩ .
(٥) سورة الحاقة آية : ٤٧ .
(٦) الإغفال ص : ٣٥٤ ، ٣٥٥ .

٣ — يعتد برأى أبى عمرو ، وأبى الحسن لأن التنزيل وَرَدَ به فى قوله تعالى : (سواء العاكف فيه والباد)[١] .

قال أبو على فى الحجة : — « ولم تثن سواء كما ثنى سيان ، وإن كانوا قد كسروه فى قولهم : سواسية .

وحكى السكرى عن أبى حاتم إجازة تثنية سواء ، ولم يصب ابن السجستانى فى ذلك، لأن أبا الحسن ، وأبا عمرو زعما أن ذلك لا يثنى ، كأنهم استغنوا بتثنية سى عن تثنية سواء ، كما استغنوا عن وَدَعَ بتَرَكَ .

وعلى ما قالا ، جاء التنزيل فى قوله تعالى: (سواء العاكف فيه والباد) .

وقوله تعالى : (اصلوها فاصبروا أو[٢] لا تصبروا سواء عليكم) [٣] » .

٤ — ويعتد بالمنطق فى تخريج الآية القرآنية : (الله أعلم حيث يجعل رسالته)[٤] فيقول: « فأما قوله : الله أعلم حيث يجعل رسالته، فالقول فى العامل فى حيث أنه لا يخلو من أن يكون (أعلم) هذه المذكورة أو غيرها .

وأن عمل (أعلم) فيه ، فلا يخلو من أن يكون ظرفاً أو غير ظرف [فإن كان[٥] ظرفاً] فلا يجوز أن يكون العامل فيه (أعلم) على حسب ما عمل أحوج فى ساعة فى قوله : *فإنا وجدنا العرض أحوج ساعة* [٦] .

لأن المعنى يصير : أعلم فى هذا الموضع أو هذا الوقت ، ولا يوصف الله بأنه أعلم فى مواضع أو أوقات ، كما تقول: زيد أعلم فى مكان كذا منه فى مكان كذا ، أو زمان كذا . فإذا كان كذلك لم يجز أن يكون العامل(أعلم)هذه ، وإذا لم يجز أن يكون إياه كان فعلا يدل عليه أعلم ، وإذا لم يجز أن يكون حيث ظرفاً كما ذكرنا كان اسماً وكان انتصابه انتصاب المفعول به على الاتساع »[٧] .

هذا ، وينقد أبو حيان من يقول : إن حيث مفعول به على السعة ، أو مفعول

---

(١) الحج : آية ٢٥ .
(٢) الطور : آية ١٦ .
(٣) الحجة لأبى على الفارسى ص ٣٥٠ مخطوط مصور رقم ٤٦٢ قراءات — دار الكتب .
(٤) الأنعام : آية ١٢٤ .
(٥) زيادة منى لإصلاح الأسلوب .
(٦) عجزه كما فى الديوان : * إلى الصون من ريط يمان مسهم *
لأوس بن حجر (الديوان ص ١٢١) تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم ط بيروت سنة ١٩٦٠ .
(٧) الحجة : ص ١٧ .

به على غير السعة ، لأن هذا الإعراب « تأباه قواعد النحو ، لأن النحاة نصوا على أن(حيث)من الظروف التى لا تتصرف ، وشذ إضافة (لدى) إليها ، وجرها بالباء ، ونصوا على أن الظرف الذى يتوسع فيه لا يكون إلا متصرفًا ، وإذا كان الأمر كذلك امتنع نصب حيثُ على المفعول به لا على السعة ، ولا على غيرها» [١] .

ولا ينسى أبو حيان أن يدلى برأيه فى هذه المشكلة فيقول :

« والذى يظهر لى إقرار حيث على الظرفية المجازية ، على أن تُضمَّن أعلم معنى ما يتعدى إلى الظرف ، فيكون التقدير : الله أنفذ علمًا حيث يجعل رسالته ، والظرفية هنا مجاز [٢]» .

٥ — ويؤمن ابن جنى برأيه فيفتيه فى المشكلات فى قوله تعالى : (لا مساس)[٣] .

قال ابن جنى : « سألت أبا على : كيف دخلت : لا : المختصة بالنكرة على (مساس) وهى عندك ، وعند الجماعة معرفة[٤] ؟ فقال : ليس التعريف لها بمتمكن . ألا ترى أنك تقول فى كل موضع : لا مساس : ولما لم تختص ، وشاع استعمالها جرت مجرى النكرة فساغ دخولها عليه»[٥] .

٤ — ابن جنى [٦] : توفى سنة ٣٩٢ هـ

عثمان بن جنى من أحذق أهل الأدب ، وأعلمهم بالنحو والتصريف ولما مات أبو على تصدر ابن جنى مكانه فى بغداد .

قال السيوطى : وليس لأحد من أئمة الأدب فى فتح المقفلات ، وشرح المشكلات ماله سيّما فى علم الإعراب .

---

(١) البحر المحيط جـ ٤ ص ٢١٦ .

(٢) البحر المحيط جـ ٤ ص ٢١٦ .

(٣) طه : آية ٩٧ .

(٤) هى معرفة على قراءة الحسن وأبى حيوة ، وابن أبى عبلة — بفتح الميم وكسر السين قال صاحب اللوامح : هو على صورة نزال ، ونظار من أسماء الأفعال بمعنى انزل ، وانظر ، فهذه الأسماء التى بهذه الصيغة معارف ، ولا تدخل عليها لا النافية التى تنصب النكرات نحو : لا مال لك ، لكنه فيه نفى الفعل ، فتقديره : لا يكون منك مساس . (انظر البحر لأبى حيان جـ ٦ ص ٢٧٥) .

(٥) ارتشاف : الضرب من لسان العرب لأبى حيان الأندلسى ص ١٨٦ مخطوط رقم ١١٠٦ نحو — دار الكتب .

(٦) ترجمته بالبغية ص ٣٢٢ .

طائفة من آرائه :

١ – يستعمل القياس فى تخريج قوله تعالى: (فمَن عفى له من أخيه شيء)[١] قال ابن الأنبارى: « الهاء فى له يعود على (من) ، و (من أخيه) أى من حق أخيه ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، والهاء فى أخيه تعود على (من) ، والأخ يراد به ولى المقتول ، وشيء يراد به الدم ، وشيء مرفوع بعفى ، لأنه مفعول ما لم يُسَمَّ فاعله ».

وقال ابن جنى :

ويمكن أن يكون تقديره : فمن عفى له من أخيه عن شيء ، فلما حذف حرف الجر ارتفع شيء لوقوعه موقع الفاعل ، كما أنك لو قلت : سير بزيد وحذفت الباء ، قلت : سير زيد[٢] .

٢ – يأخذ برأى الأخفش فى قوله تعالى: (إياك نعبد)[٣] ويوجّهُ قوله ، مناقشًا لآراء النحاة .

قال ابن جنى ناقلا عن أبى على : « حكى أبو بكر عن أبى العباس عن الحسن الأخفش أن إيّا اسم مفرد مضمر يتغير آخره كما تتغير أواخر المضمرات : وأن الكاف فى إياك كالتى فى ذلك فى أنه دلالة على الخطاب فقط ، مجردة عن كونها علامة للضمير ، ولا يجيز أبو الحسن فيما حكى عنه ، إياك وإيّا زيد ، وإياى وإيا الباطل » .

ويرد ابن جنى على رأى الخليل الذى يقول : إنه مضمر مضاف بقوله :

« فأما قول الخليل : لو أن قائلا قال : إياك نفسك لم أعنفه ، فهذا ليس بتصريح قول ، ولا محض إجازة ، وإنما قام على ما سمعه من قولهم : فإياه وإيا الشواب . ولو كان ذلك قويًّا فى نفسه ، وسائغًا فى رأيه لما قال : لم أعنفه ، كما لا يقال فى قول من قال : قام زيد ، فرفع زيداً بفعله إنك فى هذا عندى غير معنف ، وإنما يقال له : أصبت ، ووافقت صحيح كلام العرب الذى لا معدل عنه » .

---

(١) البقرة : آية ١٧٨ .

(٢) إعراب القرآن لابن الأنبارى ورقة/٥٧ مخطوط رقم ٦٤٤ تفسير – دار الكتب .

(٣) الفاتحة آية : ٤ .

ويرد على من قال : إن (إياك) بكماله الاسم فيقول : « فأما قول من قال : إن إياك بكماله الاسم ، فليس يقوى ، وذلك أن إياك فتحة الكاف فيها تفيد الخطاب المذكر ، وكسرة الكاف تفيد الخطاب المؤنث بمنزلة(أنت)فى أن الاسم هو الهمزة والنون ، والتاء المفتوحة تفيد خطاب المذكر والتاء المكسورة تفيد خطاب المؤنث فكما أن ما قبل التاء فى أنت هو الاسم والتاء حرف خطاب ، فكذلك إيا هو الاسم ، والكاف بعدها حرف خطاب » .

ويرد على من قال : إن الكاف هى الاسم ، وأن إيا عمدت بها ، فيقول :

« وهذا غير مرضى أيضاً ، وذلك أن إيا ضمير منفصل بمنزلة أنا وأنت ونحن ، وهو . . فكما أنّ أنا وأنت ونحوهما مخالف للفظ المرفوع المتصل نحو التاء فى قمت ، والنون فى قمنا ، والألف فى قاما ، والواو فى قاموا ، بل هى ألفاظ أخر غير ألفاظ الضمير المتصل ، وليس شىء منها معموداً بشىء من الضمير المتصل ، بل هو قائم بنفسه ، فكذلك إيا اسم مضمر منفصل ليس معموداً به غيره » .

ثم رد على أبى إسحاق قوله فقال : «وأما قول أبى إسحاق إن(إيّا)اسم مظهر خص بالإضافة إلى المضمر ففاسد أيضاً ، وليس بمظهر كما زعم ، والدليل على أن إيّا ليس باسم مظهر اقتصارهم به على ضرب واحدمن الإعراب وهو النصب ، كما اقتصروا بأنا وأنت ، ونحوهما على ضرب واحد من الإعراب وهو الرفع ، فكما أن أنا ، وأنت ، وهو ، ونحن ، وما أشبه ذلك أسماء مضمرة ، فكذلك إيا اسم مضمر لاقتصارهم به على ضرب واحد من الإعراب وهو النصب » .

ثم يقول فى نهاية حديثه : «فقد صح إذن بما أوردناه سقوط هذه الأقوال ولم يبق هنا قول يجب اعتقاده ، ويلزم الدخول تحته غير قول أبى الحسن أن(إيّا) اسم مضمر ، وأن الكاف بعده ليست باسم ، وإنما هى للخطاب بمنزلة كاف ذلك ، وأرأيتك»[1] .

٣ — ويستدل بالقرآن لتقرير قاعدة نحوية فى كاد فيقول السيوطى :

« وذهب قوم منهم ابن جنى إلى أن نفى كاد يدل على وقوع الفعل بعد بطء

---

(١) سر صناعة الإعراب لابن جنى جـ ١ من ص ٣١١ إلى ص ٣١٥ .

لآية : (وما كادوا يفعلون)[١] ، فإنهم فعلوا بعد بطء »[٢] .

٤ — ويعتمد على رأى سيبويه فى قوله تعالى: (وكفى بالله شهيداً)[٣] قال ابن جنى : أجاز أبو بكر محمد بن السرى أن يكون قولهم : كفى بالله تقديره : كفى اكتفاؤك بالله ، أى اكتفاؤك بالله يكفيك ، وهذا يضعف عندى ، لأن الباء على هذا متعلقة بمصدر محذوف وهو الاكتفاء، ومحال حذف الموصول ، وتبقية صلته.

وإنما حسّنه عندى قليلا أنك قد ذكرت كفى ، فدل على الاكتفاء لأنه من لفظه كما تقول : من كذب كان شرًّا له ، أى كان الكذب شرًّا له ، فأضمرته لدلالة الفعل عليه ، فها هنا أضمر اسمًا كاملا وهو الكذب ، وثم أضمر اسمًا ، وأبقى صلته التى هى بعضه ، فكان بعض الاسم مضمراً ، وبعضه مظهراً ، فلذلك ضعف عندى .

والقول فى هذا قول سيبويه . إنه يريد كفى الله كقوله تعالى :
(وكفى الله المؤمنين القتال)[٤][٥] .

٥ — الجر بالمجاورة :

قال أبو حيان فى (البسيط)اتفق أكثر النحويين على أن الجربالمجاورة من باب صفة الأول ، وأنه على غير قياس ، وأنه شاذ ، وليس لغة أكثر العرب .. وذهب ابن جنى : إلى أنه من باب صفة السبب ، وأن أصل الكلام : هذا جحر ضبٍّ ، خربٍ جحره ، وإنه سائغ وقياسى وهو فى القرآن فى مواضع كثيرة .

يريد فى مثل قوله تعالى : (عليهم نار مؤصدة)[٦] يريد موصد بابها ثم حذف ، وجعل الفعل للنار . وقوله تعالى : (كعصف مأكول)[٧] يريد مأكول حبه ، لأن العصف تبن الزرع على قول ، أو قشر الحب وغلافه على قول[٨] .

---

(١) البقرة : آية ٧١ .
(٢) الهمع جـ ١ ص ١٣٢ .
(٣) النساء : آية ١٦٦ .
(٤) الأحزاب : آية ٢٥ .
(٥) سر صناعة الإعراب لابن جنى جـ ١ ص ١٥٨ .
(٦) البلد : آية ٢٠ .
(٧) الفيل : آية ٥ .
(٨) التذييل والتكميل جـ ٤ ص ١١٩ مخطوط رقم ٦٢ نحو دار الكتب .

٥ ــ ابن الشجرى [١] : توفى سنة ٥٤٢ هـ

هبة الله بن على بن محمد بن على بن عبد الله بن أبى الحسن «. . أبو السعادات» المعروف بابن الشجرى .

قال عنه السيوطى فى البغية : كان أوحد زمانه ، وفرد أوانه فى علم العربية ومعرفة اللغة .

طائفة من آرائه :

١ ــ سبحان الله [٢] :

ذكر سيبويه فى باب ما ينتصب من المصادر على إضمار الفعل المتروك إظهاره : قولهم سبحان الله . . فكأنه حيث قال : سبحان الله ، قال : تسبيحاً ، فنصب هذا على أسبح تسبيحاً .

وأقول ــ القائل ابن الشجرى ــ إن سبحان اسم للتسبيح ، كما أن الكلام والسلام اسمان للتكليم والتسليم ، وجاء سُبْحَان على زنة الغُفْران ، والكُفْران فى قولهم :«غفرانك اللهم لا كفرانك» وجاء الكفران فى قوله تعالى : (فلا كفران لسعيه) [٣] ومثله فى الزنة ، وهو نقيضه فى المعنى : الشكران فكما قالوا : كلمته كلاماً ، وسلمت عليه سلاماً، فاستعملوها فى موضع التكليم والتسليم ، كما استعمل السراح فى موضع التسريح من قوله تعالى: (وسرحوهن سراحاً جميلا) [٤] كذلك استعملوا سبحان فى موضع التسبيح [٥] .

٢ ــ فى حذف جواب حتى فى قوله تعالى: (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها) [٦] قال : أما حذف جواب حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها، فقال أبو إسحاق الزجاج : سمعت محمد بن يزيد يذكر أن الجواب محذوف ، وأن المعنى (حتى إذا جاءوها ، وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم ، فادخلوها خالدين)

---

(١) ترجمته بالبغية ص ٤٠٧ .
(٢) الصافات : آية ١٥٩ ..
(٣) الأنبياء : آية ٩٤ .
(٤) الأحزاب : آية ٤٩ .
(٥) أمالى ابن الشجرى جـ ١ ص ٣٤٧ .
(٦) الزمر : آية ٧٣ .

سعدوا ، فالمعنى فى الجواب حتّى إذا كانت هذه الأشياء صاروا إلى السعادة .

وقال أبو إسحاق : وقال قوم : الواو مقحمة ، والمعنى « حتّى إذا جاءوها فتحت أبوابها » والمعنى عندى : إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين دخلوها حذف الجواب ، لأن فى الكلام دليلا عليه . أهـ كلام أبى إسحاق . وأقول — والقائل ابن الشجرى — إن حذف الأجوبة فى هذه الأشياء أبلغ فى المعنى ، ولو قدر فى موضع دخلوها فازوا لكان حسناً ... وقيل : إن الواو مقحمة ، وليس ذلك بشىء ، لأن زيادة الواو لم تثبت فى شىء من الكلام الفصيح ، وحذف الأجوبة كثير[١] .

* * *

٣ — يناقش المبرد ، ويميل إلى رأى الأخفش فى وقوع الفعل الماضى موقع الحال . قال ابن الشجرى : إن كان الفعل ماضياً لم يحسن وقوعه فى موضع الحال إلا ومعه قد كقولك : جاء زيد قد عرق ...

وكان أبو الحسن الأخفش يجيز إيقاعه حالا ، و(قد) مقدرة فيه ، واحتج بقول الله تعالى : (أو جاءوكم حصرت صدورهم)[٢] قال : قد أراد : قد حصرت ، وهذا لا يجيزه سيبويه ، وحمل الآية على غير هذا ، فقال : حصرت صفة لمحذوف تقديره : قوماً حصرت صدورهم ، فقوماً نصب على الحال ، وحصرت صفتهم ، وحذف الموصوف ، وأبقيت صفته .

وكان أبو العباس المبرد يقول فى قوله : حصرت صدورهم قولا ثالثاً : وهو أنه خرج مخرج الدعاء عليهم ، كما قال تعالى : (قاتلهم الله)[٣] فالمعنى ضاقت صدورهم عن قتالكم .

والذى قاله جائز ، لولا ما جاء بعده من قوله : (أو يقاتلوا قومهم) ونحن لا ندعو بأن تضيق صدورهم عن قتال قومهم ، بل نقول : اللهم ألْحِق بأسهم بينهم ، فلما عطف على الأول مالا يصح أن يقع موقع الأول لم يصح الذى تأوله .

---

(١) أمالى ابن الشجرى جـ ١ ص ٣٥٨ المسألة (٤٢) .
(٢) النساء : آية ٩٠ .
(٣) التوبة : آية ٣٠ .

وقد جاء الفعل الماضى فى موضع الحال مقدرة معه قد فى قوله تعالى : (كيف تكفرون بالله ، وكنتم أمواتًا فأحياكم) [١] المراد وقد كنتم ، ومثله : (أنؤمن لك ، واتبعك الأرذلون) [٢] أراد وقد اتبعك [٣] .

٤ — يناقش أبا على الفارسى ، ويفنّد رأيه فى قوله تعالى: (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا ، فكرهتموه) [٤] .

قال ابن الشجرى : قال أبو على فى كتابه الذى سماه التذكرة : قيل لنا : علام عطف قول الله سبحانه وتعالى : (فكرهتموه) من قوله تعالى : (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه؟) فقلنا : المعنى : فكما كرهتموه فاكرهوا الغيبة ، واتقوا الله . فقوله : واتقوا الله عطف على قوله : فاكرهوا وإن لم يذكر لدلالة الكلام عليه كقوله تعالى : (اضرب بعصاك الحجر فانفجرت) [٥] ، وقوله : فكرهتموه كلام مستأنف ، وإنما دخلت الفاء لما فى الكلام من معنى الجواب ، لأن قوله : (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه) ، كأنهم قالوا فى جوابه : لا : فقال : فكرهتموه ، أى فكما كرهتموه فاكرهوا الغيبة ، فهو جواب لما يدل عليه الكلام من قولهم : لا : فالفاء ها هنا بمنزلتها فى الجزاء ، والمعنى على فكما كرهتموه ، وإن لم تكن كما مذكورة ، كما أن قولهم : ما تأتينى فتحدثنى ، المعنى : ما تأتينى ، فكيف تحدثنى ؟ وإن لم تكن كيف مذكورة ، وإنما هى مقدرة .

قال ابن الشجرى : والقول عندى أن الذى قدره أبو على ها هنا بعيد ، لأنه قدر المحذوف موصولا ، وهو ما المصدرية ، وحذف الموصول ، وإبقاء صلته ردىء ضعيف ، ولو قدر المحذوف مبتدأ كان جيداً ، لأن حذف المبتدأ كثير فى القرآن .

والتقدير عندى : فهذا كرهتموه ، والجملة المقدرة المحذوفة مبتدئية لا أمرية كما قدرها ، فكأنه قيل : فهذا كرهتموه ، والغيبة مثله وإنما قدرها أمرية ليعطف عليها الجملة الأمرية ، لأن قوله : (واتقوا الله) عطف على الجملة النهيية التى هى

---

(١) البقرة : آية ٢٨ .
(٢) الشعراء : آية ١١١ .
(٣) أمالى بن الشجرى ج ٢ ص ٢٧٩ المسألة (٧١) .
(٤) الحجرات : آية ١٢ .
(٥) البقرة : آية ٦٠ .

قوله : (ولا يغتب بعضكم بعضاً) وعطف الجملة على جملة مذكورة أولى من عطفها على جملة مقدرة . . ثم ختم حديثه فى هذه المسألة فقال: فتأمل ما ذكرته تجده أصوب الكلامين [١] .

٦ — ابن الأنبارى [٢] : توفى سنة ٥٧٧ هـ

عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله بن أبي سعيد الإمام أبو البركات كمال الدين الأنبارى ، قدم بغداد فى صباه ، وصار معيداً للنظامية ، ولازم ابن الشجرى حتى برع ، وصار من المشار إليهم فى النحو .

طائفة من آرائه :

١ — الخبر المراد به الأمر : فى قوله تعالى: (والوالدات يرضعن أولادهن) [٣] يقول : يرضعن لفظه لفظ الخبر ، والمراد به الأمر ، ومعناه ليرضعن كقوله تعالى : (والمطلقات يتربصن بأنفسهن) [٤] أى ليتربصن ، ويجيء الخبر بمعنى الأمر كثيراً فى كلامهم و(لمن أراد) فى موضعه وجهان: النصب والرفع ، فالنصب، لأن اللام تتعلق بيرضعن ، وتقديره يرضعن أولادهن حولين كاملين ، لمن أراد من الآباء أن يتم إرضاع ولده .

والرفع لأن اللام تتصل بمحذوف ، وتقديره : هذا الذى ذكرناه : لمن أراد أن يتم الرضاعة ، فيكون فى موضع رفع لأنه خبر مبتدأ محذوف [٥]

٢ — ويوجه تذكير قريب فى قوله تعالى : (إن رحمة الله قريب) [٦] إنما قال : (قريب) بالتذكير لثلاثة أوجه: الأول أنه ذكّر حملاً على المعنى ، لأن الرحمة بمعنى الرحم ، وهو مذكر .

والثانى : أنه ذكّر ، لأن المراد بالرحمة المطر ، وهو مذكر .

والثالث : أنه ذكّر على النسب ، أى ذات قرب كقولهم : امرأة طالق

---

(١) الأمالى لابن الشجرى جـ ٢ ص ٣٢٩ ص ٣٣٠ .
(٢) ترجمته بالبغية ص ٣٠١ .
(٣) البقرة : آية ٢٣٣ .
(٤) البقرة : آية ٢٢٨ .
(٥) إعراب القرآن : ابن الانبارى ورقة ٦٧ ، ٦٨ مخطوط ٦٤٤ — تفسير .
(٦) الأعراف : آية ٥٦ .

وطامث ، وحائض ، أى ذات طلاق ، وطمث ، وحيض[١] .

٣ ــ ويوجه زيادة الباء فى قوله تعالى : (جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة)[٢] بالقرآن الكريم فيقول :

والباء فى بمثلها زائدة ، وتقديره : وجزاء سيئة سيئة مثلها كما جاء فى موضع آخر : (وجزاء سيئة سيئة مثلها)[٣] [٤] .

٤ ــ ويستدل فى توجيهه بالقرآن فيقول فى قوله تعالى : (مثلا مَّا بعوضة) [٥] و(ما) فى قوله: (مثلاما بعوضة) فيها ثلاثة أوجه : الأول: أن تكون زائدة أى مثلا بعوضة ، وبعوضة بالنصب على البدل من مَثَل .

والثانى أن تكون ما نكرة بدلاً من مثل أى مثلا شيئًا بعوضة أى ببعوضة .

والثالث أن تكون ما بمعنى الذى ، وبعوضة مرفوع لأنه خبر مبتدأ مقدّر ، وتقديره الذى هو بعوضة كقوله تعالى : (تمامًا على الذى أحسن)[٦] أى هو أحسن[٧] .

٥ ــ وينقض دليل الكوفيين الذين يجيزون العطف على الموضع قبل ذكر الخبر ، مستدلين بقوله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون) [٨] فيقول : وما استدل به الكوفيون ، فلا حجة لهم فيه من وجهين : أحدهما أنا نقول فى الآية تقديم وتأخير ، والتقدير فيه : إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، ومن آمن بالله ، واليوم الآخر فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والصابئون ، والنصارى كذلك .

---

(١) إعراب القرآن : لابن الأنبارى ورقة ٧٦ .
(٢) يونس : آية ٢٧ .
(٣) الشورى : آية ٤٠ .
(٤) إعراب القرآن : ابن الأنبارى ورقة ١٩٠ .
(٥) البقرة : آية ٢٦ .
(٦) الأنعام : آية ١٥٤ .
(٧) إعراب القرآن : ابن الانبارى ورقة ٣٦ .
(٨) المائدة : آية ٦٩ .

والوجه الثانى أن يجعل قوله : من آمن بالله واليوم الآخر خبر الصابئين والنصارى ، وتضمر للذين آمنوا ، والذين هادوا ، مثل الذى أظهرت للصابئين والنصارى ، ألا ترى أنك تقول : زيد وعمرو قائم ، فتجعل قائماً خبراً لعمرو ، وتضمر لزيد خبراً آخر مثل الذى أظهرت لعمرو ، وإن شئت جعلته خبراً لزيد ، وأضمرت لعمرو خبراً [1] .

هذه طائفة من آراء مشاهير مدرسة بغداد تدل على أن القرآن الكريم كان له أثر كبير فى آرائهم النحوية .

(٤)

فى مدرسة الأندلس

نشأة المذهب :

النحو عند الأندلسيين كما قال أبو سعيد المغربى : « فى نهاية من علو الطبقة ... وهم كثيرو البحث فيه ، وحفظ مذاهبه ، كمذاهب الفقه .

وكل عالم فى أى علم لا يكون متمكناً من علم النحو ، بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق للتمييز ، ولا سالم من الازدراء » [2] .

وقد عرف الأندلسيون النحو عن طريق تسرب كتب المشرق إليهم فأخذوا منها حاجتهم من النحو ، واللغة والأدب .

يحدثنا التاريخ أن أول من أدخل كتاب الكسائى فى الأندلس هو جودى بن عثمان العبسى الذى كان يؤدب أولاد الخلفاء بالعربية ، وقد رحل إلى المشرق ، وأخذ عن الرياشى ، والفراء ، والكسائى ، وأدخل كتابه إلى الأندلس ، وتوفى سنة ١٩٨ هـ [3] .

ومعنى ذلك أن الأندلسيين عرفوا المذهب الكوفى عن طريق كتاب الكسائى والسؤال الذى يقال هنا . ومتى دخل كتاب سيبويه الأندلس ؛ مع أنه أسبق زمناً من كتاب الكسائى ، والكسائى نفسه تخرج على كتاب سيبويه [4] . ليس ثمة شك

---

(١) أسرار العربية : ابن الانبارى ص ١٥٣ .
(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٣ ، المطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣٠٢ هـ .
(٣) تاريخ آداب العرب للرافعى جـ ٣ ص ٣٣٢ .
(٤) الاقتراح ص ١٠١ .

فى أن هذا الكتاب أخذ طريقه إلى الأندلس ، وأن أهل الأندلس ، عنوا به عناية فائقة .

ولا يضير الدراسات النحوية فى الأندلس جهلها بالزمن الذى وصل فيه الكتاب إلى بلادها . ولكن الذى يهمها ، اغترافها من معينه ، واتجاهها إلى مصدره ، مما كان له أثر كبير فى النحو الأندلسى .

ولا أدل على ذلك من هذا الاهتمام الفائق بالكتاب ، فقد اشتهر جماعة من النحويين بحفظه « فمن أقدم من وقفنا عليه ممن حفظوا كتاب سيبويه هو حمدون النحوى المتوفى بعد المائتين ، وفى القرن الثالث كان من أشهر حفاظه الأفشين القرطبى المتوفى سنة ٣٠٩ ﻫ ، وقد أخذه فى مصر عن أبى جعفر رواية »[١] .

ولمنزلة كتاب سيبويه فى نفوسهم قرر الأندلسيون أن من لم يقرأ كتاب سيبويه لا يعرف شيئاً ، « وعابوا على أحمد بن عبد النور النحوى المتوفى سنة ٧٠٢ ﻫ أنه لا يقرأ الكتاب »[٢] .

وكما عرف الأندلسيون النحو الكوفى ممثلا فى كتاب الكسائى ، والنحو البصرى ممثلا فى كتاب سيبويه عرفوا النحو البغدادى ممثلا فى أبى على القالى . فقد قدم أبو على القالى إلى الأندلس ، وقدم ابن القوطية للخليفة الحكم الثانى قائلا : « إنه أعلم أهل بلده ، وقد ألف ابن القوطية هذا كتاب فعلت ، وأفعلت »[٣] .

وقد تخرج على أبى على القالى كثير من أبناء الأندلس ، ونحن إذا عرفنا أن « أبا على نشأ فى بغداد ، وتعلم على شيوخها ، وأخذ النحو عن ابن درستويه والزجاج أحد تلامذة المبرد ، والأخفش الصغير ، وابن السراج وابن الأنبارى ، وأنه أقام فى بغداد خمساً وعشرين سنه يحصل مع الجد حتى أتقن هذه العلوم[٤] .

إذا عرفنا ذلك تبين لنا ، كيف كان أبو على ضليعاً فى هذه الدراسات وليس ثمة شك فى أن عبد الرحمن الناصر قد أحسن الاختيار فى استدعائه أبا على إلى قرطبة ليقوى بها دولته التى أراد أن ينافس بها دولة المشرق[٥] .

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى ﺟ ٣ ص ٣٣٢ .
(٢) البغية ص ١٤٣ .
(٣) نشرة الأستاذ جويدى : ظهر الإسلام ﺟ ٣ ص ٨٩ ط ثالثة .
(٤) المرجع نفسه ص ٨٢ ، ص ٨٣ .
(٥) المرجع نفسه والصفحة ٨٢ .

وإذا كان الأندلسيون قد عرفوا النحو البصرى ، والكوفى ، والبغدادى ، وأدمنوا على دراسته ، وعكفوا على البحث فيه ، فهل كانوا كالبغداديين حينما نبغوا فى هذه الدراسة استحدثوا مذهبًا ثالثًا ؟

يجيب عن ذلك المرحوم الشيخ محمد طنطاوى فيقول : إنهم « نقلوا عن المشارقة الكثير من ألسنة ، وكلام العرب ، واستدركوا على المشارقة بعض ما فاتهم من قواعد النحو ، واستحدثوا بذلك مذهبًا رابعًا ، عرف بمذهب المغاربة ، أو الأندلسيين ، وذاع هذا المذهب حتى أخذه عنهم المشارقة عن طريق نزوح كثير من المغاربة إلى المشرق ، إما للحج ، أو للإقامة ، ودرسوا فى مساجده ، أومدارسه ، ومعهم مؤلفاتهم »[1].

أثر القرآن الكريم فى مدرسة الأندلس

مدرسة الأندلس كغيرها من مدارس النحو تأثرت بالقرآن الكريم ، فتناولت آياته ، باحثة مدققة لتحرير رأى ، أو تقوية مذهب ، أو تأييد وجهة .

ونحن إذا بحثنا عن مسائل النحو التى كان للأندلسيين بصفة عامة آراء فيها نجدها قليلة بالنسبة للآراء الخاصة التى اشتهر بها نحاة الأندلس .

ولا نستطيع هنا فى هذا المجال الضيق أن نلم بآراء الأندلسيين جميعًا فى محيط القرآن الكريم من زاوية النحو ، وإنما سأتناول آراءهم ممثلة فى زاويتين مختلفتين تمام الاختلاف ، زاوية محافظة ، أركانها النحو الموروث ، ودعامتها كتاب سيبويه مع توجيهات خاصة ، وآراء معينة ، ترتبط بالنحو المشرقى تمام الارتباط ، وبخاصة فى مقاييسه ، وأصوله ، وهذه الزاوية يمثلها ابن عصفور ، وزاوية أخرى ، ثائرة مجددة ، تنعى على النحاة تمسكهم بالماضى ، وتأثرهم بسيبويه ، ونسجهم على منوال من سبقهم من النحاة فى غير تجديد تهش له النفس ، ويستريح له العقل ، وتطمئن إليه النفوس ، وهذه الزاوية يمثلها ابن مضاء القرطبى .

---

(١) نشأة النحو ص ١٠٥ المرحوم الشيخ محمد طنطاوى.

١ ـ ابن عصفور

على بن مؤمن بن محمد بن على أبو الحسن بن عصفور ، النحوى الحضرمى الأشبيلى حامل لواء العربية فى زمانه بالأندلس .

تصدر للاشتغال مدة بعدة بلاد ، وجال بالأندلس ، وأقبل عليه الطلبة وكان أصبر الناس على المطالعة ، لا يمل من ذلك ، ولم يكن عنده ما يؤخذ عنه غير النحو ، ولا تأهل لغير ذلك ، توفى سنة ٦٠٣ هـ(١) .

طائفة من آرائه النحوية فى مجال القرآن الكريم :

١ ـ وقوع ما صفة للتعظيم :

ذهب ابن عصفور إلى أن (ما) تقع صفة للتعظيم ، مستدلا بقوله تعالى : (فغشيهم من اليمّ ما غشيهم)(٢) ، (الحاقة ما الحاقة) (٣)(٤) .

٢ ـ رأيه فى قوله تعالى : (يا ليتنا نرد ولا نكذبُ بآيات ربنا ونكون) (٥)

قال السفاقسى : « زعم ابن عصفور فى هذا أن الرفع فى (ولا نكذبُ) على القطع ، والنصب فى (ونكونَ) بالعطف على المصدر المُتَوهَّم الذى يدل عليه النفى. ومنع التشريك فى (ولا نكذب) كما منعه ابن خروف .

قال ابن عصفور ـ لأنه لو كان كذلك يعنى التشريك لكان الرد ، وعدم التكذيب ، والكون مع المؤمنين ، يتمنى ، وإذا كان جميع ذلك يتمنى لم يكن قوله تعالى : (وإنهم لكاذبون) ينصرف إليه ، لأن التمنى لا يسوغ أن يجاب بصدق ولا كذب »(٦) .

٣ ـ ويستدل بالقرآن فى أن المضاف إليه ، إذا كان محذوفًا ، وكان معرفة بنى اسم الزمان المضاف على الضم .

---

(١) البغية ص ٣٥٧ .
(٢) طه : آية ٧٨ .
(٣) الحاقة : آية ١ ، ٢ .
(٤) الهمع جـ ١ ص ٩٢ .
(٥) الأنعام : آية ٢٧ .
(٦) إعراب القرآن : السفاقسى جـ ١ ، مخطوط ، نسخة رقم ٢٢٢ تفسير ، دار الكتب .

قال أبو حيان فى التذييل والتكميل : قال ابن عصفور : « ويجوز حذف المضاف إليه بقياس ، إذا كان مفرداً ، أو كان المضاف اسم زمان ، فإن كان المحذوف معرفة بنى اسم الزمان على الضم قال تعالى : (لله الأمر من قبل ومن بعد)[1]

* * *

٤ — ويستدل بالقرآن الكريم ليقوى رأيه ، ويدعم حجته فيقول فيما نقله ابن الصائغ فى تذكرته ، وملخصه ما يلى :

تكلم بعض مشايخ العصر ، وهو الشيخ «تقى الدين السبكى» بمدرسة الملك المنصور على قوله تعالى فى سورة والذاريات : (فتول عنهم فما أنت بملوم ، وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين)[2] ونقل عن المفسرين فيها قولين :

الأول : أن المعنى تولّ عن أولئك الكفار ، وأعرض عنهم ، فما تلام على ذلك ، وارفع التذكير فإن الذكرى تنفع المؤمنين .

الثانى : أن المعنى تول عن الكفار ، وأعرض عنهم ، وذكر المؤمنين فإن الذكرى تنفع المؤمنين .

قال : وعلى القول الثانى : يحتمل أن تكون الآية من باب التنازع ، فاعترض على هذا ، بأن شرط باب التنازع إمكان تسلط العاملين السابقين على المعمول ، المتنازع فيه . . وإذا تحرر هذا ، فالآية لا يمكن أن تحمل على التنازع لأن (ذكّر) : لا يمكنه العمل فى (المؤمنين) من جهة الحيلولة بينهما بالفاء وإنّ ، وكل منهما له صدر الكلام ، وما له صدر الكلام لا يعمل ما قبله فيما بعده .

وقد نقل عن ابن عصفور جواز ذلك . . وقال : إن المعربين اتفقوا على تعلق (يوم) من قوله : (إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع ، يوم تمور السماء مَوْراً)[3] (بواقع) مع أن — ما — لها صدر الكلام[4] .

---

(١) التذييل والتكميل جـ ٤ ص ٨٦ مخطوط رقم ٦٢ نحو .

(٢) الذاريات : آيتا ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) الطور : آيات ٧ ، ٨ ، ٩ .

(٤) الأشباه والنظائر جـ ٣ ص ١١٧ ، ١١٨ بتصرف .

٥ ـــ ويحتج بالقرآن فى تقديم خبر ليس عليها :

قال الشيخ خالد شارحاً للتوضيح : خبر ليس لا يتقدم عليها عند جمهور البصريين ، وحجتهم أنهم قاسوها على عسى ، وخبر عسى لا يتقدم عليها اتفاقاً ، والجامع بينهما الجمود .

ويجيز ابن‌عصفور ذلك محتجاً بقوله تعالى : (ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم)[١] وتقرير الحجة منه أن يوم يأتيهم معمول لمصروفاً ، وقد تقدم على ليس ، واسمها ضمير مستتر فيها يعود على العذاب ، ومصروفاً خبرها ، وتقديم المعمول لا يصح إلا حيث يصح تقديم عامله ، فلولا أن الخبر ، وهو(مصروفاً) يجوز تقديمه على (ليس) لما جاز تقديم معموله عليها[٢] .

٦ ـــ ويزيد قاعدة جديدة بالقرآن الكريم :

قال السيوطى فى باب التعليق والإلغاء : زاد ابن خروف ـــ زيادة على الأفعال المعروفة (نظر) ووافقه ابن عصفور وابن مالك مستدلين بقوله تعالى :

(أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت)[٣] [٤] .

٧ ـــ وينقد ابن الحاج ـــ وهو أندلسى ـــ ابنَ عصفور فى رأيه أنه يجب تأخير المفعول إن لَبْس حذر كضرب موسى عيسى رادا عليه بالقرآن الكريم . قال ابن الحاج فى نقده على(المقرب)لابن عصفور : لا يوجد فى كتاب سيبويه شىء من هذه الأغراض الواهية ، محتجاً بأن العرب تجيز تصغير عمرو ، وعمر على عمير مع وجود اللبس ، وبأن الإجمال من مقاصد العقلاء . . . وبأن الزجاج نقل فى معانيه أنه لا خلاف بين النحويين فى أنه يجوز (فما زالت تلك دعواهم)[٥] كون تلك اسمها أى اسم زال ، ودعواهم الخبر ، وبالعكس[٦] .

---

(١) هود : آية ٨ .
(٢) شرح التصريح جـ ١ ص ١٨٨ .
(٣) الغاشية : آية ١٧ .
(٤) الهمع جـ ١ ص ١٥٥ .
(٥) الأنبياء : آية ١٥ .
(٦) شرح التصريح جـ ١ ص ٢٨٢ والأشمونى .

ولا يعجب هذا النقد الأشمونى فيرد على ابن الحاج نقده فيقول : « وما قاله ابن الحاج ضعيف ، لأنه لو قدم المفعول ، وأخر الفاعل، والحالة هذه لقضى اللفظ بحسب الظاهر بفاعلية المفعول ، ومفعولية الفاعل ، فيعظم الضرر ، ويشتد الخطر بخلاف ما احتج به ، فإن الأمر فيه لا يؤدى إلى مثل ذلك[١] .

هذه طائفة من آراء ابن عصفور النحوية فى محيط القرآن الكريم اخترناها لأن ابن عصفور كان ممثلا للنحو الأندلسى المحافظ تمام التمثيل ، ولأنه كما قال عنه السيوطى فى البغية : حامل لواء العربية بالأندلس [٢] .

٢ ـ ابن مضاء القرطبي

هو أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سعد بن حريث بن عاصم بن مضاء اللخمى ، قاضى الجماعة ، ولد بقرطبة سنة ٥١٣ هـ .

قال عنه ابن الزبير : أحد من ختمت به المائة السادسة من أفراد العلماء وكان له تقدم فى علم العربية . واعتناء ، وآراء فيها ، ومذاهب مخالفة لأهلها .

ومن مؤلفاته النحوية : (المشرق فى النحو) ، و(الرد على النحويين) و (تنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان) .

وروى أن ابن خروف ناقضه فى هذا التأليف بكتاب سماه « تنزيه أئمة النحو عما نسب إليهم من الخطأ والسهو » ولما بلغه ذلك قال: نحن لا نبالى بالأكباش النطاحة وتعارضنا أبناء الخرفان .

وكانت وفاته (بأشبيلية) سابع عشرة جمادى الأولى، وقيل ثانى عشرين جمادى الآخرة سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة [٣] .

دعوته الجديدة فى النحو :

عرفنا من الآراء التى عرضناها لابن عصفور فى مجال القرآن الكريم أنها آراء ليس فيها جدة، وليس فيها طرافة، وليس فيها ما ينكره الباحث ، لأنها عن

(١) الأشمونى جـ ٢ ص ٥٦ الحلبى .
(٢) البغية ص ٣٥٧ .
(٣) البغية ص ١٣٩ .

النحو الموروث صدرت ، وعن النحاة القدامى أخذت ، أما دعوة ابن مضاء فدعوة فيها طرافة ، وفيها تجديد ، أما طرافتها فهى أنها دعوة لم يألفها النحاة السابقون أو المعاصرون ، وأما تجديدها فإنها أخذت على عاتقها هدم النحو القديم ، وبناء نحو جديد ، يقوم على أسس جديدة .

ولعل التحرر الفكرى فى هذه الفترة من التاريخ التى ظهر فيها ابن مضاء كان شعاراً لكل باحث ، ولا يكون الباحث باحثاً إلا إذا أتى بجديد لم يعهد ، وبنظريات لم تؤلف .

فى عهد يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن أعظم خلفاء دولة الموحدين حدثت هذه التطورات الفكرية ، وقد قال ابن خلكان عنه : « إنه أمر برفض فروع الفقه ، وأن الفقهاء لا يفتون إلا بالكتاب والسنة النبوية ، ولا يقلدون أحداً من الأئمة المجتهدين المتقدمين بل تكون أحكامهم بما يؤدى إليه اجتهادهم » [١] .

فلم يكن بدعاً إذاً أن يلبس ابن مضاء شعار التجديد كما لبسه الفقهاء فألف « كتاب الرد على النحاة . يريد أن يرد به نحو المشرق على المشرق أو بعبارة أخرى أدق يريد أن يرد بعض أصول هذا النحو ، وأن يخلصه من كثرة الفروع فيه ، وكثرة التأويل مبتنياً فى ذلك بسنة أميره يعقوب ، إذ كان يعجب مثله على ما يظهر بمذهب الظاهرية ، فذهب يحاول تطبيقه على النحو ، وقد بدأ فرفض نظرية العامل التى جعلت النحاة يكثرون من التقدير » [٢] .

وإنكار نظرية العامل إنكار للنحو كله ، لأن النحو يقوم فى معظم مسائله على العوامل المختلفة ، وإذا جرد النحو من هذا العامل ضاعت مقاييسه ، واختلت قواعده ، واضطربت مسائله .

ومن هنا كانت أهمية هذه الدعوة التى قام بها ابن مضاء ، ليهدم هذه النظرية ، نظرية العامل التى يقوم عليها النحو منذ عهد الخليل .

ولنا أن نسأل ابن مضاء : إذا هدمنا هذا العامل ، فكيف نستطيع أن نميز بين الظواهر النحوية المختلفة من رفع ، ونصب ، وجر ؟

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٦ ص ١١ ، السعادة سنة ١٩٤٨ ط أولى .
(٢) الرد على النحاة ص ٩ من مقدمة الدكتور شوقى ضيف (مطبعة دار الفكر العربى) .

ويجيب ابن مضاء عن هذا التساؤل ، فيقول فى مفتتح الفصل الأول من كتابه « الرد على النحاة » بقوله : « قصدى من هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغنى النحوى عنه ، وأنبه على ما أجمعوا الخطأ فيه ، فمن ذلك ادعاؤهم أن النصب ، والخفض ، والجزم ، لا يكون إلا بعامل لفظى ، فقالوا فى ضرب زيد عمراً ، إن الرفع الذى فى زيد ، والنصب الذى فى عمرو ، إنما أحدثه (ضرب) وذلك بيِّن الفساد ، وقد صرح بخلاف ذلك ابن جنى وغيره . وفى الحقيقة ومحصول الحديث أن العمل من الرفع ، والنصب ، والجر والجزم ، إنما هو للمتكلم نفسه ، لا لشىء غيره »[١] .

ومن شأن ابن مضاء صاحب النظرية الجديدة أن يتسلح لخصومه . ويترصد لاعتراضات ناقديه فيهدمها . قال :

« وربما ظن شخص أن معانى هذه العوامل هى العاملة لا ألفاظها المعدومة . ويرد على ذلك بأن العامل والفاعل إما أن يفعل بإرادة كالإنسان والحيوان ، وإما أن يفعل بالطبع كما تحرق النار ، ويبرد الماء ، والعامل فى النحو ليس فاعلا بالإرادة ، ولا بالطبع ، وإذن فتصور النحاة له بأنه عامل أو فاعل تصور واهم »[٢] .

وفى رأى ابن مضاء أن قواعد النحو ليست مقدسة لا تقبل النقد ، وإجماع النحاة ليس حجة لا تقبل الهدم فيقول : « وإجماع النحاة على ذلك ليس حجة علينا[٣] » مهما اتفق البصريون والكوفيون على ذلك.

أثر القرآن الكريم فى دعوة ابن مضاء

نظرت فى مقدمة كتابه الثورى فرأيت أن الذى دفعه إلى هذه الدعوة وأثاره على هذا النحو أن القرآن الكريم حينما أخذ النحويون يطبقون أقيستهم فى مجاله ، وعللهم فى محيطه ، كثرت فى آياته التأويلات والتخريجات ، والزيادات والمحذوفات ، وهذا لا يصح فى كتاب الله تعالى .

---

(١) الرد على النحاة : ابن مضاء ، تحقيق الدكتور شوقى ضيف ص ١٨ .

(٢) الرد على النحاة : ابن مضاء ، تحقيق الدكتور شوقى ضيف ص ١٩ ، ٢٠ .

(٣) الرد على النحاة ص ٢٣ .

يدل على ذلك قوله : أما بعد فإنه حملنى على هذا المكتوب قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من قال فى كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ » وقوله : « من قال فى كتاب الله بغير علم ، فليتبوأ مقعده من النار » وقوله : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه . . »[١].

وكأنّ ابن مضاء أحس بأنه ثائر على مألوف ، وأنه معرض لكل نقد وتجريح فقال : «لعل قائلا يقول : أيها الأندلسى المسرور بالإجراء بالخلاء[٢] ... أتزرى بنحوىّ العراق ، وفضل العراق على الآفاق كفضل الشمس فى الإشراق على الهلال فى المحاق ، وإنك أخمل من بقة فى شقة ، وأخفى من تبنة فى لبنة ، ولا تعرف الزائف من الخالص إلا بناقد فليس هذا بعشك فادرجى[٣] .

خلّ الطريق لمن يبنى المنار به   وابرز ببرزة حيث اضطرك القدر»[٤][٥]

طائفة من آرائه :

١ — ثورته على المحذوفات فى القرآن الكريم وتقديرها :

قال : « واعلم أن المحذوفات فى صناعتهم على ثلاثة أقسام :

١ — محذوف لا يتم الكلام إلا به ، حذف لعلم المخاطب به كقولك : لمن رأيته يعطى الناس : زيداً . أى أعط زيداً ، فتحذفه وهو مراد ، وإن أظهر تم الكلام به ، ومنه قوله تعالى : (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم ، قالوا خيراً)[٦] وقوله تعالى : (يسألونك ماذا ينفقون قل العفو)[٧] على قراءة من نصبه ، وكذلك من رفعه . وقوله عز وجل : (ناقة الله وسقياها)[٨] ، والمحذوفات فى كتاب الله تعالى لعلم المخاطبين بها كثيرة جداً ، وهى إذا ظهرت تم بها الكلام ، وحذفها أوجز وأبلغ .

---

(١) الرد على النحاة : ص ٧٩ و ٨٠ .
(٢) من المثل قديم : كل مجر فى الخلاء يسر .
(٣) مثل يضرب لمن يرفع نفسه فوق قدره .
(٤) البيت لجرير ، وبرزه أم عمر بن لجأ أحد خصوم جرير الذين هجاهم .
(٥) الرد على النحاة : ص ٨٤ بتصرف .
(٦) النحل : آية ١٠ .
(٧) البقرة : آية ٢١٩ .
(٨) الشمس : آية ١٣ .

٢ — وبعد أن ذكر القسم الثانى ، وهو المحذوف الذى يتم الكلام دونه ، وإن ظهر كان عيباً .

٣ — أخذ يتكلم عن القسم الثالث : وهو المضمر الذى إذا أظهر تغير الكلام عما كان عليه قبل إظهاره : كقولك : يا عبدَ الله .

بعد هذا الذى عرضه من المحذوفات وتقديرها عند أهل الصناعة — وهم النحاة — عقّب بقوله :

وهذه المضمرات التى لا يجوز إظهارها لا تخلو من أن تكون معدومة فى اللفظ ، موجودة معانيها فى نفس القائل ، أو تكون معدومة فى النفس ، كما أن الألفاظ الدالة عليها معدومة فى اللفظ ، فإن كانت لا وجود لها فى النفس ، ولا للألفاظ الدالة عليها وجود فى القول فما الذى ينصب إذن ؟ وما الذى يضمر ؟ ونسبة العمل إلى معدوم على الإطلاق محال .

فإن قيل : إن معانى هذه الألفاظ المحذوفة موجودة فى نفس القائل وإن الكلام بها يتم ، وإنها جزء من الكلام القائم بالنفس ، المدلول عليه بالألفاظ إلا أنها حذفت الألفاظ الدالة عليها إيجازاً كما حذفت مما يجوز إظهاره إيجازاً لزم أن يكون الكلام ناقصاً ، وأن لا يتم إلا بها ، لأنها جزء منه ، وزدنا فى كلام القائلين ما لم يلفظوا به ولا دلنا عليه دليل إلا ادعاء أن كل منصوب ، فلا بد له من ناصب لفظىّ ، وقد فرغ من إبطال هذا الظن بيقين ، وادعاء الزيادة فى كلام المتكلمين من غير دليل عليه خطأ بين ، لكنه لا يتعلق بذلك عقاب ، ثم قال :

وأما طرد ذلك فى كتاب الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وادعاء زيادة معان فيه من غير حجة ولا دليل إلا القول بأن كل ما ينصب ، إنما ينصب بناصب ، والناصب لا يكون إلا لفظاً يدل على معنى إمّا منطوقاً به ، وإما محذوفاً مرادفاً ، ومعناه قائم بالنفس ، فالقول بذلك حرام على من تبين له ذلك . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من قال فى القرآن برأيه ، فأصاب فقد أخطأ) ومقتضى هذا الخبر النهى ، وما نهى عنه فهو حرام ، إلا أن يدل دليل ، والرأى ما لم يستند إلى دليل حرام .

وقال صلى الله عليه وسلم : (من قال فى القرآن بغير علم ، فليتبوأ مقعده من النار) ، وهذا وعيد شديد ، وما توعد رسول الله على فعله ، فهو حرام .

ومن بنى الزيادة فى القرآن بلفظ أو معنى على ظن باطل ، قد تبين بطلانه فقد قال فى القرآن بغير علم ، وتوجه الوعيد إليه .

ومما يدل على أنه حرام ، الإجماع على أنه لا يزاد فى القرآن لفظ غير المجمع على إثباته ، وزيادة المعنى كزيادة اللفظ ، بل هى أحرى ، لأن المعانى هى المقصودة والألفاظ دلالات عليها ، ومن أجلها »[1] .

٢ — ويرد على ابن جنى الذى يدعى أن الجر بالمجاورة واقع فى القرآن الكريم فيقول : « فما جاز خلاف الإجماع الواقع فيه منذ بدئ هذا العلم ، وإلى آخر هذا الوقت ما رأيته أنا فى قولهم : هذا جحر ضبٍّ خربٍ ، فهذا يتناوله آخر عن أول ، وتال عن ماض على أنه غلط من العرب ، لا يختلفون فيه ، ولا يتوقفون عنه ، وإنه من الشاذ الذى لا يحمل عليه ، ولا يجوز رد غيره إليه . وأما أنا فعندى أن فى القرآن من مثل هذا الموضع نيفًا على ألف موضع .

قال المؤلف رضى الله عنه — هنا قطعت نص كلامه — لأنى أوردته وقصدى الإيجاز وإنما سقت قوله المتقدم—يعنى قول الجاحظ— إتباعًا لمن ألف الإتباع . فمذهب الجماعة فى قول العرب : هذا جحر ضب خرب ما ذكره . واختار أبو الفتح أن يكون على حذف المضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، وقال : إن فى القرآن نيفًا على ألف موضع ، وتقديره عنده : هذا جحر ضب خرب جحره ، فخرب نعت لضب ، كما يقال : هذا فرس عربى قارح فرسه ، فقارح نعت لعربى وصف به ، وإن كان للفرس ، لأنه من سببه ، فحذف الجحر الذى هو المضاف وهو فاعل مرفوع ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، وهو الضمير العائد على الضب مقام الجحر ، فارتفع بخرب عنده . والضمير إذا كان فاعلا باسم الفاعل ، أو بالصيغة المشبهة باسم الفاعل استكن فيهما على مذهبهم ، وحذف المضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه مطرد ، واستكان الضمير فى الصفة مطّرد .

ولكن لقائل أن يقول لأبى الفتح : إن الحذف للمضاف لا يجوز إلا فى المواضع التى يسبق إلى فهم المخاطب المقصود من اللفظ فيها كقوله تعالى : (واسأل القرية التى كنا فيها ، والعير التى أقبلنا فيها)[2] وأما فى المواضع التى

---

(١) الرد على النحاة : ص ٩٢ ، ٩٣ بتصرف .

(٢) يوسف : آية ٨٢ .

يحتاج فى معرفة المحذوف منها إلى تأمل كثير ، وفكر طويل ، فلا يجوز حذفه ، لما فيه من اللبس على السامعين ، وهذا من المواضع البعيدة .

والدليل على ذلك أنه قد مر هذا القول على أسماع قوم فهماء عارفين بالنحو واللغة ، فلم يهتدوا إلى هذا المحذوف ، لأنه لو ظهر لكان قبيحاً ، لو قالت العرب : هذا جحر ضب خرب جحره ، قبح ، لأنه عيٌّ من القول ، تغنى عنه ضمة الباء ، ويكون الكلام وجيزاً فصيحاً . فلما كان أصله هكذا ، ثم تُكُلِّف فيه ما تكلف من الحذف لما لا يسبق حذفه إلى الفهم بَعُدَ . ثم إنه لو كان المضاف إليه ظاهراً لكن أبين ، ولكنه حذف المضاف واستكن المضاف إليه ، فعزب عن الفهم وصار فهمه مع هذا الحذف والإضمار من تكليف مالا يستطاع .

واستجاز أبو الفتح الرد على كل من تقدم بظن ليس بالقوى ، فكيف بنا ، ونحن نرد عليهم الظنون الضعيفة ، بالأدلة الواضحة التى لا امتراء فيها لمنصف »[١] .

٣ ـ ويختم ابن مضاء دعوته بإلغاء القياس ، ومعنى ذلك أن المنهج السليم فى نظره هو السماع ، ولا يلجأ إلى القياس ، لأنه يقتضى الحذف والزيادة فى كلام الله فيقول ناقداً لهذا القياس ما نصه : « والعرب أمة حكيمة ، فكيف تشبه شيئاً بشىء ، وتحكم عليه بحكمه ، وعلة حكم الأصل غير موجودة فى الفرع »[٢] .

٥ ـ فى مدرسة مصر والشام

بدأت الرحلات العلمية من أنحاء العالم الإسلامى تتوالى على مدن العراق الثلاث البصرة ، والكوفة ، وبغداد فى القرن الثانى الهجرى حينما ظهرت العلوم النحوية علوماً مستقلة وذلك أنه فى القرن الأول الهجرى كانت العلوم مختلطة ، لا تتميز ، ولا تتحدد ، فعلماء النحو « كانوا علماء لغة وأدب ، لأن هذه الفروع لم تنفصل وتتحدد ، ويتميز كل عالم منها بعلم إلا بعد العصر الأول »[٣] .

وكانت أول بعثة مصرية : تتجه إلى مدينة البصرة ، هى البعثة الممثلة فى شخص الوليد بن محمد التميمى المصادرى المشهور بولاّد . قال محمد بن الحسن

(١) الرد على النحاة ـ ٩٧ .
(٢) المرجع نفسه ص ١٥٦ .
(٣) ضحى الإسلام : أحمد أمين ج ٢ ص ٢٧٧ ط ثانية .

الزبيدى : « حدثنى محمد بن يحيى النحوى قال : بلغنى أن ولاّدا كان يأخذ النحوعن رجل من أهل مدينة النبي عليه السلام ولم يكن المدنى من الحذاق بالعربية ، فسمع ولاد بالخليل بن أحمد فرحل إليه فلقيه بالبصرة ، وسمع منه ، ولازمه ، ثم انصرف إلى مصر ، وجعل طريقه على المدينة ، فلقى معلمه ، فناظره ، فلما رأى المدنى تدقيق ولاّد للمعانى وتعليله فى النحو قال : « لقد ثقبت بعدنا الخردل»[١]

وبرجوع الوليد إلى مصر بعد هذه الرحلة ظهرت أول مدرسة نحوية مصرية على يده وكما اتجه ولاد إلى البصرة اتجه أبو الحسن الأعز إلى الكوفة ، وأخذ علمه عن مؤسس المدرسة الكوفية على بن حمزة الكسائى [٢] .

وحينما التقى المذهبان على يدعلماء بغداد لم يكف علماء مصر عن الرحلة إلى بغداد والأخذ عن رجالها . فأبو العباس أحمد بن محمد بن الوليد ، وأبو جعفر أحمد بن محمد إسماعيل المعروف بالنحاس يفدان إلى بغداد ، ويأخذان عن أبى إسحاق الزجاج .

وكان الزجاج يفضل أبا العباس بن ولاد ، ويقدمه على أبى جعفر النحاس لأنه كان « يثنى عليه عند كل من قدم من مصر إلى بغداد ، ويقول لهم : لى عندكم تلميذ من صفته كذا ، وكذا ، فيقال له : أبو جعفر النحاس ؟ فيقول : بل أبو العباس بن ولاد »[٣] وقد كان لهذين الرجلين فضل كبير « فى اطراد الدراسات النحوية واللغوية بمصر ، وتلقى العلم عليهما كثير من المصريين ، ونشطت حركة التأليف »[٤] .

وقد أثرت حركة النحو فى مصر فى الأندلس « فمحمد بن موسى بن هاشم المعروف بالأفشين القرطبي رحل إلى المشرق ، ولقى بمصر أبا جعفر الدينورى ، وأخذ عنه كتاب سيبويه رواية »[٥] .

وأبو العباس بن ولاد هو أستاذ أبى عبد الله الرياحى ، النحوى ، الأندلسى[٦]

---

(١) طبقات النحويين واللغويين : ص ٢٣٣ ط أولى سنة ١٩٥٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢٣٣ .
(٣) بغية الوعاة : ص ١٦٩ .
(٤) مصر فى عهد الأخشيديين ص ٣٢٦ ، دكتورة سيدة إسماعيل الكاشف مطبعة جامعة القاهرة سنة ١٩٥٠ م .
(٥) البغية ص ١٠٨ .
(٦) أدب مصر الإسلامية ص ٦٩ الدكتور محمد كامل حسين مطبعة الوفد .

وفى عهد الفاطميين برز فى النحو ابن بابشاذ الذى جمع فى حال انقطاعه شكة[١] كبيرة فى النحو ، يقال : إنها لو بيضت قاربت خمسة عشر مجلداً ، وسماها النحاة بعده الذين وصلت إليهم تعليق الغرفة ، وانتقلت هذه التعليقة إلى تلميذه أبى عبد الله محمد بن بركات السعدى النحوى اللغوى المتصدر موضعه ، ثم انتقلت منه إلى صاحبه أبى محمد عبد الله بن برّى النحوى ، المتصدر فى مكانه ، ثم انتقلت بعده إلى صاحبه أبى الحسين النحوى المبنوز بثلط الفيل ، المتصدر فى موضعه .

وقيل إن كل واحد من هؤلاء كان يهبها لتلميذه ، ويعهد إليه بحفظها ، ولقد اجتهد جماعة من الطلبة فى نسخها ، فلم يمكنوا من ذلك ، وانتفع الناس بعلمه وتصنيفه[٢] . وفى عهد بنى أيوب ازدهر العلم ، وفتحت المدارس وزاد الإقبال عليها ، وكانت أول مدرسة أنشئت فى مصر هى المدرسة الناصرية التى بناها صلاح الدين سنة ٥٦٦ هـ[٣] .

وأثمر النحو فى العصر الأيوبى ثمرات طيبة ، واشتغل به الملوك والأمراء فالملك الكامل يمنحه ابن برى إجازة فى فن النحو ، وقد وصل الملك الكامل فى النحو إلى درجة الإفتاء . يقول صاحب النجوم : « وكان عنده مسائل غريبة من الفقه والنحو يوردها فمن أجابه حظى عنده »[٤] .

والملك المعظم عيسى ، نبغ فى النحو ، وقرأ كتاب الحجة لأبى على الفارسى على شيخه تاج الدين الكندى ، وقرأ عليه أيضاً كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى حفظاً[٥] ومن حسنات الملك المعظم عيسي إنشاء مدرستين للتخصص فى الدراسات النحوية واحدة فى القدس . والأخرى بدمشق .

« ومدرسة القدس تقع على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة إلى الغرب وكان يدرس فيها الكتاب لسيبويه »[٦] .

---

(١) يريد بها مسودة ، واصل : الشكة ، والشكيكة : السلة التى تكون فيها الفواكه (هامش وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٣١٦) ط دار المأمون .

(٢) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٩٩ تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين .

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٣٨٥ .

(٤) المرجع نفسه جـ ٦ ص ٢٣٧ .

(٥) النجوم الزاهرة ص ٢٦٧ .

(٦) خطط الشام جـ ٦ ص ١١٩ ، محمد كرد على . المطبعة الحديثة بدمشق سنة ١٩٢٥ م .

ومن أبرز نحاة هذه الفترة ابن الحاجب الذى كان له جهد كبير فى الدراسة النحوية بمصر ودعم مدرسة النحو فيها .

وفى عهد المماليك سارت الدراسة النحوية بخطى واسعة ، وظهر على مسرح هذه الدراسة شيخ النحاة ، وزعيم مدرسة النحو فى مصر ابن مالك . ثم حظيت مصر بمهاجر أندلسى أذكى شعلة النحو بما له من عقلية فذة ، وقوة خلاقة فى النقد ، نقد المعاصرين أو السابقين من النحاة ، ذلك هو أبو حيان .

ومن تلاميذه المبرزين الذين استطاعوا أن ينهضوا بعبء هذه الدراسات : ويقيموا صرحها ويشتهر أمرها شرقاً وغرباً — ابن هشام — الذى قال عنه ابن خلدون : « ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه » [1] .

هذا ولم يظهر فى مدرسة مصر مجتهد فى النحو بعد ابن هشام اللهم إلا هذه المحاولات التى قام بها بعض النحاة المحدثين ، ولكن لم يكن لها من القوة ما يكتب لها الخلود ، لأنه لا زال النحو الموروث بأقيسته وعلله ، يفرض سلطانه على النحو والنحويين إلى اليوم .

هذه خلاصة موجزة لنشأة النحو وتطوره فى مصر والشام ، أوجزتها ، لأنى لا أحب الإعادة والتكرار ، فقد قمت بإعداد بحث فى هذا الموضوع للحصول على « الماجستير » .

والذى يهمنى فى هذا المقام أن أبين أثر القرآن الكريم فى هذه المدرسة لنتبين فى ضوئه كيف كان القرآن الكريم مصدراً حياً لهذه الدراسات ، وبذلك نكون قد خرجنا من هذا الفصل بحقيقة لا تقبل الجدل ، ولا يتسرب إليها الشك ، وهى أن القرآن الكريم أثر فى نحو هذه المدارس المتعددة تأثيراً كبيراً ، أثر فى المنهج ، وأثر فى كثرة التخريجات والتأويلات ، وأثر فى إيجاد مشكلات نحوية كانت سبباً فى اشتعال نيران الخلاف بين هذه المدارس بصفة عامة ، وبين النحاة ومذاهبهم وآرائهم الخاصة بصفة خاصة .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٣٢ مطبعة مصطفى محمد .

أثر القرآن الكريم فى مدرسة مصر والشام

الواقع أن إطلاق اسم المدرسة على حركة النحو فى مصر والشام فيه تَجَوُّزٌ إذا اعتبرنا وحدة الهدف ، ووحدة الأصول ، ووحدة المقاييس ، ووحدة المنهج ، لأن هذه الحركة كانت تتعدد فيها المناهج ، وتختلف الأصول ، وتتباين المقاييس : ولكن يشفع لى فى إطلاق اسم المدرسة على هذه الحركة أن حركة النحو فى البصرة أو فى الكوفة لم تقم على اطراد فى المنهج ، أو وحدة فى الهدف ، فقد اضطربت الأصول فى كل مدرسة ، واختلف النحاة فيما بينهم ، ومع ذلك فقد أطلق هذا الاسم على كل حركة من هاتين الحركتين ، وقيل مدرسة البصرة أو مدرسة الكوفة ، وخرجت بحوث نحوية تحمل هذه الأسماء [١] .

وإذا نظرنا إلى اتجاهات النحو فى مدرسة مصر والشام نجد أنها تتجه إلى وجهتين :

١ ــ وجهة متأثرة بالنحو البصرى بمقاييسه وأصوله . وعلله وفروعه ، وهذه يمثلها ابن الحاجب وأبو حيان الأندلسى .

٢ ــ ووجهة ثانية . لا تنكر النحو البصرى ، ولا تنكر النحو الكوفى ، لكنها مع ذلك لا تنكر نفسها ولا تنكر أن لها رأياً فى هذه المشكلات ، وأن لها دَلْواً بين الدلاء ، وهذه الوجهة يمثلها ابن مالك وابن هشام ، وقد عبر السيوطى عن هذه الوجهة فقال : « لابن مالك فى النحو طريقة سلكها بين طريقَى البصريين والكوفيين قال ابن هشام معلقاً : وهذه الطريقة طريقة المحققين ، وهى أحسن الطريقين » [٢] .

أما الدليل على أن الوجهة الأولى كانت متأثرة بالمنهج البصرى ، فإننا نرى أن ابن الحاجب كان أصولياً ، بل كان ضليعاً فى هذا العلم ، ومن نبوغه فيه ألف مختصراً ، وآخر أكبر منه سماه : « المنتهى » [٣] .

---

(١) كمدرسة البصرة : الدكتور عبد الرحمن السيد ، ومدرسة الكوفة للدكتور مهدى المخزومى .

(٢) الاقتراح ص ١٠٢ .

(٣) روضات الجنات باب العين ص ٨ .

ولغلبة المنطق والفلسفة عليه قال عنه المؤرخون : إنه كان فقيهاً ، مناظراً ، مفتناً[١] . وقال ابن العماد عنه : خالف النحاة فى مواضع ، وأورد عليهم إشكالات تتعذر الإجابة عنها[٢] .

وإذا كان ابن الحاجب ينزع منزع الفلسفة ، ويشرب من معين الأصول ، ويجرى وراء الإشكالات التى تتعذر الإجابة عنها ، فإن هذا من غير شك يجعله بصريًّا فى اتجاهاته النحوية .

وقد كان أبو حيان كذلك ، يجرى وراء البصريين ، ويدافع عن اتجاهاتهم وينكر على ابن تيمية نقده لسيبويه ،فقد قال ابن تيمية فى مسألة نقل فيها أبو حيان شيئاً عن سيبويه : أسيبويه كان نبىَّ النحو؟ لقد أخطأ سيبويه فى ثلاثين موضعاً من كتابه ، فأعرض عنه ، ورماه فى تفسيره (النهر) بكل سوء[٣] . ويفسر بعض المؤرخين عدم خروج أبى حيان عن القواعد النحوية التى وضعها سيبويه والبصريون أنه وفد إلى مصر وهو على مذهب الظاهرية ، وكان يقول : محال أن يرجع عن مذهب الظاهر من علق بذهنه[٤] .

والدليل الأوضح على أن أبا حيان كان يقتفى أثر البصريين فى اتجاهاته النحوية هذه الآراء العديدة التى كان يتفق معهم فيها ، ويدافع عنهم فى معرضها ، ويعتز بهم فى مجالها ، ويكفى أنه ألف كتابه « غاية الإحسان فى علم اللسان » وأورد فيه مسائل ، سلك فيها مسلكهم ، ونهج منهجهم ، وقد أشار إلى ذلك فى مقدمة هذا الكتاب فقال : « وبعد ، فقد أتحفتك أيها المتدبر فى النحو بمقدمة لطيفة المنزع ، منهلة المشرع ، ضمنتها من هذا العلم أكثر أصوله ، ومعظم فصوله محتذياً فى ذلك ما عليه العمل من مذاهب أهل البصرة أولى التحقيق »[٥] . وأما الدليل على أن الوجهة الثانية التى يمثلها ابن مالك ، وابن هشام كانت تنزع عن رأى حر ، وتصدر آراءها عن فكر مستقل ، هذه الآراء الكثيرة التى خالف

---

(١) روضات الجنات ص ٨ .
(٢) شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٣٤ .
(٣) البغية ص ١٢١ .
(٤) الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٣٠٢ ، ٣٠٤ : ابن حجر العسقلانى ط أولى — الهند .
(٥) غاية الإحسان فى علم اللسان : أبو حيان ، مخطوط ٢٤ ش . نحو .

فيها ابن مالك وابن هشام البصريين والكوفيين ، وانفردا فى مجال هذا العلم بآراء مستقلة ، ومسائل معينة نسبت إليهما [١] .

وإنى سأعرض فى هذا المقام لهذين الوجهتين ، مبيناً أثر القرآن الكريم فى كل وجهة ، حتى لا تختلط الوجهات ، وتمتزج المسائل .

هذا وطريقى فى إيضاح كل وجهة أن أعرض للنحاة الذين يمثلونها ، مبيناً أثر القرآن الكريم فى آرائهم ، وبهذا البيان تتضح الوجهة ، وتتحدد معالمها .

وإنى سأبدأ بأشهر النحاة الذين يمثلون الوجهة الأولى ، وهما : ابن الحاجب وأبو حيان ، ثم بأشهر النحاة الذين يمثلون الوجهة الثانية ، وهما ابن مالك وابن هشام .

---

(١) مدرسة مصر والشام : بحث مخطوط : عبد العال سالم ص ٢٢٧ ، ص ٣٩١ .

١ - ابن الحاجب[١]

طائفة من آرائه :

١ - يستشهد بالقرآن الكريم فى أن اللام الجارة بمعنى عن :

قال ابن الحاجب فى الكافية : اللام الجارة تقع بمعنى عن مع القول ، مستشهداً بقوله تعالى : (وقال الذين كفروا للذين آمنوا)[٢] أى عنهم ، وليس المعنى أنهم خاطبوا به المؤمنين ، وإلا لقال : ما سبقتمونا إليه[٣] .

٢ - يرد على الزمخشرى فى تخريجه لبعض آيات من القرآن الكريم ، مبيناً وجه الصواب :

أملى بدمشق سنةعشرين وستمائةعلى قوله فى (المفصل) فى التمييز : لما ذكر المنتصب عن المفرد والجملة وأن قوله تعالى : (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله)[٤] (ومن أصدق من الله حديثاً)[٥] أن التمييز فيه منتصب عن جملة مثله فى طاب زيد أباً ، وهذا ليس بمستقيم ، لأن حقيقة التمييز المنتصب عن الجملة أن يكون مبيناً للإبهام ، الناشئ عن النسبة فيها ، كقولك : حسُن زيد وجهاً ، ومعلوم أنك إذا قلت : زيد «حسن» وجهاً أنه ليس منصوباً عن الإبهام الناشئ من نسبة الخبر إلى المبتدأ ، بل من الإبهام الناشئ من نسبة الصفة إلى الضمير ، ويبين لك ذلك قولك زيد « حسن » غلامُه وجهاً ، وليس انتصاب (وجها) هاهنا بِمُلْبِس فى أنه عن نسبة شيء إلى زيد ، وإنما هو عن نسبة الحسن إلى الغلام ، كذلك إذا قلت : زيد حسن وجهاً ، لأنك تعلم أن نسبة الحسن إلى الضمير كنسبته إلى الغلام وإذا صح أن وجهاً فى قولك : زيد حسن وجهاً منتصب عن نسبة حسن إلى الضمير ، وإنما جاء الوهم من جهة أن مدلول الضمير ، ومدلول

---

(١) ترجمته فى بحث : المدرسة النحوية فى مصر والشام : عبد العال سالم مخطوط ص ٤٣ .
(٢) الأحقاف : آية ١١ .
(٣) الهمع جـ ٢ ص ٣٢ .
(٤) فصلت : آية ٣٣ .
(٥) النساء : آية ٨٧ .

الاسم المتقدم واحد . فتوهم لذلك أنه مثل : حسُن زيد وجهاً ، لاتحاد الذات المنسوب إليه الحسن . وهو وهم على ما تقدم ، وإذا وضح ذلك فى زيد حسن وجهاً فقوله : (ومن أصدق) ومن (أحسن) مثله ، لأن فى أصدق ضمير مرفوع بأصدق ، منسرب إليه الأصدقية ، موازن للضمير فى قولك : زيد حسن ، وإذا وجب ذلك فى زيد حسن وجهاً باعتبار ما ذكرناه ، وجب فى (ومن أحسن قولا) لأنهما سواء فى الغرض الذى قصدناه» [١] .

٣ ـ ينقد الزمخشرى فى اعترافه بأن الخفض على الجوار موجود فى القرآن الكريم : قال مملياً على قوله تعالى : (وامسحوا برءوسكم وأرجلكم)[٢]) من قرأ بالخفض عطفاً على قوله برءوسكم ، والمراد: اغسلوا أرجلكم ، وليس الخفض على المجاورة ، وإنما على الاستغناء بأحد الفعلين عن الآخر . والعرب إذا اجتمع فعلان متقاربان فى المعنى ، ولكل واحد متعلق جوزت ذكر أحد الفعلين ، وعطفت متعلق المحذوف على المذكور على حسب ما يقتضيه لفظه حتى كأنه شريكه فى أصل الفعل إجراء لأحد المتقاربين مجرى الآخر كقولهم : تقلدت بالسيف والرمح وعلفتهما بالتبن والماء .

وقال الإمام الزمخشرى : إنه مخفوض على الجوار ، وليس بجيد إذ لم يأت الخفض على الجوار فى القرآن الكريم ، ولا فى الكلام الفصيح ، وإنما هو شاذ فى كلام من لا يؤبه له من العرب ، فلتحمل الآية على ما ذكر [٣] .

٤ ـ ويستدل بالقرآن الكريم على أن السموات فى قوله تعالى:(خلق الله السموات)[٤] مفعول مطلق لبيان النوع .

وذلك كما يقول ابن هشام فى المغنى : إن المفعول به ما كان موجوداً قبل الفعل الذى عمل فيه ، ثم أوقع الفاعل به فعلا . والمفعول المطلق ، ما كان الفعل العامل فيه هو فعل إيجاده ، وإن كان ذاتاً ، لأن الله سبحانه موجد للأفعال ، وللذوات جميعاً[٥] .

---

(١) الامالى : ابن الحاجب ص ٥٨ و ص ٥٩ : مخطوط رقم ١٠٣٤ نحو ـ دار الكتب .
(٢) المائدة : آية ٦ .
(٣) الامالى : لابن الحاجب مخطوط رقم ١٠٣٤ ، ص ٥٤ .
(٤) العنكبوت : آية ٤٤ .
(٥) التصريح ج ١ ص ٨٠ .

٥ – ويعتد بالتأويل والتخريج :

قال فى التصريح : وتختص الواو بجوار عطفها عاملا قد حذف ، وبقى معموله مرفوعاً كان نحو: (أسكن أنت وزوجك الجنة)(١) أو منصوباً نحو : (والذين تبوءوا الدار والإيمان)(٢) وذلك أنه لم يحصل العطف على المذكور فى الكلام بدون حذف ، لئلا يلزم فى الأول رفع فعل الأمر للاسم الظاهر ، وفى الثانى كون الإيمان متبوأ ، وإنما يتبوأ المنزل(٣) .

٥ – يعتمد على القرآن الكريم فى تحرير رأيه أن «لو» تدل على امتناع الشىء لامتناع غيره ، والمقصود بالامتناع عنده « امتناع الأول أى الشرط للثانى أى لامتناع الجواب، وجهه بأن انتفاء السبب لا يدل على انتفاء مسببه ، لجواز أن يكون ثَمَّ أسباب أخر » .

قال ويدل على هذا قوله تعالى : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)(٤) فإنها مسوقة لنفى التعدد فى الآلهة بامتناع الفساد ، لا أن امتناع الفساد لامتناع الآلهة ، لأنه خلاف المفهوم من مساق أمثال هذه الآية ولأنه لا يلزم من تعدد انتفاء الآلهة انتفاء الفساد ، لجواز وقوع ذلك ، وإن لم يمكن تعدد فى الآلهة ، لأن المراد به فساد نظام هذا العالم عن حالته وذلك جائز أن يفعله الإلهُ الواحد سبحانه(٥)

٦ – ويستند إلى القرآن فى تقعيد هذه القاعدة : « كل ما دل على معنى العموم صالح للابتداء » .

فيقول فى قوله تعالى: (ولعبد مؤمن خير) (٦) : المسوغ للابتداء فى الآية إنما هو معنى العموم ، وخير خبر المبتدأ . لأنا قاطعون بأن المراد المفاضلة بين الجنسين ، لا أفرادهما المخصوصة ، فإن قلت : المسوغ هنا الصفة : قلت : لا يستقيم لأنها إنما تكون معتبرة فى الموضع الذى لا يراد فيه الجنس ، وتأتى هى

---

(١) البقرة : آية ٣٥ .
(٢) الحشر : آية ٩ .
(٣) التصريح جـ ٢ ص ١٥٤ ، بتصرف .
(٤) الأنبياء : آية ٢٢ .
(٥) الهمع جـ ٢ ص ٦٤ .
(٦) البقرة : آية ٢٢١ .

مخصصة لذلك المفرد المقصود وهو مع ذلك ضعيف ، قليل استعماله ، وربة نكرة بلاصفة أخص مما لها صفة ، والذى ضَعّفه أنه إذا صح جسم حيّ فى الدار ، لوجود التخصص بالصفة ، ينبغى أن يجوز : رجل فى الدار ، لأنه أخص منه بدرجات . ثم قال : فإن قلت : الدليل على أن المخصص الصفة أنك لو قلت : ولعبد خير بإسقاط الصفة لم يجز . قلت هو مستقيم فى الإعراب ألا ترى أنك إذا قلت : « العالم قديم » لكان كلامًا مع أنه كذلك[1] .

(٢) أبو حيان الأندلسى

لم يكن أبو حيان كابن مالك الذى خرج من الأندلس شابًا صغيراً ، ولكنه فيما يبدو خرج من الأندلس ، وقد اكتمل عوده ، ونضج عقله ، واقتبس من علوم الأندلس ، وبخاصة علم النحو مما جعله علمًا يشار إليه .

وقد دعانى إلى تسجيل هذه الحقيقة النص الذى أورده السيوطى فى الهمع ممَّا يدل على أن أبا حيان تلقى علومه بالأندلس .

« قال أبو حيان فى شرح التسهيل لا يتحقق التوقع فى (قد) مع دخوله على الماضى لأنه لا يتوقع الا المنتظر ، وهذا قد وقع ، والذى تلقفناه من أفواه الشيوخ بالأندلس أنها حرف تحقيق إذا دخلت على الماضى ، وحرف توقع إذا دخلت على المستقبل »[2] .

وقد بينت قبل ذلك أن أبا حيان كان يقتفى أثر البصريين . ولكن ليس معنى ذلك أن الرجل ألغى شخصيته ، وأنكر رأيه فى مجالهم ، لأنه كان يصدر أراء مستقلة فى كثير من مواقفه مما يدل على أنه كان ذا بصر بما يقول ، وبما يعتقد ، وكما قال عن نفسه فى بعض المواقف : « ولسنا متعبدين باتباع مذهب البصريين بل نتبع الدليل »[3] .

ولا أدل على تحرره فى بعض المسائل من أنه رفض رأى البصريين كما رفض رأى الكوفيين وذلك فى رافع الفعل المضارع ، فبعد أن عرض لأقوالهم وأدلتهم

---

(١) حاشية ياسين ج ١ ص ١٦٩ ط الحلبى .
(٢) الهمع ج ٢ ص : ٧٣ .
(٣) الاقتراح ص : ١٠٠ .

المختلفة قال : « ولا فائدة لهذا الخلاف ، ولا ينشأ عنه حكم تطبيقى »[١] .

وليس هذا الذى قررته الآن مناقضاً لما قررته من قبل فى أنه كان بصرى الطابع ظاهرى الرأى[٢] ، لأن الظاهرة العامة فى المسائل النحوية التى عرض لها كان يميل إليهم فيها ، وليس هذا بمانع من أنه كان له فى بعض المواقف آراء مستقلة ونظرات متحررة .

أما آراؤه النحوية فى مجال القرآن الكريم مستدلا ، أو مستشهداً أو متأولا فهى أراء عديدة . نذكر منها ما يأتى :

طائفة من آرائه :

١ ـ يرد على ابن عصفور فى حذف عائد الصلة مستدلا بالقرآن الكريم :

قال السيوطى فى الهمع فى موضع حذف عائد الصلة إذا كان مجروراً : « يجوز حذفه فى صور ؛ إحداها أن يجر بإضافة صفة ناصبة له تقديراً نحو (فاقض ما أنت قاض)[٣]. أى قاضيه . وزعم ابن‌عصفور أن حذفه ضعيف جداً ، ورده أبو حيان بوروده فى القرآن »[٤] .

٢ ـ ويوافق ابن مالك فى (مِن) الجارة لأن‌القرآن الكريم‌ورد بها ، وتأويل ما كثر ليس بجيد .

قال السيوطى فى الهمع : « قال أبو حيان : من الجارة لابتداء الغاية مطلقاً أى مكاناً وزماناً ، وغيرهما . نحو : (من المسجد الحرام)[٥] و (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم)[٦] . وخصصها البصريون والأخفش ، والمبرد ، وابن درستويه بالمكان ، وأنكروا ورودها للزمان . قال ابن مالك ، وغير مذهبهم هو الصحيح لصحة السماع بذلك . قال أبو حيان : لكثرة ذلك فى كلام العرب نظماً ونثراً ، وتأويل ما كثر ليس بجيد»[٧] .

---

(١) الهمع جـ ١ ص : ١٦٥ .
(٢) انظر رسالة الماجستير ص : ٢٦١ (عبد العال سالم) .
(٣) سورة طه آية : ٧٢ .
(٤) همع الهوامع : جـ ١ ص : ٩٠ .
(٥) سورة الإسراء آية : ١ .
(٦) سورة التوبة : آية : ١٠٨ .
(٧) الهمع جـ ٢ ص : ٣٤ .

٣ – ويستند إلى القرآن الكريم فى نقضه لدليل ابن مالك الذى ذكره بشأن « أدرى » حيث جعلها بمعنى أعلم ، وعلقت عن العمل فى قوله تعالى : (وما أدراك ما يوم الدين)[١] .

قال أبو حيان فى التذييل والتكميل : « المصنف جعل من تعليق أدرى بمعنى أعلم قوله تعالى : (وما أدراك ما يوم الدين) .

قال : لا حجة له فى ذلك ، لأن الأكثر فى كلام العرب تعدية (درى) بحرف جر ، تقول : دريت به ، والأقل تضمنها معنى علم فتقوم : دريت زيداً قائماً كما تقول : علمت زيداً قائماً ، وعلى هذا إذا دخلت عليها همزة التعدية تعدت إلى واحد بنفسها وإلى آخر بحرف جر ، لأن الأكثر فيها قبل دخول الهمزة أن تتعدى بحرف جر ، فوجب الحمل بعد دخول الهمزة على ما هو الأكثر منها .

ودليل ذلك قوله تعالى : (ولا أدراكم به)[٢] . وإذا كان كذلك فقوله تعالى : (وما أدراك ما يوم الدين) ليس (ما يوم الدين) سادًّا مسد المفعولين فيكون بمنزلة أعلم فى ذلك ، وإنما سدت مسد المفعول الذى يتعدى إليه بحرف الجر ، فهى جملة فى موضع نصب نائبة عن مفعول واحد ، أصله بحرف الجر »[٣] .

٤ – ويستدل بالقرآن رادًّا على من زعم أن كيف يجزم بها :

قال : مِنْ حَيْثُ عَمِل الجزْم ، فليس فيه تصريح بذلك ، وقد منع من ذلك البصريون إلا « قطرباً » .

قال سيبويه : وسألت الخليل عن قوله : كيف تصنع أصنع ؟ قال : هى مستكرهة وليست من حروف الجزاء ، ومخرجها عن الجزاء ، لأن معناها على أى حال تكن أكن .

والصحيح أن الجزم بها لا يجوز ، لأنه إحداث لغة ، ولا يجوز إحداث

---

(١) سورة الإنفطار آية : ١٧ .
(٢) سورة يونس آية : ١٦ .
(٣) التذييل والتكميل : أبو حيان جـ ٢ ص : ١١١ مخطوط رقم ٦٢ نحو – دار الكتب .

اللغات وقد بينا ارتفاع الفعل بعدها فى نحو قوله تعالى : (ينفق كيف يشاء)[١] فلا يجوز الجزم إلا بسماع . ومن أجازه صرح بأنه إنما أجاز ذلك قياساً ، وينبغى أيضاً ألا يجوز المجازاة من حيث المعنى إلا أن ثبت ذلك من لسان العرب كثيراً بحيث يصير قانوناً كلياً يبنى على مثاله القواعد[٢] .

٥ — ويلجأ أبو حيان إلى التأويل والتخريج جرياً وراء مذهب البصريين : قال فى (الهمع) اختلف النحاة فى الرّجاء، هل له جواب ، فينتصب الفعل بعد الفاء جواباً له ؟ .

فذهب البصريون إلى أن الترجّى فى حكم الواجب ، وأنه لا ينصب الفعل بعد الفاء جواباً له .

وذهب الكوفيون إلى جواز ذلك ، قال ابن مالك : وهو الصحيح لثبوته فى النظم والنثر ، قال تعالى : (وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى)[٣].

وقال : (لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلعَ)[٤] فى قراءة من نصب فيهما . قال أبو حيان : يمكن تأويل الآيتين بأن النصب فيهما من العطف على التوهم لأن خبر لعل كثر فى لسان العرب دخول أن عليه[٥] .

٦ — وينقد ابن مالك بناء على نصوص النحويين ، وتضافر المعربين ، وذلك أن ابن مالك « يشترط لصحة العطف صلاحية المعطوف ، أو ما هو بمعناه لمباشرة العامل . فالأول نحو قام وزيد وعمرو ، والثانى فى نحو قام زيد وأنا ، فإنه لا يصلح قام أنا ، ولكن يصلح قمت ، والتاء بمعنى أنا ، فإن لم يصلح هو أو ما بمعناه لمباشرة العامل أضمر له عامل يلائمه ، وجعل من عطف الجمل وذلك كالمعطوف على الضمير المرفوع بالمضارع ذى الهمزة ، أو النون ، أو تاء المخاطبة ، أو بفعل الأمر نحو أقوم أنا وزيد ونقوم نحن وزيد و (اسكن أنت وزوجك)[٦]

---

(١) سورة المائدة آية : ٦٤ .
(٢) التذييل التكميل جـ ٥ ص : ١٣٤ مخطوط رقم ٦٢ نحو — دار الكتب .
(٣) سورة عبس آية : ٣ ، ٤ .
(٤) سورة غافر آية : ٣٦ ، ٣٧ .
(٥) الهمع : جـ ٢ ص : ١٢ .
(٦) سورة البقرة آية : ٣٥ .

أى وليسكن زوجك ، وكذلك باقيها وكذلك المضارع المفتتح بتاء التأنيث نحو (لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده)[١].

قال الشيخ أبو حيان : وما ذهب إليه مخالف لما تضافرتْ عليه نصوص النحويين والمعربين من أن زوجك معطوف على الضمير المستكن فى أسكن ، المؤكد بأنت[٢] .

٧ — ويمنع القياس على القرآن الكريم فى جعل (لمَّا) بمعنى إلاَّ :

«قال أبو حيان : تكون لما بمعنى إلا ، وهى قليلة الدور فى كلام العرب وينبغى ألا يتسع فيها ، بل يقتصر على التركيب الذى وقع فى كلام العرب نحو قوله تعالى : (إنْ كل نفس لما عليها حافظ)[٣] ، (وإن كل لما جميع لدينا محضرون)[٤] فى قراءة من شدد الميم فإن نافية ، ولمَّا بمعنى إلاَّ . . .

قال أبوحيان : ينبغى أن يتوقف فى إجازة هذه التراكيب ، ونحوها حتى يثبت سماعها ، أو سماع نظائرها من لسان العرب »[٥].

٨ — ويرى فى قوله تعالى :(ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم)[٦]. أنه يصح أن يكون (اعبدوا) تفسيراً لأمرتنى الملفوظ به ، على أن تكون (ربِّى وربكم) من كلام عيسى على إضمار فعل أى أعنى ربِّى وربكم ، لا على أنها من جملة اعبدوا ، ورد اختيار الزمخشرى أنها تفسيرية لقلت :

قال السفاقسى جواب الشيخ — يقصد أبا حيان — فيه خروج عن الظاهر باقتطاع ربى ، وربكم من جملة اعبدوا وجعله على إضمار فعل[٧] .

٩ — ويرد على ابن مالك فى جعله (هل) بمعنى (قد) وينقد منهجه فى هذه القاعدة قال أبو حيان: «وما ذكر هذا المصنف وغيره من أن (هل) ترادف (قد) لم يقم على ذلك دليل واضح ، إنما هو شىء قاله المفسرون فى قوله تعالى :

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٣٣ .
(٢) شرح الأشمونى جـ ٣ ص : ١٢١ ط الحلبى .
(٣) سورة الطارق آية : ٤ .
(٤) سورة يس آية : ٣٢ .
(٥) الهمع جـ ١ ص : ٢٣٦ .
(٦) سورة المائدة آية : ١١٧ .
(٧) إعراب القرآن للسفاقسى الجزء الأول مخطوط رقم ٢٢٢ — تفسير دار الكتب .

(هل أتى على الإنسان)[١] أن معناه قد أتى ، وهذا تفسير معنى لا تفسير إعراب ولا يرجع إليهم فى مثل هذا إنما يرجع فى ذلك إلى أئمة النحو واللغة لا إلى المفسرين[٢].

١٠ – ولا يعتد برأى ابن مالك لأنه رأىٌ كوفىٌّ فى جعله مِنْ بمعنى الباء قال ناظر الجيش : « وقد عرفت أن المصنف استشهد على ذلك بقوله تعالى : (ينظرون من طرف خفى)[٣] وأنه نقله عن الأخفش عن يونس . . . قال الشيخ : وهو قول كوفى . قال : ويحتمل أن تكون مِنْ فى الآية الشريفة لابتداء الغاية ، أى ابتداء نظرهم من طرف خفى »[٤] .

١١ – وينقد غير المصنف فى جعله مِنْ بمعنى فى مبيناً أنه قول كوفى أيضاً وكأنه فى نظره ما دام كوفياً فإنه يحمل دليل الضعف معه .

قال ناظر الجيش : استدل غير المصنف على ذلك بقوله تعالى : (أرونى ماذا خلقوا من الأرض) [٥] أى فى الأرض . قال الشيخ – أبو حيان – هذا قول كوفى أيضاً . . وأما الآية الشريفة فيحتمل أن تكون من فيها لابتداء الغاية ، أى ماذا خلقوا من الأرض ، أى ماذا أوجدوه فيها[٦] . . .

(٣) ابن مالك

ابن مالك أندلسى الأصل هاجر إلى المشرق فى ريعان شبابه ، لأن كتب التاريخ تقرر أن من شيوخ ابن مالك فى المشرق أبا المفضل نجم الدين مكرم بن محمد القرشى ، وأبا صادق الحسن بن صباح ، وقد توفى أبو المفضل سنة ٦٣٥[٧]هـ، وتوفى أبو صادق سنة ٦٣٢[٨]هـ .

ومعنى ذلك أن ابن مالك المولود فى نهاية القرن السادس ، أو فى مفتتح القرن السابع ، قد هاجر إلى المشرق ، وأخذ عن هذين الشيخين اللذين توفيا وهو فى نهاية العقد الثالث من عمره . أى أن ابن مالك لم يهاجر شيخاً كبيراً أو حدثاً

(١) سورة الإنسان : آية ١ .
(٢) تمهيد القواعد : ناظر الجيش جـ ٥ ص : ١٩٢ مخطوط رقم ٣٤٩ نحو – دار الكتب .
(٣) سورة الشورى آية : ٤٥ .
(٤) تمهيد القواعد جـ ٣ ص : ١٧٨ .
(٥) سورة الأحقاف آية : ٤ .
(٦) تمهيد القواعد جـ ٣ ص : ١٧٨ .
(٧) شذرات الذهب جـ ٥ ص : ١٧٤ ط سنة ١٣٥١ هـ .
(٨) المصدر السابق ص : ١٤٨ .

صغيراً إلى المشرق ، وإنما هاجر وقد اكتملت فيه الرجولة ، وبلغ أشده[١] وقد ولى ابن مالك عدة مناصب مختلفة ، تولى فيها تعليم العربية ، فى حلب كان إمام المدرسة السلطانية[٢] ، وفى حماة تصدر مدة[٣]، وفى دمشق تولى مشيخة العادلية الكبرى التى من شرطها القراءات والعربية[٤] .

وقد لفتت مكانة ابن مالك فى العربية أنظار الدارسين ، فقد كان رحمه الله أسطع نجم لمع فى سماء العلم فى القرن السابع الهجرى .

وقد وصلت مكانته فى نفوس معاصريه أن شمس الدين بن خلكان قاضى القضاة كان إذا صلى ابن مالك فى العادلية ، وكان إمامها ، يشيعه تعظيما له[٥] .

ولما مات ابن مالك تأسف تاج الدين عبد الرحمن الفزارى تأسفاً كثيراً فقيل له : أكان الشيخ جمال الدين فى النحو مثلك فى الفقه ، فقال : والله ما أنصفتموه وكان فى النحو مثل الشافعى فى الفقه[٦] .

وكان لابن مالك منهج فى الدراسات النحوية ، صنفه بنفسه ، ولم يقلد أحداً ممن سبقه ، لأنه كان يكره التقليد ، ولم يكن شأنه شأن أبى حيان الذى طالما جرى على سنن البصريين فى كثير من المسائل .

أما منهجه فقد بينه المقّرى فقال : «كان أكثر ما يستشهد بالقرآن فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى الحديث ، وإن لم يكن فيه عدل إلى أشعار العرب»[٧] .

طائفة من آرائه :

١ — (إذا) تدخل على الجمل الاسمية وتضاف إليها :

ألزم النحاة إضافة إذا الظرفية إلى جمل الأفعال مثل : (إذا جاء نصر الله)[٨]

---

(١) المدرسة النحوية فى مصر والشام ص : ١١٩ بحث مخطوط (عبد العال سالم) .
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٣ ص : ١٤٠ جرجى زيدان . مطبعة الهلال .
(٣) نفح الطيب جـ ٢ ص : ٤٢٨ تحقيق محيى الدين .
(٤) غاية النهاية لابن الجزرى جـ ٢ ص : ١٨٠ .
(٥) البغية ص : ٥٥ .
(٦) تاريخ ابن الوردى جـ ٢ ص : ٣٢٢ . المطبعة الوهبية .
(٧) نفح الطيب جـ ٢ ص : ٤٢٢ تحقيق محيى الدين .
(٨) سورة النصر آية : ١ .

فإذا ظرف فيه معنى الشرط ، مضاف إلى الجملة بعده والعامل فيه جوابه على المشهور .

وأما نحو: (إذا السماء انشقت)[1] فمثل : (وإن أحد من المشركين استجارك)[2] وقوله[3] :

إذا باهلى تحته حنظلية له ولد منها ، فذاك المذرع[4]

فعلى إضمار كان الشأنية كما أضمرت هى واسمها فى ضمير الشأن فى قوله :

... ... فهلا نفس ليلى شفيعها[5]

هذا مذهب سيبويه . وأجاز الأخفش إضافتها إلى الجمل تمسكاً بظاهر ما سبق واختاره ابن مالك فى شرح التسهيل[6] .

٢ — وسبق حال ما بحرف جُرّ قد أبوا ، ولا أمنعه فقد ورد

قال الأشمونى : يمنع أكثر النحويين تقديم الحال على صاحبها المجرور بالحرف فلا يجيزون فى نحو : مررت بهند جالسة ، مررت جالسة بهند ، وعللوا منع ذلك بأن تعلق العامل بالحال ثان لتعلقه بصاحبه ، فحقه إذا تعدى لصاحبه بواسطة أن يتعدى إليه بتلك الواسطة ، لكن منع من ذلك أن الفعل لا يتعدى بحرف الجر إلى شيئين ، فجعلوا عوضاً من الاشتراك فى الواسطة التزام التأخير ، والناظم — يجيز ذلك ، وفاقاً لأبى على ، لأن المجرور بالحرف مفعول به فى المعنى ، فلا يمتنع تقديم حاله عليه ، كما لا يمتنع تقديم حال المفعول به ، وقد ورد السماع به . من ذلك قوله تعالى : (وما أرسلناك إلا كافة للناس)[7][8] .

٣ — يؤيد الكوفيين فى نصب الفعل المضارع الواقع بعد الفاء فى جواب الترجى لأن القرآن ورد بذلك .

---

(١) سورة الانشقاق آية : ١ .

(٢) سورة التوبة آية : ٦ .

(٣) المراد ، وأما قوله .

(٤) للفرزدق ، الباهلى نسبة إلى باهلة قبيلة من قيس غيلان . المذرع هو الذى أمه أشرف من أبيه (شواهد العينى ، هامش شرح الأشمونى ص : ٢٥٨) .

(٥) صدره : ونبئت ليلى أرسلت بشفاعة إلى . . فهلا . . . قاله قيس بن الملوح وقيل ابن الدمينة .

(٦) شرح الأشمونى ج ٢ ص : ٢٥٩ .

(٧) سورة سبأ آية : ٢٨ .

(٨) شرح الأشمونى ج ٢ ص : ١٧٦ .

قال الأشمونى : اختلف النحاة فى الرجاء . هل له جواب ، فينصب الفعل بعد الفاء جوابًا له . فذهب البصريون إلى أن الترجى فى حكم الواجب ، وأنه لا ينصب الفعل بعد الفاء جوابًا له .

وذهب الكوفيون إلى جواز ذلك : قال ابن مالك : وهو الصحيح لثبوته قال تعالى : (وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعَه الذكرى)(١) . وقال تعالى : (لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فاطلعَ) (٢) فى قراءة من نصب فيهما(٣) .

٤ — ويمثل من القرآن الكريم فى جواز عطف عامل حذف ، وبقى معموله على عامل ظاهر يجمعهما معنى واحد . بقوله تعالى : (والذين تبوءوا الدار والإيمان)(٤) أصله كما يقول ابن مالك : واعتقدوا الإيمان فاستغنى بمفعوله عنه لأن فيه وفى تبوءوا معنى لازموا وألفوا(٥) .

٥ — ويوافق يونس والفراء فى أن الذى قد يقع موصولا حرفيًّا ، ويخرج بعض الآيات عليه .

قال السيوطى فى الهمع : وذهب يونس ، والفراء ، وابن مالك إلى أن الذى قد يقع موصولا حرفيًّا ، فيؤول بالمصدر ، وخرجوا عليه : (وخضتم كالذى خاضوا)(٦) أى كخوضهم ، والجمهور منعوا ذلك ، وأوّلوا الآية أى كالجمع الذى خاضوا(٧) .

٦ — ويصحّح مذهب ابن السراج بالقرآن الكريم :

قال السيوطى فى باب «كان» : اختلف فى وجوب تأخير الخبر هنا إذا كان جملة على أقوال : أحدها يجب مطلقًا ، ولا يجوز تقديمه ولا توسيطه سواء كانت اسمية نحو : كان زيد أبوه قائم أم فعلية رافعة ضمير الاسم نحو كان زيد

---

(١) سورة عبس آية : ٣ ، ٤ .
(٢) سورة غافر آية : ٣٦ ، ٣٧ .
(٣) همع الهوامع ج ٢ ص : ١٢ .
(٤) سورة الحشر آية : ٩ .
(٥) همع الهوامع ج ٢ ص : ١٣٠
(٦) سورة التوبة آية : ٦٩ .
(٧) همع الهوامع للسيوطى ج ١ ص : ٨٣ .

يقوم ، أم غير رافعة نحو كان زيد يمر به عمرو . ومستند المنع فى ذلك عدم سماعه .

والثانى : لا مطلقًا ، فيجوز التقديم والتوسط . وذكر ابن السراج : أنه القياس : وإن لم يسمع ، وصححه ابن مالك .

قال : ويدل لجوازه مع كان تقديم معموله فى قوله تعالى : (أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) [١] ، (وأنفسهم كانوا يظلمون) [٢] . وتقديم المعمول يؤذن بتقديم العامل [٣] .

٧ ــ وفى الأفعال التى تنصب ثلاثة مفاعيل يزيد ابن مالك فعلا جديداً معتمداً على القرآن الكريم .

قال السيوطى : وزاد ابن مالك رأى الحلميَّة كقوله تعالى : (إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ، ولو أراكهم كثيراً) [٤] [٥] .

٨ ــ ويستدل على أنّ إذ الظرفية تقع للاستقبال بالقرآن الكريم :

قال السيوطى : من الظروف المبنية إذ ، والدليل على اسميتها قبولها التنوين والإخبار بها نحو مجيئك إذ جاء زيد، والإضافة إليها بلا تأويل نحو :(بعد إذ هديتنا) [٦] وبنيت لافتقارها إلى ما بعدها من الجمل ، ولوضعها على حرفين ، وأصل وضعها أن تكون ظرفًا للوقت الماضى .

وهل تقع للاستقبال ؟ قال الجمهور : لا . وقال جماعة منهم ابن مالك ؟ نعم . واستدلوا بقوله تعالى : (يومئذ تحدث أخبارها) [٧] [٨] .

٩ ــ ويرد على البصريين الذين يقولون : إن السين وسوف كلاهما للتنفيس غير أنهم يفرقون بين السين وسوف ، ويقولون : إن الزمان مع السين أضيق منه مع سوف نظراً إلى أن كثرة الحروف ، تفيد مبالغة فى المعنى . قال السيوطى :

---

(١) سورة سبأ آية : ٤٠ .
(٢) سورة الأعراف آية : ١٧٧ .
(٣) الهمع جـ ١ ص : ١١٨ .
(٤) سورة الأنفال آية : ٤٣ .
(٥) همع الهوامع جـ ١ ص : ١٥٩ .
(٦) سورة آل عمران آية : ٨ .
(٧) سورة الزلزلة آية : ٤ .
(٨) همع الهوامع جـ ١ ص : ٢٠٤ .

ورده ابن مالك بتعاقبهما على المعنى الواحد فى الوقت الواحد ، قال تعالى : (وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيماً)[١] ، (أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً)[٢] ، (كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون)[٣][٤] .

١٠ — ويتأثر بأبى على الفارسى ، فيقتدى به ، ويزيد فى بعض القواعد شروطًا جديدة ، اعتماداً على تخريج لأبى على فى (الإغفال) .

قال السيوطى : «وقيد ابن مالك الاستفهام بكونه لا يتضمن وقوع الفعل ، فإن تضمنه لم يجز النصب نحو: لم ضربت زيداً فيجازيك لأن الضرب قد وقع .

قال أبو حيان : وهذا الشرط لم أر أحداً يشترطه ، وقال بدر الدين بن مالك : إن أباه اقتدى فى هذه المسألة بما ذكره أبو على فى الإغفال رداً على الزجاج حيث قال فى قوله تعالى : (لِمَ تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق) [٥] لو قال : وتكتموا الحق لجاز على معنى لِمَ تجمعون بين ذا ، وذا ولكن الذى فى القرآن أجود فى الإعراب» [٦] .

١١ — ويختار فى الفعل الناسخ ، إذا كان عاملا فى الضميرين الاتصال لأن التنزيل ورد به ، على حين يختار البصريون الفصل .

يقول الشيخ خالد فى التصريح : « وإن كان العامل فى الضميرين فعلا ناسخًا من باب ظن نحو خلتنيه ، فالأرجح عند الجمهور الفصل ، لأنه خبر فى الأصل ، وحقه الفصل قبل وجود الناسخ فيترجح بعده ، وهو المراد بقول الناظم : « غيرى اختار الانفصالا » ، ثم قال الشيخ خالد : والأرجح عند الناظم والرمانى وابن الطراوة الوصل ؛ وقد صرح بذلك فى النظم ، فقال : « واتصالا أختار » ، وحجته أن الأصل الاتصال ، وقد أمكن ، وجاء به التنزيل قال الله تعالى : (إذ يريكم الله)[٧] [٨] .

١٢ — ويثبت للباء معنى التبعيض ، فيقول التصريح : « أثبته الأصمعى

---

(١) سورة النساء آية : ١٤٦ .
(٢) سورة النساء آية : ١٦٢ .
(٣) سورة النبأ آية : ٤ .
(٤) الهمع ج ٢ ص : ٧٢ .
(٥) سورة آل عمران آية : ٧١ .
(٦) همع الهوامع ج ٢ ص : ١١ .
(٧) سورة الأنفال آية : ٤٣ .
(٨) شرح التصريح ج ١ ص : ١٠٨ .

والفارسى والقتبى ، وابن مالك ، قيل والكوفيون ، وجعلوا منه نحو : (عيناً يشرب بها عباد الله)(١) أى منها (وامسحوا برءوسكم)(٢) وعليه بنى الشافعى مذهبه فى مسح بعض الرأس فى الوضوء لما قام عنده من الأدلة»(٣) .

١٣ — ويوافق الأخفش على أن(من) تزاد مطلقاً فى الواجب وغيره ، وفى المعرفة والنكرة .

قال يس فى حاشيته : [رأيت فى بعض شروح ألفية ابن معط ما نصه : «وذهب الأخفش ووافقه ابن مالك إلى أن من تزاد مطلقاً فى الواجب وغيره ، وفى المعرفة والنكرة ، واستدلوا على مذهبه بظواهر من القرآن . . .

فمن ذلك قوله تعالى : (ولقد جاءك من نبأ المرسلين)(٤) قيل : من فيه زائدة فى الفاعل ، أى ولقد جاءك نبأ المرسلين»](٥) .

١٤ — ويقرر أن من بمعنى الباء ، لأن القرآن الكريم ورد به ، ويناقشه أبو حيان فى ذلك .

قال ناظر الجيش : « المصنف استشهد على ذلك بقوله تعالى : (ينظرون من طرف خفىٍّ)(٦) .

ثم قال : قال الشيخ — والشيخ أبو حيان — : وهو قول كوفى ، ويحتمل أن تكون من فى الآية الشريفة لابتداء الغاية ، أى ابتداء نظرهم هو من طرف خفى(٧) .

١٥ — ويستدل على أن هل ترادف قد ، فى قوله تعالى : (هل أتى على الإنسان)(٨) قال أبو حيان : « وما ذكر هذا المصنف وغيره من أن هل ترادف قد لا يقوم على ذلك دليل واضح ، إنما هو شىء قاله المفسرون فى قوله تعالى : (هل أتى على الإنسان) أن معناه (قد أتى) وهذا تفسير معنى لا تفسير إعراب ، ولا يرجع إليهم فى مثل هذا ، إنما يرجع فى ذلك إلى أئمة النحو واللغة ، لا إلى المفسرين»(٩) .

---

(١) سورة الإنسان آية : ٥ .
(٢) سورة المائدة آية : ٦ .
(٣) شرح التصريح جـ ٢ ص : ١٣ .
(٤) سورة الأنعام آية : ٣٤ .
(٥) شرح التصريح جـ ٢ ص : ١١٨ .
(٦) سورة الشورى آية : ٤٥ .
(٧) تمهيد القواعد جـ ٣ ص : ١٧٨ مخطوط .
(٨) سورة الإنسان آية : ١ .
(٩) تمهيد القواعد جـ ٥ ص : ١٩٢ مخطوط .

١٦ — ويخالف بعض القواعد التى وضعها بناء على توجيه نحوى فى بعض الآيات، قال الشيخ خالد فى التصريح : وليس منه أى من المختص بالوصف قوله تعالى : (فيها يفرق كل أمر حكيم)[١] خلافاً للناظم فى شرح التسهيل ، وابنه فى شرح النظم ، فإنهما أعربا (أمراً) المنصوب حالا من (أمر) المجرور بالإضافة لكونه مختصاً بالوصف بحكيم مع قولهما : إنه لا يأتى الحال من المضاف إليه إلا بشرط أن يكون المضاف بعض المضاف إليه أو كبعضه . أوعاملا فى الحال ، وذلك مفقود هنا [٢] .

١٧ — ولا يلجأ إلى التأويل فيما نَدّ عن القاعدة ، وإنما يصفه بالقلة ، وذلك فى دخول لام الابتداء على المستقبل .

قال السيوطى : زعم ابن أبى الربيع وابن مالك أن لام الابتداء توجد مع المستقبل قليلا نحو : (وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة)[٣] (إنى ليحزننى أن تذهبوا به)[٤] . . فيحزن مستقبل لإسناده إلى متوقع .

وقال أبو على : لا توجد إلا مع الحال ، وهذه حكاية حال ، يعنى الآية الأولى ، وأوّل بعضهم الثانية على حذف مضاف ، تقديره نيتكم أو قصدكم أن تذهبوا به[٥] .

١٨ — ويعتمد على القرآن الكريم فى أن « فى » تستعمل بمعنى التعليل . قال ابن مالك موجهاً الحديث الشريف : « عذبت امرأة فى هرة حبستها حتى ماتت ، فدخلت فيها النار » — تضمن هذا الحديث استعمال (فى) دالة على التعليل ، وهو ما خفى على أكثر النحويين مع وروده فى القرآن العزيز . ثم قال : فمن الوارد فى القرآن العظيم ، قوله تعالى : (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم)[٦] .

وقوله تعالى : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة [٧] لمسكم

---

(١) الدخان : آية ٤ .
(٢) شرح التصريح جـ ١ ص ٣٧٦
(٣) النحل : آية ١٢٤ .
(٤) يوسف : آية ١٣ .
(٥) الهمع جـ ١ ص ٨ .
(٦) الأنفال : آية ٦٨ .
(٧) النور : آية ١٤ .

فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) (١) .

١٩ ــ ويهدم القاعدة المشهورة التى تقول : إن (يا) التى تليها ليت حرف نداء ، والمنادى محذوف ــ بالقرآن الكريم فيقول :

يظن أكثر الناس أن يا التى تليها ليت حرف نداء ، والمنادى محذوف فتقدير قول ورقة: «يا ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك»[٢] ، على هذا : يا محمد ليتنى كنت حيًّا .

وتقدير قوله تعالى : (يا ليتنى كنت معهم)[٣] : يا قوم ليتنى كنت معهم .
وهذا الرأى عندى ضعيف ، لأن قائل يا ليتنى قد يكون وحده فلا يكون معه منادى ثابت ولا محذوف كقول مريم عليها السلام: (يا ليتنى مت قبل هذا)[٤] .

ولأن الشيء إنما يجوز حذفه مع صحة المعنى بدونه، إذا كان الموضع الذى ادّعى فيه حذفه مستعملا فيه ثبوته ، كحذف المنادى قبل أمر أو دعاء ، فإنه يجوز حذفه لكثرة ثبوته ، فإن الآمر والداعى يحتاجان إلى توكيد اسم المأمور ، والمدعوّ به بتقديمه على الأمر والدعاء ، واستعمل ذلك كثيراً حتى صار موضعًا منبهًا عليه ، إذا حذف ، فحسن حذفه لذلك فمن ثبوته قبل الأمر : (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة)[٥] . (يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى)[٦] ، (يا بنىّ أقم الصلاة)[٧] إلخ .

ومن ثبوته قبل الدعاء : (يا موسى ادع لنا ربك)[٨] (يا أبانا استغفر لنا)[٩] و (يامالك ليقض علينا ربك)[١٠] .

ومن حذف المنادى المأمور قوله تعالى فى قراءة الكسائى : (ألا يسجدوا)[١١].

---

(١) شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح : ابن مالك . تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقى ص ٦٨ مطبعة : لجنة البيان العربى .
(٢) حديث شريف : أخرجه البخارى : كتاب بدء الوحى .
(٣) النساء : آية ٧٢ .
(٤) مريم : آية ٢٣ .
(٥) البقرة : آية ٣٥ .
(٦) البقرة : آية ١٢٣ .
(٧) لقمان : آية ١٧ .
(٨) الأعراف : آية ١٣٤ .
(٩) يوسف : آية ٩٧ .
(١٠) الزخرف : آية ٧٧ .
(١١) النمل : آية ٢٥ .

أراد : ألا يا هؤلاء اسجدوا ، فحسن حذف المنادى قبل الأمر والدعاء اعتياد ثبوته فى محل ادعاء الحذف بخلاف ليت ، فإن المنادى لم تستعمله العرب قبلها ثابتاً ، فادعاء حذفه باطل لخلوه من الدليل [١] .

٢٠ — ويوافق الكوفيين فى حذف الموصول لدلالة صلته عليه ، لأن القرآن ورد بذلك يقول : قال الأخفش : (وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيماً ، وملكاً كبيراً)[٢] أن أصله ؛ وإذا رأيت ما ثَمَّ .

وحذف الموصول لدلالة صلته عليه مما انفرد به الكوفيون ، ووافقهم الأخفش وهم فى ذلك مصيبون . ومن دلائل إصابتهم قوله تعالى : : (وقولوا آمنَّا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم) [٣] والأصل بالذى أنزل إلينا ، والذى أنزل إليكم ، لأن الذى أنزل إلينا ليس هو الذى أنزل إلى من قبلنا ، ولذلك أعيدت (ما) بعد (ما)فى قوله تعالى: (قولوا آمنا باللهوما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم)[٤][٥] .

(٤) ابن هشام

هو عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصارى المصرى[٦] ، وكنيته أبو محمد ، ولقبه جمال الدين[٧] .

ولد فى القاهرة فى شهر ذى القعدة سنة ٧٠٨ هـ أى فى أوائل القرن الثامن الهجرى[٨] .

وقد نشأ ابن هشام فى القاهرة ، وقد كانت القاهرة إذ ذاك مهد الحضارة ، وقبلة الفكر والثقافة .

وقد تأثر ابن هشام فى دراسته النحوية برجلين : أحدهما « ابن المرحل »

---

(١) شواهد التوضيح والتصحيح ص : ٤ ، ٥ ، ٦ .
(٢) سورة الإنسان : آية ٢٠ .
(٣) العنكبوت : آية ٤٦ .
(٤) البقرة : آية ١٣٦ .
(٥) شواهد التوضيح ص ٧٦ .
(٦) البغية ص ٢٩٣ .
(٧) حسن المحاضرة : السيوطى ج ١ ص ٣٠٩ المطبعة الشرقية سنة ١٣٢٧ هـ .
(٨) حاشية الأمير على المغنى ج ١ ص ٢ ، مطبعة الحلبى .

الذى كان ينوه به ، وبفضله على أبى حيان ، وكان يقول عنه : « كان الاسم فى زمانه لأبى حيان ، والانتفاع بابن المرحل » [١].

وثانيهما : أبو حيان الذى كان ابن هشام ينحرف عنه ، وينقده . وعلى الرغم من أن ابن حجر أنكر تأثر ابن هشام بأبى حيان فى مجال الدراسة النحوية ، لأنه لم يسمع عليه « غير ديوان زهير بن أبى سلمى ، ولم يلازمه ولا قرأ عليه غيره »[٢] ، فإن الباحث يرى أن هذا القول لا يقبل جملة ، لأن ابن مالك شيخ مدرسة النحو فى مصر تأثر به ابن هشام تأثراً كبيراً ، لدرجة أنه شرح الألفية فى كتابه المسمى ، أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك » [٣] .

وكتب ابن مالك كانت مدرسة قائمة بذاتها ، دعم أصولها ، ووضح غامضها ، وذلل مصاعبها أبو حيان بألوان الدراسات التى قام بها ، والتى كانت تتمثل فى شرحه لهذه الكتب كشرحه للألفية ، والذى سماه : « منهج السالك فى الكلام على ألفية ابن مالك » [٤] وكشرحه للتسهيل الذى سماه : « التذييل والتكميل » أورد فيه اعتراضات على المصنف ، ثم جرد أحكام هذا الشرح فى ارتشافه[٥] .

ولم يقتصر أبو حيان على مجهوده فى التأليف فى محيط كتب ابن مالك فحسب بل كان يتولى بنفسه فى دروسه شرح هذه الكتب ، وحل غامضها ، وقد قال عنه الصفدى أنه لما جلس مجلس الأستاذ « التزم أن لا يقرئ أحداً إلا إن كان فى كتاب سيبويه ، أو التسهيل لابن مالك أو فى تضانيفه »[٦] ومن هنا صح للسيوطى أن يقول : « هو الذى جسّر الناس على مصنفات ابن مالك ، ورغبهم فى قراءتها ، وشرح لهم غامضها ، وخاض بهم لججها » [٧] .

ومن غير شك ، فقد عاش ابن هشام فى هذه المدرسة النحوية ، وتأثر بها

---

(١) الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٤٠٧ : ابن حجر العسقلانى ط أولى . طبع الهند .
(٢) المرجع السابق ص ٤٠٧ .
(٣) شرح التصريح على التوضيح جـ ١ ص ١٤ ، ١٥ .
(٤) كشف الظنون جـ ١ نهر ١٥١ وما بعده .
(٥) كشف الظنون جـ ١ نهر ٤٠٦ .
(٦) نكت الهميان جـ ١ ص ٢٨٠ .
(٧) البغية — ١٢٢ .

سواء جلس فى مجلس أبى حيان لأخذ النحو عنه ، أم لم يجلس فى مجلسه لأن شروح أبى حيان كانت مفتاحاً لكتب ابن مالك ، وأكبر الظن أن ابن هشام تخرج فى نحوه على هذه الشروح ويشير إلى هذا التأثر شرحه للألفية الذى سمّاه : «أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك» فإنه تأثر فيه بأبى حيان حتى فى التسمية فقد سبقه أبو حيان بكتابه فى شرح الألفية المسمى « منهج السالك فى الكلام على ألفية ابن مالك » .

على كل حال إن انحراف ابن هشام عن أبى حيان ، وكثرة مخالفته له يدل على أن أبا حيان فى نظره ، كبير فى قدره ، عظيم فى علمه ، علم يشار إليه فى مجال الدراسة النحوية : « وكثيراً ما ينافس الرجل من كان قبله فى رتبته التى صار إليها إظهاراً بفضل نفسه بالاقتدار على مزاحمة مَن كان قبله ، أو بالتمكن من البلوغ إلى ما لم يبلغ إليه[1] .

هذا، ومنزلة ابن هشام فى النحو منزلة المجتهدين ، بل إنه كان خاتمة المجتهدين الذين جعلوا من النحو فناً يقوم على الدقة والبحث ، والمناقشة والاستنباط ؛ مما دعا ابن خلدون المغربى يقول عنه : «ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له : ابن هشام أنحى من سيبويه »[2] .

وقد أشارت إلى هذه المقدرة عبارات المؤرخين ، فقالوا عنه :

« انفرد بالفوائد الغريبة ، والمباحث الدقيقة ، والاستدراكات العجيبة ، والتحرّى البالغ ، والاطلاع المفرط ، والاقتدار على التصرف فى الكلام والملكة التى كان يتمكن بها من التعبير عن مقصوده بما يريد مسهباً وموجزاً » [3] .

---

(١) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع جـ ١ ص ٤٠١ القاضى : محمد بن على الشوكانى . مطبعة السعادة : ط أولى سنة ١٣٤٨ هـ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٣٢ . مطبعة مصطفى محمد .

(٣) الدرر الكامنة جـ ٢ ص ٣٠٩ .

تأثر ابن هشام فى بحوثه النحوية بالقرآن الكريم

يعتبر ابن هشام أول نحوى أكثر من التعرض للآيات القرآنية الكريمة وجعلها محور إعراب ، وميدان تدريب ، ومجال تأويل وتخريج .

والناظر لكتبه العديدة يجد أنه لا يخلو باب من أبواب النحو فيها من عرض الكثير من الآيات القرآنية مؤيداً بها وجهة نظره ،أو مدعماً بها قاعدة ، أو مستعملا لها فى قياس يقوى ، أو فى أصل يسند ، أو محاولا تأويلها ، وتخريجها لتتفق مع الأصول التى يراها ، والوجهات النحوية التى يعتقدها . كل ذلك ظاهر بيّن فى هذه الكتب ، وإليك الدليل :

طائفة من آرائه :

١ ــ يستدل على أن الإسناد إلى الاسم أنفع العلامات التى يتميز بها قال : « وهذه العلامة [الإسناد إليه] هى أنفع علامات الاسم وبها تعرف اسمية (ما) فى قوله تعالى : (قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة)[١] . . . (ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق)[٢] . ألا ترى أنها قد أسند إليها الأخيرية فى الآية الأولى ، والنفاد فى الآية الثانية ، والبقاء فى الثالثة ، فلهذا حكم بأنها فيهن اسم موصول بمعنى الذى»[٣] .

٢ ــ إعطاء صفة ما لا يعقل حكم صفة من يعقل ، يستشهد على ذلك بالقرآن الكريم . قال : « قال الله تعالى : (قالتا أتينا طائعين)[٤] . فى الآية شاهد على إعطاء صفة مالا يعقل حكم صفة من يعقل إذا نسب إليه ما ينسب إلى العقلاء . ألا ترى أن طائعاً قد جمع بالياء والنون لما نسب لموصوفه القول» [٥] .

٣ ــ ويلجأ إلى التأويل والتخريج ، مقارناً ومرجحاً ، وذلك حيث يقول :

---

(١) الجمعة : آية ١١ .
(٢) النحل : آية ٩٥ .
(٣) شرح شذور الذهب تحقيق محمد محيى الدين مطبعة مصطفى محمد .
(٤) فصلت : آية ١١ .
(٥) شرح الشذور ص ٢٣ .

« فإن قلت : فما تصنع فى (المقيمين) من قوله تعالى فى سورة النساء : (لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك . وما أنزل من قبلك ، والمقيمين الصلاة) [١] فإنه جاء بالياء ، وقد كان مقتضى قياس ما ذكرت أن يكون بالواو ، لأنه معطوف على المرفوع والمعطوف على المرفوع مرفوع ، وجمع المذكر السالم يرفع بالواو ، كما ذكرت. وما تصنع : ب (الصابئون) من قوله تعالى فى السورة التى تليها (إن الذين آمنوا ، والذين هادوا والصابئون) [٢] فإنه جاء بالواو ، وقد كان مقتضى قياس ما ذكرت أن يكون (والصابئون) بالياء لأنه معطوف على المنصوب ، والمعطوف على المنصوب منصوب ، وجمع المذكر السالم ينصب بالياء كما ذكرت ؟

قلت : أما الآية الأولى ، ففيها أوجه: أرجحها وجهان : أحدهما أن (المقيمين) نصب على المدح ، وتقديره : وأمدح المقيمين ، وهو قول سيبويه والمحققين ، وإنما قطعت هذه الصفة عن بقية الصفات لبيان فضل الصلاة على غيرها . وثانيهما أنه مخفوض لأنه معطوف على (ما) فى قوله تعالى: (بما أنزل إليك) أى يؤمنون بالكتب وبالمقيمين الصلاة ، وهم الأنبياء . .

وأما الآية الثانية ففيها أيضاً أوجه أرجحها وجهان : أحدهما · أن يكون (الذين هادوا) مرتفعاً بالابتداء ، و (الصابئون والنصارى) عطفا عليه ، والخبر محذوف ، والجملة فى نية التأخير عما فى حيز إنّ مع اسمها وخبرها ، كأنه قيل : إن الذين آمنوا بألسنتهم من آمن (منهم) — أى بقلبه — بالله إلى آخر الآية . ثم قيل : والذين هادوا والصابئون والنصارى كذلك . والثانى أن يكون الأمر على ما ذكرنا من ارتفاع (الذين هادوا) بالابتداء وكون ما بعده عطفاً عليه ، ولكن يكون الخبر المذكور له ، ويكون خبر إن محذوفاً مدلولا عليه بخبر المبتدأ كأنه قيل : إن الذين آمنوا من آمن منهم ، ثم قيل : والذين هادوا إلى آخره . والوجه الأول أجود ، لأن الحذف من الثانى لدلالة الأول أولى من العكس» [٣]

٤ — وميزان التفضيل عنده فى التخريج الاتفاق مع الأصول : فيقول فى

---

(١) النساء : آية ١٦٢ .

(٢) المائدة : آية ٦٩ .

(٣) شرح الشذور ص ٦٤ .

قوله تعالى : (فمن عفى له من أخيه شىء) (١) . . وأما (شىء) فلأنه كناية عن المصدر ، وهو العفو . والتقدير — والله أعلم — فأى شخص من القائلين عفى له عفوٌ ما من جهة أخيه . والأخ هنا محتمل لوجهين ، أحدهما : أن يكون المراد به المقتول ، فمن للسببية ، أى بسببه ، وإنما جعل أخًا تعطيفًا عليه ، وتنفيراً عن قتله ، لأن الخلق كلهم مشتركون فى أنهم عبيد الله ، فهم كالإخوة فى ذلك ، ولأنهم أولاد أب واحد ، وأم واحدة . والثانى : أن المراد به ولىُّ الدم وسمى أخًا ترغيبًا له فى العفو . و (من) على هذا لابتداء الغاية ،وهذا الوجه أحسن لوجهين : أحدهما : أن كون (من) لابتداء الغاية أشهر من كونها للسببية ، والثانى : أن الضمير فى قوله تعالى : (وأداء إليه) راجع إلى مذكور فى هذا الوجه دون الأول(٢) .

٥ — ويخرج بعض الآيات القرآنية لتتفق مع الأصول النحوية ، مناقشًا من يرى غير ذلك ، فيقول فى موضع ما يشترك فيه الفاعل ونائبه : « الحكم الثالث : أنهما لا يكونان جملة ، هذا هو المذهب الصحيح ، وزعم قوم أن ذلك جائز ، واستدلوا بقوله تعالى : (ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه)(٣) . (وتبين لكم كيف فعلنا بهم)(٤) ، (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض)(٥) . فجعلوا جملة (ليسجننه) فاعلا لبدا ،وجملة : (كيف فعلنا بهم) فاعلا لتبين ، وجملة (لا تفسدوا فى الأرض) قائمة مقام فاعل (قيل) .

ولا حجة لهم فى ذلك : أما الآية الأولى ، فالفاعل فيها ضمير مستتر عائد ، إما على مصدر الفعل ، والتقدير : ثم بدا لهم بداء كما تقول : بدا لى رأى . . . وإما عائداً على السَّجن — بفتح السين — المفهوم من قوله تعالى : (ليسجننه) ويدل عليه قوله تعالى : (قال رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه)(٦) .

وكذا القول فى الآية الثانية أى : وتبين هو ، أى التبين ، وجملة الاستفهام

---

(١) البقرة : آية ١٧٨ .
(٢) شرح الشذور ص ١٤٦ .
(٣) يوسف : آية ٣٥ .
(٤) إبراهيم : آية ٤٥ .
(٥) البقرة : آية ١١ .
(٦) يوسف : آية ٣٣ .

مفسرة . وأما الآية الثالثة ، فليس الإسناد فيها من الإسناد المعنوى الذى هو محل الخلاف ، وإنما هو من الإسناد اللفظى ، أى : وإذا قيل لهم هذا اللفظ ، والإسناد اللفظى جائز فى جميع الألفاظ ، كقول العرب : " زعموا مطية الكذب " وفى الحديث (لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة)» (١) .

٦ — ينكر تخريج آيات من القرآن على لغة : أكلونى البراغيث ، فيقول : « وقد حمل قوم على هذه اللغة آيات من التنزيل العظيم ، منها قوله سبحانه : (وأسروا النجوى الذين ظلموا)(٢) والأجود تخريجها على غير ذلك . وأحسن الوجوه فيها إعراب (الذين ظلموا) مبتدأ (وأسروا النجوى) خبراً » (٣) .

٧ — ويتفق مع البصريين فى أن الأفعال بعد حتى تنصب بأن مضمرة خلافاً للكوفيين الذين قالوا : إنها منصوبة بحتى نفسها ، وفى اتفاقه معهم يقوى دليلهم بما يورده من القرآن الكريم .

قال : « وحتى التى ينتصب الفعل بعدها معنيان : فتارة تكون بمعنى كى وذلك إذا كان ما قبلها علة لما بعدها نحو أسلم حتى تدخل الجنة ، وتارة تكون بمعنى إلى ، وذلك إذا كان ما بعدها غاية لما قبلها كقوله تعالى : (لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى)(٤) . ثم قال : والنصب فى هذه المواضع وما أشبهه بأن مضمرة بعد حتى (رأى البصريين) لا بحتى نفسها خلافاً للكوفيين ، لأنها قد عملت فى الأسماء الجر كقوله تعالى : (حتى مطلع الفجر)(٥) ، فلو عملت فى الأفعال النصب لزم أن يكون لنا عامل واحد يعمل تارة فى الأسماء ، وتارة فى الأفعال ، وهذا لا نظير له فى العربية » (٦) .

٨ — وينقد أبا حيان . ، مدافعاً عن الزمخشرى فى إيراده معنى آخر ؛ لأن الزائدة غير التأكيد ، وذلك على ضوء القرآن الكريم فيقول : « ولا معنى لأن الزائدة غير التوكيد كسائر الزوائد » .

---

(١) شرح الشذور ص ١٥٢ .
(٢) الأنبياء : آية ٣ .
(٣) شرح الشذور ١٥٩ .
(٤) طه : آية ٩١ .
(٥) القدر : آية ٥ .
(٦) شرح القطر ص ٦٤ تحقيق محمد محيى الدين ، مطبعة مصطفى محمد .

قال أبو حيان : وزعم الزمخشرى أنه ينجر مع التوكيد معنى آخر ، فقال فى قوله تعالى : (ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سىء بهم) [١] ودخلت (أن) فى هذه القصة ، ولم تدخل فى قصة إبراهيم فى قوله تعالى : (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا : سلاماً) [٢] تنبيهاً وتأكيداً على أن الإساءة كانت تعقب المجىء ، فهى مؤكدة فى قصة لوط للاتصال واللزوم ، ولا كذلك فى قصة إبراهيم إذ ليس الجواب فيها كالأول ، وهذا الذى ذكره لا يعرفه كبراء النحويين . انتهى .

قال ابن هشام ناقداً : «والذى رأيته فى كلام الزمخشرى فى تفسير سورة العنكبوت ما نصه :(أن) صلة أكدت وجود الفعلين مرتباً أحدهما على الآخر ، فى وقتين متجاورين ، لا فاصل بينهما ، فكأنهما وجدا فى جزء واحد من الزمان ، كأنه قيل : لما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريث وليس فى كلامه تعرض للفرق بين القصتين كما نقل عنه ، ولا كلامه مخالف لكلام النحويين ، لإطباقهم على أن الزائد يؤكد معنى ما جىء به لتوكيده و(لما) تفيد وقوع الفعل الثانى عقب الأول ، وترتبه عليه ، فالحرف الزائد يؤكد ذلك ، ثم إن قصة الخليل التى فيها ، قالوا : سلاماً ليست فى السورة التى فيها سىء بهم ، بل فى سورة هود ، وليس فيها لما . ثم كيف يتخيل أن التحية تقع ببطء . وإنما يحسن اعتقادنا تأخر الجواب فى سورة العنكبوت ، إذ الجواب فيها ، قالوا: (إنا مهلكو أهل هذه القرية) ثم إن التعبير بالإساءة لحن ، لأن الفعل ثلاثى كما نطق به التنزيل ، والصواب المساءة . وهى عبارة الزمخشرى » [٣] .

٩ — ويلجأ إلى القرآن الكريم لتوجيه وجهة نظر (الأعلم) و(ابن مالك) فى أن « الرحمن » غير صفة ، بل علم ، فيقول :

« إن الحق قول الأعلم وابن مالك : إن (الرحمن) ليس بصفة ، بل علم وأما قول الزمخشرى : إذا قلت : الله رحمن أتصرفه أم لا ؟ وقول ابن الحاجب : إنه اختلف فى صرفه فخارج عن كلام العربية من وجهين ، لأنه لم يستعمل

---

(١) العنكبوت : آية ٣٣ .

(٢) العنكبوت : آية ٣١ .

(٣) مغنى اللبيب جـ ١ ص ٣٣ ، مطبعة الحلبى .

صفة ، ولا مجرداً من أل . ثم قال ابن هشام : ومما يوضح لك أنه غير صفة مجيئه كثيراً غير تابع نحو : (الرحمن علم القرآن)[١] (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن)[٢] (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا: وما الرحمن ؟)[٣]»[٤] .

١٠ — وينقد ابن مالك فى تخريج نحوى جاء فى بعض الآيات فيقول : « ليس من أقسام إلا التى فى نحو : (إلاَّ تنصروه فقد نصره الله)[٥] وإنما هذه كلمتان إن الشرطية ولا النافية . ومن العجب أن ابن مالك على إمامته ذكرها فى شرح التسهيل من أقسام إلا »[٦] .

١١ — ويبطل آراء النحاة بعد مناقشته لها فى قوله تعالى: (لننزعن من كل شيعة أيهم أشد)[٧] التقدير لننزعن الذى هو أشد، قاله سيبويه وخالفه الكوفيون ، وجماعة من البصريين لأنهم يرون أن أيا الموصوله معربة دائمًا كالشرطية والاستفهامية .

قال الزجاج : ما تبين لى أن سيبويه غلط إلا فى موضعين : هذا أحدهما فإنه يسلم أنها تعرب إذا أفردت ، فكيف يقول ببنائها إذا أضيفت ؟

وقال الجرمى : خرجت من البصرة ، فلم أسمع منذ فارقت الخندق إلى مكة أحداً يقول : لأضربن أيُّهم قائم بالضم .

وزعم هؤلاء أنها فى الآية استفهامية ، وأنها مبتدأ ، وأشد خبر ثم اختلفوا فى مفعول ننزع :

فقال الخليل : محذوف ، والتقدير : لننزعن الفريق الذى يقال فيهم أيهم أشد .

---

(١) الرحمن : آية ١ — ٢ .
(٢) الإسراء : آية ١١٠ .
(٣) الفرقان : آية ٦٠ .
(٤) المغنى ج ٢ ص ٨٩ .
(٥) التوبة : آية ٤٠ .
(٦) المغنى ج ١ ص ٦٩ .
(٧) مريم : آية ٦٩ .

وقال يونس : هو الجملة ، وعلّقت (ننزع) عن العمل، كما فى : (لنعلم أىُّ الحزبين أحصى)[١] .

وقال الكسائى والأخفش : (كل شيعة) ، و(من) زائدة، وجملة الاستفهام مستأنفة ، وذلك على قولهما فى جواز زيادة (مِن) فى الإيجاب .

ويرد أقوالهم : «أن التعليق مختص بأفعال القلوب ، وأنه لا يجوز : لأضربن الفاسقُ بالرفع بتقدير الذى يقال فيه هو الفاسق ، وأنه لم يثبت زيادة من فى الإيجاب . . .

وجوز الزمخشرى وجماعة كونها موصولة مع أن الضمة إعراب ، فقدّروا متعلّق النزع (من كل شيعة) ، وكأنه قيل لننزعن بعض كل شيعة، ثم قدر أنه سئل من هذا البعض ، فقيل هو الذى أشد ، ثم حذف المبتدآن المكتنفان للموصول ، وفيه تعسف ظاهر ، ولا أعلمهم استعملوا أيا الموصولة مبتدأ . . . وزعم ابن الطراوة أن أيًّا مقطوعة عن الإضافة ، فلذلك بنيت ، وأن هم أشد مبتدأ وخبر . وهذا باطل برسم الضمير متصلا بأى ؛ وبالإجماع على أنها إذا لم تضف كانت معربة»[٢] .

١٢ — المسألة الزنبورية فى ضوء القرآن :

ويؤيد ابن هشام سيبويه فى المسألة الزنبورية ، لأن القرآن الكريم ورد بذلك : يقول : «وأما سؤال الكسائى فجوابه ما قاله سيبويه ، وهو ، فإذا هو هى ، هذا هو وجه الكلام ، مثل : (فإذا هى بيضاء)[٣] ، (فإذا هى حية)[٤] وأما فإذا هو إياها إن ثبت فخارج عن القياس ، واستعمال الفصحاء كالجزم بلن ، والنصب بلم ، والجر بلعل ، وسيبويه وأصحابه لا يلتفتون لمثل ذلك ، وإن تكلم بعض العرب به»[٥] .

---

(١) الكهف : آية ١٢ .
(٢) المغنى جـ ١ ص ٧٢ .
(٣) الأعراف : آية ١٠٨ .
(٤) طه : آية ٢٠ .
(٥) المغنى جـ ١ ص ٨٣ .

١٣ – ويرد على ابن الشجرى مدافعًا عن أبى على الفارسى فى تخريجه للآية القرآنية : (أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه)[١] فيقول : « قدر أنهم قالوا بعد الاستفهام (لا) فقيل لهم : فهذا كرهتموه ، يعنى ، والغيبة مثله فاكرهوها ، ثم حذف المبتدأ ، وهو هذا » .

وقال الفارسى : التقدير فكما كرهتموه فاكرهوا الغيبة ، وضعفه ابن الشجرى : بأن فيه حذف الموصول ، وهو ما المصدرية دون صلتها ، وذاك ردىء وجملة : (واتقوا الله) عطف على (ولا يغتب بعضكم بعضًا) على التقدير الأول وعلى فاكرهوا الغيبة على تقدير الفارسى .

وبعد ، فعندى أن ابن الشجرى لم يتأمل كلام الفارسى ، فإنه قال : « كأنهم قالوا فى الجواب (لا) فقيل لهم : فكرهتموه ، فاكرهوا الغيبة ، واتقوا الله ، فاتقوا عطف على فاكرهوا وإن لم يذكر كما فى (اضرب بعصاك الحجر فانفجرت)[٢] والمعنى فكما كرهتموه اكرهوا الغيبة ، وإن لم تكن (كما) مذكورة ، كما إن ما تأتينا فتحدثنا معناه : فكيف تحدثنا ، وإن لم تكن (كيف) مذكورة . وهذا يقتضى أن كما ليست محذوفة ، بل إن المعنى يعطيها فهو تفسير معنى ، لا تفسير إعراب »[٣] .

١٤ – فى لو : ويستعمل الأقيسة المنطقية ، وتقدير هذه الأقيسة على المنهج النحوى لتصحيح تخريج أو تأويل بعض الآيات .

قال : « لهجت الطلبة بالسؤال عن قوله تعالى : (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون)[٤] .

وتوجيهه أن الجملتين يتركب منهما قياس ، وحينئذ فينتج : لو علم الله فيهم خيراً لتولوا ، وهذا مستحيل .

والجواب من ثلاثة أوجه : اثنان يرجعان إلى نفى كونه قياسًا ، وذلك بإثبات اختلاف الوسط . أحدهما : أن التقدير لأسمعهم إسماعًا نافعًا ، ولو أسمعهم

---

(١) الحجرات : آية ١٢ .
(٢) البقرة : آية ٦٠ .
(٣) المغنى جـ ١ ص ١٤٤ .
(٤) الأنفال : آية ٢٣ .

إسماعـًا غير نافع لتولوا . والثانى : أن تقدر : ولو أسمعهم على تقدير عدم علم الخير فيهم . والثالث بتقدير كونه قياسـًا متحد الوسط ، صحيح الإنتاج والتقدير : ولو علم الله فيهم خيراً وقتـًا ما لتولوا بعد ذلك الوقت » [١] .

١٥ – وكان ابن هشام ملمـًّا إلمامـًا كاملا بالآيات القرآنية ، يعرف كيف يستشهد بها ، وكيف يستخدمها فى مجال الرأى والدليل ، ولا أدل على ذلك من أنه كان يضع يده على مواطن الاستشهاد على حين خفيت هذه المواضع على غيره من النحاة . أذكر من ذلك أنه قال فى معرض الحديث عن (لو) ما نصه : « لو تقع أنَّ بعدها كثيراً نحو :(ولو أنهم آمنوا)[٢]. (ولو أنهم صبروا)[٣]. وموضعها عند الجميع رفع ، فقال سيبويه بالابتداء ، ولا تحتاج إلى خبر لاشتمال صلتها على المسند والمسند إليه ، واختصت من بين سائر ما يؤول بالاسم بالوقوع بعد لو ، كما اختصت غدوة بالنصب بعد لدن ، والحين بالنصب بعد لات ، وقيل على الابتداء والخبر محذوف ، ثم قيل : يقدر مقدمـًا أى ولو ثابت إيمانهم على حد (وآية لهم أنا حملنا)[٤] وقال ابن عصفور : بل يقدر هنا مؤخراً .

وذهب المبرد والزجاج ، والكوفيون إلى أنه على الفاعلية ، والفعل مقدر بعدها أى : ولو ثبت أنهم آمنوا . ورجح بأن فيه بقاء لو على الاختصاص بالفعل .

قال الزمخشرى : ويجب كون خبر أنَّ فعلا ليكون عوضاً عن الفعل المحذوف . ورده ابن الحاجب وغيره بقوله تعالى : (ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام)[٥] وقالوا إنما ذلك فى الخبر المشتق لا الجامد كالذى فى الآية ، وفى قوله :

ما أطيب العيش لو أن الفتى حجر تنبو الحوادث عنه وهو ملموم[٦]

ورد ابن مالك قول هؤلاء بأنه قد جاء اسمـًا مشتقـًّا كقوله :

لو أن حيا مدرك الفلاح أدركه ملاعب الرماح[٧]

---

(١) المغنى ج ١ ص ٢٠٨ .
(٢) البقرة : آية ١٠٣ .
(٣) الحجرات : آية ٥ .
(٤) يس : آية ٤١ .
(٥) لقمان : آية ٢٧ .
(٦) لتميم بن عقيل (شرح شواهد المغنى للسيوطى ص ٢٢٧) المطبعة البهية بمصر .
(٧) للبيد بن عامر العامرى . ملاعب الرماح : هو أبو عامر بن مالك الذى يقال له : ملاعب الأسنة (شرح شواهد المغنى ص ٢٢٧) .

قال ابن هشام : وقد وجدت آية فى التنزيل وقع فيها الخبر اسماً مشتقاً ، ولم يتنبه لها الزمخشرى ، كما لم يتنبه لآية لقمان،ولا ابن الحاجب ، وإلا لما منع من ذلك ، ولا ابن مالك وإلا لما استدل بالشعر ، وهى قوله تعالى : (يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب)[1] ووجدت آية الخبر فيها ظرف لغو وهى :(لو أن عندنا ذكراً من الأولين)[2]»[3] .

١٦ – ولابن هشام بحوث نحوية فى مجال القرآن الكريم .

ومنهجه فى هذه البحوث « يتلخص فى القيام بعرض المشكلة ، وبيان وجهات النحاة المختلفة حولها ، مع ذكر أدلة كل منهم ، ثم مقارنة بين هذه الأدلة بعضها ببعض، وكطبيعة الباحث الذى لا يقف عند ظواهر الأشياء كان يتعرض لهذه الأدلة بالنقد أو الإبطال ليبنى على أنقاضها أدلة أمتن ، وحججاً أقوى »[4] .

من هذه البحوث بحثه فى تذكير (قريب) من الآية المشهورة (إن رحمة الله قريب من المحسنين)[5] .

قال رحمه الله : « فى هذه الآية سؤال مشهور ، الأدب فى إيراده ، وإيراد أمثاله أن يقول : ما الحكمة فى كذا تأدباً مع كتاب الله تعالى ، فيقال : ما الحكمة فى تذكير قريب مع أنه صفة ، مخبر بها عن المؤنث ، وهو الرحمة مع أن الخبر الذى هذا شأنه ، يجب فيه التأنيث . . تقول : هند كريمة وظريفة ولا يقال : كريم ولا ظريف ، وإنما بينت كيفية السؤال لأننى وقعت على عبارة شنيعة لبعض المفسرين فى تفسير السؤال أنكرتها . اللهم ألهمنا الأدب فى كلامك ، ولا تردنا على أعقابنا ، وحسن السؤال نصف العلم . .

ثم أخذ يجيب عن السؤال الذى أورده بقوله : وقد أجاب العلماء رحمهم الله تعالى بأوجه جمعتها ، فوقفت منها على أربعة عشر وجهاً . منها قوى وضعيف ، وكل مأخوذ من قوله ومتروك ونحن نرد ذلك بحول الله وقوته ، متتبعين له بالتصحيح

---

(١) الأحزاب : آية ٢٠ .
(٢) الصافات : آية ١٦٨ .
(٣) المغنى جـ ١ ص ٢١٤ .
(٤) المدرسة النحوية فى مصر والشام : ص ٣٩٣ : عبد العال سالم : (رسالة ماجستير مخطوطة)
(٥) الأعراف : آية ٥٦ .

والإبطال بحسب ما يظهره الله تعالى ، والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل ،
ويبدأ ابن هشام يسرد هذه الأوجه التى نذكر منها ما يلى :

قال : إن ذلك على حذف مضاف ، أى أن مكان — رحمة الله قريب ، فالإخبار إنما هو عن المكان ، ونظيره قوله صلى الله عليه وسلم : مشيراً إلى الذهب والفضة : إن هذين حرام ، فأخبر عن المثنى بالمفرد ، لأن حقيقة الكلام وأصله : إن استعمال هذين حرام .

وهذا المضاف الذى قدروه فى غاية البعد ، والأصل عدم الحذف والمعنى مع ترك هذا أحسن منه مع وجوده .

ومنها : أنه على حذف الموصوف أى إنّ رحمة الله شىء قريب .

وهذا القول فى الضعف كالذى قبله ، بل هو أشد منه ضعفاً ، لأن تذكير صفة المؤنث باعتبار إجرائها على موصوف مذكر محذوف شاذ ينزه عنه كتاب الله ، ثم الأمثل عدم الحذف .

ومنها : أن العرب تعطى المضاف حكم المضاف إليه فى التذكير والتأنيث إذا صح الاستغناء .

ومنها : أن فعيلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر والمؤنث كرجل جريح وامرأة جريح . نقل هذا الوجه أبو البقاء فى إعرابه وأقر قائله عليه . وهو خطأ فاحش لأن فعيلا هنا ليس بمفعول .

ومنها : أن فعيلا مطلقاً يشترك فيه المذكر والمؤنث ، حكى ذلك ابن مالك عن بعض من عاصره . وهذا القول من أفسد ما قيل لأنه خلاف الواقع فى كلام العرب ، يقولون : امرأة طويلة وامرأة عليمة ورحيمة ، ولا يجوز التذكير فى شىء من ذلك ولهذا قال أبو عثمان المازنى فى قوله تعالى : (وما كانت أمك بغيًّا)[1] إنه فعول ، والأصل ، بغوى ، ثم قلبت الواو ياء ، والضمة كسرة ، وأدغمت الياء فى الياء .

ومنها : أن المراد بالرحمة هنا المطر ، والمطر مذكر ، وهذا القول يؤيده عندى ما يتلوه من قوله سبحانه : (وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته)[2] وهذه الرحمة هى المطر ، فهذا تأنيث معنوى»[3] .

---

(١) مريم : آية ٢٨ . (٢) الأعراف : آية ٥٧ .

(٣) الأشباه والنظائر فى النحو — السيوطى جـ ٣ ص ١١٠ و ص ١١١ و ص ١١٢ و ص ١١٤ .

الباب الثانى

نحو القرآن

الفصل الأول

مصادر النحو القرآنى

تعريف وتوثيق

أولا : كتب التفسير :

١ ــ نشأة التفسير :

ترجع نشأة التفسير إلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان الصحابة يرجعون إليه فى تفسير ما غمض ، وتوضيح ما صعب عليهم فهمه « فنى عهده نرى أعرابيًّا يسأله فى معنى بعض ألفاظ القرآن فى مثل قوله تعالى : (ولم يَلْبِسوا إيمانهم بظلم)[١] قائلا : وأيُّنا لم يظلم نفسه ؟ وفسره النبى صلى الله عليه وسلم بالشرك ، واستشهد عليه بقوله تعالى : (إن الشرك لظلم عظيم)[٢] »[٣] .

ولقائل أن يقول : إذا كان القرآن عربيًّا ، ونزل على قوم ربُّوا فى الفصاحة ليتحدى فصاحتهم ، فكيف تغمض بعض ألفاظه عليهم ، وكيف يقفون إزاءها مستفسرين مستوضحين ؟

وقد لمح ابن خلدون هذا المعنى فقرر فى مقدمته « أن القرآن نزل بلغة العرب ، وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ، ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه » [٤] .

وللإجابة عن هذا السؤال نبين أن القرآن الكريم نزل بلغة العرب ، ولغة العرب لا يستوى فى فهمها جميع العرب ، ففيها الغريب ، وفيها السهل ، وفيها ما كثر جريانه على الألسنة ، وفيها ما قل .

من أجل هذا لا يستوى فى العلم بهذه اللغة جميع العرب كما يقرر ابن

---

(١) سورة الأنعام آية : ٨٢ .
(٢) سورة لقمان آية : ١٣ .
(٣) أثر القرآن فى تطور النقد العربى ص : ٢٧ للدكتور محمد زغلول سلام ، دار المعارف بمصر .
(٤) مقدمة ابن خلدون ص : ٣٦٧ المطبعة الأزهرية سنة ١٩٣٠ م .

خلدون، وها هوذا ابن قتيبة فى كتابه « المسائل » يختلف مع ابن خلدون فى هذه المسألة ويوضح أن « العرب لا تستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن من الغريب والمتشابه بل لبعضها الفضل فى ذلك على بعض ، والدليل عليه قول الله عز وجل: (وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم) »[1] . ثم قال : « ويدل عليه قول بعضهم : يا رسول الله : إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما نعرفه ، ونحن العرب حقًّا . فقال : إن ربى علمنى فتعلَّمتُ »[2] .

وأوضح رد على ابن خلدون ما ذكره ابن تيمية فى مقدمته فى أصول التفسير حيث قال : (يجب أن يعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه معانى القرآن كما بيَّن لهم ألفاظه ، فقوله تعالى:(لتبين للناس ما نزل إليهم) [3] يتناول هذا ، وهذا . وقد قال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل . قالوا : فتعلمنا القرآن ، والعلم ، والعمل جميعًا»[4] .

٢ — الصحابة والتفسير :

انقسم الصحابة بصدد تفسير القرآن الكريم إلى قسمين :

(ا) قسم متحرِّج ، يخشى خطر التفسير ، فقد تفسر الآية بمعنى غير مراد ، وفى هذا من الإثم ما فيه ، وعلى رأس هذا القسم : أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما .

أما أبو بكر فقد روى أنه سئل عن قوله تعالى :(وكان الله على كل شىء مقيتاً)[5] فقال: «أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى ، إن قلت فى كتاب الله ما لا أعلم[6] » .

---

(١) سورة آل عمران آية : ٧ .

(٢) المسائل : لوحة ٤ لابن قتيبة أبى محمد عبد الله بن مسلم ، نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٢٠٩٦٧ . (٣) سورة النحل آية : ٤٤ .

(٤) مقدمة فى أصول التفسير لتقى الدين أبى العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية ص : ٥ . تحقيق جميل الشطى ط أولى . مطبعة الترقى بدمشق سنة ١٩٣٦ .

(٥) النساء : آية ٨٥ .

(٦) مقدمتان فى علوم القرآن ص ١٨٣ .

وأما عمر فقد روى أنه : قرأ على المنبر : (وفاكهة وأبًّا)[١] فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : لعمرك ، إن هذا هو التكلف يا عمر[٢] .

(ب) وقسم لم يتحرج من التفسير ، ورأى أن القرآن عربى وأن كلام العرب يوضح ما غمض من ألفاظه ، وما صعب من معانيه ، وعلى رأس هذا القسم عبد الله بن عباس .

وكان ابن عباس يرى : « أن الشعر ديوان العرب ، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه »[٣] . دليلى على ما أقول ما رواه « طلحة بن عمرو عن عطاء قال : سمعت ابن عباس إذا سئل عن عربية القرآن أنشد الشعر ، فقيل له : ما زنيم ؟ فقال :

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد فى عرض الأديم الأكارع[٤]

وعن ابن أبى مليكة قال : سئل ابن عباس عن (الليل وما وسق)[٥] فقال : وما جمع . ألم تسمع قول الشاعر .

إن لنا قلائصًا حقائقًا مستوسقات لو يجدن سائقا[٦]

وعن أبى صالح قال : سمعت ابن عباس ينشد للناس هذا البيت فى قوله : (يوم تبدل الأرض غير الأرض » [٧] :

وما الناس بالناس الذين عهدتهم وما الدار بالدار التى كنت أعرف »[٨]

٣ ــ تطور التفسير :

قلت : إن النبى عليه السلام كان يبين للناس ما نزل إليهم ، وقد حفظ الصحابة هذا البيان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورواه عنهم غيرهم ،

---

(١) عبس : آية ٣١ .
(٢) مقدمتان فى علوم القرآن ص ١٨٣ .
(٣) تاريخ آداب العرب للرافعى جـ ١ ص ٣٣٥ ط ثانية .
(٤) مقدمتان فى علوم القرآن ص ١٩٨ .
(٥) الانشقاق : آية ١٧ .
(٦) مقدمتان فى علوم القرآن ص ١٩٨ .
(٧) إبرهيم : آية ٤٨ .
(٨) مقدمتان فى علوم القرآن ص ١٩٩ .

فكانوا إذا سئلوا عن مشكل لفظ ، أو معنى مغلق أفتوْهم بما روَوْا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا اللفظ أو هذا المعنى ، ويسمى هذا تفسيراً نقلياً ودعامته الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يقول ابن تيمية : « ومن التابعين من تلقى جميع التفسير عن الصحابة كما قال مجاهد : عرضت المصحف على ابن عباس أوقفه عند كل آية منه ، وأسأله عنها . ثم قال : والمقصود أنّ التابعين تلقوا التفسير عن الصحابة كما تلقوا عنهم علم السنة »[١].

ولما امتزجت الثقافة العربية بالثقافة الأجنبية بسبب الفتوح الإسلامية ظهر ما يسمى بالتفسير العقلى ، وهو التفسير الذى يكون مجاله العقل ، وميدانه الفكر ، وسلاحه الاستنباط والمنطق ، والأدلة .

وقد وضع نواة هذا التفسير فى العصور الأولى مجاهد الذى يقول عنه المرحوم الأستاذ أحمد أمين : « كان مطلعاً يميل إلى الآراء العقلية ، فيقول مثلا فى قصة مسخ أهل السبت قردة : إن الله لم يمسخهم فى أجسامهم بل فى قلوبهم »[٢].

٤ — متى دوّن التفسير ؟

ينسب جورجى زيدان تدوين التفسير فى المصحف إلى مجاهد فيقول : « أول من دون التفسير فى المصحف مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ هـ »[٣] .

على أن الأستاذ أمين الخولى يذكر أن (الفيروزابادى) صاحب القاموس له تفسير اقتبسه من تفسير ابن عباس ، ومعنى ذلك أن ابن عباس سبق مجاهداً فى تدوين التفسير وقد سمى (الفيروزابادى) تفسيره « تنوير المقباس من تفسير ابن عباس » .

وينكر الأستاذ أمين الخولى تفسير ابن عباس بما روى « منسوباً إلى الإمام الشافعى رضى الله عنه لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث .:.

---

(١) مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية ص ٦ .
(٢) ظهر الإسلام ص ٤٠ ط أولى جـ ٢ .
(٣) تاريخ التمدن الإسلامى ص ٦٤ جـ ٣ .

مع أن هذا « التنوير » المنسوب إليه مطبوع فى نحو أربعمائه صفحة من القطع العادى »[١] .

٥ ــ مراتب التفسير :

١ ــ من مراتب التفسير تفسير القرآن بالقرآن ، « وذلك حيث يتكرر فى كتاب الله ذكر الشيء ويكون بعض الآيات أكثر بياناً وتفصيلا . . . ومنه تفسير قوله تعالى : (وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم)[٢] بأنّه العذاب الأدنى ، المعجل فى الدنيا لقوله سبحانه فى آخر هذه السورة : (فإما نرينك بعض الذى نعهدهم ، أو نتوفينك ، فإلينا يرجعون)[٣] ، وقد تكرر هذا فى كتاب الله»[٤] .

٢ ــ « ومن مراتبه ما يتعلق باللغة العربية »[٥] .

٣ ــ « ومن مراتبه ما يتعلق بالمجاز ، وتعتبر فيه قرائن المجاز الثلاث . . . العقلية التى يعرفها المخاطب كقوله تعالى : (واسأل القرية التى كنا فيها)[٦] أى أهلها ، والعرفية : مثل : (ياهامان ابن لى صرحاً)[٧] أى من يبنى لأن مثله فى العرف لا يبنى . واللفظية : نحو : (مثل نوره)[٨] فإنها دليل على أن المراد نور الهدى »[٩] .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ص ٣٥٠ المجلد الخامس من مقال للأستاذ أمين الخولى عنوانه : نشأة التفسير .

(٢) غافر : آية ٢٨ .

(٣) غافر : آية ٧٧ .

(٤) إيثار الحق على الخلق فى رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد ص ١٦١ لأبى عبد الله محمد بن المرتضى اليمانى من مجتهدى القرن الثامن الهجرى مطبعة الآداب بمصر سنة ١٣١٨ هـ . بتصرف من ١٦١ ــ ١٦٦ .

(٥) المصدر نفسه والصفحة .

(٦) يوسف : آية ٨٢ .

(٧) القصص : آية ٣٨ .

(٨) النور : آية ٣٥ .

(٩) المصدر نفسه ص ١٦٦ .

٦ ـ طبقات المفسرين :

على أن المفسرين طبقات، لكل طبقة منهجها وطريقتها ، ولم ينس السيوطى أن يبين لنا هذه الطبقات. فذكر أنهم أربعة أنواع :

الأول : المفسرون من السلف والصحابة والتابعين ، وأتباع التابعين .

الثانى : المفسرون من المتحدثين ، وهم الذين صنفوا التفاسير موردا فيها أقوال الصحابة والتابعين بالإسناد .

الثالث : بقية المفسرين من علماء أهل السنة الذين ضموا إلى التفسير التأويل والكلام على معانى القرآن ، وأحكامه وإعرابه وغير ذلك .

الرابع : من صنف تفسيراً من المبتدعة كالمعتزلة والشيعة وأضرابهم .

ثم قال السيوطى بعد أن ذكر هذه الأنواع معلقاً :

والذى يستحق أن يسمى بالمفسرين من هؤلاء القسم الأول ، ثم الثانى، على أن الأكثر فى هذا القسم نَقَلَة . وأما الثالث فمؤولة . . . ولم أستوف أهل القسم الرابع وإنما ذكرت منهم المشاهير كالزمخشرى ، والرمانى ، والجبائى ، وأشباههم[(١)]

٧ ـ التفسير والنحو :

قد يكون تفسير المعنى مخالفاً لتقدير الإعراب ، وهنا نرى ابن جنى يعقد للعلاقة بين النحو والتفسير باباً فى « الخصائص» بعنوان : «بين تقدير الإعراب وتفسير المعنى» وفى هذا الباب يضع ابن جنى النقاط على الحروف حتى لا تكون هناك فجوة بين النحو والتفسير ، فيقول : « فإذا مر بك شىء من هذا عن أصحابنا فاحفظ نفسك منه . ولا تسترسل إليه ، فإن أمكنك أن يكون تقدير الإعراب على سمت تفسير المعنى ، فهو ما لا غاية وراءه . وإن كان تقدير الإعراب مخالفاً لتفسير المعنى تقبلت تفسير المعنى على ما هو عليه ، وصححت طريق تقدير الإعراب حتى لا يشذ شىء منها عليك ، وإياك أن تسترسل فتفسد ما تؤثر إصلاحه »[(٢)] .

---

(١) طبقات المفسرين لجلال الدين السيوطى ص ٢ ط أوربا .

(٢) الخصائص جـ ١ ص ٣٨٤ .

ويعقد فى موضع آخر من كتابه بابًا « فى تجاذب المعانى والإعراب » فيقول : « هذا موضع كان أبو على – رحمه الله – يعتاده ، ويلم كثيراً به ، ويبعث على المراجعة له ، وإلطاف النظر فيه ، وذلك أنك تجد فى كثير من المنثور والمنظوم الإعراب والمعنى متجاذبين هذا يدعوك إلى أمر ، وهذا يمنعك منه ، فمتى اعتورا كلامًا ما أمسكت بعروة المعنى وارتحت لتصحيح الإعراب» .

وأخذ ابن جنى يورد الأمثلة من القرآن الكريم ليوضح هذا المعنى الذى كان يبعث على المراجعة له أبو على الفارسى . فيقول :

فمن ذلك قول الله تعالى : (إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر)[1] فمعنى هذا : أنه على رجعه يوم تبلى السرائر لقادر ، فإن حملته فى الإعراب على هذا كان خطأ لفصلك بين الظرف الذى هو (يوم تبلى) وبين ما هو معلق به من المصدر الذى هو الرجع ، والظرف من صلته .

والفصل بين الصلة والموصول [2] الأجنبى أمر لا يجوز .

فإذا كان المعنى مقتضيًا له والإعراب مانعًا منه احتلت له بأن تضمر ناصبًا يتناول الظرف ، ويكون المصدر الملفوظ به دالاً على ذلك الفعل ، حتى كأن قال فيما بعد : يرجعه يوم تبلى السرائر ، ودل رَجْعه على يرجعه دلالة المصدر على فعله» [3] .

هذه مقدمة موجزة لنشأة التفسير وتطوره ، وطبقات المفسرين ، والعلاقة بين التفسير والنحو ، وهى وإن كانت فى ظاهرها لا صلة لها بالموضوع إلا أنها كانت لازمة لإلقاء بعض الأضواء على نشأة هذا الفن قبل الحديث عن أشهر الكتب التفسيرية التى تعتبر من المصادر المهمة التى يقوم عليها النحو القرآنى .

وها نحن أولاء نعرض لأشهر هذه الكتب فى إيجاز غير مخل لنقف على مناهجها ، وطريقة تناولها لمسائل النحو .

---

(١) آيتا ٨ ، ٩ من سورة الطارق .

(٢) فى الخصائص هكذا ، ولعل باء الجر ساقطة عن كلمة (الأجنبى) ، وعلى هذا تكون العبارة هكذا والفصل بين الصلة والموصول بالأجنبى . . إلخ .

(٣) المرجع نفسه حـ ٣ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

أشهر كتب التفسير من الوجهة النحوية :

لا نستطيع فى هذا المقام أن نعدد كتب التفسير ، فإنها كثيرة جعلت حاجى خليفة صاحب « كشف الظنون » يخصص لها فى كتابه سبعة وثلاثين نهراً تقريبيًا [١] والذى يهمنا من كتب التفسير الكتب التى تعرضت للدراسة النحوية ، وأشهر هذه الكتب ، كتاب الكشاف للزمخشرى، والبحر المحيط لأبى حيان الأندلسى .

١ ـ تفسير الكشاف للزمخشرى :

تعرض الزمخشرى فى مقدمة كتابه للدوافع التى حدت به إلى تأليف هذا الكتاب .

ومن أبرز هذه الدوافع إلحاح إخوانه « فى الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية ، الجامعين بين علم العربية . والأصول الدينية » [٢] .

والذى دفع هؤلاء إلى هذا الإلحاح هو ما رأوه فى عقلية الزمخشرى من النضج والقوة حين يتعرض لتفسير آية ، أو تأويل معنى ، أو بيان لفظ كما قال الزمخشرى : « كلما رجعوا إلىّ فى تفسير آية ، فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب ، أفاضوا فى الاستحسان والتعجب ، واستطيروا شوقًا إلى مصنف يضم أطرافًا من ذلك حتى اجتمعوا علىّ مقترحين أن أملى عليهم الكشف عن حقائق التنزيل ، وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل »[٣] .

ولم يقدم الزمخشرى على ما اقترحوا « فأبوا إلا المراجعة ، والاستشفاع بعظماء الدين ، وعلماء العدل والتوحيد» [٤] .

وبعد هذا الإلحاح الطويل أملى عليهم « مسألة فى الفواتح ، وطائفة من الكلام فى حقائق سورة البقرة ، وكان كلامًا مبسوطًا كثير السؤال والجواب ، طويل الذيول والأذناب»[٥] .

---

(١) كشف الظنون ، المجلد الأول من ص ٤٢٧ إلى نهر ٤٦٣ .
(٢) مقدمة الكشاف جـ ١ ص ٣ – دار الطباعة المصرية سنة ١٢٨١ .
(٣) الصفحة نفسها .
(٤) « « . (٥) الصفحة نفسه .

ولما صمم العزم على معاودة جوار الله ، والإناخة بحرم الله ، وحط الرحل بمكة ، إذا بالأمير الشريف الإمام شرف آل رسول الله الحسن على بن حمزة ابن وهاس يطلب منه تفسير القرآن ، قال الزمخشرى : « قد ضاقت على المستعصى الحيل وعييت به العلل» [١] فأقدم على هذا التأليف ، تحقيقاً لما طلب منه الأمير .

طريقة تأليفه :

والزمخشرى لا ينسى فى مقدمته أن يبين الطريقة التى سلكها فى تأليفه ، فقال : « ورأيتنى قد أخذت منى السن ، وتقعقع الشن ، وناهزت العشر التى سمتها العرب دقاقة الرقاب ، فأخذت فى طريقة أخصر من الأولى ، مع ضمان التكثير من الفوائد ، والفحص عن السرائر» [٢] .

مدة تأليف هذا الكتاب :

ولم ينس الزمخشرى أيضاً أن يبين المدة التى استغرقها تأليف هذا الكتاب . فيقول : « ووفق الله وسدد ، ففرغ منه فى مقدار مدة خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان يقدر تمامه فى أكثر من ثلاثين سنة ، وما هى إلا آية من آيات هذا البيت المحرم ، وبركة أفيضت علىّ من بركات هذا الحرم المعظم» [٣] .

وفى خاتمة مقدمته توسل الزمخشرى إلى ربه قائلا : «أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه سبباً ينجينى ، ونوراً على الصراط يسعى بين يدى وبيمينى ونعم المسئول » [٤] .

المصادر التى اعتمد عليها الزمخشرى فى تأليفه لهذا الكتاب :

كنا نود من الزمخشرى أن يكون أميناً فى نقله ، ينسب كل قول إلى صاحبه

---

(١) مقدمة تفسير الكشاف ص ٣ دار الطباعة المصرية .
(٢) الصفحة نفسها .
(٣) الصفحة نفسها .
(٤) ص ٤ من المقدمة .

وكل رأى إلى من صدر عنه ، شأنه فى ذلك شأن العلماء الثقات الذين لا يهمهم مدح الناس بقدرما يهمهم من خدمة الحقيقة ، وتحقيق المعرفة، ولئن عزّ على الزمخشرى أن يبين لنا مصادره ، فلا يعز علينا أن نقوم مقامه ، ونوضح بعض المصادر التى اعتمد عليها .

ومن أهم هذه المصادر :

١ – تفسير الرُّمانى :

فقد ذكر ياقوت أن للرمانى مؤلفات تدور حول القرآن ، مثل : « تفسير القرآن المجيد » و « إعجاز القرآن » ، « الألفات فى القرآن » ، « وكتاب شرح معانى الزجاج » [1] .

وذكر صاحب النجوم أن «للرمانى كتاب التفسير الكبير ، وهو كثير الفوائد إلا أنه صرح فيه بالاعتزال ، وسلك الزمخشرى سبيله ، وزاد عليه» [2] .

ولفتت العبارة الأخيرة نظرى ، فقدرت أن الزمخشرى ربما اتخذ هذا التفسير مصدراً لكتابه ، فذهبت أبحث هنا وهناك ، إلى أن وصلت إلى الحقيقة التى تنادى بأن الزمخشرى اعتمد فى تفسيره على تفسير « الرمانى » .

وبيان ذلك أن مكتبة (تيمور) تضم من هذا التفسير جزء « عم » ، فلما أخذت أدرس هذا الكتاب ، أقارن نصوصه بنصوص الكشاف للزمخشرى ، وضحت لى الحقيقة ساطعة مشرقة لتؤكد أن الزمخشرى سطا على هذا التفسير ونسب الكثير منه إلى نفسه حيث لم يصرح بالمصدر الذى نقل عنه .

وقد تقاربت نصوص تفسير جزء « عم » من نصوص تفسير الكشاف إلى الحد الذى جعلنى أشك فى نسبة تفسير جزء « عم » الذى تضمه مكتبة تيمور إلى الرمانى وقلت : لعله لرمانىٍّ آخر ، تأخر زمنه عن الزمخشرى ، فنقل من الكشاف ما نقل ونسبه إلى نفسه ، ورجعت إلى كتب الطبقات فوجدت أنه اشتهر ثلاثة من النحاة بهذا اللقب ، أحدهم : الرمانى المشهور ، صاحب التفسير الكبير الذى تحدثنا عنه ، وثانيهم : أحمد بن على بن محمد أبو عبد الله

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٤ ص ٧٥ .

(٢) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٦٨ .

الرمانى المعروف بابن الشرابى ، توفى سنة خمس عشرة وأربعمائه [١]

وثالثهم : على بن عبد الله بن محمد بن على بن رمان التونسى ، أخذ عنه ابن عصفور[٢] . ولم يذكر السيوطى سنة وفاته ، إلا أنه من الممكن معرفة عصره الذى عاش فيه بمعرفة ميلاد ابن عصفور أو موته أما ميلاد ابن عصفور فقد كان سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، وأما تاريخ وفاته فقد ذكر أنه توفى سنة ثلاث ، وقيل تسع وستين وستمائة [٣] ومعنى ذلك أن الرمانى الذى أخذ عنه ابن عصفور من رجال القرن السابع .

وإذا تبين لنا أن الزمخشرى توفى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة[٤] ، فإننا نقطع برأى فاصل فى هذا الموضوع ، يقضى بأن الرمانى الثانى سابق للزمخشرى ولم ينص السيوطى على أن له مؤلفات فى القرآن على حين نص على أن الرمانى ، على بن عيسى له تفسير كبير فى القرآن ، لذلك ننفى نسبة تفسير جزء «عم» لهذا الرمانى الثانى .

وأما الرمانى الثالث على بن عبد الله بن على بن رمان التونسى ليس له من المؤلفات القرآنية — كذلك — ما يجعلنا ننسب هذا التفسير إليه . وإذا انتفى أن يكون تفسير جزء «عم» لأحد من هذين الرجلين ، فأكبر الظن أنه للرمانى الأول ، على بن عيسى ، وأن الزمخشرى اطلع على هذا التفسير وأفاد منه ، بل نقل منه نصوصاً بأسرها ، وكان واجب الأمانة العلمية يقضى بأن يشير إلى ذلك فى كتابه .

أمثلة تؤيد ما أقول :

١ — مالك يوم الدين :

قال الرمانى : « فإن قلت ما هذه الإضافة ، قلت : هى إضافة اسم الفاعل إلى الظرف على طريق الاتساع يجرى مجرى المفعول به كقولهم : يا سارق الليلة أهل الدار . والمعنى على الظرفية ، ومعناه : مالك الأمر كله يوم الدين ،

---

(١) البغية ص ١٥١ .
(٢) البغية ص ٣٤٠ .
(٣) البغية ص ٣٥٧ .
(٤) البغية ص ٣٨٨ .

كقوله : (لمن الملك اليوم ؟)[١] .

فإن قلت : فإضافة اسم الفاعل إضافة غير حقيقية ، فلا تكون معطية معنى التعريف ، فكيف ساغ وقوعه صفة للمعرفة ، قلت : إنما يكون غير حقيقية إذا أريد باسم الفاعل الحال والاستقبال ، فكان فى تقدير الانفصال كقولك : مالك الساعة الآن ، أو غداً ، فأما إذا قصد معنى الماضى كقولك : هو مالك عبيده ، أمس ، أو زمان مستمر كقولك : زيد مالك العبيد كانت الإضافة حقيقية كقولك : مولى العبيد، وهذا هو المعنى فى مالك يوم الدين»[٢] .

والنص نفسه حرفيًّا فى تفسير الكشاف[٣] .

٢ ــ إياك نعبد :

قال الرمانى : « إيَّاه ضمير منفصل للمنصوب ، واللواحق التى تلحقه من الكاف ، والهاء والياء ، فى قولك ، إياك ، وإياه ، وإياى لبيان الخطاب والغيبة ، والتكلم ، ولا محل لها من الإعراب ، كما لا محل للكاف فى أرأيتك ، وليست بأسماء مضمرة ، وهو مذهب الأخفش ، وعليه المحققون .

وأما ما حكاه الخليل عن بعض العرب ، إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب فشىء شاذ لا يعوَّل عليه»[٤] .

ولما رجعت إلى تفسير الكشاف فى هذا الموضع رأيت الزمخشرى ينقل النص بعينه ، ولم يحاول أن يغير فيه أو يبدل . ومع ذلك لم ينسبه لصاحبه[٥] .

٣ ــ على أن هناك بعض نصوص أخذها الزمخشرى من الرمانى، وحاول أن يغير فيها بالتقديم والتأخير ، والحذف والزيادة ، وقد أكدت هذه النصوص أن تفسير جزء عم نسبته للرمانى صحيحة ، وأنه ليس لرمانى القرن السابع ، على ابن عبد الله بن محمد بن على بن رمان التونسى الذى لا يستطيع أن يجرؤ على أن يسرق نصوصًا كاملة من كتاب مشهور ككتاب الزمخشرى فى عصر

---

(١) غافر : آية ١٦ .

(٢) تفسير جزء عم للرمانى رقم ٢٠١ ــ تفسير تيمور ، مخطوط ص ١٢ و ص ١٣ .

(٣) تفسير الكشاف للزمخشرى جـ ١ ص ٦ ، من طبعة دار الطباعة المصرية .

(٤) تفسير جزء عم ص ١٣ و ص ١٤ .

(٥) انظر تفسير الكشاف جـ ١ ص ١١ مطبعة الاستقامة ط ثانية .

كثر فيه العلماء ، ثم ينسب هذه النصوص إليه .

أما هذه النصوص التى أخذها الزمخشرى من تفسير الرمانى وغيّر فيها ، فإننا نذكر منها ما يأتى :

(ا) (إنا أنذرناكم عذابًا قريبًا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ، ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا)[1] .

قال الرمانى : « ويقول الكافر . وضع الظاهر موضع الضمير لزيادة الذم والمرء عام ، وخص منه الكافر ، وما قدمت يداه ما عمل من خير وشر » .

ثم قال : « وما الاستفهامية منصوبة بقدمت أى ينظر أى شىء قدمت يداه ، أو موصولة منصوبة بينظر ، يقال : نظرته بمعنى نظرت إليه ، والراجع من الصلة محذوف أى قدمته» [2] .

ويقول الزمخشرى ما نصه :

« المرء هو الكافر لقوله تعالى: (إنا أنذرناكم عذابًا قريبًا) . والكافر ظاهر وضع موضع الضمير لزيادة الذم . ويعنى ما قدمت يداه من الشر كقوله : (ذوقوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم)[3] ،(ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك)[4] » .

ثم قال : « وما يجوز أن تكون استفهامية منصوبة بقدمت أى ينظر أى شىء قدمت يداه ، أو موصولة منصوبة بينظر ، يقال: نظرته بمعنى نظرت إليه . والراجع من الصلة محذوف»[5] .

وبالمقارنة بين النصين نجد أن الزمخشرى انتفع بما قال الرمانى ، وإن حاول أن يزيد فيما ينقل ، أو يحوّر فيما أفاد .

(ب) (والليل إذا يَسْر)[6] .

قال الرمانى : (وياء يسر تحذف فى الدرج اكتفاء عنها بالكسرة ، وأما فى

---

(١) عم : آية ٤٠ .
(٢) تفسير جزء عم للرمانى ص ٢٨ .
(٣) آل عمران : آية ١٨١ – ١٨٢ .
(٤) الحج : آية ٩ – ١٠ .
(٥) تفسير الكشاف للزمخشرى ج ٢ ص ٥٠٤ – دار الطباعة .
(٦) الفجر : آية ٤ .

الوقف فتحذف مع الكسرة ، وسأل واحد الأخفش عن سقوط الياء فقال : لا . حتى تخدمني سنة ، فسأله بعد سنة ، فقال : الليل لا يسرى وإنما يسرى فيه ، فلما عدل عن معناه عدل عن لفظه موافقة ، وقيل : معنى يسرى : يسرى فيه ، كما يقال : ليل نائم أى ينام فيه»[1] .

ويقول الزمخشرى ما نصه :

« وياء يسرى تحذف فى الدرج اكتفاء عنها بالكسرة ، وأما فى الوقف فتحذف مع الكسرة ، وقيل معنى يسرى يسرى فيه» [2] .

وبالمقارنة بين النصين نجد أن الزمخشرى نقل ما نص عليه الرمانى غير أنه حذف قصة الأخفش التى ذكرها الرمانى .

وبعد ، فمن هذه النصوص تبين لنا بوضوح كيف انتفع الزمخشرى بالرمانى .

٢ – معانى القرآن للزجاج :

ومن المصادر التى انتفع بها الزمخشرى : كتاب « معانى القرآن للزجاج » . غير أن انتفاعه بتفسير الرمانى أكثر من انتفاعه بمعانى الزجاج ، ولعل السر فى ذلك أن الرمانى كان – على شاكلته معتزلياً ، فأولع به ، ودفعه هذا الولوع إلى أن ينقل نصوصاً من كتابه برمتها محاولا أن ينسى نفسه وعقله وشخصيته إزاءها .

مثال : يؤيد انتفاع الزمخشرى بمعانى القرآن للزجاج :

قال الزجاج فى تفسير قوله تعالى : (لا أقسم بيوم القيامة) [3] : « لا اختلاف بين الناس أن معناه القسم بيوم القيامة . واختلفوا فى تفسير – لا . فقال بعضهم : (لا) لغو ، وإن كانت فى أول السورة لأن القرآن كله كالسورة الواحدة ، لأنّ بعضه متصلٌ ببعض فجعلت (لا) هنا بمنزلتها فى قوله : (لئلا يعلم أهل الكتاب) [4] .

---

(١) تفسير جزء عم للرمانى ص ٨٢ .
(٢) تفسير الكشاف حـ ٢ ص ٤٦٩ دار الطباعة المنيرية .
(٣) القيامة : آية ١ .
(٤) الحديد : آية ٢٩ .

وقال بعض النحويين : (لا) نفى لكلام وردٌ له قبل القسم ، كأنهم أنكروا البعث ، فقيل : لا ، ليس الأمر على ما ذكرتم ، ثم قيل : أقسم بيوم القيامة»[١] .

ويقول الزمخشرى فى الكشاف فى الموضع نفسه ما نصه : «إدخال لا النافية على فعل القسم مستفيض فى كلامهم وأشعارهم»[٢] وأخذ يستدل لهذا بشعر لامرئ القيس ولغَوِيَّة بن سلمى . ثم قال : «وقالوا : إنها صلة مثلها فى (لئلا يعلم أهل الكتاب) وفى قوله : فى بئر لا حور[٣] سرى وما شعر .

واعترضوا عليه بأنها إنما تزاد فى وسط الكلام لا فى أوله : وأجابوا بأن القرآن فى حكم سورة واحدة متصل بعضه ببعض»[٤] . ثم قال بعد أن ذكر رأيه بأن لا للنفى ، والمعنى فى ذلك أنه لا يقسم بالشىء إلا إعظامًا له : (وقيل إن «لا» نفى لكلام ورد له قبل القسم كأنهم أنكروا البعث ، فقيل : لا — أى ليس الأمر على ما ذكرتم ، ثم قيل : أقسم بيوم القيامة[٥] .

منهج الزمخشرى فى دراسة النحو القرآنى :

لم يبين لنا الزمخشرى منهجه فى كتابه كما يفعل بعض المفسرين ، وكأنه يريد من الدارس أن يتعب نفسه لاستخلاص منهجه منه .

والذى يعنينى من منهجه هو الدراسة النحوية فحسب لأنها هى التى تهمنى فى هذا المقام : ولا أدعى أنى سألمُّ بهذا المنهج كاملا فإن ذلك لا يتسع له البحث وأمامنا من مصادر النحو القرآنى الكتب الكثيرة التى تحتاج إلى الدراسة .

---

(١) معانى القرآن للزجاج بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية لوحة ١٧٥ ج ٤ من نسخة — كتبت فى سنة ٥٨٩ هـ بخط نسخ جميل ، يبتدئ بتفسير سورة يس ، وينتهى بآخر سورة «التين» وبآخره خط محمد بن محمد بن برى اللغوى المشهور بالتملك . وهذا الجزء مصور (ميكروفيلم) من مكتبة السليمانية بتركيا رقم ٢٥٢ — تفسير .

(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٩ دار الطباعة .

(٣) فى لسان العرب : الحور : الرجوع عن الشىء ، وإلى الشىء ، حار إلى الشىء وعنه حوراً ، ومحاراً ، ومحارة ، وحؤورا ، رجع عنه وإليه . وقول العجاج :

(فى بئر لا حورٍ سرى وما شعر) أراد فى بئر لا حؤور فأسكن الواو الأولى وحذفها لسكونها وسكون الثانية بعدها . قال الأزهرى : و(لا) صلة فى قوله : وقال الفراء : (لا) قائمة فى هذا البيت صحيحة . أراد فى بئر ماء لا يحير عليه شيئاً . (اللسان ـ ٦ ص ٣٤٥ ط الأميرية) .

(٤) الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٩ دار الطباعة .

(٥) المرجع نفسه والصفحة .

وإنما أكتفى فى هذا المقام بإشارات عابرة ، تشير إلى المنهج ولا تتعمق فى التفصيل .

فمن منهجه فى الدراسة النحوية ما يأتى :

١ - النظر من خلال الدراسة النحوية إلى الذوق الأدبى ، والأساوب البلاغى بغض النظر عن تقديرات النحاة .

يقول فى قوله تعالى : (هدى للمتقين)[١] « ومحل هدى للمتقين الرفع ؛لأنه خبر مبتدأ محذوف ، أو خبر مع لا ريب فيه ل(ذلك) ، أو مبتدأ إذا جعل الظرف المقدم خبراً عنه .

ويجوز أن ينتصب على الحال ، والعامل فيه معنى الإشارة أو الظرف .

ثم قال :

والذى هو أرسخ عرقًا فى البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحًا ، وأن يقال : إن قوله : (آلم) جملة برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم ، مستقلة بنفسها ، وذلك الكتاب جملة ثانية ، ولا ريب فيه ثالثة ، وهدى للمتقين رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ، وموجب حسن النظم حيث جىء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق ، وذلك لمجيئها متآخية ، آخذاً بعضها بعنق بعض» [٢] .

وفى موطن آخر يقول فى قوله تعالى: (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ، ونحن له عابدون)[٣] ، « ونحن له عابدون عطف على آمنا بالله ، وهذا العطف يرد قول من زعم أن صبغة الله بدل من ملة إبراهيم أو نصب على الإغراء بمعنى عليكم صبغة الله ، لما فيه من فك النظم ، وإخراج الكلام عن التئامه واتساقه ، وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذى ذكره سيبويه ، والقول ما قالت حذام»[٤] .

٢ - يجرى فى معظم تناوله للنحو فى القرآن مجرى مذهب البصريين ، ففى الآية الكريمة : (وقالوا مهما تأتنا به من آية) [٥] يصف مذهب البصريين

---

(١) البقرة : آية ٢ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٢٩ مطبعة الاستقامة .
(٣) البقرة : آية ١٣٨ .
(٤) تفسير الكشاف جـ ١ ص ١٤٧ .
(٥) الأعراف : آية ١٣٢ .

فيها بالسداد ، ولا يكتفى بذلك ، بل يشيد بكتاب سيبويه ، ولا يقنع بهذه الإشادة ، بل يجب الجثو بين يدى الناظر فى كتاب سيبويه [١] .

٣ — اللجوء إلى ظاهر اللفظ ، وقوانين الإعراب ، وإهمال المعنى .

قال الزمخشرى فى قوله تعالى : (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا)[٢] « منكم ، أو إلا اتباعًا قليلا ، [لما ذكر فى الآى قبلها تثبطهم عن القتال ، وإظهارهم الطاعة ، وإضمارهم خلافها] »[٣] ولم يسكت ابن المنير عن هذا التوجيه فقال : « وفى تفسير الزمخشرى هذا نظر ، وذلك أنه جعل الاستثناء من الجملة التى وليها بناء على ظاهر الإعراب ، وأغفل المعنى ، وذلك أنه يلزم على ذلك جواز أن ينتقل الإنسان من الكفر إلى الإيمان ، ومن اتباع الشيطان إلى عصيانه وخزيه ، وليس لله عليه فى ذلك فضل ، ومعاذ الله أن يعتقد ذلك . وبيان لزومه أن لولا حرف امتناع لوجود ، وقد أبانت امتناع اتباع المؤمنين للشيطان ، فإذا جعلت الاستثناء من الجملة الأخيرة ، فقد سلبت تأثير فضل الله فى امتناع الاتباع عن البعض المستثنى ضرورة ، وجعلت هؤلاء المستثنين مستبدين بالإيمان ، وعصيان الشيطان الداعى إلى الكفر بأنفسهم لا بفضل الله . . . ومن المحال أن يعتقد موحد مسلم أنه عصم فى شىء من الأشياء من اتباع الشيطان إلا بفضل الله تعالى عليه »[٤] .

وظننت أن الزمخشرى ربما لجأ إلى هذا التقدير لأنه معتزلى ، لولا أنى وجدت ابن المنير يبين أن تقدير الزمخشرى مخالف لآراء المعتزلة فضلا عن مخالفته لآراء أهل السنة .

قال ابن المنير : « أما قواعد أهل السنة فواضح أن كل ما يعد به العبد عاصيًا للشيطان من إيمان ، وعمل خير مخلوق لله تعالى ، وواقع بقدرته .

وأما المعتزلة فهم — وإن ظنوا أن العبد يخلق لنفسه إيمانه وطاعته إلا أنهم لا يخالفون فى أن فضل الله منسحب عليه فى ذلك لأنه خلق له القدرة التى

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١١٥ .
(٢) النساء : آية ٨٣ .
(٣) الكشاف جـ ١ ص ٤٢٠ .
(٤) الانتصاف : للإمام أحمد بن المنير الإسكندرى (هامش الكشاف جـ ١ ص ٤٢٠) .

بها خلق العبد ذلك على زعمهم ، ودفعه لإرادة الخير .

فقد وضح لك تعذر الاستثناء من الجملة الأخيرة على تفسير الزمخشرى وما أراه إلا واهماً مسترسلا على المألوف فى الإعراب ، وهو إعادة الاستثناء إلى ما يليه من الجمل ، مهملا للنظر فى المعنى »[1] .

[مناقشة لصاحب « منهج الزمخشرى فى تفسير القرآن، وبيان إعجازه »][2].

ذكر مؤلف هذا الكتاب أن الزمخشرى « حين يعرض للقرآن من الوجهة الإعرابية لا ينساق وراء صناعته النحوية كالنحويين ، فيحيف على جانب المعنى ، وإنما يجعل همه المعنى حيثما كان هناك تقدير إعرابى ، فنراه يبين الأحكام النحوية ، وما وراءها من فروق معنوية ، فهو يعالج النحو القرآنى من الناحية التى تخدم تفسير القرآن ، وتنسق معانيه» [3].

وقد أعفانا ابن المنير فى الرد على هذه الفكرة بما رد به على الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى ... (لاتبعتم الشيطان إلا قليلا) حيث بين أن الزمخشرى يسترسل على المألوف فى الإعراب ، ويغفل جانب المعنى .

٤ — ومن منهج الزمخشرى فى تفسيره الاعتماد على القراءة لتصحيح الوجه الإعرابى ، فيقول فى قوله تعالى : (فهى كالحجارة أو أشد قسوة)[4] . « أشد معطوف على الكاف ، إما على معنى أو مثل أشد قسوة ، فحذف المضاف ، وأقيم المضاف إليه مقامه .

وتعضده قراءة الأعمش بنصب الدال عطفاً على الحجارة»[5] .

وفى موطن آخر يقول فى قوله تعالى:(وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لاتعبدون إلا الله)[6] : « قيل معناه أن لا تعبدوا ، فلما حذفت أن رفع كقوله :

* ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى *

ويدل عليه قراءة أن لا تعبدوا »[7] .

---

(١) الانتصاف جـ ١ ص ٤٢٠ .
(٢) تأليف مصطفى الصاوى الجوينى — دار المعارف بمصر .
(٣) منهج الزمخشرى ص ١٦٧ .
(٤) البقرة : آية ٧٤ .
(٥) تفسير الكشاف جـ ١ ص ١١٦ .
(٦) البقرة : آية ٨٣ .
(٧) الكشاف جـ ١ ص ١١٩ .

٥ ــ ومن منهجه فى تفسيره التفرقة بين القراءتين فى الفصاحة ، فى قوله تعالى : (لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم)[١] يقول : « وقرأ ابن كثير بضم الياء من أجرمته ذنبًا إذا جعلته جارمًا له أى كاسبًا ، وهو منقول من جرم المتعدى إلى مفعول واحد ، كما نقل أكسبه المال من كسب المال ، وكما لا فرق بين كسبته مالا ، وأكسبته إياه ، فكذلك لا فرق بين جرمته ذنبًا ، وأجرمته إياه . والقراءتان مستويتان فى المعنى لا تفاوت بينهما إلا أن المشهورة أفصح لفظًا ، كما أن كسبته مالا أفصح من أكسبته .

والمراد بالفصاحة أنه على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدور ، وهم له أكثر استعمالا » [٢] .

٦ ــ ومن منهجه التعرض للغات العرب ، فى قوله تعالى:(يوم يأت)[٣] يقول : « يوم يأت بغير ياء ، ونحوه قولهم : لا أدر ، حكاه الخليل وسيبويه وحذف الياء ، والاجتزاء عنها بالكسرة كثير فى لغة هذيل»[٤] .

أخطاء منهجية وقع فيها الزمخشرى :

من أخطائه المنهجية :

١ ــ عدم التحرى فى النقل ، فقد نقل عن سيبويه فى قوله تعالى:(والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما)[٥] أن عيسى بن عمر قرأ بالنصب « وفضلها سيبويه على قراءة العامة لأجل الأمر ، لأن زيداً فاضربه أحسن من "زيد" "فاضربه" »[٦] .

ويرد ابن المنير على الزمخشرى ، مبينًا أنه نقل خطأ عن سيبويه ، بل إنه لا يفهم مراده .

قال ابن المنير: « قال سيبويه فى : باب [الأمر والنهى] بعد أن ذكر

---

(١) هود : آية ٨٩ .
(٢) الكشاف جـ ٢ ص ٣٣٠ .
(٣) هود : آية ١٠٥ .
(٤) الكشاف جـ ٢ ص ٣٣٥ .
(٥) المائدة : آية ٣٨ .
(٦) الكشاف جـ ١ ص ٤٩١ .

المواضع التى يختار فيها النصب : وملخصها أنه متى بنى الاسم على فعل الأمر ، فذاك موضع اختيار النصب ، ثم قال : كالموضح لامتياز هذه الآية عما فيها اختيار النصب ، وأما قوله عز وجل : (والسارق والسارقة فاقطعوا) وقوله : (الزانية والزانى فاجلدوا)[1] فإن هذا لم يبن على الفعل ، ولكنه جاء على مثال قوله : (مثل الجنة التى وعد المتقون) [2]. ثم قال بعد : (فيها أنهار) ، فيها كذا . . قلت يريد سيبويه تمييز هذه الآى عن المواضع التى بيّن اختيار النصب فيها .

ووجه التمييز بأن الكلام حيث يختار النصب يكون الاسم فيها مبنيًّا على الفعل ، وأما فى هذه الآى ، فليس بمبنى عليه ، فلا يلزم فيه اختيار النصب . قال سيبويه : وإنما وضع المثل للحديث الذى ذكر بعده فذكر أخباراً وقصصًا ، فكأنه قال : ومن القصص مثل الجنة فهو محمول على هذا الإضمار ، والله أعلم . وكذلك الزانية والزانى كما قال جل ثناؤه : (سورة أنزلناها وفرضناها)[3] قال فى جملة الفرائض : الزانية والزانى . ثم جاء فاجلدوا بعد أن مضى فيها الرفع .

قلت يريد سيبويه : لم يكن الاسم مبنيًّا على الفعل المذكور بعد ، بل مبنى على محذوف متقدم ، وجاء الفعل طارئًا . . .

قال سيبويه : وقد قرأ ناس (السارقَ والسارقَة) بالنصب ، وهو فى العربية على ما ذكرت من القوة ، ولكن أبت العامة إلا الرفع .

قلت : [يريد سيبويه] : إن قراءة النصب جاء الاسم فيها مبنيًّا على الفعل ، غير معتمد على متقدم ، فكان النصب قويًّا بالنسبة إلى الرفع حيث يبنى الاسم على الفعل لا على متقدم ، وليس يعنى أنه قوى بالنسبة إلى الرفع حيث يعتمد الاسم على المحذوف المتقدم ، فإنه بيّن أن ذلك يخرجه من الباب الذى يختار فيه النصب ، فكيف يفهم عنه ترجيحه عليه ؟

. . . ثم قال ابن المنير : ولو كان كما ظنه الزمخشرى لم يحتج سيبويه إلى تقدير ، بل كان يرفعه على الابتداء ، ويجعل الأمر خبره ، كما أعربه الزمخشرى.

---

(١) النور : آية ٢ .
(٢) الرعد : آية ٣٥ .
(٣) النور : آية ١ .

فالملخّص على هذا أن النصب على وجه واحد ، وهو بناء الاسم على فعل الأمر والرفع على وجهين : أحدهما ضعيف : وهو الابتداء ، وبناء الكلام على الفعل ، والآخر قوى بالغ كوجه النصب ، وهو رفعه على خبر ابتداء محذوف ، دل عليه السياق .

وحيثما تعارض لنا وجهان فى الرفع وأحدهما قوى والآخر ضعيف تعين حمل القراءة على القوى ، كما أعربه سيبويه رضى الله عنه» [1] .

٢ – ومن أعظم أخطائه المنهجية : نقل النصوص عن غيره دون نسبتها إلى أصحابها ، مما يجعلنا نشك فى أمانة الزمخشرى العلمية ، وهو من هو فى ميدان النحو والتفسير ، وقد بينت فيما سبق كيف سطا على تفسير الرمانى ، وأخذ منه ما أخذ ، ولم يشر إلى ذلك ولو بكلمة واحدة .

٣ – ومن أخطائه المنهجية : ظنه أن القراءة مرجعها إلى اللغة والنحو لا إلى السند والرواية .

يقول الزمخشرى فى قوله تعالى:(هنالك الولاية لله الحقِّ)[2] : « وقرئ الحق بالرفع والجر صفة للولاية ، ولله .

وقرأ عمرو بن عبيد بالنصب على التأكيد كقولك : هذا عبد الله الحق ، لا الباطل وهى قراءة حسنة فصيحة ، وكان عمرو بن عبيد من أفصح الناس وأنصحهم»[3] .

قال أحمد بن المنير يرد عليه زعمه هذا :«فإنه يوهم أن القراءة موكولة إلى رأى الفصحاء واجتهاد البلغاء ، فتتفاوت فى الفصاحة لتفاوتهم فيها وهذا منكر شنيع .

والحق أنه لا يجوز لأحد أن يقرأ إلا بما سمعه فوعاه ، متصلا» [4] .

---

(١) الانتصاف ج ١ ص ٤٩٠ بتصرف .

(٢) الكهف : آية ٤٤ .

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٥٦٦ .

(٤) الانتصاف ج ٥ ص ٥٦٦ (هامش الكشاف) .

٢ ــ البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى :

١ ــ متى ألف ؟ :

ألف أبو حيان كتابه « البحر المحيط » فى أواخر سنة عشر وسبعمائة ، وهى أوائل سنة سبع وخمسين من عمره[١] .

٢ ــ فى أى بلد ألف ؟ :

ألف كتابه فى مصر قال : « حتى ألقيت بمصر عصا التسيار ، وقلت ما بعد "عبادان" من دار ــ إلى أن قال . . . وبها صنفت تصانيفى ، وألفت تآليفى ، ومن بركاتها علىّ تصنيفى لهذا الكتاب ، المقرب من رب الأرباب»[٢] .

٣ ــ مصادر البحر المحيط :

كان أبو حيان منهجيًّا فى تأليفه لهذا الكتاب ، فقد رسم فى مقدمة كتابه المصادر التى اعتمد عليها فى تأليف هذا الكتاب . وفى هذا ما فيه من الدقة والضبط ، والأمانة العلمية .

(ا) فى النحو اعتمد على كتاب سيبويه ، قال : « فجدير لمن تاقت نفسه إلى علم التفسير ، وترقت إلى التحقيق فيه والتحرير أن يعتكف على كتاب سيبويه فهو فى هذا الفن المعول عليه ، والمستند فى حل المشكلات إليه»[٣] .

(ب) وفى القراءات اعتمد على كتب متعددة ، وقد بين أنه ضليع فى هذا الفن فقد قرأ « القرآن بقراءة السبعة بجزيرة الأندلس على الخطيب أبى جعفر أحمد بن على بن محمد الرعينى ، عرف بابن الطباع بغرناطة .

وقرأ القرآن بالقراءات الثمان بثغر الإسكندرية على الشيخ الصالح رشيد الدين أبى محمد عبد النصير بن على بن يحيى الهمدانى ، عرف بابن المريوطى .

وقرأ القرآن بالقراءات السبع بمصر ــ حرسها الله تعالى ــ على الشيخ المسند العدل فخر الدين أبى الطاهر إسماعيل بن هبة الله بن على المليجى»[٤] .

---

(١) البحر المحيط جـ ١ ص ٣ من المقدمة : مطبعة السعادة .

(٢) المرجع نفسه ص ٤ . (٣) المرجع نفسه ص ٣ .

(٤) مقدمة البحر ص ٧ بتصرف .

(ﺣ) كتب التفسير : وأهمها :

١ ــ كتاب الزمخشرى . قال : « فما كان فى كتابى هذا من تفسير الزمخشرى ــ رحمه الله ــ فأخبرنى به أستاذنا العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الزبير قراءة منى عليه فيه »[١] :

٢ ــ تفسير ابن عطية : قال : « وما كان فى هذا الكتاب من تفسير ابن عطية فأخبرنى به القاضى الإمام أبو على الحسين بن عبد العزيز بن أبى الأحوص القرشى ، قراءة منى عليه لبعضه»[٢] .

٣ ــ كتاب التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير من جمع شيخنا الصالح القدوة الأديب جمال الدين أبى عبد الله محمد بن سليمان بن حسن بن حسين المقدسى عرف بابن النقيب رحمه الله تعالى «إذ هو أكبر كتاب رأيناه صنف فى علم التفسير . وهذا الكتاب روايتى بالإجازة من جامعه رحمه الله تعالى»[٣] .

٤ ــ منهجه :

كفانا أبو حيان مئونة تتبع منهجه فى تفسيره ، فقد رسم فى مقدمته لتفسيره منهجاً واضحاً ، التزمه ، وسار على نهجه .

فمن منهجه فى هذا التفسير ما يأتى :

١ ــ الابتداء بالكلام على مفردات الآية التى يفسرها لفظة لفظة فيما يحتاج إليه من اللغة ، والأحكام النحوية التى لتلك اللفظة ــ قبل التركيب[٤] .

٢ ــ ثم الشروع فى تفسير الآية ذاكراً سبب نزولها إذا كان لها سبب ، ونسخها ومناسبتها ، وارتباطها بما قبلها[٥] .

٣ ــ حشد القراءات الشاذة ، والمستعملة ، ذاكراً توجيه ذلك فى علم

---

(١) المقدمة للبحر ص ١٠ .
(٢) مقدمة البحر ص ١٠ و ص ١١
(٣) مقدمة البحر ص ١١ بتصرف
(٤) من المقدمة ص ٤ .
(٥) المرجع والصفحة .

العربية ، ناقلا أقاويل السلف والخلف فى فهم معانيها ، متكلماً على جليها وخفيها بحيث لا يغادر منها كلمة وإن اشتهرت حتى يتكلم عليها ، مبيناً ما فيها من غوامض الإعراب ، ودقائق الآداب [١] .

٤ — عدم تكريره للكلام فى لفظ سبق ، ولا فى جملة تقدم الكلام عليها ، ولا فى آية فسرت ، بل يذكر فى كثير منها الحوالة على الموضع الذى تكلم فيه على تلك اللفظة ، أو الجملة ، أو الآية [٢] .

٥ — ومن منهجه فى النحو القرآنى أنه إذا كان الحكم غريباً أو خلاف مشهور ما قال معظم الناس يذكر الدليل ، وما دل عليه ظاهر اللفظ ، مرجحاً بذلك ما لم يصد عن الظاهر ما يجب إخراجه به عنه ، منكباً فى الإعراب عن الوجوه التى تنزه القرآن عنها ، مبيناً أنها مما يجب أن يعدل عنه ، وأنه ينبغى أن يحمل على أحسن إعراب ، وأحسن تركيب ، إذ كلام الله تعالى أفصح الكلام ، فلا يجوز فيه جميع ما يجوزه النحاة فى شعر الشماخ أو الطرماح ، وغيرهما من سلوك التقادير البعيدة والتراكيب القلقة ، والمجازات المعقدة [٣] .

٦ — ثم يختم الكلام فى جملة من الآيات التى فسرها إفراداً وتركيباً بما ذكروا منها من علم البيان والبديع ملخصاً [٤] .

٧ — ثم يتبع آخر الآيات بكلام منثور ، يشرح به مضمون تلك الآيات على ما اختار من تلك المعانى .

ويختم أبو حيان منهجه بقوله : وستقف على هذا المنهج الذى سلكته إن شاء الله تعالى [٥] .

نماذج معدودة توضح منهجه وطريقة تناوله للمسائل النحوية فى القرآن الكريم :

وأقول : معدودة ، لأن المقام يتطلب ذلك ، ولا زال فى جعبة البحث الكثير الذى لا بد من تناوله حتى تكمل صورة البحث ، وعندها تقتنع نفسى ، ويستريح ضميرى .

---

(١) مقدمة البحر ص ٤ .
(٢) مقدمة البحر ص ٤ .
(٣) مقدمة البحر ص ٤ و ص ٥ .
(٤) مقدمة البحر ص ٥ .
(٥) مقدمة البحر ص ٥ .

١ – يقول فى قوله تعالى : (وإذْ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله . . .) [١] – بعد تعرضه لكلمة الميثاق وأصلها ، وما قيل فيها : « وقرأ ابن كثير ، وحمزة والكسائى لا يعبدون بالياء ، وقرأ الباقون بالتاء من فوق . وقرأ أبى ، وابن مسعود ، لا يعبدوا على النهى » [٢] .

وبعد نسبة القراءات إلى أصحابها التزم منهجه فى تخريج هذه القراءات على علم العربية ، مبينًا ما فيها من غوامض الإعراب . فابتدأ بتوجيه قراءة من قرأ : (لا يعبدون) بالياء ، فقال : « فأما (لا يعبدون) فذكروا فى إعرابه وجوهًا :

أحدها : أنه جملة منفية فى موضع نصب على الحال من بنى إسرائيل أى غير عابدين إلا الله ، أى موحدين الله ، ومفرديه بالعبادة ، وهو حال من المضاف إليه ، وهو لا يجوز على الصحيح .

والثانى : أن تكون الجملة جوابًا لقسم محذوف ، دل عليه قوله : أخذنا ميثاق بنى إسرائيل أى استحلفناهم ، والله (لا يعبدون) ونسب هذا الوجه إلى سيبويه . وأجازه الكسائى ، والفراء ، والمبرد .

الوجه الثالث : أن تكون أن محذوفة ، وتكون أن وما بعدها محمولا على إضمار حرف جر ، التقدير ، بأن لا تعبدوا إلا الله ، فحذف حرف الجر إذ حذفه مع أن ، وإن جائز مطرد ، إذ لم يلبس ، ثم حذف بعد ذلك أن فارتفع الفعل ، فصار ، لا تعبدون ، قاله الأخفش ونظيره من نثر العرب "مره يحفرها" ومِنْ نظمها .

* ألا أيهذا الزاجرى أحضرَ الوغى *

أصله : مره بأن يحفرها ، وعن أن أحضر الوغى ، فجرى فيه من العمل ما ذكرناه .

وهذا النوع من إضمار أن فى مثل هذا مختلف فيه ، فمن النحويين من منعه ، وعلى ذلك متأخرو أصحابنا .

---

(١) البقرة : آية ٨٣ .

(٢) البحر جـ ١ ص ٢٨٢ .

وذهب جماعة من النحويين إلى أنه يجوز حذفها فى مثل هذا الموضع ، ثم اختلفوا ، فقيل يجب رفع الفعل إذ ذاك ، وهذا مذهب أبى الحسن . ومنهم من قال : بنفى العمل ، وهو مذهب المبرد والكوفيين»[١] .

وأبو حيان لا ينسى نفسه ، ورأيه فى هذا الموضوع فهو يقول :

« والصحيح قصر ما ورد من ذلك على السماع ، وما كان هكذا فلا ينبغى أن تخرج الآية عليه ، لأن فيه حذف حرف مصدرى ، وإبقاء صلة فى غير المواضع المنقاس ذلك فيها»[٢] .

الوجه الرابع : « أن يكون التقدير أن لا تعبدوا ، فحذف أن وارتفع الفعل ، ويكون ذلك فى موضع نصب على البدل من قوله: (ميثاق بنى إسرائيل) .

وفى هذا الوجه ما فى الذى قبله من أن الصحيح عدم اقتياس ذلك أعنى حذف أن ، ورفع الفعل ، ونصبه .

الوجه الخامس : أن تكون محكية بحال محذوفة أى قائلين لا تعبدون إلا الله ويكون إذ ذاك لفظه لفظ الخبر ، ومعناه النهى ، أى قائلين لهم : لا تعبدوا إلا الله . قاله الفراء ، ويؤيده قراءة أُبَىّ وابن مسعود .

الوجه السادس : أن يكون المحذوف القول ، أى وقلنا لهم : لا تعبدون إلا الله . وهو نفى فى معنى النهى أيضاً ، قاله الزمخشرى ، كما تقول : تذهب إلى فلان تقول له كذا ، تريد الأمر ، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهى ، لأنه كان سورع إلى الامتثال والانتهاء ، فهو يخبر عنه .

— انتهى كلامه — وهو حسن .

الوجه السابع : أن يكون التقدير أن لا تعبدون ، وتكون أن مفسرة لمضمون الجملة ، لأن فى قوله : أخذنا ميثاق بنى إسرائيل معنى القول ، فحذف (أن) المفسرة ، وأبقى المفسر ، وفى جواز حذف (أن) المفسرة نظر .

الوجه الثامن : أن تكون الجملة تفسيرية ، فلا موضع لها من الإعراب وذلك

(١) البحر جـ ١ ص ٢٨٣ .

(٢) المرجع نفسه والصفحة .

أنه لما ذكر أنه أخذ ميثاق بنى أسرائيل ، كان فى ذلك إبهام للميثاق ما هو ؟ فأتى بهذه الجملة ، مفسرة للميثاق»[١] .

وهكذا دأب أبى حيان فى تفسيره يعرض للآراء موضحاً محللا ، وله فى كل رأى نظرة صائبة ، وفكرة ثاقبة . مع ملاحظة أنه خلط فى هذه الآية بين القراءتين ، (لا تعبدون) بالتاء ، (ولا يعبدون) بالياء ، فى التوجيه الإعرابى ، لأن القراءة بالياء ، أو بالتاء لا تقف عقبة أمام ما ذكر من وجوه الإعراب .

٢ — ويتهم أبو حيان ابن مالك فى تفسيره بأنه يصدر آراء لم يقلها النحويون قبله ، وذلك أنه قال فى قوله تعالى : (لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن ، أو تفرضوا لهم فريضة)[٢] : «أن ما تكون شرطاً ظرف زمان . وقد رد ذلك عليه ابنه بدر الدين محمد فى بعض تآليفه . . ثم قال أبو حيان : على أن ابن مالك — ما ذهب إليه لا يقوله النحويون ، وإنما استنبط هو ذلك من كلام الفصحاء على زعمه»[٣] . وفى رأى أبى حيان أن « ما » هذه « ما » الظرفية المصدرية شبيهة بالشرط ، تقتضى التعميم نحو : أصحبك ما دمت لى محسناً فالمعنى كل وقت دوام إحسان[٤] .

٣ — ويتهم أبو حيان فى تفسيره الزمخشرى بأنه غير ملم بقواعد الإعراب فيقول فى قوله تعالى : (فشربوا منه إلا قليلاً منهم)[٥] ، «وقرأ عبد الله وأبى ، والأعمش إلا قليلٌ بالرفع . قال الزمخشرى : وهذا من ميلهم مع المعنى ، والإعراض عن اللفظ جانباً ، وهو باب جليل من علم العربية ، فلما كان معنى : فشربوا منه فى معنى : فلم يطيعوه حمل عليه ، كأنه قيل فلم يُطِعه إلا قليل منهم .

قال أبو حيان : والمعنى أن هذا الموجب الذى هو (فشربوا منه) هو فى معنى المنفى كأنه قيل : فلم يطيعوه فارتفع قليل على هذا المعنى ، ولو لم يلحظ فيه معنى النفى لم يكن ليرتفع ما بعد إلا فيظهر أن ارتفاعه على أنه بدل من جهة

---

(١) البحر جـ ١ ص ٢٨٣ .
(٢) البقرة : آية ٢٣٦ .
(٣) البحر جـ ٢ ص ٢٣١ .
(٤) البحر جـ ٢ ص ٢٣١ .
(٥) البقرة : آية ٢٤٩ .

المعنى ، فالموجب فيه كالمنفى .

وما ذهب إليه الزمخشرى من أنه ارتفع ما بعد إلا على التأويل هنا دليل على أنه لم يحفظ الاتباع بعد الموجب ، فلذلك تأوله » .

وأخذ أبو حيان يجعل من نفسه أستاذاً للزمخشرى ، مبيناً له أنه « إذا تقدم موجب جاز فى الذى بعد إلاّ وجهان أحدهما : النصب على الاستثناء وهو الأفصح ، والثانى أن يكون ما بعد إلا تابعاً لإعراب المستثنى منه إن رفعاً فرفع ، أو نصباً ، فنصب ، أو جراً فجر »[1] .

ثانياً : كتب الغريب :

١ ــ معنى الغريب :

يوضح لنا الرافعى فى كتابه « إعجاز القرآن» معنى الغريب فى القرآن الكريم فيقول : « فى القرآن الكريم ألفاظ اصطلح العلماء على تسميتها بالغرائب ، وليس المراد بغرابتها أنها منكرة ، أو نافرة ، أو شاذة فإن القرآن منزه عن هذا جميعه ، وإنما اللفظة العربية ها هنا هى التى تكون حسنة مستغربة فى التأويل بحيث لا يتساوى فى العلم بها أهلها وسائر الناس »[2] .

٢ ــ الغريب من القرآن فى عهد الرسول عليه السلام :

ولم يكن الغريب مستحدثاً فى عهد التابعين ، أو فى العهود التى جاءت من بعدهم بل كان فى القرآن الكريم بعض كلمات تحتاج إلى إيضاح على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الرسول عليه السلام يوضح هذا الغامض ، ويبين هذا الصعب بما علمه ربه [3]

وكان ابن عباس يلجأ فى تفسير هذا الغريب إلى الشعر ، لأنه ديوان العرب والقرآن نزل بلغتهم التى بها ينشدون الشعر ، وعلى منوالها يؤلفون القصائد ، ولعل ابن عباس كان متأسياً فى منهجه هذا بما رواه « أن رجلا سأل النبى صلى الله

---

(١) البحر المحيط جـ ٢ ص ٢٦٦ ص ٢٦٧ .

(٢) إعجاز القرآن للرافعى ص ٧٤ . .

(٣) انظر قصة هذا التوضيح فى ص ٢١٦ من هذا الكتاب .

عليه وسلم ، فقال : أى علم القرآن أفضل ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : عربيته ، فالتمسوها فى الشعر»[١] .

على أن بعض الصحابة كأبى بكر ، وعمر — وهما مَنْ هما فى العربية ومعرفة كلام العرب — وغيرهما — قد تحرجوا من توضيح هذا الغريب ، والقول فيه برأى[٢] وسار على منهج هذا الفريق المتحرج من اللغويين الأصمعى «حكى عنه أنه سئل عن قوله سبحانه : (قد شغفها حبًّا)[٣] فسكت — وقال : هذا فى القرآن ثم ذكر قولا لبعض العرب فى جارية لقوم أرادوا بيعها ، أتبيعونها ، وهى لكم شغاف ؟ ولم يزد على ذلك »[٤] .

٣ — أول من صنف فى غريب القرآن :

يعترف السيوطى فى كتابه « الوسائل »أن « أول من صنف فى غريب القرآن أبو عبيدة معمر بن المثنى[٥]أخذ ذلك من أسئلة نافع بن الأزرق لابن عباس»[٦]

ومعنى ذلك أن أبا عبيدة كان المؤسس الأول للتصنيف فى غريب القرآن، لأنه «جاء بعد قتادة بن دعامة السدوسى م سنة ١١٧هـ وأبى عمرو بن العلاء م ١٥٤هـ، وهما لم يخلفا لنا أثراً مكتوبًا وإنما كانت الأخبار تنقل عنهما مشافهة »[٧] .

٤ — كتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة :

إذا رجعنا إلى كتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة ، وجدنا فيه كثيراً من المسائل النحوية التى دارت حول الكثير من الآيات القرآنية ، ومن ثم فإننا نعتبر أن مجاز القرآن مصدر من مصادر النحو القرآنى .

---

(١) مقدمتان فى علوم القرآن ص ٢٦١ .

(٢) انظر ص ٢١٧ من هذا الكتاب .

(٣) يوسف : آية ٣٠ .

(٤) رسالة الخطابى فى إعجاز القرآن ص ٣١ من كتاب : ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن تحقيق الأستاذين : محمد خلف الله ، ومحمد زغلول سلام — دار المعارف .

(٥) ترجمته بالبغية ص ٣٩٥ .

(٦) الوسائل فى مسامرة الأوائل : السيوطى ص ١٢١ .

(٧) من مقدمة تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى تحقيق الأستاذ محمد عبد الغنى حسن ص ٥ ، مطبعة الحلبى سنة ١٩٥٥ ط أولى .

وهذا الكتاب ، وإن كان يحمل اسم المجاز ، فهو فى حقيقة أمره كتاب يدور حول الغريب من الكلمات القرآنية ، وتفسير هذا الغريب بالشعر وكلام العرب ، ولا ينسى أبو عبيدة أن يتعرض فى غريبه هذا لكثير من المسائل النحوية ، مما جعلنى أخص كتابه بمزيد من الاهتمام على أن كتاب أبى عبيدة ليس هو الكتاب الوحيد فى هذا المجال ، فهناك كتب عديدة دارت حول الغريب ، وحول مشكلاته كتفسير غريب القرآن لابن قتيبة الذى انتفع به الطبرى « ونقل ألفاظه نقلا حرفيًّا دون أن يشير إلى ابن قتيبة بأية إشارة واضحة أو مبهمة» (١) وككتاب « لغات القرآن » لأبى حيان الأندلسى (٢) . وككتاب «اللغات فى القرآن» لإسماعيل بن عمرو (٣) .

ونحن لا نستطيع أن نتلمس فى هذه الكتب النحو القرآنى ، لأن المقام لا يتسع لذلك ونكتفى بدراسة موجزة حول : « مجاز القرآن » ليكون نموذجًا ينير الطريق حول كتب الغريب .

معنى المجاز :

ليس المراد بالمجاز فى كتاب أبى عبيدة المجاز البلاغى الذى يقابل الحقيقة ، ولعل هذه التسمية جاءت من قبيل تكرر كلمة المجاز فى هذا الكتاب .

والذى يدل على أن هذا الكتاب فى غريب القرآن ما ذكره ابن النديم فى الفهرست بأن لأبى عبيدة كتاب « غريب القرآن »(٤) .

ولم ينص فى كتابه على أن لأبى عبيدة كتابًا آخر اسمه (المجاز) ويرى صاحب كتاب « أثر القرآن »(٥) أن « اسمى مجاز القرآن، وغريب القرآن كليهما لكتاب واحد ، ويرجح "هذا" الاحتمال ، موضوع الكتاب الذى بين أيدينا باسم كتاب "المجاز فى تفسير غريب القرآن" ، وهو مخطوط مصور بكلية الآداب

---

(١) انظر مقدمة تفسير غريب القرآن لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، تحقيق السيد أحمد صقر مطبعة الحلبى سنة ١٩٥٨ م .

(٢) مخطوط (التيمورية) ٧٤ لغة .

(٣) هذا الكتاب مطبوع . وانظر كتب غريب القرآن فى الفهرست لابن النديم ص ٥٨ مطبعة الاستقامة .

(٤) الفهرست ص ٥٨ مطبعة الاستقامة .

(٥) أثر القرآن فى تطور النقد العربى للدكتور محمد زغلول سلام (دار المعارف بمصر) .

بالإسكندرية تحت رقم ٣١٨٤ب ، ويتبين لقارئه أنه يبحث فى معانى غريب اللغة واللفظ »[١] .

التباس كلمة المجاز على بعض الباحثين :

التبست كلمة المجاز هذه على المرحوم الأستاذ عبد العزيز البشرى ، فقد ذهب إلى أن كتاب (مجاز القرآن) لأبى عبيدة يدور حول بيان الحقيقة من المجاز فى القرآن الكريم .

وقد رد الأستاذ أمين الخولى على الأستاذ البشرى هذا الظن ، وبين أن « الحق الذى قاله القدماء وتنطق به القطعة المحفوظة بدار الكتب المصرية من كتاب أبى عبيدة نفسه — الحق أن هذا الكتاب فى تفسير القرآن »[٢] .

وقد استدل أمين الخولى بقول ابن تيمية عنه فى كتابه « الإيمان » إذ يقول : « أول من عرف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه ، ولكنه لم يعن بالمجاز ما هو قسيم الحقيقة ، وإنما عنى بمجاز الآية ما يعبر به عن الآية »[٣] .

ومما يجدر ذكره فى هذا المقام أن الزميل الدكتور حفنى شرف ، وقع فى هذه الشبهة ولم يتنبه إلى « أن المجاز » ليس هو ما يقابل الحقيقة ، بل ما يعبر به عن الآية ، أو لتوضيح الغريب وبيانه . قال الدكتور حفنى شرف بصدد الحديث عن صاحب المجاز : « كان كل همه معرفة الحقيقة والمجاز للألفاظ القرآنية وقرينها بما جاء مثيلا لها فى الأدب العربى مما جعل كتابه يعتبر بحق النواة الأولى للبحوث البيانية »[٤] .

نقد أبى عبيدة فى « المجاز » :

تعرض أبو عبيدة لنقد مر من العلماء بسبب آرائه اللغوية والنحوية فى مجازه .

---

(١) أثر القرآن ص ٣٨ و ص ٣٩ للدكتور محمد زغلول سلام بتصرف .

(٢) مجلة الهلال سنة / ٤٤ سنة ١٩٣٦ ص ٥٤٥ جـ ٥ .

(٣) مجلة الهلال سنة / ٤٤ سنة ١٩٣٦ ص ٥٤٥ .

(٤) من مقدمة بديع القرآن لابن أبى الأصبع المصرى ص٦٠٤ تحقيق الدكتور حفنى محمد شرف ط أولى سنة ١٩٥٧ م .

فمن الناقدين له الفراء : فقال فى « معانيه » عند قوله تعالى :

(ولا الضالين) : « وقد قال بعض ممّنْ لا يعرف العربية : أن معنى (غير) فى (الحمد) معنى سوى ، وأن (لا) صلة فى الكلام ، واحتج بقول الشاعر[1] :

* فى بئر لاحور سرى وما شعر *

وهذا غير جائز . فهو جَحْد محض ، وإنما يجوز أن تجعل « لا » صلة إذا اتصلت بجحد قبلها مثل قوله :

ما كان يرضى رسول الله دينهم والطيبان أبو بكر ولا عمر

فجعل (لا) صلة لمكان الجحد الذى فى أول الكلام ، هذا التفسير أوضح . أراد فى بئر لا حور (لا) الصحيحة فى الجحد ، لأنه أراد فى بئر ماء لا يحير عليه شيئاً ، كأنك قلت : إلى غير رشد توجه وما درى ، والعرب تقول : طحنت الطاحنة فما أحارت شيئاً أى لم يتبين لها أثر عمل » [2] .

ومن الناقدين له أحمد بن فارس غير أنه لم يكن كالفراء ينكر زيادة (لا) فى (ولا الضالين) بل قرر ما ذكره أبو عبيدة بيد أنه خالفه فى تقديره لبيت الشماخ ، ونقده فيه .

قال أحمد بن فارس : أما قوله : إن (لا) فى (ولا الضالين) زائدة ، فقد قيل فيه : إن (لا) إنما دخلت ها هنا مزيلة لتوهم أن الضالين هم المغضوب عليهم ، والعرب تنعت بالواو ، يقولون مررت بالظريف والعاقل فدخلت (لا) مزيلة لهذا التوهم ، ومعلمة أن الضالين هم غير المغضوب عليهم . وأما قوله فى شعر الشماخ : أن (لا) زائدة فى قوله : [ما لأهلك — لا — أراهم][3] فغلط من أبى عبيدة . لأنه ظن أنه أنكر عليهم فساد المال ، وليس الأمر كما ظن ، وذلك أن الشمَّاخ احتج على امرأته بصنيع أهلها أنهم لا يضيعون المال ، وذلك

---

(١) هو العجاج من أرجوزة طويلة يمدح بها عمر بن عبيد الله بن معمر ، وقوله : فى بئر لا حور يريد فى بئر نقص ، ويقال : فلان يعمل فى حور أى فى نقصان ، وهذا على ما يرى أبو عبيدة ، ويرى الفراء أن الحور الرجوع ، ولا للنفى أى سرى فى بئر غير رجوع أى بئر منسوبة إلى عدم الرجوع ، لأنها ترجع عليه بخير والحور يأتى فى معنى النقصان . ومعنى الرجوع ، فأخذ أبو عبيدة بالأول ، والفراء بالثانى . من تحقيقات الشيخ النجار ، ونجاتى بهامش ص ٨ من معانى الفراء ج ١ .

(٢) معانى القرآن للفراء ج ١ ص ٨ .

(٣) أعائش ما لأهلك — لا — أراهم يضيعون الهجان مع المضيع ؟

(الصاحبى) لأحمد بن فارس ص ١٣٩ .

أن امرأة الشماخ ، وهى عائشة قالت للشماخ : لم تشدد على نفسك فى العيش ، حتى تلزم الإبل ، وتعزب فيها ؟ فهون عليك . فرد على امرأته فقال :

مالى أرى أهلك يتعهدون أموالهم ، ولا يضيعونها ، بل يصلحونها وأنت تأمرينني بإضاعة المال [١] .

وعلى الرغم من هذا النقد فإن أبا عبيدة كان « قد أسس مدرسة فى تفسير القرآن عمدتها الأولى الفقه بالعربية وأساليبها »[٢] وحسب أبى عبيدة فى هذا المجال تأثر اللغويين ، والمفسرين ، والنحاة بآرائه ، وبكتابه ، فقد اعتمد على كتابه « ابن قتيبة فى كتابه المشكل والغريب ، والبخارى فى الصحيح ، والطبرى فى تفسيره . . . واستفاد منه أبوعبد الله اليزيدى م ٣١١ ﻫ فى كتابه [غريب القرآن] والزجاج فى معانيه ، وابن دريد فى الجمهرة ، وابن النحاس فى معانى القرآن والأزهرى فى التهذيب ، وأبو على الفارسى فى الحجة ، والجوهرى فى الصحاح ... ومن أهم من استفاد من كتاب « المجاز » من المتأخرين ابن حجر العسقلانى فى فتح البارى» [٣] .

منهجه :

١ ــ كان أبو عبيدة « يعتمد على حسه اللغوى الخاص فى إعراب آيات أو أشعار بدون أن يقدر ما كانت تؤسسه المدرسة النحوية فى عهده من قواعد تلتزم لسير عليها ، ولا تتعداها ، ومن هنا جاء نكيرهم عليه »[٤] .

١ ــ الاهتمام بالناحية اللغوية فى القرآن « وعنايته بالجانب اللغوى صرفته عن الاشتغال بالقصص القرآنى ، وتفصيل القول فيه »[٥] .

٣ ــ تحطيم الحواجز النحوية التى وضعها النحاة أمام النص القرآنى فهو

---

(١) الصاحبى لأحمد بن فارس ص ١٣٨ و ص ١٣٩ .

(٢) من مقدمة كتاب الزينة ص ١٨ .

(٣) من مقدمة مجاز القرآن لمحققه الدكتور محمد فؤاد سركين ط أولى سنة ١٩٥٤ . نشر الخانجى ص ١٧ .

(٤) من مقدمة فؤاد سركين على المجاز ص ١٥ .

(٥) من مقدمة المجاز ص ١٩ .

متحرر ، لا يخضع للقاعدة ، ولكنه يحترم المسموع .

٤ – ومن ثَمَّ « فقد أكثر من الاستشهاد على الآيات بالشعر العربى»[١].

صور من النحو القرآنى فى مجاز أبى عبيدة :

١ – حروف الزيادة فى القرآن الكريم :

قال أبو عبيدة : « ومن مجاز ما يزاد فى الكلام من حروف الزوائد ، قال الله : (إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) [٢] . وقال : (فما منكم من أحد عنه حاجزين)[٣] وقال : (وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن)[٤] وقال : (ما منعك ألاَّ تسجد)[٥].

مجاز هذا أجمع إلغاؤهن»[٦] .

٢ – تحويل فعل الفاعل إلى المفعول :

قال أبو عبيدة : « ومن مجاز ما يحول فعل الفاعل إلى المفعول أو إلى غير المفعول قال : (ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة)[٧] ، والعصبة هى التى تنوء بالمفاتيح»[٨] .

٣ – (مالك يوم الدين)[٩] :

قال أبوعبيدة : نصب على النداء، مجازه : يا مالك يوم الدين لأنه يخاطب شاهداً ، ألا تراه يقول : إياك نعبد ، فهذه حجة لِمَنْ نصب [١٠] .

---

(١) من المقدمة ص ١٩ .

(٢) البقرة : آية ٣٦ .

(٣) الحاقة : آية ٤٧ ..

(٤) المؤمنون : آية ٢٠ .

(٥) الأعراف : آية ١٢ .

(٦) مجاز القرآن ص ١١ .

(٧) القصص : آية ٧٦ .

(٨) المجاز ص ١٢ .

(٩) الفاتحة : آية ٤ .

(١٠) المجاز ص ٢٣ .

٤ — (ولا الضالين) [١] :

قال أبو عبيدة : مجازها غير المغضوب عليهم والضالين ، و (لا) من حروف الزوائد لتقييم الكلام ، والمعنى إلغاؤها .

وقال العجاج : فى بئر لا حور سرى وما شعر .

أى فى بئر حور أى هلكه . . . ثم قال : وفى القرآن آية أخرى : (ما منعك ألاّ تسجد)[٢] ، مجازها ما منعك أن تسجد ولا الضالين ، لا ، تأكيد ، لأنه نفى ، فأدخلتَ (لا) لتوكيد النفى [٣] .

٥ — ويتعرض للقراءات فيقول : ومن مجاز ما قرأته الأئمة بلغاتها ، فجاء لفظه على وجهين أو أكثر .

من ذلك قرأ أهل المدينة : (فبم تبشرون)[٤] ، فأضافوا بغير نون المضاف بلغتهم . وقال أبو عمرو : لا تضاف تبشرون إلاّ بنون الكناية كقولك تبشروننى [٥] .

٦ — (إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) [٦] :

أى أحكم أمراً . قال أبو ذؤيب :

وعليهما مسرودتان قَضَاهمَا[٧] دَاودُ ، أوْصَنَعُ السَّوابغ تُبَّعُ

أى أحكم عملهما . فرفع « فيكون » لأنه ليس عطفاً على الأول ، ولا فيه شريطة فيجازى إنما يخبر أن الله تبارك وتعالى : إذا قال كن ، كان[٨]

وهكذا رأينا أبا عبيدة من خلال هذه النماذج لا يتعمق فى الدراسات النحوية وما فيها من خلافات .

---

(١) الفاتحة : آية ٧ .
(٢) الأعراف : آية ١٢ .
(٣) المجاز ص ٢٦ بتصرف .
(٤) الحجر : آية ٥٤ .
(٥) المجاز ص ١٣ .
(٦) مريم : آية ٣٥ .
(٧) مسرودتان يعنى درعين — وقضاهما — فرغ منهما ، والصنع الحاذق فى العمل ، وتبع هو من حمير ، وكان ملكا .
ديوان المفضليات لأبى العباس المفضل بن يحيى الضبى مع شرح أبى محمد القاسم بن محمد الأنبارى — ص ٨٨١ مطبعة الآباء اليسوعيين .
(٨) المجاز ص ٥٢ .

ثالثا : كتب معانى القرآن :

١ ــ أول من صنف فى معانى القرآن :

يذكر مُحقِّقَا كتاب «معانى القرآن» للفراء أن «أول من صنف فى ذلك أى فى معانى القرآن ــ من أهل اللغة أبو عبيدة معمر بن المثنى»[١] .

وهذا خطأ بين ، فإن أبا عبيدة أول من صنف فى غريب القرآن كما سبق بيانه[٢] .

وأول مؤلف يصادفنا فى كتب الطبقات لمعانى القرآن هو أبو جعفر الرؤاسى ، قال عنه ابن الأنبارى فى نزهة الألبا : «وصنف الرؤاسى تصانيف كثيرة ، منها كتاب معانى القرآن»[٣] وكذلك ذكر السيوطى فى البغية أن للرؤاسى كتاب معانى القرآن[٤] .

وإذا كان الرؤاسى أستاذاً للكسائى ، وقد توفى الكسائى سنة اثنتين أو ثلاث وقيل تسع وثمانين ومائة[٥] فإن الرؤاسى ــ من غير شك ــ أسبق فى الوجود وفى الوفاة من أبى عبيدة معمر بن المثنى الذى ولد سنة ثنتى عشرة ومائة ومات سنة تسع ، وقيل ثمان ، وقيل عشر ، وقيل إحدى عشرة ومائتين[٦] . وكنا نود من مؤلف رسالة أبى زكريا الفراء الدكتور الأنصارى أن يحقق لنا حين تعرضه لمعانى الفراء ، هل كان الفراء متأثراً بأبى جعفر الرؤاسى ، فأخذ هذه التسمية منه ؟ ولم لا ، يقال : إن الفراء أخذ ما فى معانى الرؤاسى وحفظه فأملاه ؟ يدل على ذلك ما رواه محمد بن الجهم السمرى فى صدر كتاب « معانى القرآن » ما نصه : « هذا كتاب فيه معانى القرآن أملاه علينا أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ــ يرحمه الله ــ عن حفظه من غير نسخة فى مجالسه أول النهار من أيام الثلاثاوات ، والجمع فى شهر رمضان ، وما بعده من سنة اثنتين ، وفى شهور

---

(١) مقدمة معانى القرآن للفراء ص ١٢ .
(٢) انظر ص ٢٤٣ من الكتاب .
(٣) نزهة الألبا ص ٦٦ .
(٤) البغية ص ٣٣ .
(٥) البغية ص ٣٣٧ .
(٦) البغية ص ٣٩٥ .

سنة ثلاث ، وشهور من سنة أربع ومائتين»[١] . والصلة بين الرؤاسى والفراء تؤكد هذا المعنى . فالفراء تلميذ للرؤاسى كما ينص على ذلك السيوطى فى البغية[٢]. وفرق بين التأليف والإملاء ، فالتأليف اجتهاد خاص ، يحتاج إلى أناة وفكر ، وبحث ومعاناة ، على حين لا يحتاج الإملاء إلى ذلك ، لأن المملى يأخذ من ذاكرته ، ويستند إلى حافظته من غير معاناة وبحث. هذه لمحة خاطفة أثرتها لأنى كنت أود من الدكتور الزميل أن يعالجها فى بحثه .

٢ ـ المؤلفون فى معانى القرآن :

والمؤلفون فى معانى القرآن كثيرون : أذكر منهم : الرؤاسى ، والكسائى ويونس ابن حبيب ، والمبرد ، وقطرب ، والفراء ، وأبا فيد مؤرج السدوسى[٣].

وذكر بروكلمان : أن لثعلب كتاباً فى معانى القرآن ، ذكره الحريرى فى « درة الغواص »[٤] .

ولا ننسى أن للزجاج أبى إسحاق إبراهيم بن السرى بن سهل كتاب « معانى القرآن »[٥] .

ولأبى جعفر النحاس المصرى مؤلف فى معانى القرآن[٦] .

ولأبى على الفارسى كتاب علق فيه على الزجاج فى كتاب معانى القرآن وناقشه وجادله[٧] .

على أن هذه الكتب لعبت بها يد الفناء والعبث فضاع معظمها ، وبقى أقلها أما هذا الأقل فهو : كتاب معانى القرآن للفراء ، وكتاب معانى القرآن للزجاج ، وكتاب الإغفال لأبى على الفارسى وكتاب معانى القرآن لأبى جعفر النحاس .

---

(١) نقلا عن كتاب أبى زكريا الفراء للدكتور أحمد مكى الأنصارى من ٢٧٠ مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

(٢) انظر البغية ص ٣٣ .

(٣) انظر : الفهرست ص ٥٧ ، ص ٥٨ مطبعة الاستقامة .

(٤) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ترجمة المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار جـ ٢ ص ٢١٣ .

(٥) نزهة الألبا ص ٣٠٨ — ص ٣٠٩ .

(٦) انظر : البغية ص ١٥٧ .

(٧) انظر : البغية ص ٢١٧ .

وسأتناول كل كتاب من هذه الكتب : محاولا التعرف على منهجه ، ومذهب مؤلفه ، وتوثيق هذا المؤلف ما أمكن .

أما الكتاب الأول وهو « معانى القرآن » للفراء ، فقد تحدثت عنه عند بحث «أثر القراءات فى النحو » [1] ونكتفى بما ذكرت عنه هناك إيثاراً للإيجاز ، وبخاصة فإنه من الممكن التوسع فى بحثه ، والإسهاب فى درسه لأن الكتاب طبع منه الجزءان الأول والثانى وقد خصه بمزيد من البحث زميلنا الدكتور الأنصارى فى رسالته : «أبو زكريا الفراء» [2] ، وبحثى لا يتسع لكل ما قيل فيه .

وأما الكتب الأخرى ، وهى : معانى القرآن للزجاج والإغفال لأبى على ومعانى القرآن لأبى جعفر ، فسأتحدث عنها فى هذا الموطن ، لأن الكتب مخطوطة ولم يتعرض أحد من الباحثين لها .

١ ــ معانى القرآن للزجاج [3] :

تضم دار الكتب نسختين من معانى القرآن للزجاج [4] :

١ ــ نسخة رقم ١١١ م تفسير ، وهى نسخة ذات خط جميل ، تبتدئ بسورة النساء ، وتنتهى بآخر سورة هود .

توثيق هذه النسخة :

وأردت أن أتحقق من نسبة هذه النسخة إلى الزجاج ــ لأن كثيراً من الكتب المخطوطة فى دار الكتب المصرية وغيرها منسوبة إلى غير أصحابها ــ كما سيتبين ذلك إن شاء الله فيما بعد ــ فرجعت إلى كتاب : « الإغفال » لأبى على الفارسى ــ لأنه ضم كثيراً من نصوص معانى القرآن للزجاج ، ثم علق عليها مصلحًا ما أخطأ فيه الزجاج ــ فرأيت أن نسبة هذه النسخة إلى الزجاج صحيحة ، لأن النصوص التى أوردها الفارسى فى الإغفال هى نفس النصوص التى أوردها الزجاج فى المعانى .

---

(١) كتاب تحت الطبع .

(٢) طبعت هذه الرسالة .

(٣) توفى الزجاج سنة ٣١١ هـ : انظر البغية ص ١٨٠ .

(٤) هناك عدة أجزاء من معانى القرآن للزجاج صورها معهد إحياء المخطوطات بالجامعة العربية رقم ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ . تفسير ، معظم هذه الأجزاء مصور من مكتبات تركيا ، ومما يجدر ذكره أنه لم تصور نسخة دار الكتب الوحيدة رقم ١١١ م تفسير .

فمثلا : يقول الفارسى فى المسألة الرابعة والأربعين من كتاب الإغفال ما نصه؛

« قال أبو إسحاق فى قوله تعالى : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع)[1] قوله : مثنى ، وثلاث ورباع بدل من (ما طاب لكم) ، ومعناه : اثنين ، اثنين ، وثلاثا ثلاثًا ، وأربعًا أربعًا ، إلا أنه لم ينصرف لجهتين : لا أعلم أحداً من النحويين ذكرهما ، وهما أنه اجتمع فيه علتان : أنه معدول عن اثنين اثنين ، وثلاث ، ثلاث ، وأنه عدل عن تأنيث . . . إلخ»[2].

ولما رجعت إلى هذه الآية فى « معانى القرآن » للزجاج ، وجدت نفس النص الذى نقله أبو على[3] مما يؤكد أن نسبة هذه النسخة إلى الزجاج لا غبار عليها .

٢ — نسخة رقم ٦٣٦ تفسير :

وصفت هذه النسخة فهارس دار الكتب المصرية فقالت ما نصه :

« معانى القرآن العظيم ، وهو تفسير وجيز ، تأليف الشيخ أبى إسحاق إبراهيم ابن محمد بن سهل النحوى ، الشهير بالزجاج »[4] .

ورجعت إلى هذه النسخة لأوثقها — فرأيت بعد بحث وتمحيص أن نسبة هذه النسخة إلى الزجاج خطأ ، والزجاج منها برىء .

وذلك لأمور :

١ — قارنت النص السابق : وهو حديث الزجاج عن قوله تعالى :(فانكحوا ما طاب لكم من النساء ، مثنى ، وثلاث ، ورباع) بما ذكر فى هذه النسخة فى الموضع نفسه فوجدت الفرق كبيراً ، والمنهج متغيراً ، والأسلوب مختلفاً . استمع إلى مؤلف [نسخة رقم ٦٣٦ تفسير] ماذا يقول فى هذه الآية : (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى ، وثلاث ، ورباع) . قال الكلبى : لما نزلت (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا)[5] فتحرجوا عن مال اليتم وعزلوا جميع ماله

---

(١) النساء : آية ٣ .

(٢) الإغفال ص ٣٨٠ .

(٣) انظر : معانى القرآن للزجاج ص ٢ و ٣ نسخة ١١١ م — تفسير مخطوط بدار الكتب .

(٤) فهرس دار الكتب الجزء الأول ص ٦٢ .

(٥) النساء : آية ١٠ .

مخافة النار . وكانوا يتزوجون ما شاءوا من النساء التسع والعشر لم يتحرجوا عن الميل فيما بينهن ، والعدل ، والقسمة فيهن فأنزل الله فإن خفتم إلخ» [١] .

وواضح أن هذا التفسير يهتم بأسباب النزول ، ولا يهتم بالتوجيهات الإعرابية مما يبعد نسبته إلى الزجاج .

٢ — وذليل آخر : ويكمن هذا الدليل فى هذه النسخة نفسها ، ويشير فى جلاء ووضوح إلى أن هذا التفسير ليس للزجاج ، وأن نسبته إليه خطأ صريح . جاء فى مقدمة هذه النسخة ما نصه : « ذكر أسانيد أهل المعانى المروية عن الكسائى . حدثنى أبو نصر محمد بن أحمد النيسابورى المعروف بابن الفراء قال : سمعت الكتاب من أوله إلى آخره ، حدثنا عبد الله بن محمد بن أحمد بن يونس الشعرانى المقرئ قال حدثنا أبو عبد الرحمن بن عبد الرحمن عن نصر بن يوسف النحوى عن على بن حمزة الكسائى . . إلى أن قال : وأما معانى الزجاج حدثنى أبو نصر عن أبى جعفر محمد بن يزيد العمانى عن أبى إسحاق إبراهيم بن السرى الزجاج» [٢] فمؤلف هذا التفسير اقتبس من معانى القرآن للزجاج آراء وضع لها سلسلة من الرواية ابتدأت بأبى نصر ، وانتهت إلى الزجاج . مما يدل على أنه من المؤلفين فى العصور التى جاءت بعد الزجاج بمئات السنين .

وأحببت أن أتحقق من عصر أبى نصر الذى روى عنه هذا المؤلف والمعروف بابن الفراء ، فرجعت إلى كتاب « الأعلام » فرأيت أنه لقب ثلاثة من الأعلام بهذا اللقب .

١ — ابن الفراء : أبو يعلى محمد بن الحسين م ٤٥٨ هـ .

٢ — ابن الفراء : ابن أبى يعلى محمد بن محمد م ٥٢٦ هـ .

٣ — ابن الفراء — أبو خازم محمد بن محمد م ٥٢٧ هـ [٣] .

فإذا صح أن يكون ابن الفراء الذى روى عنه هذا المؤلف هو ابن الفراء أبو يعلى محمد بن الحسين ، يكون هذا المؤلف من رجالات القرن الخامس أو من رجالات القرن السادس إذا صح أنه أحد هذين الأخيرين وإذا كان الأمر كذلك ،

---

(١) معانى القرآن : نسخة رقم ٦٣٦ تفسير .

(٢) مقدمة معانى القرآن ، نسخة رقم ٦٣٦ تفسير .

(٣) الأعلام لخير الدين الزركلى جـ ٥ ص ٣٢٨ ط ثانية .

فإن بينه وبين الزجاج قرابة مائتى عام أو أكثر على وجه التقريب .

من أجل هذا ، فإننا ننفى نفيًا تامًّا نسبة هذه النسخة إلى الزجاج .

ومما يجدر ذكره أن الزميل الدكتور الأنصارى اعتمد على هذه النسخة فى رسالته ونسبها إلى الزجاج حينما تعرض لسلسلة الإسناد لمعانى القرآن للفراء[١] .

من منهج الزجاج فى معانيه وآرائه :

١ ـ يعتقد أن القراءة سنة متبعة ، وأنه لا ينبغى أن يقرأ بكل ما يجيزه النحويون .

يقول فى قوله تعالى : (وآتوا النساء صدقاتهن نحلة)[٢] : « يقال هو صداق المرأة ، وصُدْقة المرأة ، وصَداق المرأة مفتوح أولها :

والذى فى القرآن جمع صَدُقة ، ومن قال : صُدْقة ، قال : صُدُقاتهن كما يقول : غُرْفةَ وغُرُفات ، ويجوز صَدَقاتهن ، وصُدَقاتهن بضم الصاد ، وفتح الدال ، ولا يقرأ من هذا إلا بما قرئ به ، لأن القراءة سنة ، لا ينبغى أن يقرأ فيها بكل ما يجيزه النحويون»[٣] .

٢ ـ ويناقض الزجاج نفسه ، فيهدم قراءة مشهورة ، لأنها خطأ فى المقاييس العربية قال فى قوله تعالى : (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحامِ)[٤] « القراءة الجيدة نصب الأرحام . . . فأما الجر فى الأرحام فخطأ فى العربية . لا يجوز إلا فى اضطرار شعر ، وخطأ أيضًا فى أمر الدين عظيم لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا تحلفوا بآبائكم فكيف يكون تتساءلون به وبالرحم على هذا»[٥] .

٣ ـ ومن منهجة الاستدلال بالقرآن على القرآن ، فيقول فى قوله تعالى[٦] : (يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ، وأيديكم) إلخ قال : « القراءة بالنصب ، وقد قرئت بالخفض ، وكلا الوجهين جائز فى العربية ، فمن

---

(١) انظر ص ٢٧٦ من رسالة « أبو زكريا الفراء » .
(٢) النساء : آية ٤ .
(٣) معانى القرآن للزجاج ورقة / ٤ مخطوط رقم ١١١ تفسير م .
(٤) النساء : آية ١ .
(٥) معانى القرآن للزجاج ورقة / ١ .
(٦) المائدة : آية ٦ .

قرأ بالنصب ، فالمعنى فاغسلوا وجوهكم ، وأيديكم إلى المرافق ، وأرجلكم إلى الكعبين ، وامسحوا برؤوسكم على التقديم والتأخير والواو جائز فيها ذلك كما قال جل وعز : (يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين)[١] ، والمعنى : اركعي واسجدي ، لأن الركوع قبل السجود »[٢] .

٤ – ومن منهجه التعرض قليلا لأسباب النزول :

يقول فى قوله تعالى : (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت)[٣] : « إلى الكاهن والشيطان » ثم يسوق قصة المنافق مع اليهودى حينما رفض المنافق حكم الرسول عليه السلام ، لأنه حكم لليهودى على المنافق ، وانتهى أمره بضرب عنقه على يد عمر بن الخطاب[٤] .

٥ – والزجاج ينكر الجر – على الجوار فى القرآن الكريم فيقول عند تعرضه لآية المائدة (يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة) ... إلخ « فأما الخفض على الجوار ، فلا يجوز فى كتاب الله »[٥] .

هذه مسائل معدودة أردت أن أبين فيها اتجاه الزجاج فى دراسة النحو القرآنى ومنهجه فى كتابه فى إيجاز يشير ولا يفصل ، وحسبى فى هذا المقام أن أرسم الخط العريض لمن يحاول أن يأتى بجديد .

٢ – الإغفال لأبى على الفارسى :

اعتبر كتاب « الإغفال » من كتب المعانى ، لأنه تعليق ، وإصلاح لأخطاء الزجاج فى معانيه .

وكتاب الإغفال ألفه الفارسى ليرد على الزجاج أخطاءه التى وقع فيها ، ولم يكن الفارسى من الهادمين فحسب ، بل كان إذا هدم بنى ، ومن هنا كان

---

(١) آل عمران : آية ٤٣ .

(٢) معانى القرآن للزجاج ورقة / ٥٩ .

(٣) النساء : آية ٦٠ .

(٤) معانى القرآن للزجاج / ٢٦ .

(٥) معانى القرآن للزجاج ورقة / ٦٠ .

بعض المؤرخين يسمى كتابه : كتاب المسائل . المصلحة يرويها عن الزجاج ، وتعرف بالإغفال[١] .

وقد أخطأ القفطى فى « إنباه الرواة » حيث ذكر أن لأبى على الفارسى كتاب الإغفال فيما أغفله الزجاجى فى المعانى ، ولم يتنبه محقق الإنباه لهذا السهو من القفطى ، لأن الإغفال للفارسى فيما أغفله الزجاج لا الزجاجى[٢] .

نسخ الإغفال :

وتضم دار الكتب للإغفال ثلاث نسخ :

١ — نسخة رقم ٥٢ تفسير[٣] .

٢ — نسخة رقم ٨٧٥ تفسير — صفحاتها ٦٨٠ صفحة .

٣ — نسخة رقم ٦٩٩ تفسير صفحاتها ٦٤٩ صفحة .

والنسخة الأخيرة أجمل النسخ لجمال خطها ، ووضوح كلماتها .

٤ — وقد صور معهد المخطوطات نسخة دار الكتب رقم ٥٢ تفسير تحت رقم ٢٤ تفسير ، وصور الجزء الثانى من نسخة أخرى منه كتبت سنة ٦٥٤ ، يبتدئ بقوله تعالى :

(يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة)[٤] وينتهى بآخر القرآن .

---

(١) الفهرست ص ١٠١ مطبعة الاستقامة .

(٢) انظر : إنباه الرواة جـ ١ ص ٢٧٤ .

(٣) النسخة رقم ٥٢ تفسير — دار الكتب :

كتبت بخط مغربى واضح تسهل قراءته لمن تدرب عليه . وفى الصفحة الأولى من هذه النسخة كتب ما يلى :
هذا كتاب الإغفال للإمام البارع العلامة الشيخ أبو على أحمد بن عبد الغفار الفارسى رحمه الله تعالى .
ذكر فيه ما أغفله أبو إسحاق إبراهيم الزجاج فى كتابه « معانى القرآن العظيم » واستدرك عليه ما فاته .
وفى أسفل هذه الصفحة كتبت العبارة التالية :

« مشترى من السيد أمين رمضان فى نوفبر »

هذا ، وتحتوى هذه النسخة على ١٢٣ ورقة ، وتبتدئ بسورة الفاتحة ، وتنتهى بسورة الجمعة . على أنه لم يتناول من هذه السورة إلا مسألة واحدة ، وهى المسألة الأولى حيث تعرض فيها لنقد الزجاج فى قوله تعالى : (فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) .

ويختم الكلام بعد تعقيب أبى على لهذه المسألة بالعبارة التالية « تم جميع الكتاب والحمد لله رب العالمين » وفى رأيى أن الكتاب لم ينته عند هذه المسألة ، لأنه ذكر فى سورة الجمعة المسألة الأولى ، وهذا يدل على أن أبا على تكلم فى المسألة الثانية والثالثة ، وإلا لما أطلق على هذه المسألة أنها أولى المسائل

ويبدو أن الجامع لهذا الكتاب لم يعثر إلا على المسألة الأولى من هذه السورة وبها ختم كتابه .

(٤) البقرة : آية ١٥٣ .

وقد صورت هذه النسخة من مكتبة الشهيد على بإستانبول تحت رقم ٢٥ تفسير [١].

٥ ـ ومن الإغفال نسخة أخرى فى مكتبة الأوقاف بطرابلس الغرب خزانة ١/ رف ٤ رقم ٩٤ ، وهى مكتوبة سنة ٦٧١ هـ [٢] .

منهج الفارسى فى الإغفال :

ذكر الفارسى فى مقدمته لكتاب الإغفال :

١ ـ أن هذه المسائل التى ذكرها فى كتابه إنما ذكرها للإغفال الواقع فيها ، ومن أجلها سمى كتابه « الإغفال » .

٢ ـ ذكر كلام الزجاج بلفظه ، وعلى جملته عن النسخة التى سمعها منه .

٣ ـ تتبع هذه المسائل بما يراه على ضوء إلمامه بالنحو [٣] .

هذا وقد تناول الدكتور عبد الفتاح شلبى كتاب الإغفال فى شىء من التفصيل والإطناب ، فأغنانا عن الخوض فيه، لمعرفة الزمن الذى تم فيه تأليفه ومنهجه ، وطريقة تناوله لمسائل النحو إلى غير ذلك من البحوث التى عرض لها الباحث [٤] .

بعض صور من مسائل الإغفال :

١ ـ إياك نعبد :

قال فى قوله تعالى : (إياك نعبد) ، إياك نصبه لوقوع الفعل عليه ، وموضع الكاف فى إياك خفض بإضافة إيّا إليها ، وإيّا اسم للمضمر المنصوب ، إلا أنه ظاهر يضاف إلى سائر المضمرات نحو قولك : إياك ضربت ، وإياك حدثت ، ولو قلت : إيا زيد حدثت كان قبيحاً ، لأنه خص به المضمر .

وقد روى عن العرب (رواه الخليل) : إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب . إلخ قال أبو على أيده الله : الذى يدل على أن هذا الاسم مضمر ليس بمظهر أنه فى جميع الأحوال منصوب الموضع ، وليس فى الأسماء الظاهرة اسم يلزمه الانتصاب ولا يرتفع إلا ما كان ظرفاً ، وليس إيا بظرف ، فتلزم

---

(١) انظر : فهرس المخطوطات المصورة بالجامعة العربية جـ ١ ص ٢٠ .

(٢) مجلة المجمع العلمى العربى ، مجلد / ٣٤ هامش ص ٦٠٩ .

(٣) الإغفال : رقم ٦٩٩ تفسير .

(٤) انظر : أبو على الفارسى للدكتور عبد الفتاح شلبى من ص ٤٧٦ إلى ص ٤٨٧ .

إجازة هذا الحكم عليه فكونه متنصبًا أبداً دليل ، أنه ليس بظاهر .

ويدل أيضًا على أنه ليس بظاهر تغير ذاته ، وامتناع ثباته فى حال الرفع والجر وليس كذلك الأسماء الظاهرة ألا ترى أنها تعتقب عليها الحركات فى آخرها ويحكم لها بها فى موضعها من غير تغيير نفسها ؛ فمخالفة هذا الاسم فى هذا الذى وصفناه للمظهر ، يدل على أنه مضمر ، ليس بمظهر[1] .

٢ - والفارسى يصحح فى الإغفال خطأ وقع فيه الزجاج حيث نقل عن سيبويه قولا لم يقله سيبويه .

قال فى قوله تعالى : (وقالوا لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة) [2] .

قال الزجاج : « تمسنا نصب بلن ، وقد اختلف النحويون فى تفسير علة النصب بلن ، فروى عن الخليل فيها قولان : أحدهما : أنها تنصب كما تنصب أن ، وليس ما بعدها بصلة لها ، لأن لن يفعل نفى سيفعل ، فيقدم ما بعدها عليها نحو قولك : زيداً لن أضرب .

وقد روى عن سيبويه عن بعض أصحاب الخليل عن الخليل أنه قال : الأصل فى لن : لا أن ، ولكن الحذف وقع استخفافًا ، وزعم سيبويه أن ذلك ليس بجيد ، ولو كان كذلك لم يجز زيداً لن أضرب .

قال أبو على : قد تقدم إفسادنا لما ذكره فى لن وعلى حيث ذكر ذلك فى قوله تعالى : (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا)[3] فأما فى هذا الموضع ففيه غلط فى الحكاية ، وهو ما ذكره فى (لن) من أنه روى عن الخليل فيه قولان ؛ ولم يرو عنه فيه إلا قول واحد وهو ما رواه عنه سيبويه .

قال سيبويه فى لن : أما الخليل فزعم أنها (لا أن) ولكنهم حذفوا لكثرته فى كلامهم ، كما قالوا ، ويْلُمِّه ، وكما قالوا : يومئذ ، وجعلت بمنزلة حرف واحد ، كما جعلوا هلا بمنزلة حرف واحد ، فإنما هى (هل ، ولا .) فهذا ما روى عن الخليل فى لن ، ولم يرو عنه فيها غيره ، ولم يرو عنه أنها تنصب كما تنصب (أن) وما ذكره أيضًا من قوله : روى سيبويه عن بعض أصحاب الخليل

---

(١) الإغفال ص ٣٠ و ص ٣١

(٢) البقرة : آية ٨٠ .

(٣) البقرة : آية ٢٤ .

إنما حكى هو عن نفسه عن الخليل ، وقد كتبت لفظة « عن الخليل » قبل: والروايتان عن الخليل إنما هما فى إذاً وليس فى لن ، فتوهمهما أبو إسحاق فى لن ، وكذلك رواه سيبويه عن بعض أصحاب الخليل عن الخليل ، وإنما هى فى إذاً ، ليست فى لن»(١) .

على هذا النهج يسير أبو على فى الإغفال ، موضحًا ، مصلحًا ، معللا ، محققًا وما ذكرته من بعض صور الإغفال فى المسائل النحوية غيض من فيض ، وقليل من كثير ، يشير إلى نهجه ، ويوضح طريقته فى تناوله لمسائل الزجاج وإصلاحها .

٣ — معانى القرآن لأبى جعفر النحاس (٢) :

١ — نسخ هذا الكتاب :

ليس فى مخطوطات دار الكتب من هذا الكتاب غير نسخة واحدة ، تبتدئ من أول الفاتحة إلى آخر سورة مريم تحت رقم ٣٨٥ تفسير .

٢ — ومقدمة هذه النسخة بها عدة خروم ، وكثير من جمل افتتاحيتها ضمائع .

٣ — ومن بقية ما بقى من هذه المقدمة نستطيع أن نتلمس منهج النحاس فى كتابه .

٤ — من منهجه فى معانيه :

١ — الحديث عن تفسير المعانى ، وأحكام القرآن ، والناسخ والمنسوخ من المتقدمين عن الأئمة .

٢ — تسجيل أقوال الجلة من العلماء باللغة ، وأهل النظر بما يحضره .

٣ — توضيح تصريف الكلمة ، واشتقاقها إن علم ذلك .

٤ — الإتيان من القرآن بما يحتاج إلى تفسير معناه .

٥ — اللجوء إلى الإعراب لتوضيح المعنى .

---

(١) الإغفال ص ٢١٩ ، ص ٢٢٠ .

(٢) طبقات اللغويين والنحويين ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، وترجمته فى ضوء التحليل البحث فى رسالة الماجستير ص ١١ عبد العال سالم . (المدرسة النحوية فى مصر والشام فى القرنين السابع والثامن من الهجرة مخطوط : مكتبة كلية دار العلوم) .

٦ — تسجيل احتجاج العلماء فى مسائل سأل عنها الملحدون [١] .

هذه خلاصة لمنهجه فى مقدمة معانيه ، ويتضح من هذا المنهج أن كتابه (المعانى) ليس كتاب إعراب أو نحو، وإنما هو كتاب تفسير ، يلم بأحكام الناسخ والمنسوخ ، ويتحدث عن أحكام القرآن، ويهتم بتفسير معانى الآيات ، ولا يلجأ إلى الإعراب إلا لتوضيح هذه المعانى .

بعض أمثلة توضح منهجه :

١ — (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه) [٢] .

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه ، الكبائر للشرك بالله ، والسحر وقذف المحصنة ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والفرار من الزحف ، وعقوق الوالدين . وقال عبد الله بن مسعود : الكبائر : الشرك بالله ، والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله ، وأمن مكر الله . . . إلخ[٣] .

٢ — ويتجه إلى اللغة لتفسير لفظ ، وتوضيح معنى ، فيقول فى قوله تعالى:

(لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم) [٤] : « قال الحسن وقتادة : سِنَة : نعسة وأنشد أهل اللغة :

وسنان أقصده النعاس فَرَنَّقَتْ فى عينه سِنَةٌ ،وليس بنائم[٥]

والمعنى لا يغفل عن تدبير الخلق»[٦] .

ولم يكثر النحاس فى معانيه من مسائل النحو والإعراب ، لأنه ادخر ذلك لكتاب إعراب القرآن الذى نسب إليه ، وهو كتاب مشهور سنخصه بالعرض والبحث عند التحدث عن كتب : إعراب القرآن ، إن شاء الله .

---

(١) مقدمة معانى القرآن لأبى جعفر النحاس ورقة / ١ .

(٢) النساء : آية ٣١ .

(٣) معانى القرآن لأبى جعفر النحاس ورقة / ٦٨ .

(٤) البقرة : آية ٢٥٥ .

(٥) نسبه صاحب اللسان إلى ابن الرقاع فى معرض التفرقة بين السنة والنوم (اللسان جـ ١٧ ص ٣٤٠ أميرية) .

(٦) معانى القرآن لأبى جعفر النحاس ورقة ٢٦ .

رابعاً : كتب إعراب القرآن :

١ ــ حقيقة الإعراب :

قال ابن فلاح فى المغنى : « اختلف فى حقيقة الإعراب : فذهب قوم إلى أن الإعراب معنى وهو عبارة عن الاختلاف ، واحتجوا بوجهين :

أحدهما : إضافة الحركات إلى الإعراب ، والشيء لا يضاف إلى نفسه :

والثانى : أن الحركات قد تكون فى المبنى ، فلا تكون إعراباً .

وذهب قوم إلى أن الإعراب عبارة عن الحركات ــ وهو الحق لوجهين :

إحدهما : أن الاختلاف أمر لا يعقل إلا بعد التعدد ، فلو جعل الاختلاف إعرابًا لكانت الكلمة فى أول أحوالها مبنية لعدم الاختلاف .

الثانى : أنه يقال : أنواع الإعراب رفع ، ونصب ، وجر ، وجزم ، ونوع الجنس يستلزم الجنس .

والجواب عن الإضافة أنها من باب إضافة الأعم إلى الأخص للبيان كقولنا : كل الدراهم ، وعن الوجه الثانى : أنه لا يدل وجود الحركات فى المبنى على أنها حركات الإعراب ، لأن الحركة إن حدثت بعامل فهى للإعراب ، وإلا فهى للبناء ، ولذلك خصصها البصريون بألقاب غير ألقاب الإعراب »[1] .

٢ ــ متى ظهر الإعراب ؟ :

« جاء فى التاريخ القديم أن اللغة التى انتشرت فى المملكة البابلية ــ قبل زمن "حمورابى" بعشرين قرنًا أو أكثر " وهى أم اللغات السامية " ــ كانت ذات حركات للإعراب وأنها قضت أكثر من ألفى عام ، وهى ذات حياة فى سجلات الحكومة ودواوينها وعلى ألسنة العلية من القوم ... وقد استعجمت فى ألسنة العامة من أهل الحواضر وكان أول شىء أضاعته هو حركات الإعراب ، فكانت اللغة المتطورة منها المستعجمة ، هى السريانية القديمة ، وهى ليست بذات إعراب ، لأن ما لا يوجد فى الأصل لا يوجد فى الفرع . ولكن سكان البادية وهم بدو

---

(١) الأشباه والنظائر للسيوطى جـ ١ ص ٧٢ ص ٧٣ ط حيدر آباد بتصرف .

الآراميين — وهم الغرب — لم يفقدوها فبقيت هذه الحركات ثابتة فى لهجاتهم ...

فهذه الحركات إذاً متصلة إلينا من ميراث اللغة الأولى أم لغتنا العربية التى حفظتها لنا البداوة»(١).

٣ — قيمة الإعراب :

هنالك بعض أحاديث تنص على تعلم الإعراب ضمتها كتب التاريخ والطبقات :

روى أبو عبيدة بإسناد له عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعربوا القرآن .

وعن ابن مسعود قال : أعربوا القرآن فإنه عربى .

وقال عمر بن الخطاب : تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه (٢) .

والواقع أن هذه الأحاديث والأخبار فيها نظر ، لأن الإعراب لم يظهر مصطلحاً إلا فى عصر متأخر ، وفى نظرى أن المراد بالإعراب الإبانة والتوضيح وفهم الغريب «وقد كان الصحابة رضى الله عنهم يسمون هذا الغريب "إعراب القرآن" لأنهم يستبينون معانيه ، ويخلصونها» (٣) .

ونحن على أية حال كانت لا ننكر قيمة الإعراب لإنكارنا معنى « الإعراب الفنى » فى الأحاديث والأخبار . فالإعراب كما يقول العكبرى : « دخل الكلام ليفرق بين المعانى من الفاعلية والمفعولية ، والإضافة ونحو ذلك»(٤) .

والإعراب كما يقول أبو حيان التوحيدى : «إن الكلام كالجسم ، والنحو كالحلية ، وإن التمييز بين الجسم والجسم إنما يقع بالحلى القائمة ، والأغراض الحالة فيه ، وإن حاجته إلى حركة الكلمة بأخذ وجوه الإعراب حتى يتميز الخطأ من الصواب كحاجته إلى نفس الخطاب » .

وضرب أبو حيان الأمثلة على ذلك بقوله : « وفى قوله (فلا يحزنك قولهم

---

(١) مولد اللغة — ص ٧٩ — ص ٨٠ للشيخ أحمد رضا العاملى عضو المجمع العلمى العربى بدمشق نشر دار مكتبة الحياة ببيروت .

(٢) الزينة ص ١١٧ — ١١٨ .

(٣) إعجاز القرآن للرافعى ص ٧٥ .

(٤) المسائل الخلافية فى النحو للعكبرى ورقة / ١٢ . مخطوط — دار الكتب ٢٨ ش نحو .

إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون)[١] وأنا نعلم، فرقٌ متى لم يقف عليه زال إلى الكفر ، وكذلك فى قوله : (أنّ الله برىء من المشركين ورسوله)[٢] فرق يتوسط بين الصواب والخطأ ، صوابه إيمان . وخطؤه كفر »[٣] .

٤ — الإعراب والمحدثون :

اختلف العلماء فى العصر الحديث فى ظاهرة الإعراب .

١ — فالدكتور إبراهيم أنيس يرى أن ظاهرة الإعراب من الظواهر التى لا يمكن أن تمت للسليقة اللغوية بصلة .

ويبين مفتاح السر فى ظاهرة الإعراب فيقول: « إن تحريك أواخر الكلمات كان صفة من صفة الوصل فى الكلام شعراً أو نثراً ، فإذا وقف المتكلم أو اختتم جملته لم يحتج إلى تلك الحركات ، بل يقف على آخر كلمة من قوله بما يسمى السكون ، كما يظهر أن الأصل فى كل الكلمات أن تنتهى بهذا السكون ، وأن المتكلم لا يلجأ إلى تحريك الكلمات إلا لضرورة صوتية يتطلبها الوصل»[٤] .

٢ — ويرى أنيس فريحة : أن الإعراب لا يتلاءم مع الحضارة . . وأن فقدان الإعراب ليس انحطاطاً ، بل تطوراً مع الحياة. . . إلى أن قال : وإذا صح أن عمر بن الخطاب كان يضرب أولاده على اللحن . فإنه يمكن اتخاذ هذا دليلا على أن الإعراب لم يكن متمكناً فى لغة الناس قبل ظهور الدعوة ، ويروى عن الرسول عليه السلام أنه قال : أعربوا القرآن[٥] . . .

٣ — ويرى المرحوم الأستاذ العقاد: «أن الإعراب أيسر فى الفهم من إهمال الإعراب لأن الحركة فيه تدل على معنى الكلمة خلافاً للكلمات المتشابهة فى الحركات وخذ لذلك مثلا قول من يقول : كان حسن يكلم محمداً ومحموداً ، وعلى يصغى إليهما مكترثاً حيناً ، وحيناً غير مكترث ، فأيهما أيسر فى فهمها

---

(١) يس : آية ٧٦ .

(٢) التوبة : آية ٣ .

(٣) انظر فى هذه المواضع ، البصائر والذخائر ص ١٨١ ، ص ١٨٢ ، تحقيق أحمد أمين ط أولى مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

(٤) من أسرار اللغة ص ١٢٩ ، ص ١٤٢ بتصرف .

(٥) نحو عربية ميسرة ص ١٢٣ ص، ١٢٤ للدكتور أنيس فريحة — دار الثقافة ببيروت (تصرف وتلخيص) .

أن تكتب هكذا أم أن تكتب بغير حركات الإعراب ، قس على ذلك. أى قطعة من النثر والشعر تختارها ، وتكتبها بإعرابها أو بغير إعرابها ، ثم تقابل بين سهولة الفهم فى الحالتين» (١) .

والواقع أن الأعراب يمت إلى السليقة اللغوية بصلة كبيرة جداً إن لم يكن هو السليقة اللغوية،فلغة الشعر ، ولغة النثر فى العصر الجاهلى كانت معربة ، وأن الشاعر أو الناثر لم يعرف قواعد الإعراب فيجرى شعره أو نثره على منوالها ، وإنما كان إذا شعر أو نثر تكلم بالسليقة والطبيعة . واللغة العربية كيانها الإعراب، بل هو عمودها الذى تقوم عليه فالكلام «لو لم يعرب لالتبست المعانى ، ألا ترى أنك إذا قلت : ضرب زيد عمرو ، وكلم أبوك أخوك لم يعلم الفاعل من المفعول .

وكذلك قولهم : ما أحسن زيد لو أهملته عن حركة مخصوصة لم يعلم معناه ، لأن الصيغة تحتمل التعجب ، والاستفهام ، والنفى ، والفارق بينها هو الحركات»(٢) .

٥ ــ الإعراب والنحو :

يرى أستاذنا المغفور له الأستاذ إبراهيم مصطفى « أن النحاة لفظيون ، لأنهم رسموا للنحو طريقًا لفظية ، فاهتموا ببيان الأحوال المختلفة للفظ من رفع ، أو نصب من غير فطنة لما يتبع هذه الأوجه من أثر فى المعنى » .

وفى موضع آخر يقول فى تعريف النحو : « يقول النحاة فى تحديد علم النحو : إنه علم يعرف به أحوال أواخر الكلم إعرابًا وبناء، فالنحاة حين قصروا النحو على أواخر الكلمات ، وعلى تعرف أحكامها قد ضيقوا من حدوده الواسعة » إلخ(٣) وإنصافًا للحق ، فإن النحاة جميعهم لم يقصروا النحو على الإعراب والحركات كما يقول أستاذنا ، فابن جنى يقول فى حد النحو : «هو انتحاء سمت كلام العرب فى تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير ، والإضافة والنسب ، والتركيب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية

---

(١) مجلة الكتاب السنة السابعة سنة ١٩٥٢ ص ٥٣٨ .
(٢) المسائل الخلافية فى النحو للعكبرى ٢٨ ش نحو ، ورقة ١٢ مخطوط دار الكتب .
(٣) إحياء النحو ص ٣ و ص ٨ (تلخيص وتصرف) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

بأهلها فى الفصاحة ، فينطق بها وإن لم يكن منهم ، وإن شذّ بعضهم عنها رد به إليها» [١] .

وابن مالك لم يفهم من النحو الإعراب فقط ، قال السيوطى ما نصه : « مسألة : قول ابن المصنف : حد النحو فى الاصطلاح عبارة عن العلم بأحكام مستنبطة من استقراء كلام العرب ، أعنى أحكام الكلم فى ذواتها ، وما يعرض لها بالتركيب» قال السيوطى : « هل قوله ، وما يعرض لها (بأو) أو (بالواو) وما معنى ذلك ؟

الجواب هو بالواو قصد بذلك حد النحو على مصطلح أبيه الشامل للإعراب والتصريف معًا ، فأحكام الكلم فى ذواتها هو المبحوث عنه فى التصريف ، وما يعرض لها بالتركيب هو المبحوث عنه فى الإعراب» [٢] .

٦ ــ حركات الإعراب والخليل :

الخط العربى كما بينت فى التمهيد كان خلواً من الشكل والإعجام ، ولما ظهر اللحن قام أبو الأسود بعمله المعروف وهو وضع علامات للإعراب على صورة نقط « فجعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف ، والكسرة تحته ، والضمة بين يديه ، وجعل التنوين نقطتين ، كلٌ ذلك بمداد يخالف مداد الحرف . فلما وضع نصر بن عاصم ، ويحيى بن يعمر بأمر من الحجاج نقط الإعجام اضطرب الأمر ، واشتبه الإعجام بالشكل» [٣] .

وهنا نرى الخليل يتصدى لإزالة هذا الاضطراب فقام بعمله المعروف فوضع الشكل على الطريقة التى نعرفها اليوم فجعل « للفتحة ألفًا صغيرة مضطجعة فوق الحرف ، وللكسرة رأس ياء صغيرة تحته ، وللضمة واوا صغيرة فوقه ، فإذا كان الحرف المحرك منونًا كُرِّرَ الحرف الصغير ، فكتب مرتين فوق الحرف ، أو تحته ، ذلك لأن الفتحة جزء من الألف ، والكسرة جزء من الياء ، والضمة جزء من الواو . ووضع للتشديد رأس شين بغير نقط (سـ) ووضع للسكون دائرة

---

(١) الخصائص ج ١ ص ٣٤ .

(٢) الحاوى للفتاوى لجلال الدين السيوطى ج ٢ ص ٢٦٩ ، ص ٢٧٠ إدارة الطباعة المنيرية .

(٣) من مقال (الخليل بن أحمد) لطه الراوى منشور فى مجلة الرسالة السنة الحادية عشرة سنة ١٩٤٣ ص ٥٠٥ .

صغيره . . ووضع اللهمزة رأس عين (ع) لقرب الهمزة من العين فى المخرج .
ووضع لألف الوصل رأس صاد هكذا (صـ) توضع فوق ألف الوصل ، مهما
كانت الحركة فيها ، وللمد الواجب مع جزء من الدال هكذا (~) فكان
مجموع ما تم له وضعه ثمانى علامات : الفتحة ــ والكسر ، والضمة ، والسكون ،
والشدة ، والهمزة ، والصلة ، والمدة . . وطريقة الخليل هذه لم يزد عليها أحد ،
فكأنه بدأها وبه ختمت»[1] .

٧ ــ الإعراب والقرآن :

بدأت حركة الإعراب فى القرآن بتنقيط المصحف على يد أبى الأسود .
«وإن حس العرب بالإعراب ، وإكرامهم له دعاهم أن يضبطوا بالنقط آخر
الكلمات فى القرآن الكريم حين يكتبونه ، وإن ممارسة النحاة لهذا الضبط هدتهم
إلى كشف علل الإعراب ، فكان علم النحو»[2] .

رأى خطير :

وهذا الرأى أحدث ضجة بين العلماء فى الغرب والشرق . ذلك لأن صاحب
هذا الرأى ــ وهو أحد المستشرقين ــ المسمى كارل فولرس K·vollers قال :
« إن القرآن الكريم قد نزل فى الأصل بلهجة محلية من اللهجات العربية وإنه لم
يكن معربًا ، ثم أدخل الإعراب عليه على وفق قواعد لغة الشعر»[3] . وقد ردد
هذا الرأى من المستشرقين . كاله ، وحاييم ربن ، وشُبْهَةُ هؤلاء أن كاله « وجد
فى مخطوطين عثر عليهما فى لندن أحاديث فى الحث على التزام قواعد الإعراب
فى قراءة الكتاب العزيز ، فاستدل بها على أن الناس لم يكونوا يراعون الإعراب
فى قراءة كتاب الله فى بادئ الأمر ثم روعى الإعراب فيها على وفق قواعد النطق
المضبوطة فى الشعر ، والتى دونها علماء النحو فيما بعد»[4] .

---

(١) من مقال (الخليل بن أحمد) لطه الراوى مجلة الرسالة السنة الحادية عشرة ص ٥٥٠ .
(٢) إحياء النحو ص ٢١ .
(٣) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة (مجموعة البحوث التى قدمت لمؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية) جمع ، ومراجعة ، وتقديم الأستاذ محمد خلف الله ص ٣٢٨ مكتبة النهضة المصرية .
(٤) المرجع نفسه والصفحة .

على أن المستشرقين جميعًا لم يكونوا على هذا الفهم الذى استنبطه « كاله » من بعض الكتب المخطوطة « فيوهان فك » رد على هؤلاء المستشرقين أبلغ رد حينما قال : « لقد احتفظت العربية الفصحى فى ظاهرة التصرف الإعرابى بسمة من أقدم السمات اللغوية التى فقدتها جميع اللغات السامية» إلى أن قال : « فأشعار عرب البادية من قبل العهد الإسلامى ومن بعده ترينا علامات الإعراب مطردة ، كاملة السلطان» إلى أن قال : « أما أن أقدم أثر من آثار النثر العربى — وهو القرآن — وقد حافظ أيضًا على غاية التصرف الإعرابى» فهذا أمر وإن لم يكن من الوضوح والجلاء بدرجة الشعر الذى لا تترك أساليب العروض والقافية مجالا للشك فى إعراب كلماته إلا أن موقع كلام القرآن الاختيارية لا تترك أثراً للشك فيه كذلك .

انظر مثلا آية ٢٨ من سورة فاطر : (إنما يخشى الله من عباده العلماء).

وآية ٣ من سورة التوبة : (إن الله برىء من المشركين ورسوله) ، وآية ١٣٤ ، من سورة البقرة ، (وإذا ابتلى إبراهيم) ، وآية ٨ من سورة النساء : (وإذا حضر القسمة أولو القربى) .

فمثل موقع الكلمات فى هذه الآيات لا يمكن أن يكون إلا فى لغة لا يزال الإعراب فيها حيًّا صحيحًا ، يضاف إلى ذلك شهادة القرآن نفسه فى مثل آية ١٥٣ من سورة النحل : (وهذا لسان عربى مبين) (١) .

رأى ومناقشة :

الواقع أن العلة الأولى لهذه الشبهة كما يفهم من النصوص التى بينتها ترجع إلى وجود بعض أحاديث تنص على التزام الإعراب فى قراءة القرآن ، وقد بينت بعض هذه الأحاديث فى موضع سابق(٢) ، ومعنى ذلك أن القرآن فى نظرهم لم يكن معربًا ، وإذا لم يكن معربًا فهو بلهجة محلية من لهجات العرب العديدة . أمَّا ظاهرة الإعراب فيه فقد حدثت بعد ذلك أى بعد ظهور ضبط القواعد ، ووضع الأصول .

---

(١) انظر فى هذه المواضع العربية ليوهان فك ص ٣ ، ص ٤ .

(٢) انظر ص ٢٦٣ من هذا الكتاب .

وهذا الفهم الذى فهمه بعض المستشرقين من هذه الأحاديث فهم مريض ، يدل على جهل باللغة ، بل على جهل بالتاريخ .

أما الجهل باللغة فإن الإعراب هنا ليس معناه المصطلح الفنى الذى يتردّدُ فى كتب النحو ، وإنما معناه الإبانة والوضوح يقول الفيروزابادى : (الإعراب : الإبانة والإفصاح عن الشىء)[1] وإذا كان من معانى الإعراب أيضاً عدم اللحن فى الكلام [2] فإن هذه الأحاديث لا تتجه إلى هذا المعنى لأن مدلول الإعراب هذا لم يظهر إلا فى عصر متأخر عن عصر الرسول عليه السلام .

وواضح أن الإبانة المقصودة إمّا أن ترجع إلى إبانة غريبه ، وتوضيح معانيه كما كان الصحابة رضى الله عنهم « يسمون فهم هذا الغريب إعراب القرآن لأنهم يستبينون معانيه ويخلصونها »[3] .

ورحم الله الرافعى فقد وضع النقاط على الحروف فى هذه المسألة فقال : « وبهذا الأثر ، يقصد حديث " أعربوا القرآن " - ونحوه مما تأتى فيه لفظة الإعراب زعم طائفة من أبناء الطيالسة[4] وطائفة من قومنا الذين فى قلوبهم مرض أن اللحن أى الزيغ عن الإعراب كان يقع من الصحابة فى القرآن لعهد النبى صلى الله عليه وسلم ضلّة من القائلين ، وذهاباً إلى معنى الإعراب النحوى »[5] .

وإما أن يرجع الإعراب إلى بيان حلاله ، وحرامه ، أى تعرّفوا على ما فيه من حلال فاعملوا به ، وعلى ما فيه من حرام فتجنبوه . يدل على ذلك أن الصحابة « كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن ، والعلم ، والعمل جميعاً »[6]
ومما يجدر ذكره فى هذا الموطن أن أقول : إن أستاذنا الدكتور أنيس التبس عليه ما التبس على المستشرقين فقال : « يروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) القاموس مادة : عرب .
(٢) القاموس فى المادة نفسها .
(٣) إعجاز القرآن للرافعى ص ٧٥ .
(٤) كناية عن الأعاجم ، وكان العرب يقولون للعجمى إذا عيروه : يابن الطيلسان . . كأنه عندهم ابن ثوبه (عن إعجاز القرآن للرافعى فى الهامش) .
(٥) المصدر نفسه والصفحة .
(٦) مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية ص ٥ .

أعربوا الكلام كى تعربوا القرآن ويعقب ابن فارس على هذا الحديث بقوله : وقد كان الناس قديمًا يجتنبون اللحن فيما يكتبونه أو يقرءونه اجتنابهم بعض الذنوب» . ويخلص أستاذنا من هذا إلى أن « كلمة اللحن كانت تعنى الخطأ الإعرابى ، وحينئذ لا مناص من أن تعدّ ظاهرة الإعراب من الظواهر التى لا يمكن أن تمت للسليقة اللغوية بصلة ، لأن صاحب اللغة الذى يتكلمها بالسليقة يستحيل عليه الخطأ فى ظواهر تلك اللغة دون أن يدرك أنه خطأ »[1].

هذا وقد سبق فيما بينت أن اللحن لم يكن يعرفه العرب إلا بعد دخول الموالى فى الإسلام ، وتأثر بعض المخالطين بهم ، ثم اتسع اللحن وازداد حينما كثرت الفتوح الإسلامية مما جعل أولى الأمر يفكرون فى صيانة القرآن من هذا الوباء الفادح، واللغات ـ كما بينت أيضًا ـ يتأثر بعضها ببعض . وأمّا الجهل بالتاريخ ، فإن القرآن الكريم نزل على قوم تمكنت من ألسنتهم الفصاحة وغذوا بلبان البلاغة ، وتدربوا على ميادين القول . والفصاحة فى الكلام والبلاغة فى نظمه ، والتفنن فى شعابه لا يكون إلا بإعراب ولو كان بلهجة محلية كما يقول بعض المستشرقين لسهل الأمر ، وأصبح القرآن غير معجز لأنه من السهل الإتيان بمثله ، ومن السهل أن يندثر هذا القرآن كما اندثرت بعض هذه اللهجات ، وأصبحت أثراً بعد عين . أمّا والقرآن الكريم قائم بيننا بصولته البلاغية، وصولجانه فى الفصاحة والبيان يتحدى أرباب القول ويعجز أساطين البلاغة ، وهو الذى خلد هذه اللغة ، وخلد إعرابها وجعلها حية بعد هذه السنين الطويلة التى طوت فيما طوت كثيراً من اللغات ، فإنه لا سبيل إلى إنكار أنه نزل معربًا ، وأن القول فى ذلك قول مغرض . أكبر الظن أن فتح الثغرات فى جبهة القرآن الكريم لينال منه من ينال كان من دأب هؤلاء المستشرقين ، وأبناء الطيالسة كما يقول الرافعى رحمه الله .

الاهتمام بإعراب القرآن الكريم :

ومن إعجاز هذا القرآن الكريم، وخلوده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها أن هيأ مُنْزِلُهُ ـ جل وعلا ـ عقول العلماء، وأفكار الباحثين إلى ميدانه لكشف

---

(١) من أسرار اللغة ص ١٢٩ ، ومن الطبعة الرابعة ص ١٨٧ مطبعة لجنة البيان العربى .

أسراره ، ومن أهم هذه الميادين ميدان إعرابه ، فالإعراب يوضح المعنى ، و يبين الغرض ، ويشير إلى البلاغة ، ويومئ إلى جمال التركيب ، وحسن الصياغة ، وهذه كلهامواطن الإعجاز فى القرآن الكريم.والإعراب فى القرآن كان شغل العلماء الشاغل ، ألفوا من أجله الكثير من الكتب ، والعديد من المؤلفات ، يدلك على اهتمام علماء الإسلام بالقرآن أنهم كانوا لا ينقطعون عن دراسة القرآن حتى فى الجنة من حيث الإعراب وما يلزمه من توضيح المعانى .

جاء فى رسالة الغفران فى قصة إحياء الموتى ، وفى قصة إبراهيم مع ربه« وكان النحاة فى الجنة يتجادلون ، فيقول أبو عبيدة : ما موضع يطمئن[1] ؟ فيقولون : نصب بلام كى ، فيقول : هل يجوز غير ذلك ؟ فيقولون : لا يحضرنا شىء فيقول : يجوز أن يكون فى موضع جزم بلام الأمر ، ويكون مخرج الكلام مخرج الدعاء كما يقال : رب اغفرلى ، ولتغفر لى»[2] .

ألا تدل هذه القصة الخيالية على مبلغ اهتمام العلماء بإعراب القرآن ؟

٨ ــ كتب إعراب القرآن :

يبين حاجى خليفة فى « كشف الظنون » أن بعض العلماء يجعل من إعراب القرآن علماً ، ويعده من فروع علم التفسير ، ولكن صاحب كشف الظنون لا يوافق على هذا فيقول : « لكنه فى الحقيقة هو من علم النحو ، وعده علماً مستقلا ليس كما ينبغى»[3].

ويسرد «كشف الظنون» الكثير من الكتب المؤلفة فى إعرب القرآن ، ونحن لا نستطيع فى هذا المقام الضيق إلا التعريف بأشهرها ؛ إيثاراً للإيجاز فمن أشهر كتب إعراب القرآن :

١ ــ إعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج م ٣١١ .

٢ ــ إعراب القرآن لأبى جعفر النحاس م ٣٣٨ .

٣ ــ إعراب القرآن لابن خالويه م ٣٧٠ هـ .

٤ ــ البرهان فى علوم القرآن للحوفى م ٤٣٠ هـ .

---

(١) انظر آية ٢٦٠ من سورة البقرة .

(٢) رسالة الغفران ص ١٨٥ ــ ص ١٨٦ تحقيق بنت الشاطئ ــ دار المعارف بمصر .

(٣) كشف الظنون جـ ١ ص ١٢١ .

٥ ـ تفسير مشكل إعراب القرآن لمكى بن أبى طالب م ٤٣٧ هـ .
٦ ـ إعراب القرآن للعكبرى م ٥٣٨ هـ .
٧ ـ إعراب القرآن لابن الأنبارى م ٥٧٧ هـ .
٨ ـ إعراب القرآن للسفاقسى م ٧٤٢ هـ .
٩ ـ إعراب القرآن للسمين الحلبى م ٧٥٦ هـ .
١٠ ـ إعراب القرآن لمؤلف مجهول .

وسأحاول إن شاء الله ـ التعريف بهذه الكتب وتوثيقها فى إيجاز ، لتكمل لنا صورة واضحة عن المصادر التى دارت حول القرآن ونحوه .

١ ـ إعراب القرآن للزجاج[1] :

١ ـ نسخه : فى دار الكتب نسخة واحدة من هذا الكتاب رقم ٥٢٨ ـ تفسير . واطلعت على فهارس المكتبات الغربية والشرقية لأجد لهذا الكتاب نسخة أخرى فلم أجد .

٢ ـ وصف عام للكتاب :

ـ الكتاب يبتدئ بفهرس مبوب .
ـ يشتمل على تسعين باباً .
ـ الأبواب فى الكتاب معنونة بالمداد الأحمر مثل « هذا باب ما ورد فى التنزيل من إضمار الجمل » .
ـ يضم الكتاب ٢٤٥ ورقة ، وفى كل ورقة صفحتان .
ـ ليس لهذا الكتاب تعريف فى فهارس دار الكتب .
ـ ومن ناحية الخط ، فخط الكتاب جميل ، وواضح .
ـ فى آخر صفحة من هذا الكتاب كتب النص الآتى :

[حرره العبد الضعيف المحتاج إلى رحمة الله تعالى أبو الحسن سالم بن إبراهيم الخازنى وفرغ منه يوم الأربعاء بعد الظهر لليلتين خلتا من شهر الله المبارك رمضان بمدينة شيراز سنة عشر وستمائة ، حامداً الله تعالى ، ومصلياً على رسوله] .

---

(١) ترجمته بالبغية ص ١٨٠ .

٣ ــ هل الكتاب للزجاج : ؟

أكاد أجزم أن نسبة هذا الكتاب إلى الزجاج خطأ للأمور الآتية :

١ ــ الزجاج اشتهر بالمعانى الذى أصلح بعض مسائله الفارسى .

٢ ــ لم تشر كتب التفسير أو النحو إلى أن الزجاج له كتاب «إعراب القرآن» وإنما إذا نقلوا نصوصاً للزجاج نقلوها من « معانى القرآن » المشهور .

٣ ــ الزجاج فى معانيه تحدث عن الإعراب ، فكتابه (المعانى) كتاب إعراب قبل أن يكون كتاب تفسير ، وليس كمعانى النحاس الذى قصره على التفسير ، وأما الإعراب فقصره على كتابه المعروف : إعراب القرآن ، وإذا كان الزجاج استوفى الإعراب فى المعانى ، فلا يعقل أن يعيد ذلك فى كتاب الإعراب الذى نسب إليه .

٤ ــ حينما نظرت إلى منهج هذا الكتاب ، وجدته منهجاً يختلف كل الاختلاف عن مناهج كتب إعراب القرآن التى ألفت ، والتى تقع بين أيدينا ، مما يدل على أن مؤلفه متحرر فى منهجه ، يتسم بالتجديد والابتكار ، وإذا كان الأمر كذلك فنسبته إلى الزجاج من النحاة المتقدمين ظلم لهذا المنهج ، وهدم لهذا التجديد ، لأنه لم تصل إلينا كتب فى معانى القرآن أو فى إعرابه من عصر الزجاج أو من بعده ، على هذا المنهج ، وفى هذا المستوى الفكرى .

على أن الفكرة فى هذا المنهج الذى اختطه صاحب هذا الكتاب راودتنى ، وبدأت الشروع فيها ، ورسم الخطوط لها . وذلك بجمع الآيات القرآنية ، وتوزيعها على أبواب النحو ، ومعرفة مدى توافق القرآن للقواعد النحوية المعروفة أو مخالفته لها . ولما وقع هذا الكتاب فى يدى ، رأيت صاحبه ينفذ نفس الفكرة التى قامت فى نفسى ، ويحقق نفس المنهج الذى رسمته . ومن هنا تراجعت عن منهجى ، لأنى سُبِقْتُ إليه ، وكنت أعتقد أن هذه الفكرة لم ترد على خاطر أحد غيرى ولما كان ذلك رأيت أنه من الأمانة العلمية أن أتجه فى المنهج إلى وجهة أخرى ، وقد وفقت والحمد لله إلى منهج آخر مغاير لمنهج مؤلف هذا الكتاب أرضى نفسى ، وأقنع ضميرى .

هذا وقد علمت من الأستاذ « الإبيارى » أنه قام بتحقيق هذا الكتاب ، وقد طبع منه الجزء الأول والثانى ، وفرحت لهذا النبأ ، وقلت لعل الأستاذ إبراهيم الإبيارى وهو من المحققين المعروفين يرى ما رأيت من إنكار نسبة هذا الكتاب إلى الزجاج ، فوجدته يتفق معى فى ذلك ، ولكنه فى الجزأين المطبوعين لم يقم بدراسة أو بتعزيف كامل لهذا الكتاب ، وادخر ذلك للجزء الثالث وهو آخر جزء فيه ، ولا يزال هذا الجزء تحت الطبع .

٥ ــ والدليل الأوضح على أن هذا الكتاب ليس للزجاج أن كنية الزجاج المشهورة ترددت فى صفحاته أكثر من مرة ، فى معرض النقد أو الاستشهاد بقوله من ذلك قوله :

(ا) وقد غلط أبو إسحاق فى قوله : (كل مرصد)[1] حيث جعله ظرفاً كالطريق كقولك : ذهبت مذهباً ، وذهبت طريقاً ، وذهبت كل مذهب فى أن جعل الطريق ظرفاً كالمذهب ، وليس الطريق بظرف ، ألا ترى أنه مكان مخصوص ، كما أن البيت والمسجد مخصوصان [2] .

(ب) ومن ذلك قوله : « وقد قال أبو إسحاق فى هذا المعنى خلاف ما قاله هذا ، ألا ترى أنه قال فى قوله تعالى (لأقعدن لهم صراطك المستقيم)[3] أى على صراطك . قال : ولا خلاف بين النحويين أن على محذوفة »[4] .

(حـ) وقد ينص على اسم الزجاج صراحة فيقول فى باب ما جاء فى التنزيل من القراءة التى رواها سيبويه فى كتابه : « يقول الزجاج : الذى قرأ بالنصب فى الآيتين [يعنى] (الزانية والزانى فاجلدوا)[5] ،(والسارق والسارقة فاقطعوا)[6] هو عيسى بن عمر الثقفى ، ونصب الزانية بمضمر دل عليه قوله : فاجلدوا ، ونصب السارق بمضمر دل عليه قوله فاقطعوا أيديهما . . . إلخ »[7] .

٦ ــ ودليل آخر ، يتلخص فى أن هذا الكتاب تكررت فيه أسماء نحاة

---

(١) التوبة : آية ٥ .
(٢) إعراب القرآن ورقة / ١٠ .
(٣) الأعراف : آية ١٦ .
(٤) إعراب القرآن ورقة / ١٠ .
(٥) النور : آية ٢ .
(٦) المائدة : آية ٣٨ .
(٧) إعراب القرآن ورقة ٢٣٧ .

ظهروا بعده أذكر منهم أبا على الفارسى المتوفى ٣٧٧ ﻫ على حين توفى الزجاج سنة ٣١١ ﻫ .

قال مؤلف هذا الكتاب فى باب ما جاء من حذف المضاف فى التنزيل :

« ومما جاء فى التنزيل قوله تعالى : (مالك يوم الدين)، والتقدير مالك أحكام يوم الدين . وقدره الفارسى تقدير حذف المفعول أى مالك يوم الدين الأحكام فتكون الأحكام المفعول ، فلا يكون على قوله من هذا الباب » [١] .

وفى باب ما جاء فى التنزيل من التقديم والتأخير ينص صراحة على كتب أبى على الفارسى فيقول : « من ذلك قوله تعالى: (وأقرضوا الله قرضاً حسنا)[٢] اضطرب قول أبى على فى هذه الآية : وله كلام فى (الحجة)، وكلام فى (الإغفال)، وكلام فى (الحلبيات) وهو أجمع الثلاثة» [٣] .

٧ ــ وهناك عبارة وردت فى هذا الكتاب وقفت عندها طويلا ، وهى قوله فى باب التقديم والتأخير: « وقد تصالح الأستاذ والغلام على أن الظرف يعمل فيه الوهم ورائحة الفعل» [٤] وذهبت أبحث ، من الأستاذ؟ ومن الغلام ؟ لأنه إذا تم التعرف عليهما أو على أحد منهما ، وتبين أنهما عاشا فى عصر متأخر عن عصر الزجاج أمكن أن يكون ذلك دليلا يضم إلى الأدلة السابقة التى تؤكد أن كتاب إعراب القرآن ليس للزجاج .

أقول بعد بحث طويل : وجدت فى تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ما نصه « وكان أوفى تلاميذ ثعلب له ، وأقربهم إليه أبو عمر محمد بن عبد الواحد الزاهد المطرز الوراق البارودى ، ومن ثم سُمِّى غلام ثعلب ، وتوفى غلام ثعلب ببغداد سنة ٣٤٥ ﻫ »[٥] .

وبعد : فإن هذه الأدلة التى قدمتها دعائم قوية تنطق فى صراحة وبيان أن

---

(١) إعراب القرآن ورقة ٩ .

(٢) المزمل : آية ٦ .

(٣) إعراب القرآن ورقة ١٦٨ .

(٤) إعراب القرآن ورقة ١٨٢ .

(٥) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ج ٢ ص ٢١٨ .

هذا الكتاب لا يعرف الزجاج ، وأن نسبته إلى الزجاج خطأ علمى يجب أن يصحح .

وإنا لفى شوق لظهور الجزء الثالث من هذا الكتاب الذى وعد محققه أنه سيقوم فيه بدراسة وافية لنسبة هذا الكتاب إلى مؤلفه ، وإنا لمنتظرون [١] .

٤ ــ منهج الكتاب : بعد أن عدّد المؤلف الأبواب التسعين قال ما نصه :

« فهذه تسعون بابًا أخرجتها من التنزيل بعد فكر وتأمل ، وطول الإقامة على درسه » [٢] .

فنهج المؤلف فى كتابه لا تعقيد فيه فهو عوض للآيات القرآنية فى ضوء أبواب النحو ، وقواعده ، وكمل له من هذا العرض للآيات تسعون بابًا ، وفى كل باب يسجل الآيات القرآنية التى وردت فيه ، ويعرض لآراء النحاة فيها ، واختلافهم حولها ، وقد يخرج من هذا العرض برأى ينفرد : به ، وقول لم يسبقه أحد إليه .

٥ ــ صور من هذا الكتاب تبين المنهج ، وتشير إلى رأى صاحبه :

١ ــ هذا باب ما جاء فى التنزيل من كاف الخطاب المتصل بالكلمة ، ولا موضع لها من الإعراب .

فمن ذلك قوله : «الكاف المتصل بقوله : (إياك نعبد ، وإياك نستعين)[٣] . فالكاف هنا للخطاب ، ومن ادعى فيه أن جُرَّ بالإضافة فقد أخطأ ، لأن إيا اسم مضمر ، والمضمر أعرف المعارف ، فلا يجوز إضافته بتة ، فإن قال : إن إيا اسم ظاهر ، قلنا لم نر اسمًا ظاهراً ألزم إعرابًا واحداً إلا فى الظروف نحو (الآن) ، و(إذ) فى أغلب الأحوال . وإيا ليس بظرف فإن قال : فقد قالت العرب : إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشواب فهذا نادر ، لا اعتبار به ، ولا يجوز بناء القواعد عليه»[٤] .

---

(١) اتصلت بالأستاذ إبراهيم الإبيارى مرتين للتعاون معه على معرفة من المؤلف ؟ وأخيراً قرر أنه إلى الآن لم يعثر على مؤلفه ، ووعد أنه ربما يتم ذلك فى الجزء الثالث .

(٢) إعراب القرآن ورقة / ٢ .

(٣) الفاتحة : آية ٥ .

(٤) إعراب القرآن ورقة / ٤٣ .

٢ ــ هذا باب ما جاء فى (التجريد) ، وهو باب شريف يعز وجوده فى كتبهم .

وذلك نحو قولهم : لئن لقيت فلاناً لتلقين فيه الأسد ، ولئن سألته لتسألن منه البحر . وظاهر هذا أن فيه من نفسه أسداً أو بحراً أو هو عينه هو الأسد والبحر ، لا أن هناك شيئاً منفصلا عنه ، وممتازاً منه ، وعلى هذا يخاطب الإنسان منهم نفسه ، حتى كأنها تقابله أو تخاطبه ، وقد يكون ذلك بحرف الباء ، ومن ، وحرف فى .

فمن ذلك قوله تعالى: (مالك من الله من ولى ولا نصير)[1] «أى مالك من الله وليا» . (واجعل لنا من لدنك نصيراً)[2] . ثم قال : وقال عز من قائل: (وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم)[3] أى بعذاب ربهم عذاب جهنم...إلخ[4].

٣ ــ وينفرد فى مجال القرآن الكريم ببحوث نحوية لم يتعرض لها أحد من النحويين فيقول : ومن هذا الباب (يعنى باب التقديم والتأخير) عندى دون سائر النحويين . قوله : (أئذا كنا تراباً إئنا لفى خلق جديد)[5] وقوله : (إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد)[6] وقوله : (أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور)[7] فإذا فى هذه الآى محمول على ما بعد إن ، وجاز ذا ، لأنه ظرف وقد تصالح الأستاذ والغلام على أن الظرف يعمل فيه الوهم ، ورائحة الفعل[8] .

هذا بحث موجز عن هذا الكتاب ، ولم أستطع أن أسلك فيه طريق الإسهاب ، لأن غيره فى حاجة إلى الإشارة إليه ، والتعريف به . وحسبى من هذا الفصل أن أرسم الخطوط العريضة ، ولا أتعمق فى التفصيل ، لأن ذلك يطيل البحث ، ونحن فى حاجة إلى الإيجاز فيه على أن مصدراً واحداً من هذه المصادر يصلح لأن يكون موضع دراسة فى موضوع مستقل .

---

(١) البقرة : آية ١٢٠ .
(٢) النساء : آية ٧٥ .
(٣) الملك : آية ٦ .
(٤) ورقة / ١٦٣ .
(٥) الرعد : آية ٥ .
(٦) سبأ : آية ٧ .
(٧) العاديات : آية ١٠ .
(٨) ورقة / ١٨٢ .

٢ — إعراب القرآن لأبى جعفر النحاس [١] :

نسخ الكتاب :

١ — نسخة رقم ١٧٨ — تفسير — تيمور « الموجود منها الجزء الثالث يبتدىء بسورة يس » .

٢ — نسخة رقم ٤٨ تفسير دار الكتب ، وهى كاملة .

٣ — نسخة رقم ١٩٦٦٧ ب دار الكتب .

٤ — نسخة رقم ١٩٨٦٨ ب دار الكتب .

٥ — وصورت الجامعة العربية من دار الكتب النسختين الأخيرتين ١٩٦٦٧ ب ، ١٩٨٦٨ ب تحت رقم ١٤ ، ١٨ تفسير .

وصورت كذلك نسخة تيمور رقم ١٧٨ — تفسير تحت رقم ١٦ .

٦ — وصوّرت الجامعة العربية من مكتبة فاتح نسخة أخرى بخط نفيس جداً وهو مشكول تحت رقم ١٥ — تفسير .

وأجمل النسخ المخطوطة التى رأيتها وأوضحها نسخة رقم ٤٨ تفسير وهى تشبه الخط المطبوع ويستأثر بهذه النسخة الشيخ الأطفيش ، لأنى طلبتها من قسم المخطوطات فقالوا إنها معارة منذ سنوات ، ولما عرفت أن الشيخ الأطفيش هو الذى يحتفظ بها عنده رجعت إليه ، واطلعت على النسخة ، وتمنيت أن يقوم بعض المحققين بتحقيقها خدمة للعلم ، وتكريماً لنحوىّ مصر أبى جعفر النحاس ، وبخاصة فإنها لا تحتاج إلى مجهود كبير لتحقيقها ، وذلك لوضوح خطها .

منهج المؤلف : من مقدمة المؤلف لكتابه نستطيع أن نبين منهجه فى الأمور الآتية :

١ — إعراب القرآن والقراءات التى تحتاج إلى تبين إعرابها ، والعلل فيها .

٢ — لا يخلى كتابه من اختلاف النحويين .

٣ — ثم لا يخلى كتابه أيضاً من المعانى التى تلزم ، أو الزيادة فى المعانى عن المعانى المعهودة وشرح لها .

---

(١) ترجمته بالبغية ص ١٥٧ .

٤ — التعرض للغة ، وما أجازه بعضهم ، ومنعه بعضهم من الجموع واللغات .
٥ — نسب كل لغة إلى أصحابها .
٦ — مذهبه فى منهجه الإيجاز ، والمجىء بالنكتة فى موضعها من غير إطالة .
٧ — هدفه من هذا الكتاب الإعراب وما شاكله [١] .
هذه خلاصة منهجه كما هو واضح فى مقدمته .

صور تبين المنهج ، وتشير إلى رأى صاحبه :

١ — (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاسٌ)[٢]
يبين القراءات فيقول :
« (ونحاس) قراءة أبى جعفر ، وشيبة ، ونافع ، والكوفيين بالرفع .
وقرأ ابن كثير ، وابن أبى إسحاق ، وأبو عمرو ، ونحاسٍ بالخفض .
وقرأ مجاهد : ونِحاسٍ بكسر النون والسين .
وقرأ مسلم بن جندب : ونحسٌ بغير ألف وبالرفع »[٣] .

ويذكر رأيه فى هذه القراءات من الوجهة العربية فيقول : «قال أبو جعفر : الرفع فى ونحاس أبين فى العربية لأنه لا إشكال فيه ، ويكون معطوفاً على شواظ ، وإن خفضتَ عطفته على نار ، واحتاج إلى الاحتيال ، وذلك أن أكثر أهل التفسير منهم ابن عباس يقولون : الشواظ : اللهب ، والنحاس الدخان فإذا خفضت فالتقدير شواظ من نار ومن نحاس . والشواظ لا يكون من النحاس كما أن اللهب لا يكون من الدخان إلا على حيلة واعتذار [٤] .

والذى فى ذلك من الحيلة ، وهو قول أبى العباس محمد بن يزيد أنه لما كان اللهب والدخان جميعاً من النار ، كان كل واحد منهما مشتملا على الآخر : وأنشد للفرزدق :

فبت أقد الزاد بينى وبينه ... على ضوء نار مرة ودخان

---

(١) انظر مقدمته من نسخة رقم ٤٨ — تفسير (دار الكتب مخطوط) .
(٢) الرحمن : آية ٣٥ .
(٣) ورقة ٢١٦ من نسخة رقم ١٧٨ — تفسير تيمور .
(٤) إعراب القرآن . ورقة / ٢١٦ نسخة رقم ١٧٨ — تفسير تيمور . ج ٣ .

فعطف ودخان على نار ، وليس للدخان ضوء ، لأن الضوء والدخان من النار ، وإن عطف ودخان على ضوء لم يحتج إلى احتيال»[١] .

٢ – ونراه فى بعض القراءات المشكلة يعدد آراء النحاة فيها وقد يعقب على بعض الآراء ليهدم الأدلة التى بنيت عليها :

فنى آية النساء: (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام)[٢] يقول :

« والأرحام عطف أى واتقوا الأرحام أن تقطعوها . وقرأ إبراهيم وقتادة ، والأعمش ، وحمزة ، والأرحامِ بالخفض .

وقد تكلم النحويون فى ذلك : فأما البصريون فقال رؤساؤهم : هو لحن لا تحل القراءة به .

وأما الكوفيون فقالوا : هو قبيح ، ولم يزيدوا على هذا ، ولم يذكروا علة قبحه فيما علمت .

وقال سيبويه : لم يعطف على المضمر المخفوض لأنه بمنزلة التنوين .

وقال أبو عثمان المازنى : المعطوف والمعطوف عليه شريكان لا يدخل فى أحدهما إلا ما دخل فى الآخر ، فكما لا يجوز : مررت بزيدوكَ كذلك لا يجوز مررت بك وزيد ، وقد جاء فى الشعر :

فاليوم قربت تهجونا وتشتمنا   فاذهب فمابك والأيام من عجب

وكما قال : . . . وما بينهما والكعبِ غوط نفانف .

وقال بعضهم : والأرحام قَسَم ، وهذا خطأ فى المعنى والإعراب ، لأن الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدل على النصب ، ثم ذكر الحديث وعلق عليه بقوله : ، فعنى هذا على النصب ، لأنه حَضَّهم على صلة الأرحام .

وقد قال أبو إسحاق : معنى تساءلون به تطلبون حقوقكم به ، ولا معنى للخفض على هذا »[٣] .

---

(١) إعراب القرآن ورقة ٢١٦ نسخة رقم ١٧٨ – تفسير تيمور . ج ٣ .
(٢) النساء : آية ١ .
(٣) لوحة رقم ٤٥ من نسخة رقم ١٩٦٦٧ ب – نسخة مصورة دار الكتب .

٣ ـ (إنه من يتق ويصبر)[1] :

لم يتعرض لها أبو جعفر ، مع أن كثيراً من النحاة تعرض لها ، وهذا يدل على أنه لم يلم فى إعرابه بكل ما قاله النحاة ، وذلك لأن النحاة تعرضوا لهذه الآية من جهة القراءة ، ومن جهة الإعراب ، ومر عليها أبو جعفر من غير أن يتحدث فيها لا من جهة الإعراب ، ولا من جهة القراءة .

٣ ـ إعراب القرآن لابن خالويه [2] :

١ ـ تضم مكتبة الشنقيطى بدار الكتب نسخة من هذا الكتاب تحت رقم / ٧ تفسير ش .

٢ ـ وتوجد من هذا الكتاب عدة نسخ فى معظم مكتبات العالم .

فى المتحف البريطانى نسخة تحت رقم ٨٣ ، وفى أيا صوفيا بإستانبول نسخة تحت رقم ٦٩ ، وفى الفاتيكان نسخة تحت رقم ٨٣٦ . ويوجد ضمن مجموعة فى كوبريلى تحت رقم ١٥٨٣ بإستانبول . وفى مكتبة دامار زاده تحت رقم ٨٤ وفى مكتبة لالى تحت رقم ٣٤٩ بإستانبول[3] .

٣ ـ وقد قامت دار الكتب بطبع إعراب القرآن لابن خالويه سنة ١٩٤١م .

٤ ـ منهج الكتاب :

١ ـ الكتاب فى إعراب ثلاثين سورة من المفصل .

٢ ـ شرح أصول كل حرف ، وتلخيص فروعه ، وذكر غريب ما أشكل منه .

٣ ـ بيان المصادر ، والتثنية والجمع ليكون معونة على جميع ما يرد من إعراب القرآن إن شاء الله[4] .

---

(١) يوسف : آية ٩٠ .

(٢) البغية ٢٣١ .

(٣) عن تاريخ الأدب العربى لبروكلمان جـ ٢ ص ٢٤١ .

(٤) مقدمة الكتاب نسخة رقم ٧ ـ تفسير ش .

٤ — ويحاول فى كتابه أيضًا أن يدل على الكتب التى ألفها ككتابه فى أسماء الله الحسنى [١] .

٥ — ودأبه فى كتابه الاختصار والإيجاز يقول : « قد تحريت فى هذا الكتاب الاختصار والإيجاز ما وجدت إلى ذلك سبيلا ليستعجل الانتفاع به ، ويسهل حفظه على من أراده » [٢] .

٦ — الاعتداد بالمصحف ورسمه وترك القراءة بما يخالف هذا الرسم يقول : فى (مالك يوم الدين) « واللغة الثالثة مليك، ولم يقرأ به أحدٌ ، لأنه يخالف المصحف ، ولا إمام له فى هذا الموضع » [٣] .

٧ — ومن منهجه أن القراءة لا تحمل على قياس العربية فيقول فى (مالك، يوم الدين) « ويجوز فى النحو مالك يوم الدين بالرفع على معنى هو مالك . ولا يقرأ به ، لأن القراءة سنة ، ولا تحمل على قياس العربية» [٤] .

٨ — ويفضل قراءة على قراءة اعتماداً على قراءة أخرى فيقول فى سورة «الأعلى » فى قوله تعالى: (بل تؤثرون الحياة الدنيا) [٥] « وقرأ حمزة : بل تؤثرون بإدغام اللام فى التاء لقرب المخرجين ولأن اللام ساكنة . فإن سأل سائل فقال : لم أظهر اللام عند التاء نافع وغيره ، وأدغمه الباقون ؟ فالجواب فى ذلك أنهم فرقوا بين المتصل والمنفصل . ألا ترى أن(بل) كلمة، و(تؤثرون) كلمة ، وكذلك جميع ما يرد عليك فى القرآن ، مثل (بل سولت) [٦] و (بل طبع الله) [٧] فقسه على هذا، والاختيار عندى إظهار التاء، لأنه فى حرف أبى : « بل أنتم تؤثرون » [٨] .

٩ — ويصحح بعض القراءات بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: يقول

---

(١) ورقة / ٦ من النسخة نفسها .
(٢) ورقة / ٦ .
(٣) ورقة / ١٠ .
(٤) ورقة / ١٠ .
(٥) الأعلى : آية ١٦ .
(٦) محمد: آية ٢٥ .
(٧) النساء : آية ١٥٥ .
(٨) انظر سورة الأعلى من نفس النسخة ، وهى غير مرقمة .

فى قوله تعالى: (ما ودعك ربك وما قلى)[١] « روى عن النبى صلى الله عليه وسلم وآله أنه قرأ : ما وَدَعَك ربك مخففاً ، فيكون المعنى ما تركك . قال الشاعر :

ليت شعرى عن خليلى ما الذى غاله فى الحب حتى وَدَعَه

الكلام الأكثر أن العرب تقول : تركت زيداً فى معنى وَدَعته ومما يُصَحّح القول الأول ما حدثنى السامرى محمد بن أحمد قال : حدثنا زكريا بن يحيى عن سفيان ابن عيينة عن محمد بن المنكدر عن عروة عن عائشة أن رجلا استأذن على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، فقال :

إيذنوا له فبئس رجل العشيرة ، فلما دخل ألان له القول ، فقالت عائشة : يا رسول الله : قلت له الذى قلت ، فلما دخل ألنت له القول ؟ فقال يا عائشة إن شر الناس منزلة يوم القيامة من ودعه الناس أو تركه الناس اتقاء فحشه »[٢] .

٤ ـ البرهان فى علوم القرآن : للحوفى [٣] :

١ ـ نسخ الكتاب :

١ ـ نسخة رقم ٥٩ ـ تفسير ـ دار الكتب ، وهذه النسخة فى خمسة عشر مجلداً مخطوطة وهى : الجزء الثانى ، والثالث ، والرابع ، والسادس ، والثامن ، والتاسع ، والعاشر ، والثانى عشر ، والخامس عشر ، والعشرين ، ومن الجزء الرابع والعشرين إلى الثامن والعشرين[٤] .

هذا وقد صورت الجامعة العربية هذه الأجزاء جميعًا [٥] .

٢ ـ نسخة أخرى رقم ٢٠٥٠٣ ب .

٣ ـ ونسخة أخرى من الجزء المذكور مصورة بالفوستات ٣٠٧٨٤ ب

٤ ـ ونسخة ثالثة ٢٠٧٨٥ ب .

---

(١) الضحى : آية ٣ .
(٢) ص ١١٧ من النسخة المطبوعة بدار الكتب .
(٣) البغية ص ٣٢٥ .
(٤) جـ ١ ص ٣٤ من فهرس الكتب العربية الموجودة بالدار لغاية سنة ١٩٢١ .
(٥) انظر فهرس المخطوطات المصورة ـ جامعة الدول العربية جـ ١ ص ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ .

وقد نص على النسخ الأخيرة رقم ٢ و ٣ و ٤ ، فهرس المخطوطات التى اقتنتها الدار من سنة ١٩٣٦ — ١٩٥٥ م، (القسم الأول من أ — س) تصنيف فؤاد سيد، مطبعة دار الكتب سنة ١٣٨٠ هـ .

وكان النص على الصورة التالية :

إعراب القرآن البرهان فى تفسير القرآن تأليف الإمام أبى الحسن على بن إبراهيم بن يوسف الحوفى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ الموجود منه الجزء الأول فى مجلد بقلم معتاد بخط محمد بن هارون المقرى بن الكيال ، فرغ من كتابته ، وتغليفه يوم الثلاثاء ٢٧ من ربيع الأول ٤٨٥ هـ بمدينة واسط من العراق[1] .

٢ — تحقيق نسبة النسخة رقم ٢٠٥٠٣ ب :

قلت : إنه من هذه النسخة صورت نسخة أخرى رقم ٢٠٧٨٤ ب .
ونسخة ثانية رقم ٢٠٧٨٥ ب ومن البدهى أنهما فى حكم النسخة الواحدة .

ولما رجعت إلى إحداهما — وهى النسخة المصورة رقم ٢٠٧٨٤ ب ، لأقرأ نصوصها ، وأتبين منهج صاحبها راعنى أن هذه النصوص فى طريقة عرضها ، وفى طريقة منهجها ، وفى طريقة معالجتها للنحو والإعراب تشبه إلى حد كبير ما فى إعراب القرآن لأبى جعفر النحاس وقلت فى نفسى لعل الحوفى سطا على أبى جعفر ، وبخاصة لم يوجد نشر وطباعة فى هذا العصر الذى ألف فيه كتابه ، فأخذ منه ما أخذ .

وحتى يكون حكمى صحيحًا ، وميزانى عادلا رجعت إلى إعراب القرآن لأبى جعفر لأقابل بين نصوصه ونصوص إعراب القرآن للحوفى ، فوجدت أن المسألة ليست أخذاً أو اقتباسًا ، أو تأثراً ، ولكن النصوص فى الكتابين متفقة، وليس هناك تغاير بينهما لا فى الألفاظ ، ولا فى الأسلوب ، ولا فى المنهج ، وهنا ترجح لدىَّ أن هذه النسخة المخطوطة التى صورت من النسخة الأخرى وهى رقم ٢٠٥٠٣ ب ليست للحوفى ، وإنما هى لأبى جعفر .

---

(١) فهرس المخطوطات القسم الأول (من أ — س) .

واجتهدت فى تأكيد هذا الرجحان، وجعله بمثابة اليقين لا الظن، فرجعت إلى النسخة رقم ٥٩ـ تفسير ، والتى صوّرت أجزاءها جامعة الدول العربية، وقارنتُ بين نصوصها ، ونصوص النسخة رقم ٢٠٧٨٤ ب المصورة وجدت الحقيقة سافرة تؤيد ما ذهبت إليه وتؤكده ، وتدل دلالة واضحة على أن النسخة رقم ٢٠٥٠٣ ب وما صور منها ليست للحوفى ، وإنما هى لأبى جعفر وأن نسبتها إلى الحوفى خطأ علمى يجب أن يصحح .

٣ ـ أدلة هذا الاستنتاج :

١ ـ رجعت إلى الآية الكريمة : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب)[١] فى كتاب إعراب القرآن لأبى جعفر لوحة ١٠، من النسخة المصورة رقم ١٩٦٦٧ ب وإلى اللوحة رقم ٢٦ من النسخة رقم ٢٠٧٨٤ المنسوبة إلى الحوفى فوجدت النصين متماثلين ، ينطبق أحدهما على الآخر تمام الانطباق .

٢ ـ ورجعت إلى النص الذى عالج تفسير قوله تعالى: (الم ، الله لا إله إلا هو الحى القيوم) أوائل سورة آل عمران فى الكتابين فوجدت النتيجة نفسها[٢] .

٣ ـ (ولقد نصركم الله فى مواطن كثيرة) (لوحة ، ٢٠٣ من الإعراب المنسوب إلى الحوفى ، ولوحة ٩١ من الإعراب لأبى جعفر . فوجدت النتيجة نفسها .

٤ ـ رجعت إلى النسخة رقم ٥٩ تفسير ـ لقراءة النص فى تفسير قوله تعالى : (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا)[٣] من الجزء الثانى ورقة ٣ ، ٤ ، ورجعت إلى نفس النص فى إعراب القرآن لأبى جعفر من النسخة المصورة السابقة ـ لوحة ، ٧ فوجدت الفرق كبيراً فى المنهج ، وفى الأسلوب ، وفى طريقة العرض ، ولم يكن الحوفى متأثراً بأبى جعفر ، وإنما كانت له شخصيته المستقلة .

٥ ـ ورجعت إلى النص الذى يفسر قوله تعالى:(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب)[٤] فى الإعراب المنسوب إلى الحوفى نسخة رقم ٢٠٧٨٤ب .

---

(١) البقرة : آية ١٧٧ .
(٢) ارجع إلى هذا النص فى لوحة / ٢٣ من إعراب أبى جعفر وفى لوحة / ٥٠ من إعراب الحوفى .
(٣) البقرة : آية ٢٤ .
(٤) البقرة : آية ١٧٧ .

ورجعت إليه أيضاً فى إعراب الحوفى من النسخة رقم ٥٩ — تفسير فوجدت الفرق واضحاً . وأن النصوص مختلفة مما يؤكد أن نسبة النسخة رقم ٥٩ تفسير إلى الحوفى صحيحة ، على حين أن نسبة النسخة الأخرى إليه خطأ ، وأن نسبتها إلى أبى جعفر النحاس أصح وأولى ، لأنها نسخة أخرى من إعراب القرآن لأبى جعفر .

٦ — مثال :

قال الله تعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب)(١) .

١ — تفسير هذا النص من الإعراب المنسوب إلى الحوفى نسخة رقم ٢٠٧٨٤ ب « ليس البرُّ اسم ليس والخبر أن تولوا . وقرأ الكوفيون : ليس البرَّ أن تولوا جعلوا أن فى موضع رفع ، والأول من غير تقديم ولا تأخير .

وفى قراءة أبى وابن مسعود ليس البرُّ بأن تولوا ، فلا يجوز فى البر هاهنا إلا الرفع .

(ولكن البر) مرفوع بالابتداء ، ومن آمن بالله خبر ، وفيه ستة أقوال :

يكون التقدير : ولكن البر بر من آمن بالله ثم حذف كما قال :

فإنما هى إقبال وإدبار ، أى ذات إقبال وإدبار .

ويجوز أن يكون التقدير ، ولكن ذو البر من آمن بالله .

ويجوز أن يكون البر بمعنى البار كما يقال رجل عدل » إلخ (٢) .

٢ — تفسير هذا النص من إعراب القرآن للحوفى نسخة رقم ٥٩ تفسير ، الجزء الثالث قال : « البر اسم ليس ، وأن تولوا فى موضع الخبر ، وجوهكم منصوب بتولوا ، قبل المشرق والمغرب ظرف مكان منصوب بتولوا ، ولكن معطوف على أن تولوا ، فمن شدد لكن نصب البر بلكن وجعل من آمن الخبر على حذف المضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه . . . ومن خفف لكن رفع البر بالابتداء ، ومن آمن الخبر » إلخ(٣) .

بعد هذا التحقيق القائم على الموازنة بين النسخ التى حملت اسم « البرهان فى

---

(١) البقرة : آية ١٧٧ .

(٢) إعراب القرآن المنسوب إلى الحوفى لوحة / ٢٦ .

(٣) البرهان فى علوم القرآن جـ ٣ مخطوط رقم ٥٩ تفسير ورقة / ٤ .

علوم القرآن » تأكّد لدينا أن النسخة رقم ٥٩ تفسير ــ دار الكتب هى النسخة التى يجب أن تنسب إلى الحوْفِى .

هذا ولم نطلع على الجزء الأول من هذا الكتاب لأنه مفقود .

والظواهر العامة فى الأجزاء التى اطلعت عليها هى ما يأتى :

١ ــ بالكاب نقاط حُمْرٌ فى أواخر السطور .

٢ ــ كتابة بعض الكمات المهمة بالمداد الأحمر .

٣ ــ إذا ذكر أحدٌ الأعلام كتَبه بالمداد الأحمر .

المنهج :

١ ــ الاهتمام بالقراءات ، فله فى كل نص قرآنىّ يفسره أبواب خاصة مكتوبة بالمداد الأحمر : مثل (القول فى الوقف والتمام) .

٢ ــ ثم بالمداد الأحمر كذلك (القول فى المعنى والتفسير)

٣ ــ ثم بالمداد الأحمر كذلك (القول فى الإعراب) .

وعلى هذا المنهج يسير ، يعالج أولا النص القرآنى من حيث القراءات ويعالجه ثانيًا من حيث المعنى والتفسير ، ويعالجه ثالثًا من حيث الإعراب .

مناقشة لصاحب كتاب (مناهل العرفان) :

يدعى مؤلف هذا الكتاب أن البرهان أول كتاب ظهر فى علوم القرآن يقول : « ولا نعلم أن أحداً قبل المائة الرابعة للهجرة ألف أو حاول أن يؤلف فى علوم القرآن بالمعنى المدوّن ، لأن الدواعى لم تكن موفورة لديهم نحو هذا النوع من التأليف»[1] .

وفى موضع آخر يقول : « لكنى ظفرت فى دار الكتب المصرية بكتاب لعلى ابن إبراهيم بن"سعيد الشهير بالحوفى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ اسمه"البرهان فى علوم القرآن" وهو يقع فى ثلاثين مجلداً وإذن نستطيع أن نتقدم بتاريخ هذا الفن نحو قرنين من الزمان أى إلى بداية القرن الخامس بدلا من القرن السابع »[2] .

---

(١) مناهل العرفان للزرقانى ص ٢٦ .

(٢) المرجع نفسه ص ٢٧ ، ٢٨ .

لا أدرى ماذا يقصد المؤلف الفاضل من كلمة « علوم القرآن» إن كان يقصد التفسير ، فليس الحوفى أول مفسر ، لأن « أول من دون التفسير فى الصحف مجاهد المتوفى ١٠٤ هـ »[1] .

وإن كان يريد منها معرفة الغريب واللغة « فأول من صنف غريب القرآن أبو عبيدة معمر بن المثنى »[2] ومعمر بن المثنى توفى سنة ٢١١ هـ فى أحد الأقوال[3] .

وإن كان يريد معرفة معانى القرآن من حيث التفسير ، والبلاغة ، والنحو ، واللغة والأخبار ، والآثار ، فأول من ألف فى معانى القرآن الرؤاسى ، والفراء ، والزجاج ، وأبو جعفر النحاس ، وهؤلاء سبقوا فى زمنهم الحوفى المتوفى ٤٣٠ هـ .

وإن كان يريد من علوم القرآن القراءات ، فالمؤلفون السابقون للحوفى فى القراءات كثيرون نذكر منهم يعقوب بن إسحاق الحضرمى المتوفى ٢٠٥ هـ[4] أحد القراء العشرة « وقد ألف يعقوب كتابًا سماه (الجامع) ، جمع فيه عامة اختلاف وجوه القرآن ، ونسب كل حرف إلى من قرأ به »[5] .

وإن كان يريد النحو ، فنى كتاب سيبويه من الآيات القرآنية التى فسرت من حيث الإعراب والقراءات الكثير .

وإن كان يريد من كلمة « علوم » لفظها لا معناها ، فاللفظ شىء تافه ما لم يحمل معنى ، وقد عرفنا أن القرآن الكريم كان شغل العلماء الشاغل منذ وقت مبكر قبل أن يظهر الحوفى على سطح هذه الأرض ، فى كل مجالات المعرفة ، وفى كل ميادين الفكر .

على أن كتاب الحوفى كما بينت كتاب ككل كتب الإعراب التى سبقته من حيث المنهج والتأليف ، فهو يفسر الآية من حيث المعنى ، ثم من حيث اللغة ، ثم من حيث النحو والإعراب ثم من حيث القراءات . وكل كتب الإعراب

---

(١) تاريخ التمدن الإسلامى ص ٦٤ لجرجى زيدان جـ ٣ .
(٢) الوسائل فى مسامرة الأوائل للسيوطى ص ١١٣ .
(٣) البغية ص ٣٩٥ .
(٤) البغية ص ٤١٨ .
(٥) أبو على الفارسى للدكتور عبد الفتاح شلبى ص ١٥٧ نقلا عن (طبقات النحويين واللغويين للزبيدى) .

أو كتب المعانى التى سجلتها فى هذا البحث على هذا النمط ، فلا داعى إذاً للقول بأن الحوفى أول من ألف فى علوم القرآن .

٥ – تفسير مشكل إعراب القرآن وما يتعلق به
لأبى محمد مكى بن أبى طالب الأندلسى[١]

١ – نسخة رقم ٢٣٢ – تفسير دار الكتب مخطوطة .

٢ – يبتدئ من مشكل إعراب الفاتحة إلى مشكل إعراب سورة الناس .

٣ – للكتاب مقدمة رسم فيها منهجه ، فقال :

١ – وقد رأيت أكثر من ألَّف الإعراب طوَّله بذكره لحروف الخفض ، وحروف الجزم ، وبما هو ظاهر من ذكر الفاعل والمفعول ، واسم إن وخبرها فى أشباه لذلك، يستوى فى معرفتها العالم والمبتدئ، وأغفل كثيراً مما يحتاج إلى معرفته من المشكلات .

٢ – فقصدت من هذا الكتاب إلى تفسير مشكل الإعراب ، وذكر علله وصعبه ، ونادره .

٣ – ليكون خفيف المحمل ، سهل المأخذ ، قريب التناول لمن أراد حفظه والاكتفاء به .

٤ – ولم أؤلف كتابنا هذا لمن لا يعلم من النحو الخافض والمخفوض، والفاعل والمفعول والمضاف والمضاف إليه ، والنعت والمنعوت فى أشباه لهذا .

٥ – إنما ألفناه لمن شدا طرفًا منه ، وعلم ظواهره ، وجملا من عوامله ، وتعلق بطرف من أصوله[٢] .

صور من هذا المنهج :

١ – (مالك يوم الدين)[٣] .

بعد أن ذكر قراءة (مالك يوم الدين) قال : وقد يجوز النصب فى ملك

---

(١) م ٤٣٧ هـ، انظر البغية ص ٣٩٧ ، وانظر طبقات القراء لابن الجزرى جـ ٢ ص ٣٠١

(٢) مقدمة تفسير مشكل إعراب القرآن ص ٢ .

(٣) الفاتحة : آية ٣ .

مع الحال ، أو على النداء ، أو على المدح ، وعلى النعت لرب على قول من نصبه وإنما نذكر هذه الوجوه لتعلم تصرف الإعراب ومقاييسه ، لا لأن يقرأ به فلا يجوز أن يقرأ إلا بما روى ، وصح عن الثقات المشهورين من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم ، ووافق خط المصحف [١] .

٢ — ومن منهجه أن التفسير يبين الإعراب قال فى قوله تعالى : (وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام) [٢] « والمسجد الحرام عطف على سبيل الله أى قتال فى الشهر الحرام كبير ، وهو صد عن سبيل الله ، وعن المسجد .

وقال الفراء : والمسجد معطوف على الشهر الحرام ، وفيه بعد ، لأن سؤالهم لم يكن عن المسجد الحرام ، إنما سألوه عن الشهر الحرام ، هل يجوز فيه القتال ؟ وقيل لهم : القتال فيه كبير الإثم ، لكن الصد عن سبيل الله ، وعن المسجد الحرام ، والكفر بالله ، وإخراج أهل المسجد الحرام منه أكبر عند الله إثمًا من القتال فى الشهر الحرام ، ثم قيل لهم ؛ والفتنة أكبر من القتل ، أى والكفر بالله الذى أنتم عليه أيها السائلون أعظم إثمًا من القتل فى الشهر الحرام الذى سألتم عنه ، وأنكرتموه . فهذا التفسير بيّن إعراب هذه الآية» [٣] .

٣ — ويميل إلى رأى الكوفيين فى (إن هذان لساحران) [٤] فيقول : « وأما على مذهب الكوفيين فهو من أحسن شيء لأنهم يقدرون إن الخفيفة بمعنى ما ، واللام بمعنى إلا ، فتقدير الكلام ما هذان إلا ساحران ، فلا خلل فى هذا التقدير إلا ما ادّعوا أن اللام تأتى بمعنى إلا » [٥] .

٦ — إعراب القرآن للعكبرى ، ويسمى « إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات فى جميع القرآن »

طبع هذا الكتاب بمطبعة الحلبى ١٩٦١م ، وصححه ، وحققه الأستاذ إبراهيم عطوة عوض ، المدرس فى تخصص القراءات .

---

(١) ورقة / ٣ .
(٢) البقرة : آية ٢١٧ .
(٣) ورقة / ٢٠ .
(٤) طه : آية ٦٣ .
(٥) ورقة / ١٠٨ .

من مقدمة هذا الكتاب :

قال : « والكتب المؤلفة فى هذا العلم كثيرة جداً ، مختلفة ترتيباً وحداً ، فمنها المختصر حجماً وعلماً ، ومنها المطول بكثرة إعراب الظواهر وخلط الإعراب بالمعانى ، وقلما تجد فيها مختصر الحجم، كثير العلم . فلما وجدتها على ما وصفت ، أحببت أن أملى كتاباً يصغر حجمه ، ويكثر علمه ، أقتصر فيه على ذكر الإعراب ، ووجوه القراءات فأتيت به على ذلك ، والله أسأل أن يوفقنى فيه لإصابة الصواب»[١] .

منهجه وآراؤه :

لم يبين منهجه تفصيلا بل كان همه فى هذا الكتاب الاقتصار على ذكر الإعراب ، ووجوه القراءات .

ونضيف نحن إلى منهجه عدة أشياء ، فمن منهجه ما يأتى :

١ — اتباع المقاييس التى وضعها نحاة البصرة ، ونقد القراءة المخالفة لها . قال فى قوله تعالى:(الحمد لله رب العالمين)[٢] : «ويقرأ بكسر الدال اتباعاً لكسرة اللام ، وهو ضعيف فى الآية ، لأن فيه اتباع الإعراب البناء وفى ذلك إبطال للإعراب . ويقرأ بضم الدال واللام على اتباع اللام الدال ، وهو ضعيف أيضاً . لأن لام الجر متصل بما بعده ، منفصل عن الدال ، ولا نظير له فى حروف الجر المقررة»[٣] .

٢ — يتكرر فى كتابه نقده للكوفيين ، وإشادته بالبصريين مما يدل على أنه بصرى الطابع ، وبصرى المذهب، مع أن كتابه « التبيان فى شرح ديوان المتنبى » يسلك فيه مسلك الكوفيين، ناقداً للبصريين فى كثير من مسائله ، وشككت حينما قرأت كتابه (إعراب القرآن) فى نسبة كتاب(التبيان) إلى العكبرى لأن صاحب هذا الكتاب كوفى ، والعكبرى كما يتضح لنا من خلال دراستنا لكتاب إعراب القرآن بصرى . وتحول شكى إلى يقين حينما رأيت أحد الباحثين وهو

---

(١) من المقدمة ص ٣ .
(٢) الفاتحة :آية ٢
(٣) إملاء ما من به الرحمن جـ ١ ص ٥ .

الدكتور مصطفى جواد ينكر أن كتاب (التبيان في شرح الديوان) للعكبرى لأن هذا صاحبه كوفى ، والعكبرى بصرى[1] .

هذا ، وليس من السهل أن يترك العكبرى بصريته فى إعراب القرآن ليكون كوفيًّا فى شرحه للديوان ، لأن الذى يمنع من هذا أن العكبرى كما يقول السيوطى : « سأله جماعة من الشافعية أن ينتقل إلى مذهب الشافعى ، ويعطوه تدريس النحو بالنظامية ، فقال : لو أقمتمونى وصببتم على الذهب حتى واريتمونى ما رجعت عن مذهبى » [2] .

ورجل شأنه هذا من العسير عليه أن يترك بصريته ليسير فى طريق الكوفيين .

ومما يجدر ذكره أن أستاذنا الأستاذ عباس حسن لم يحقق نسبة شرح ديوان المتنبى إلى العكبرى ، فقد قال ناقلا عنه بعض النصوص ما نصه : « ويعجبنى فى هذا ما قاله العكبرى "كيف تجعل ما وضعه النحويون للتقريب والتعليم مما لا أصل له لإثبات حجة على لسان العرب الفصحاء ؟ هذا لا يكون ولا يحتج به إلا جاهل" » .

وقال فى الهامش : « وذلك فى شرحه لديوان المتنبى فى القصيدة الرائية فى مدح ابن العميد عند البيت الذى أوله : خنثى الفحول . . إلخ »[3] .

أمثلة تدل على بصريته :

١ – نقده للكوفيين فى (ذلك الكتاب لا ريب فيه)[4] قال : « ذا اسم إشارة ، والألف من جملة الاسم . وقال الكوفيون : الذال وحدها هى الاسم ، والألف زيدت لتكثير الكلمة ، واستدلوا على ذلك بقولهم : ذه أمة الله . وليس ذلك بشىء لأن هذا الاسم اسم ظاهر ، وليس فى الكلام اسم ظاهر على حرف واحد حتى يحمل هذا عليه ، ويدل على ذلك قولهم فى التصغير : (ذيا) فردوه إلى الثلاثى ، والهاء فى ذه بدل من الياء فى ذى »[5] .

---

(١) مدرسة الكوفة : د – المخزومى ص ١١٩ بتصرف . ط دار المعرفة ببغداد ١٩٥٥ م .
(٢) البغية ص ٢٨١ .
(٣) رأى فى بعض الأصول اللغوية والنحوية : الأستاذ عباس حسن ص ٣٧ مطبعة العالم العربى
(٤) البقرة : آية ٢ .
(٥) إملاء ما من به الرحمن جـ ١ ص ١٠ .

٢ – وأحياناً يصف الكوفيين بالضعف فيقول فى قوله تعالى: (بلى من كسب سيّئة)[١] «وقال الكوفيون: هى بل – (يعنى بلى) زيدت عليها الياء وهو ضعيف»[٢].

٣ – ويظهر اتجاهه البصرى فى وضوح حينما يعتمد على مذهبهم فى بعض المسائل النحوية فيقول فى قوله تعالى: (ثم أنتم هؤلاء)[٣]: «والوجه الثانى أن الخبر هؤلاء على أن يكون بمعنى الذين، وتقتلون صلة وهذا ضعيف أيضاً لأن مذهب البصريين أن أولاء هذا لا يكون بمنزلة الذين. وأجازه الكوفيون»[٤].

٤ – معظم الآراء الكوفية فى كتابه يتعقبها بالنقد وهى كثيرة جداً. انظر مثلا ص ٩١ حـ ١ فى آية: (وما كان الله ليذر)[٥]، وانظر ص ٢٠٥ حـ ١ عند إعراب (كلالة)[٦] من سورة النساء. وانظر نقده لهم فى قوله تعالى: (لم يكن الله ليغفر لهم)[٧] حـ ١ ص ٦٧.

٥ – ومن منهجه عدم القراءة بما لا يثبت فى الرواية، وإن جاز فى اللغة فيقول فى قوله تعالى: (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض)[٨] «ومن العرب من يقول فى مثل قيل وبيع. قول، وبوع، ويسوى بين ذوات الواو والياء. قالوا: وتخرج على أصلها، وما هو من الياء تقلب الياء فيه واواً لسكونها، وانضمام ما قبلها، ولا يقرأ بذلك ما لم تثبت به رواية»[٩].

ومن آرائه:

١ – يزيد بعض قواعد جديدة فى النحو فى ضوء القرآن الكريم فيقول فى قوله تعالى: (ذهب الله بنورهم)[١٠] «الباء هنا معدية للفعل كتعدية الهمزة له

---

(١) البقرة: آية ٨١.
(٢) إملاء ما من به الرحمن جـ ١ ص ٤٦.
(٣) البقرة: آية ٨٥.
(٤) إملاء ما من به الرحمن جـ ١ ص ٤٨.
(٥) آل عمران: آية ١٧٩.
(٦) النساء: آية ١٢.
(٧) النساء: آية ١٦٨.
(٨) البقرة: آية ١١.
(٩) إملاء ما من به الرحمن جـ ١ ص ١٨.
(١٠) البقرة: آية ١٧.

والتقدير أذهب الله نورهم، ومثله فى القرآن كثير ، وقد تأتى الباء فى مثل هذا للحال كقولك : ذهبت بزيد أى ذهبت ومعى زيد »[١] .

٢ — ومن آرائه : قياسية ما جاء فى القرآن الكريم فيقول فى قوله تعالى : (فإما يأتينكم)[٢] « فعل الشرط مؤكد بالنون الثقيلة ، والفعل يصير بها مبنيًّا أبداً وما جاء فى القرآن من أفعال الشرط عقيب (إمَّا) كله مؤكد بالنون وهو القياس ، لأن زيادة « ما » تؤذن بإرادة شدة التوكيد ، وقد جاء فى الشعر غير مؤكد بالنون »[٣] .

٧ — إعراب القرآن أو البيان فى غريب إعراب القرآن :

لعبد الرحمن بن محمد بن أبى سعيد الأنبارى[٤]

نسخه :

١ — نسخة رقم ٦٤٤ تفسير دار الكتب — مخطوطة .

٢ — نسخة رقم ٣٥ تفسير دار الكتب — مخطوطة .

صورت الجامعة العربية النسخة الثانية تحت رقم ٦٤ — تفسير — معهد المخطوطات .

٣ — وصورت نسخة أخرى كتبت فى القرن السادس بخط نسخى حسن وعليه قراءة لأحد تلاميذ المؤلف ، وتوقيع المؤلف بخطه .

صورت من نسخة فيض الله بإستانبول رقم ٦٨ تفسير بمعهد المخطوطات .

منهجه وآراؤه :

١ — لا يغفل فى إعرابه النواحى الصرفية فى الكلمات فيقول فى قوله تعالى : (وإياك نستعين)[٥] « أصل نستعين نستعون ، نستفعل من العون ، فنقلت الكسرة من الواو إلى ما قبلها ، فسكنت الواو ، وانكسر ما قبلها ، فقلبت ياء نحو

---

(١) إملاء ما من به الرحمن جـ ١ ص ٢١ .
(٢) طه : آية ١٢٣ .
(٣) إملاء ما من به الرحمن جـ ١ ص ٣٢ .
(٤) انظر ترجمته بالبغية ص ٣٠١ .
(٥) الفاتحة : آية ٥ .

ميعاد ، وميقات ، وميزان ، وأصلها موعاد وموازن، وموقات ، لأنها من الوعد ، والوزن ، والوقت »[١] .

٢ – يشير إلى كتابه « الإنصاف » فى مواضع عديدة من كتابه فيقول مثلا فى (إياك) « وذهب آخرون إلى أن إياك بكماله الضمير ، والذى أختاره الأول ، وقد قدمنا ذلك مستوفى فى كتابنا الموسوم بالإنصاف فى مسائل الخلاف »[٢] .

٣ – يستدل بالشعر لتفسير الكلمات فيقول: « ومن العرب من تبدل الهمزة من إياك هاء فتقول هيَّاك . قال الشاعر :

فهياك والأمر الذى إن توسعت   موارده ضاقت عليك المصادر» [٣]

٤ – ويشير إلى أن له كتاباً فى الترجيح بين الشافعى وأبى حنيفة ، ولعل ذلك الترجيح من جهة النحو . فيقول فى قوله تعالى : (حتى يطهرن) [٤] « وقد بينا ذلك مستوفى فى كتابنا الموسوم بالتنقيح فى مسائل الترجيح بين الشافعى وأبى حنيفة رحمة الله عليهما »[٥].

٥ – ويلجأ إلى القراءات لتصحيح رأى أو تقوية تخريج . فيقول فى قوله تعالى :

(فاقع لونها تسر الناظرين)[٦] « يجوز أن يكون مستأنفاً مرفوعاً بالابتداء وخبره تسر الناظرين .وإنما جاز أن يكون الخبر تسر الناظرين بلفظ التأنيث لوجهين : أحدهما : أن اللون بمعنى الصفرة كأنه قال : صفرتها تسر الناظرين . والحمل على المعنى كثير فى كلامهم .

والثانى : أنه أضيف اللون إلى مؤنث ، والمضاف يكتسب من المضاف إليه التأنيث كقراءة من قرأ (تلتقطه بعض السيارة) بتاء التأنيث» [٧] .

٦ – القراءة فى نظره ترجع إلى الفصاحة ، والفصاحة فى رأيه مرجعها إلى

---

(١) البيان فى غريب إعراب القرآن ورقة / ٥ .
(٢) ورقة / ٣ .
(٣) ورقة / ٤ .
(٤) البقرة : آية ٢٢٢ .
(٥) ورقة / ٦٥ .
(٦) البقرة : آية ٦٩ .
(٧) ورقة / ٣٢ .

القياس ، يقول فى قوله تعالى : (إنكم لذائقو العذابِ الأليم)[١] « وقرأ أبو السمال الأعرابى : إنكم لذائقو العذاب بالنصب ، لأنه قدر حذف النون للتخفيف ، لا للإضافة ، وهو ردىء فى القياس ، ولذلك قال أبو عثمان : لحن أبو السمال بعد أن كان فصيحًا فإنه قرأ إنكم لذائقو العذابَ الأليمَ بالنصب» [٢] .

٧ – ويستدل بالقرآن على القرآن فيقول فى قوله تعالى: (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها) [٣] « والباء فى بمثلها زائدة ، وتقديره: وجزاء سيئة سيئة مثلها كما جاء فى موضع آخر (وجزاء سيئة [٤]سيئة مثلها) »[٥] .

نقد لابن الأنبارى فى منهجه :

حسبت أن ابن الأنبارى وهو علم من أعلام النحو ، وفيلسوف من فلاسفته كما تبدو شخصيته فى كتابه « الإنصاف » أميناً فى نقله ، ولكنى رأيته ينقل من غيره ولا يشير إلى هذا النقل كما يفعل العلماء الثقات فيقول فى قوله تعالى: (الٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه)[٦] ما نصه: « الٓمٓ أحرف مقطعة مبنية غير معربة وكذلك سائر حروف الهجاء فى أوائل السور ، ولا تعرب إلا أن يخبر بها أو عنها ، أو تعطف بعضها على بعض ، فالإخبار بها نحو أن تقول : هذه ألف ، والإخبار عنها أن تقول : الألف حسنة ، والعطف أن تقول : فى الكتاب ألف ولام ، وموضعها من الإعراب نصب بفعل مقدر ، وتقديره : اقرأ الٓمٓ ، ويجوز أن تكون رفعًا على تقدير مبتدأ ، والتقدير "هذا الٓمٓ" وقد أجاز الفراء أن تكون ألم مبتدأ وذلك خبره ، وأنكره أبو إسحاق الزجاج »[٧] .

ويقول مكى فى نفس الآية : « الٓمٓ أحرف مقطعة مبنية لا تعرب إلا أن يخبر عنها أو يعطف بعضها على بعض فتقول : هذا ألف ، وألفك حسنة . وفى الكتاب ألف ، ولام ، وعين .

---

(١) الصافات : آية ٣٨ .
(٢) ورقة / ٣٢٨ .
(٣) يونس : آية ٢٧ .
(٤) الشورى : آية ٤٠ .
(٥) ورقة / ١٩٠ .
(٦) البقرة : آية ٢ .
(٧) ورقة / ١٢ .

وموضع الم نصب على معنى اقرأ (الم) ويجوز أن يكون موضعها رفعًا على معنى هذا الم ، أو ذلك ، والفراء يجعل الم ابتداء ، وذلك الخبر وأنكره الزجاج»[١] .

أليس بين النصين تقارب ؟ «أليس النص الثانى هو عين النص الأول ما عدا تغييرات قليلة ؟ أليس فى هذا ما يدل على أن ابن الأنبارى ينقل النصوص عن غيره ، وينسبها إلى نفسه حتى فى الطريقة ، وحتى فى العرض ، وحتى فى الألفاظ . هذا وقد توفى مكى سنة ٤٣٧ هـ[٢] ، وتوفى ابن الأنبارى سنة ٥٧٧ هـ[٣] .

٨ ـ إعراب القرآن للسفاقسى [٤] « المجيد فى إعراب القرآن المجيد » :

١ ـ نسخ الكتاب :

للكتاب فى دار الكتب نسختان :

١ ـ نسخة رقم ٢٢٢ ـ تفسير ـ مكونة من جزأين .

٢ ـ نسخة رقم ٣١٦ تفسير ـ مكونة من جزأين

والنسخة الأولى غير مرقمة وخطها جميل ، أما النسخة الثانية فمرقمه وخطها أقل فى الجودة من خط النسخة الأولى .

٢ ـ منهجه فى ضوء مقدمته لكتابه :

١ ـ الإشادة بشيخه أبى حيان الأندلسى لأنه سلك طريقة فى إعراب القرآن فى كتابه (البحر) لم يسلكها أحد من معربى القرآن على كثرتهم .

٢ ـ ففى البحر المحيط سلك أبو حيان فيه سبيل التحقيق ، وزيف أقوال كثير من المعربين ، وبين جيدها عن أصول المحققين .

٣ ـ ولكن أبا حيان سلك فى كتابه سبيل المفسرين فى الجمع بين التفسير والإعراب فيفرق فيه المقصود ، ويصعب جمعه إلا بعد بذل المجهود .

٤ ـ ثم بين منهجه فى كتابه قائلا :

(ا) فاستخرت الله تعالى فى جمعه ، وتقريبه ، وتلخيصه ، وتهذيبه إلى

---

(١) تفسير مشكل إعراب القرآن لأبى محمد مكى بن أبى طالب ورقة / ٤ من نسخة رقم ٢٣٢ تفسير مخطوط دار الكتب .

(٢) البغية ص ٣٩٧ .

(٣) البغية ص ٣٠١ .

(٤) توفى ٧٤٢ هـ ، وله ترجمة فى البغية ص ١٨٦ .

أن قال : فشرعت فيما عزمت عليه ، وامتطيت جواد الجد إليه فجاء والحمد لله فى أقرب زمان .

(ب) وبين مهمته فى كتابه فقال : ولا أقول : إنى اخترعت ، بل جمعت ولخصت ، ولأنى أعزبت ، بل بينت وأعربت .

(حـ) الانتفاع بكتاب أبى البقاء العكبرى ، لأنه جمع ما بقى فيه من إعراب ما لم يضمنه الشيخ فى كتابه .

(د) ومن غيره من الكتب ، فقال : وضممت إليه من غيره ما ستقف عليه إن شاء الله .

(هـ) وجعل السفاقى علامة ما زاده على كتاب الشيخ (م) وما اتفق له إن أمكن فعلامته « قلت » .

(و) وما فيه من اعتراض وأجيب ، وأورد ، ونحو ذلك ما لم يسم قائله فهو للشيخ (يقصد أبا حيان) .

(ز) وقد تكون القراءة الشاذة من أشخاص متعددين ، فيكتفى بذكر واحد منهم قصداً للإيجاز .

(ح) وما كان عن بعض القراءة السبعة مشهوراً نسبة إلى قارئه وإذا قال : و "الباقون" فيريد منهم السبعة »[1] .

٣ ــ خطأ السيوطى فى الإتقان :

هذا ، وقد قال السيوطى فى « الإتقان » إن أشهر كتب الإعراب كتاب العكبرى وكتاب السمين « أجلها على ما فيه من حشو وتطويل ، ولخصه السفاقسى فحرره »[2] والحقيقة أن السفاقسى ــ كما هو واضح فى مقدمته ــ لخص البحر لأبى حيان وحرره ، لا إعراب السمين كما يقول السيوطى .

ولست أزعم أننى أول من تنبه إلى خطأ السيوطى ، فقد سبقنى إلى ذلك حاجى خليفه فى كشف الظنون ، حيث ذكر نص السيوطى السابق وعلق عليه بقوله :

(١) من المقدمة .
(٢) الإتقان جـ ١ ص ١٧٩ ط الحلبى ط ثالثة .

« وهو وهم منه ، لأن السفاقسى ما لخص إعرابه منه ، بل من البحر ، والسمين لخصه من البحر فى حياة شيخة أبى حيان ، وناقشه فيه كثيراً » [١].

٤ — مثال يوضح منهجه :

(وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام)[٢] .

قال : « وصد مبتدأ ، وسوغ الابتداء به وهو نكرة تقييده بالمجرور وهو (عن سبيل الله) ، وهو مصدر حذف فاعله،ومفعوله للعلم بهما ، أى وصدكم المسلمين ، وكفر به معطوف على صد ، وهو أيضًا مصدر لازم حذف فاعله أى وكفركم به ، وضمير به عائد على (السبيل) وسبيل الله دينه .

وقال الحوفى : يعود على اسم (الله) .

(والمسجد) قراءة الجمهور بالخفض.فقال المبرد،وتبعه ابن عطية والزمخشرى معطوف على سبيل الله،ورد بأنه حينئذ يكون متعلقًا (بصد) أى، وصد عن سبيل الله ، وعن المسجد ، فيلزم الفصل بين المصدر ، وهو صد وبين معموله ، وهو المسجد بأجنبي وهو كفر به ، ولا يجوز .

وقيل معطوف على الشهر الحرام :أى يسألونك عن الشهر الحرام، وعن المسجد الحرام وضعف بأنهم لم يسئلوا عن الشهر الحرام ، إذ لم يشكوا فى تعظيمه وإنما سألوا عن القتال فى المسجد الحرام ، لأنه وقع منهم ، ولم يشعروا بدخوله ، فخافوا من الإثم .

وقال أبو البقاء : متعلق بفعل محذوف دل عليه الصد أى ويصدون عن المسجد ، ورد بأن فيه بقاء الجر مع حذف الحرف وهو عن ، ولا يجوز إلا ضرورة كقوله :

* أشارت كليبٍ بالأكف الأصابع *

أى إلى كليب . وقيل معطوف على ضمير به ، أى وكفر به ، وبالمسجد ورد بأن فيه العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار ، ولا يجوز عند البصريين .

---

(١) كشف الظنون جـ ١ نهر ١٢٢ .
(٢) البقرة : آية ٢١٧ .

وفى العطف عليه مذاهب : أحدها : أنه لا يجوز إلا بإعادة الجار إلا فى الضرورة وعليه جمهور البصريين . الثانى : أنه يجوز فى الكلام ، وقال به الكوفيون ويونس ، وأبو الحسن ، والأستاذ أبو على الشلوبيين .

الثالث : أنه يجوز فى الكلام إن أكد الضمير نحو : مررت بك نفسِك وزيد ، وإلا فلا ، وقال به الجرمى .

والمختار جوازه لكثرته سماعًا ، ومنه ما روى من قول العرب : ما فيها غيره وفرسُه أى وغير فرسه ، وقراءة حمزة فى السبع : تساءلون به والأرحامِ ، أى وبالأرحام وتأويلها على غيره بعيد يخرج الكلام عن الفصاحة[١] .

٩ – إعراب القرآن للسمين الحلبى [٢] « الدر المصون فى علم الكتاب المكنون » :

نسخ الكتاب :

١ – يضم قسم المخطوطات بدار الكتب ثلاثة أجزاء من هذا الكتاب

(أ) الجزء الأول رقم : ٣٨٤ – تفسير – تيمور ، وهذا الجزء مقدمته ناقصة ، ويحتوى على ١٧٢ ورقة .

(ب) الجزء الثالث رقم : ١٠٧ – تفسير .

ويبتدئ من قوله تعالى : (وما محمد إلا رسول)[٣] إلى آخر سورة المائدة .

(حـ) الجزء الثامن رقم ١٠٧ – تفسير .

ويبتدئ من آخر سورة الأحقاف إلى آخر القرآن .

(د) الجزء التاسع رقم ٣٢١ – تفسير ، ويضم ١٤٧ ورقة .

، يبتدئ من قوله تعالى : (فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)[٤] وينتهى بالآية : (قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك)[٥] .

٢ – نسخة مصورة بالجامعة العربية ، كتبت فى القرن الثامن بخط بدر

---

(١) إعراب القرآن للسفاقسى جـ ١ ورقة / ٥٥ من نسخة رقم ٣١٦ – تفسير دار الكتب .
(٢) توفى سنة ٧٥٦ هـ وترجمته بالبغية ص : ١٧٥ .
(٣) سورة آل عمران آية : ١٤٤ .
(٤) سورة الأنعام آية : ٣٣ .
(٥) سورة الأنعام آية : ٩١ ، ٩٢ .

الدين البشتكى ، وقد عاشت الأرضة فى هذه النسخة ، وخطها مقروء ، يبتدئ بأول القرآن ، وينتهى بقوله تعالى: (أولئك لهم عذاب أليم ، وما لهم من ناصرين)[١] .

وهذه النسخة مصورة من متحف الأوقاف بإستانبول ، ورقمها بمعهد المخطوطات ١٣٢ — تفسير .

من منهج الكتاب فى ضوء ما بقى من مقدمته :

١ — بذل الجهد فى استيفاء الكلام على مسائل هذا الكتاب .

٢ — التعرض للقراءات المشهورة والشاذة ، وما ذكر الناس فى توجيهه.

٣ — الإحاطة بجميع ما ذكر من أوجه الإعراب .

٤ — تسجيل المناقشات الواردة على أبى القاسم الزمخشرى ، وأبى محمد بن عطية ، ومحب الدين أبى البقاء ، وإن أمكن رد الاعتراضات عليهم فعل ذلك .

٥ — التعرض لكلام كثير من المفسرين كالمهدوى ، ومكى ، والنحاس .

٦ — وختم مقدمته بأن هذا المصنف فى الحقيقة نتيجة عمره ، وذخيرة دهره[٢] .

مثال يوضح منهجه وطريقته :

(أن تُبْسَلَ) [٣] قوله : (أن تبسل) فى هذا وجهان :

الأول: المشهور بالإجماع على أنه مفعول من أجله ، وتقديره مخافة أن تبسل أو أن لا تبسل .

والثانى : قال الشيخ [يعنى به أبا حيان] بعد أن نقل الاتفاق على المفعول من أجله: ويجوز عندى أن يكون فى موضع جر على البدل من الضمير والضمير مفسر بالبدل ، وأضمر الإبسال لما فى الإضمار من التفخيم كما أضمروا ضمير الأمر والشان وفسر بالبدل وهو الإبسال ، فالتقدير ، وذكر بارتهان النفوس ، وحبسها بما كسبت ، كما قالوا : اللهم صل عليه الرءوف الرحيم ، وقد أجاز ذلك سيبويه ، قال : فإن قلت : ضربت وضربونى قومك نصبت إلا فى قول

(١) سورة آل عمران آية : ٢٢ .

(٢) الدر المصون من نسخة رقم ٣٨٤ — تفسير — تيمور ، ورقة : ١ .

(٣) سورة الأنعام آية : ٧٠ .

من قال : أكلونى البراغيث . أو يحمله على البدل من المضمر ، وقال أيضاً : فإن قلت ضربنى وضربتهم قومك رفعت على التقديم والتأخير إلا أن تجعلها هنا البدل كما جعلته فى الرفع . ا هـ كلام سيبويه .

وقد روى قوله : فاستاكت به عود إسحل ، بجر عود على البدل من الضمير [١] .

قلت : — والقائل السمين — أما تفسير الضمير غير المرفوع بالبدل فهو قول الأخفش ، وأنشد عليه هذا العجز وأوله :

إذا هى لم تستك بعود أراكة تنخل فاستاكت به عود إسحل

والبيت لطفيل الغنوى : يروى برفع عود ، وهذا هو المشهور عند النحاة ورفعه على إعمال الأول وهو تنخل ، وإهمال الثانى وهو فاستاكت فأعطاه ضميره ، ولو أعمله لقال : فاستاكت بعود إسحل ، ولا يمكن لانكسار البيت . والرواية الأخرى [٢] التى استشهد بها ضعيفة جداً لا يعرفها أكثر المعربين .

ولو استشهد بما لا خلاف فيه كقوله :

على حالة لو أن فى القوم حاتماً على جوده لضن بالماء حاتم

بجر حاتم بدلا من الهاء فى بجوده ، والقوافى مجرورة لكان أولى .

والإبسال : الارتهان : يقال أبسلت ولدى وأهلى أرتهنهم . . . وقيل الإبسال أن يسلم الرجل نفسه للهلكة إلخ [٣] ....

١٠ — إعراب القرآن لمؤلف مجهول :

نسخه :

جاء فى فهرس المخطوطات المصورة لمعهد إحياء المخطوطات العربية [٤] بالجامعة العربية ما نصه : « إعراب القرآن لمؤلف مجهول ، الجزء الثانى من نسخة كتبت فى القرن التاسع ، يبتدئ من أول سورة الأنعام ، وينتهى بآخر سورة الإسراء » ،

---

(١) انظر : البحر المحيط جـ ٤ ص : ١٥٥ ، ١٥٦ ، فقد حققت هذا النص فيه .
(٢) رواية جرعود على البدل من الضمير .
(٣) من نسخة رقم ٣٢١ — تفسير جـ ٩ ورقة ١٦ ، ١٧ .
(٤) فهرس المخطوطات المصورة جـ ١ ص : ٢٠ .

وقد صورت هذه النسخة من مكتبة سوهاج رقم ٢٠٠ تفسير تحت رقم ٢١٠ — تفسير بفهرس المخطوطات المصورة .

توثيق هذه النسخة :

حينما اطلعت على هذه النسخة فى مكتبة سوهاج لفتت نظرى بعض عبارات مثل « قال الشيخ » ، « وقال أبو البقاء » ومناقشة حامية لهذا الشيخ . قلت فى نفسى لعل هذه النسخة ليست لمؤلف مجهول ، وإنما هى نسخة أخرى من إعراب القرآن للسمين الحلبى الذى تحدثت عنه آنفاً . ولم يطل ترددى على مكتبة سوهاج ، لأن الكتاب صورته الجامعة العربية ، ومن الممكن الاطلاع عليه فى تريث وأناة[١] .

ولما وضعت « الفيلم » المصور من هذه النسخة تحت المكبر ، وأخذت أقرأ وأقارن ما أقرأ بالنصوص الأخرى التى احتفظ بها من إعراب القرآن للسمين فى نسخه الأخرى ، عثرت على الحقيقة التى كانت فرضاً وظناً فأصبحت يقيناً وحقاً ، وهى أن هذا المؤلف المجهول هو للسمين الحلبى صاحب «الدر المصون» وأن هذه النسخة نسخة أخرى من كتابه .

أدلة التوثيق :

اطلعت على النسخة رقم ٣٢١ — تفسير بدار الكتب ، وهى مقصورة على تفسير سورة الأنعام ، تبتدئ من قوله تعالى: (فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)[٢] ، وتنتهى بقوله تعالى: (أولئك لهم عذاب أليم ، وما لهم من ناصرين)[٣] .

وقارنت ما جاء فيها بما جاء فى النسخة المصورة من سوهاج ، فوجدت النصوص متحدة متماثلة ، نفس النصوص ، ونفس الأساليب ، ونفس الألفاظ . وهنا تبدد الشك من نفسى ، فقررت أن هذه النسخة المصورة من مكتبة سوهاج

---

(١) لأن زيارتى لمكتبة سوهاج كانت عابرة .
(٢) سورة الأنعام آية : ٣٣ .
(٣) سورة آل عمران آية : ٩١ .

هى للسمين الحلبى ، وليست لمؤلف مجهول .

وأكتفى من هذه الأدلة بدليل واحد كمثال :

جاء فى النسخة المصورة من سوهاج ، فى قوله تعالى : (فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ، ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)[١] ما نصه : « فأى الفريقين أحق : لم يقل أينا أحق نحن أم أنتم ؟ إلزامًا لخصمه بما يدّعيه عليه ، ولأنه لايزكى القائل نفسه ، وهذا بخلاف قول الآخر :

... ... أىّ وأيّك فارس الأحزاب

فلله فصاحة القرآن وآدابه . وقوله : (إن كنتم) جوابه محذوف أى فأخبرونى ومتعلق العلم محذوف . ويجوز أن لا يراد له مفعول ، أى إن كنتم من ذوى العلم . قوله : (الذين آمنوا) : هل هو من كلام إبراهيم ، أو من كلام قومه ، أو من كلام الله تعالى . ثلاثة أقوال للعلماء ، عليها يترتب الإعراب ، فإن قلنا إنها من كلام إبراهيم جوابًا عن السؤال فى قوله : فأى الفريقين ؟ وكذا إن قلنا : إنها من كلام قومه ، وأنهم أجابوا بما هو حجة عليهم كان الموصول خبر مبتدأ محذوف ، أى وهم الذين آمنوا ، وإن جعلناه من كلام الله تعالى وأنه أمر نبيّه بأن يجيب به السؤال المتقدم فكذلك أيضًا » [٢] .

ونفس النص فى الآيتين من غير أن يسقط منه حرف فى الجزء التاسع من إعراب القرآن للسمين الحلبى نسخة رقم ٣٢١ — تفسير[٣] .

وبعد ، فلعلى بهذه التحقيقات أكون قدمت للدراسات التى دارت حول كتاب الله ، والتى لم تطبع فتتداولها الأيدى — خدمة أرجو الله أن يثيبنى عليها .

خامساً : كتب القراءات :

وقد أفردتها بمؤلف خاص عنوانه « أثر القراءات فى الدراسات النحوية » [٤] .

---

(١) سورة الأنعام آية : ٨١ ، ٨٢ .

(٢) إعراب القرآن لمؤلف مجهول : لوحة : ٨٦ ، ٨٧ ، نسخة مصورة (ميكروفيلم) رقم : ٢١ — تفسير — معهد المخطوطات العربية .

(٣) ورقة : ٤٦ ، ٤٧ .

(٤) وافق المجلس الأعلى للشئون الإسلامية على طبعه .

سادساً : كتب النحو :

ومن أهم الكتب : كتاب سيبويه ، وقد بيّنت أثره فى كتاب « أثر القراءات فى الدّراسات النحوية » ، وأكتفى بما ذكرته هناك .

وكتاب المغنى لابن هشام وهو الكتاب الذى لا تجد صفحة من صفحاته تخلو من آيات الله الّتى أتى بها على جهة التمثيل أو على جهة الاستشهاد أو على جهة التخريج ، ولا ينسى أيضًا أن يتحدث عن القراءات ، وتوجيهاتها النحوية ، وهو فى هذا المضمار خير كتاب نحوى يدور حول كتاب الله فى ضوء النحو ، وفى ضوء مقاييسه وأصوله .

وقد تحدثت فى رسالة الماجستير عن هذا الكتاب ، وبنيت منهجه وأبوابه وأصوله ، وشراحه ، وأكتفى أيضاً بما ذكرت هناك حتّى لا يتضخم البحث[1] ، ونحن الآن فى حاجة إلى الإيجاز بعد أن قطعنا هذه المرحلة الطويلة فى هذا البحث . وبخاصة ، فإن هذا الكتاب مطبوع تتداوله الأيدى وتراه الأعين ، وهمى فى هذا البحث التعرف على الكتب المخطوطة ، وتوثيقها ، وقد فعلت بحمد الله .

---

(١) من ص : ٣٣١ إلى ٣٣٧ رسالة الماجستير : عبد العال سالم .

الفصل الثانى

نماذج من النحو القرآنى

ما المقصود من النحو القرآنى :

أقصد أن القرآن الكريم ، قامت على أساسه قواعد ، وبنيت على نهجه أصول سواء أكان معه شواهد أخرى تدعم هذه القواعد أم لم تكن ؟ وسواء أكانت هذه الأصول تتفق مع أصول النحاة أم لا تتفق ؟ ذلك لأن القرآن الكريم بقراءاته المختلفة أغنى قواعد النحو وزاد من قيمتها وأمدّها بأمتن القواعد، وأحسن الأساليب .

وقد بينت فيما سبق أن القرآن الكريم تأثرت به مناهج مدارس النحو على اختلافها .

وإنى سأعرض فى هذا الفصل نماذج متعددة للقواعد التى تأثرت بالقرآن أو التى نشأت منه تطبيقًا على ما سبق بيانه .

وليس فى طاقة البحث عرض كل القواعد التى تأثرت بالقرآن ، أو التى نشأت على أساس القرآن ، لأن ذلك يحتاج إلى عديد من المجلدات ، ذلك لأن القرآن كما قلت كان يطل بوجهه الكريم فى معظم مسائل النحو وقواعده .

وهدفى من هذه النماذج إنارة الطريق للباحثين فى النحو القرآنى وحسبى أن أحمل المصباح لمن يستخرج اللؤلؤ ، أو يكشف عن الجواهر الثمينة، ولا أعنى بتأثر القواعد بالقرآن قراءة معينة من قراءاته، وإنما أعنى القرآن الكريم بقراءاته العديدة متواترة أو شاذة ، فهى معين لا ينضب ، يغنى اللغة ، وينمى الأساليب ، ويجعل لغتنا غنية على الدوام ، لا تعرف التسول أو الفقر ، وهذه نماذج من النحو القرآنى أعرضها فى إيجاز لتوضح الطريق ، وتنير السبيل كما قدمت .

أولا : فى معانى الحروف :

١ ــ لعل معناها التعليلى :

أثبته جماعة منهم الأخفش والكسائى ، وحملوا عليه (فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى)[١] .

ومن معانيها الاستفهام .

أثبته الكوفيون ، ولهذا علّق بها الفعل فى نحو (لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً)[٢] [٣] .

٢ ــ الباء :

١ ــ قد تكون للتحقيق فى قوله تعالى:(فنبذناه بالعراء وهو سقيم)[٤] ألا ترى أنه لما أدخل الباء أراد التحقيق ، والخبر متى كان موصولا بحرف التحقيق يقع على الصدق دون الكذب . ومتى لم يدخله حرف التحقيق يقع على الصدق والكذب جميعاً[٥] .

٢ ــ وقد تكون للحال : كقوله تعالى : (ذهب الله بنورهم) [٦] .
قال العكبرى : وقد تأتى الباء فى مثل هذا للحال فقولك : ذهبت بزيد ، أى ذهبت ومعى زيد[٧] .

٣ ــ فى بمعنى عند أو مع : وذلك كقوله تعالى: (وجدها تغرب فى عين حمئة)[٨] .

وهذه الآية ظاهرها مشكل وهو مغمز للزنادقة ، لأنهم يقولون : إن البرهان قد ثبت فى « المجسطى » أن الشمس قدر الأرض نحو مائة وستين مرة وكسورا ، فكيف تدخل مع هذا القدر العظيم فى عين من عيونها ؟

---

(١) سورة طه آية : ٤٤ .
(٢) سورة الطلاق آية : ١ .
(٣) المغنى جـ ١ ص : ٢٢٣ ط الحلبى .
(٤) سورة الصافات آية : ١٤٥ .
(٥) الرد على أبى بكر الخطيب ، للملك المعظم عيسى ص ٣٢ مطبعة السعادة ط أولى .
(٦) سورة البقرة آية : ١٧ .
(٧) إملاء ما من به الرحمن جـ ١ ص : ٢١ .
(٨) سورة الكهف آية : ٨٦ .

والجواب أن فى هنا ليست ظرفية ، وأنها على ما ذهب إليه ابن قتيبة بمعنى عند لأنها قد ترد بمعنى عند ، وبمعنى مع . قال الشاعر :

* حتى إذا ألقت يداً فى كافر *

معناه عند كافر

وقال الشاعر :

وفى الشر نجاة حـ ين لا ينجيك إحسان

معناه ، ومع الشر[1] .

٤ ــ هل : بمعنى قد

هل عند ابن مالك ترادف قد فى قوله تعالى : (هل أتى على الإنسان حين من الدهر)[2]»[3] .

٥ ــ على :

١ ــ للمصاحبة كمع عند الكوفيين فى قوله تعالى :(وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم)[4] أى مع ظلمهم .

٢ ــ وتأتى بمعنى اللام فى قوله تعالى:(لتكبروا الله على ما هداكم) [5] أى لهدايته إياكم .

٣ ــ بمعنى عند فى قوله تعالى : (ولهم علىّ ذنب)[6] أى عندى .

٤ ــ ومرادفة مِن فى قوله تعالى : (إذا اكتالوا على الناس)[7] أى منهم

٥ ــ موافقة الباء فى قوله تعالى:(حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق)[8] وبذلك قرأ أبىّ[9] .

---

(١) الغيث المسجم فى شرح لامية العجم : صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى جـ ١ ص : ١٢٨ ط سنة ١٢٩٠ هـ .

(٢) سورة الإنسان آية : ١ .

(٣) تمهيد القواعد لناظر الجيش جـ ٥ ص : ١٩٢ مخطوط رقم ٣٤٩ نحو .

(٤) سورة الرعد : آية ٦ .

(٥) سورة الحج : آية ٣٧ .

(٦) سورة الشعراء : آية : ١٤ .

(٧) المطففين : آية ٢ .

(٨) الأعراف : آية ١٠٥ .

(٩) شرح التصريح جـ ٢ ص : ١٥ .

٦ ــ لن :

لا تقتضى تأبيد النفى خلافاً للزمخشرى فى (أنموذجه) لأنها لو كانت للتأبيد لزم التناقض بذكر اليوم فى قوله تعالى : (فلن أكلم اليوم إنسياً)[١] ولزم التكرار بذكر أبداً فى قوله تعالى : (ولن يتمنوه أبدا)[٢][٣] .

٧ ــ أو :

تكون بمعنى الواو فى قوله تعالى : (فهى كالحجارة أو أشد قسوة)[٤] وذلك أن أو فى الآية يستحيل كونها للشك ، فهى بمعنى الواو كقوله تعالى : (ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً)[٥] ، (عذراً أو نذرا)[٦] [٧] .

٨ ــ الواو العاطفة :

تكون لمطلق الجمع أى القدر المشترك بين الترتيب والمعية ، وهى تارة تعطف الشىء على صاحبه كقوله تعالى : (فأنجيناه وأصحاب السفينة)[٨] ، وعلى سابقه كقوله تعالى : (ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم)[٩] ، وعلى لاحقه كقوله تعالى : (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك)[١٠] .

فعلى هذا إذا قيل : زيد وعمرو احتمل ثلاث معان : المعية ، والترتيب ، وعدمه[١١] .

٩ ــ مِنْ تستعمل فى الزمان :

استدل الكوفيون على ذلك بقوله تعالى : (لمسجد أسس على التقوى من أول يوم)[١٢] فأدخل من على (أول يوم) وهو ظرف زمان[١٣] .

---

(١) سورة مريم آية : ٢٦ .
(٢) سورة البقرة آية : ١٥ .
(٣) شرح التصريح ج ٢ ص : ٢٢٩ ط الحلبى .
(٤) سورة البقرة آية : ٧٤ .
(٥) سورة الإنسان آية : ٢٤ .
(٦) سورة المرسلات آية : ٦ .
(٧) تفسير ابن كثير ج ١ ص : ١١٤ .
(٨) سورة العنكبوت آية : ١٥ .
(٩) سورة الحديد آية : ٢٦ .
(١١) سورة الزمر آية : ٦٥ .
(١٠) شرح الكوكب المنير المسمى بمختصر التحرير فى أصول فقه السادة الحنابلة لشهاب الدين أبى العباس أحمد بن عبد العزيز القنوجى : تحقيق حامد الفقى . مطبعة السنة المحمدية ص : ٧٤ .
(١٢) سورة التوبة آية : ١٠٨ .
(١٣) أسرار العربية لابن الأنبارى ص : ٢٧٢ .

ومن تأتى بمعنى فى ، استشهد ابن مالك على ذلك بقوله تعالى :(أرونى ماذا خلقوا من الأرض)[١] قال الشيخ — [أبو حيان] — هذا قول كوفى أيضاً[٢] .

١٠ — لولا بمعنى لم :

زعم قوم من الكوفيين أن لولا قد استعملت بمعنى لم ، واحتج بقوله تعالى : (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس)[٣] قال معناه : لم تكن قرية آمنت عند نزول العذاب ، فنفعها إيمانها إلا قوم يونس[٤] .

ثانياً : فى إعمال الحروف :

١ — إنّ المشددة أو المخففة :

(و إنّ كلاً لما ليوفينهم)[٥] :

قال السيوطى : اضطرب النحويون فى تخريج (هذه الآية) فى قراءة من شدد ميم لمّا ، وشدد إنّ أو خففها .

فنقل صاحب كتاب « اللامات » عن المبرد أنه قال : هذا لحن لا تقول العرب : إن زيداً لما خارج .

وقال المازنى : لا أدرى : ما وجه هذه القراءة ؟

وقال الفراء : التقدير لمن ما . فلما كثرت الميمات حذف منهن واحدة فعلى هذا هى لام توكيد .

وقال المازنى : إنّ بمعنى ما ، ثم تثقل ، كما أن المؤكدة تخفف ومعناها الثقيلة .

وقال أبو حيان : وارتباك النحويين فى هذه القراءة ، وتلحين بعضهم لقارئها يدل على صعوبة المدرك فيها ، وتخريجها على القواعد النحوية . وأما التلحين فلا سبيل إليه البتة لأنها منقولة نقل التواتر فى السبعة .

وأما من قال : لا أدرى ما وجهها فمعذور لخفاء إدراك ذلك عليه .

---

(١) سورة فاطر آية : ٤٠ .
(٢) تمهيد القواعد : جـ ٣ ص : ١٧٨ .
(٣) سورة يونس آية : ٩٨ .
(٤) أمالى بن الشجرى جـ ٢ ص : ٢١٢ .
(٥) سورة هود آية : ١١١ .

وأما تأويل أن المثقلة بأنها المخففة التى هى نافية فهى فى غاية من الخطأ لأنها لو كانت نافية لم ينتصب بعدها كل ، بل كان يرتفع ، وأيضاً فإنه لا يحفظ من كلامهم لما فى معنى لمن ما .

قال أبو حيان : وقد كنت من قديم فكرت فى تخريج هذه الآية فظهر لى تخريجها على القواعد النحوية من غير شذوذ ، وهو أن (لما) هى الجازمة ، وحذف الفعل المعمول لها لدلالة معنى الكلام عليه . والمعنى : وإن كلا لما يبخس أو ينقص عمله ، أو ما كان من هذا المعنى ، فحذف الفعل لدلالة قوله : ليوفينهم ربك أعمالهم عليه . قال : فعلى هذا استقر تخريج الآية على أحسن ما يمكن وأجمله ، ولم يهتد أحد من النحويين فى هذه الآية إليه على وضوحه واتجاهه فى علم العربية ، والعلوم كنوز تحت مفاتيح الفهوم .

ثم قال : وجدت شيخنا عبد الله بن النقيب قد حكى فى تفسيره عن أبى عمرو بن الحاجب أن لما هنا هى الجازمة ، وحذف الفعل بعدها[1] .

٢ ـ حمل إن الشرطية على لو فى رفع الفعل بعدها :

قال ابن مالك : فمن رفع الفعل بعد إنْ حملاً على لو قراءة كلمة : (فإن ما تَرَيْنَ من البشر أحداً)[2] بسكون الياء ، وتخفيف النون ، فأثبت نون الرفع فى فعل الشرط بعد إنْ مؤكدة بما حملا لها على لو[3] .

٣ ـ النصب بلم :

جاء فى القراءة الشاذة : (ألم نشرحَ لك صدرك)[4] ، [5]

٤ ـ إعمال إن النافية :

قرأ سعيد بن جبير : (إنِ الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم)[6] .

---

(١) الأشباه والنظائر جـ ٢ ص : ٢٢٤ .
(٢) سورة مريم آية : ٣٦ .
(٣) شواهد التوضيح ص : ١٩ .
(٤) الانشراح آية : ١ .
(٥) شرح الأشمونى جـ ٤ ص : ٨ مطبعة الحلبى .
(٦) سورة الأعراف آية : ١٩٤ .

وقال الشاعر :

إن المرء ميتاً بانقضاء حياته　　ولكن بأن يبغى عليه فيخذلا[١]

ثالثاً : فى الحذف والزيادة :

قال ابن جنى : اعلم أن الحروف لا يليق بها الزيادة ولا الحذف وإنّ أعدل أحوالها أن تستعمل غير مزيدة ولا محذوفة، فأما وجه القياس فى امتناع حذفها من قبل أن الغرض فى الحروف إنما هو الاختصار ، ألا ترى أنك إذا قلت : ما قام زيد ، فقد نابت « ما » عن أنفى ، وإذا قلت : هل قام زيد ؟ فقد نابت هل عن أستفهم فوقوع الحرف مقام الفعل وفاعله غاية الاختصار ، فلو ذهبت تحذف الحرف تخفيفاً لأفرطت فى الإيجاز ، لأن اختصار المختصر إجحاف به ، فهذا وجه ، وأما وجه ضعف زيادتها ، فمن قبل أن الغرض فى الحروف الاختصار كما قدمناه — فلو ذهبت تزيدها لنقضت الغرض الذى قصدته لأنك كنت تصير من الزيادة إلى ضد ما قصدته من الاختصار فاعرف هذا ، فإن أبا على حكاه عن الشيخ أبى بكر محمد بن السرى السراج (ابن السراج) وهو نهايه فى معناه[٢] .

والقرآن الكريم لا يحفل بأقيسة النحاة ، ولا بالأصول التى وضعوها . فمن الحروف الزائدة فى القرآن ما يأتى :

١ — زيادة الواو : (حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها)[٣] .

قال ابن جنى : الواو هنا زائدة مخرجة عن العطف والتقدير عندهم فيها : حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها . وزيادة الواو أمر لا يثبته البصريون[٤] .

٢ — (وامسحوا برءوسكم وأرجلكم)[٥] ..

قال محب الدين أبو البقاء العكبرى : الباء زائدة[٦] .

---

(١) الهمع ج ١ ص : ١٢٥ .
(٢) سر صناعة الإعراب لابن جنى ج ١ ص : ٢٧١ .
(٣) سورة الزمر آية : ٧٣ .
(٤) الخصائص ج ٢ ص : ٤٦٢ .
(٥) سورة المائدة آية : ٦ .
(٦) الغيث المسجم ج ١ ص : ٩٩ .

٣ – زيادة « لا »

(قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً) [١] .

قال ابن الشجرى : فأما قوله : ألا تشركوا به شيئاً ، فيحتمل العامل فيه وجوهاً ، أحدها : فى قول بعض معربى القرآن أن يكون فى موضع نصب بدلا من ما .

والثانى : أجازه هذا المعرب أن يكون فى موضع رفع على تقدير مبتدأ محذوف أى هو لا تشركوا به شيئاً. ولا يصح عندى هذان التقديران إلا أن يحكم بزيادة « لا » لأن الذى حرمه الله عليهم هو أن يشركوا به ، فإن حكمت بأن لا للنفى صار المحرم ترك الإشراك ، فإذا قدرت بها الطرح كما لحقت مزيدة فى نحو : (فلا أقسم بِربِّ المشارق والمغارب)[٢] ، (وما منعك ألا تسجد إذ أمرتك)[٣] استقام القولان[٤] .

٤ – زيادة الفاء فى القرآن الكريم :

قال ابن جنى : ومن زيادة الفاء قوله جل ثناؤه : (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب)[٥] .

الفاء زائدة ، وتحسب الثانية بدل من تحسب الأولى . إلى هذا ذهب أبو الحسن ، وهو قياس مذهبه فى كثرة زيادة الفاء[٦] .

ومن الحذف فى القرآن الكريم ما يأتى :

١ – حذف الباء :

قال ابن جنى فى الخصائص : باب فى أن المحذوف إذا دلت الدلالة عليه كان فى حكم الملفوظ به .

---

(١) سورة الأنعام آية : ١٥١ .
(٢) سورة المعارج آية : ٤٠ .
(٣) سورة الأعراف آية : ١٢ .
(٤) أمالى ابن الشجرى جـ ١ ص : ٤٨ ، ٤٩ .
(٥) سورة آل عمران آية : ١٨٨ .
(٦) سر صناعة الأعراب جـ ١ ص : ٢٧٠ .

. . . وعلى نحو من هذا تتوجه عندنا قراءة حمزة : (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحامِ)[١] ليست هذه القراءة عندنا من الإبعاد والفحش ، والشناعة والضعف على ما رآه فيها ، وذهب إليه أبو العباس[٢] ، بل الأمر فيها دون ذلك وأقرب ، وأخف وألطف ، وذلك أن لحمزة أن يقول ، لأبى العباس : إننى لم أحمل الأرحام على العطف على المجرور المضمر ، بل اعتقدت أن تكون فيه باء ثانية حتى كأنى قلت : وبالأرحامِ ثم حذفت الباء لتقدم ذكرها[٣] .

٢ ـ حذف المبتدأ والفاء معاً من جواب الشرط :

وهو مما زعم النحويون أنه مخصوص بالضرورة ، وليس مخصوصاً بها ، ثم قال : فمن وروده : قراءة طاوس (ويسألونك عن اليتامى قل : أَصْلِح لهم خير)[٤] أى أصلح لهم فهو خير ، وهذا ، وإن لم يصرح فيه بأداة الشرط ، فإن الأمر مضمّنٌ معناها فكان ذلك بمنزلة التصريح بها فى استحقاق جواب ، واستحقاق اقترانه بالفاء لكونه جملة اسمية[٥] .

٣ ـ حذف أن المصدرية :

البصريون نادوا بعدم جواز حذف أن المصدرية ، وأن نحو « تسمع بالمعيدىّ خير من أن تراه » يحفظ ولا يقاس عليه ناسين أو متناسين قوله تعالى : (ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً)[٦] ، [٧]» .

٤ ـ حذف نون (لم يكن الذين كفروا)[٨] مع أنه لم يكن مستوفياً لشروط الحذف لأن شروط الحذف تنص على أن مضارع كان إذا جزم بالسكون ولم يتصل به ضمير نصب ، وقد وَلِيَتهُ متحرك تحذف النون جوازا[٩] .

---

(١) سورة النساء آية : ١ .
(٢) يريد المبرد .
(٣) الخصائص ج ١ ص : ٢٨٥ .
(٤) سورة البقرة آية : ٢٢٠ ص ١٣٣ .
(٥) شواهد التوضيح لابن مالك ص : ١٣٣ و ص ١٣٤ .
(٦) سورة الروم آية : ٢٤ .
(٧) أسرار اللغة ص : ١٩ .
(٨) سورة البينة آية : ١ .
(٩) الأشمونى ج ١ ص : ٢٤٥ الحلبى .

وأجاز يونس الحذف وإنْ وَلِىَ نون المضارع ساكن، لأنه قرئ شاذًّا (لم يكُ الذين كفروا) وقد وافقه ابن مالك لأنه يعتد بالقراءة الشاذة فى تقعيد القواعد[1] .

٥ ـ جواز حذف الحركة الظاهرة من الأسماء والأفعال الصحيحة اعتماداً على القراءة: (وبعولتْهن أحق)[2] بسكون التاء (ورسلْنا)[3] بسكون اللام ، (فتوبوا إلى بارئكم)[4] . . (وما يشعركم)[5] ، (ويأمركم)[6] بسكون أواخرها[7] .

٦ ـ حذف الموصول ، وإبقاء صلته :

قال ابن مالك : وحذف الموصول لدلالة صلته عليه مما انفرد به الكوفيون ، ووافقهم الأخفش ، وهم فى ذلك مصيبون ودلائل إصابتهم قوله تعالى : (وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم)[8] والأصل : بالذى أنزل إلينا ، والذى أنزل إليكم؛ لأن الذى أنزل إلينا ليس هو الذى أنزل إلى من قبلنا[9] .

٧ ـ حذف المضاف وإبقاء عمله :

(والله يريد الآخرة)[10] قال العكبرى: وقرئ شاذًّا بالجر تقديره : والله يريد عرض الآخرة ، فحذف المضاف وبقى عمله[11] .

---

(١) انظر الأشمونى جـ ١ ص : ٢٤٥ ط الحلبى بتصرف .
(٢) البقرة آية : ٢٢٨ .
(٣) الزخرف آية : ٨٠ .
(٤) البقرة : آية ٥٤ .
(٥) الأنعام : آية ١٠٩ .
(٦) النساء : آية ٥٨ .
(٧) الهمع جـ ١ ص : ٥٤ بتصرف .
(٨) العنكبوت : آية ٤٦ .
(٩) شواهد التوضيح ص : ٧٦ .
(١٠) الأنفال : آية ٦٧ .
(١١) إملاء ما من به الرحمن جـ ٢ ص : ١٠ .

٨ ــ حذف الفاء :

(أينما تكونوا يدرككُم الموت)[1] برفع الكافين . قال ابن جنى : وذلك أنه على حذف الفاء ، كأنه قال : فيدرككُم الموت ومثله بيت الكتاب :

من يفعل الحسنات الله يشكُرها والشر بالشر عند الله مثلان[2]

رابعاً : فى الحمل على المعنى :

١ ــ (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، فأصلحوا بينهما)[3] .

قال الزمخشرى : فإن قلت : ما وجه اقتتلوا والقياس اقتتلتا ، كما قرأ ابن أبى عبلة . أو اقتتلا كما قرأ عبيد بن عمير على تأويل الرّهطَيْن أو النفرين .

قلت : هو مما حمل على المعنى دون اللفظ ، لأن الطائفتين فى معنى القوم والناس[4] .

٢ ــ (إن رحمة الله قريب من المحسنين) [5] .

ذكّر قريباً ، لأن الرحم والرحمة سواء فحمله على المعنى [6] .

خامساً : فى العطف :

١ ــ فى العطف على الجوار :

قال الشيخ خالد فى أحكام العطف بالواو : الثامن : جواز العطف على الجوار فى الجر خاصة نحو (وأرجلكم)[7] فى قراءة أبى عمرو ، وأبى بكر ، وابن كثير وحمزة[8] .

---

(١) النساء : آية ٧٨ .

(٢) المحتسب لابن جنى ص : ٢٣٠ مخطوط .

(٣) سورة الحجرات آية : ٩ .

(٤) الكشاف جـ ٤ ص : ٢٩٠ مطبعة الاستقامة .

(٥) سورة الأعراف آية : ٥٦ .

(٦) مشكل إعراب القرآن لمكى بن أبى طالب ورقة ٦٦ مخطوط رقم ٢٣٢ تفسير .

(٧) سورة المائدة آية : ٦ .

(٨) شرح التصريح جـ ٢ ص : ١٣٧ ط الحلبى .

٢ ـ العطف على ضمير الجار بغير إعادة الجار :

قال ابن مالك: ومن مؤيدات الجواز قوله تعالى : (قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله ، وكفر به والمسجد الحرام) [١] فجر المسجد بالعطف على الهاء المجرورة بالباء ، لا بالعطف على (سبيل) لاستلزامه العطف على الموصول وهو (الصد) قبل تمام صلته ، لأن (عن سبيل) صلة له ، إذ هو متعلق به ، وكفر معطوف على الصد ، فإن جعل المسجد معطوفاً على سبيل كان من تمام صلة الصد ، وكفر معطوف عليه فيلزم ما ذكرته من العطف على الموصول قبل تمام الصلة ، وهو ممنوع بإجماع ، فإن عطف على الهاء خلص من ذلك[٢].

٣ ـ عطف الخبر على الإنشاء وعكسه :

اختلفوا فى ذلك ، فمنعه البيانيون وابن مالك ، وابن عصفور ، وأجازه الصفار وجماعة مستدلين بقوله تعالى : (وبشر الذين آمنوا)[٣] فى سورة البقرة ، (وبشر المؤمنين)[٤] فى سورة الصف [٥] .

٤ ـ فى العطف على الموضع قبل ذكر الخبر :

البصريون لا يجوّزون ذلك .

والكوفيون اختلفوا فى ذلك فذهب الكسائى إلى أنه يجوز ذلك على الإطلاق سواء تبين فيه عمل إن أو لم يتبين نحو : إن زيداً وعمرو قائمان ، ومالك وبكر منطلقان .

وذهب الفراء إلى أنه لا يجوز ذلك إلا ما لم يتبين فيه عمل إنّ .

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : (إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئون

---

(١) سورة البقرة آية : ٢١٧ .

(٢) شواهد التوضيح ص : ٥٥ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٥ .

(٤) سورة الصف آية : ١٣ .

(٥) مغنى اللبيب جـ ٢ ص : ٩٩ مطبعة التقدم .

والنصارى)[١] فعطف الصابئين على موضع إن قبل تمام الخبر، وهو قوله: (من آمن بالله واليوم الآخر)[٢] .

سادساً : فى التقديم والتأخير :

١ ــ تقديم خبر كان على اسمها :

قال الزمخشرى : قرأ الأعمش : (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية)[٣] بالنصب على تقديم خبر كان على اسمها[٤] .

٢ ــ تقديم معمول اسم الفعل عليه :

الكوفيون ذهبوا إلى جواز تقديم معمول اسم الفعل عليه، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : (كتابَ الله عليكم)[٥] فنصب كتاب الله بعليكم[٦] .

سابعاً : فى الإتباع :

قال أبو الفتح : وقع الإتباع فى كلامهم . ثم قال : وقد حملهم ذلك على أن قالوا : إنه ليأتينا بالغدايا والعشايا ، فحملوا غداة على غدايا لمكان العشايا .

وقالوا : ارجعن مأزورات غير مأجورات ، فهمزوا مأزورات وهومن الوزر اتباعًا لهمزة مأجورات ، وقياسه موزورات ، وقالوا فيما هو أغلظ من هذا . هذا جحر ضب خرب فجروا الخرب ، وهو من صفة المرفوع ، ولكن لما وَلِيَ المجرور جر إتباعًا ، وهو غلط منهم ، وهذا باب واسع لا يضبط[٧] .

هل وقع الإتباع فى القرآن الكريم :

ذهب ابن جنى إلى أنه من باب صفة السبب ، وأن أصل الكلام هذا جحر

---

(١) سورة المائدة آية : ٦٩ .
(٢) أسرار العربية ص : ١٥٢ .
(٣) سورة الأنفال آية : ٣٥ .
(٤) الكشاف جـ ٢ ص : ١٧١ بتصرف .
(٥) سورة النساء آية : ٢٤
(٦) أسرار العربية جـ ١ ص : ١٦٥ ، ١٦٦ .
(٧) المنصف لابن جنى جـ ٢ ص : ٣٢٦ .

ضب خرب جحره ، وأنه سائغ وقياسى ، وهو فى القرآن فى مواضع كثيرة يريد فى مثل قوله تعالى : (عليهم نار مؤصدة)[١] يريد موصد بابها ، ثم حذف وجعل الفعل للنار وقوله تعالى : (كعصف مأكول)[٢] يريد مأكول حبه ، لأن العصف تبن الزرع على قول أو قشر الحب وغلافه على قول[٣] .

ثامناً : فى الاسم الموصول :

١ ــ الذى قد يقع موصولا حرفيًّا فيؤول بالمصدر، وخرّجوا عليه :(وخضتم كالذى[٤] خاضوا) أى كخوضهم [٥] .

٢ ــ اللاء كالذين . قرأ ابن مسعود : (اللاء آلوا من نسائهم)[٦][٧] .

٣ ــ أسماء الإشارة كلها يجوز أن تستعمل موصولة ، وأدلتهم قوله تعالى : (وما تلك بيمينك ياموسى)[٨] أى ما التى (ها أنتم هؤلاء حاججتم)[٩] أى ها أنتم الذين حاججتم[١٠] .

٤ ــ حذف عائد الصلة إذا كان مجروراً :

زعم ابن عصفور أن حذفه ضعيف جدًّا، وردّه أبو حيان بوروده فى القرآن يعنى فى قوله تعالى : (فاقض ما أنت قاض)[١١] أى قاضيه [١٢] .

---

(١) سورة البلد آية : ٢٠ .
(٢) سورة الفيل آية : ٥ .
(٣) التذييل والتكميل لأبى حيان جـ ٤ ص : ١١٩ مخطوط رقم ٦٢ نحو .
(٤) سورة التوبة آية : ٦٩ .
(٥) الهمع جـ ١ ص : ٨٣ .
(٦) سورة البقرة آية : ٢٢٦ .
(٧) الهمع جـ ١ ص : ٨٣ .
(٨) سورة طه آية : ١٧ .
(٩) سورة آل عمران آية : ٦٦ .
(١٠) الهمع ص : ٨٤ جـ ١ .
(١١) سورة طه آية : ٧٢ .
(١٢) الهمع جـ ١ ص : ٩٠ .

٥ ــ وقوع مَنْ على غير العاقل :

لأنه نزل منزلته نحو قوله تعالى : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له)[١] .

عبر بالأصنامَ بمَنْ لتنزيلها منزلة العاقل حيث عبدوها .

ولأنه : يقترن معه فى شمول أو تفصيل ، فالأول نحو :(ألم تر أنَّ اللهَ يسبح له من فى السموات والأرض)[٢] .

والثانى نحو: ومنهم من يمشى على أربع لاقترانه بالعاقل فيما فصل بـ(مَنْ) فى قوله (خلق كل دابة من ماء) [٣] .

وزعم قطرب وقوع من على غير العاقل دون اشتراط أخذاً من مظاهر ما ورد من ذلك[٤] .

تاسعاً : فى مراعاة الذوق البلاغى :

١ ــ (هدى للمتقين)[٥] :

بعد أن ذكر الزمخشرى أوجه النحو فيها قال : «والذى هو أرسخ عرقًا فى البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحًا ، وأن يقال : إن قوله : الٓمٓ جملة برأسها ، أو طائفة من الحروف مستقلة بنفسها ، وذلك الكتاب جملة ثانية ، ولا ريب فيه ثالثة ، وهدى للمتقين رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ، وموجب حسن النظم حيث جىء بها متناسقة هكذا من غير حروف نسق وذلك لمجيئها متآخية آخذاً بعضها بعنق بعض»[٦] .

---

(١) سورة الأحقاف آية : ٥ .
(٢) سورة النور آية : ٤١ .
(٣) سورة النور آية : ٤٥ .
(٤) الهمع جـ ١ ص : ٩١ .
(٥) سورة البقرة آية : ٢ .
(٦) تفسير الكشاف جـ ١ ص : ٢٩ .

٢ – صرف ما لا ينصرف للتناسب كقوله تعالى :

(وجئتك من سبأ بنبأ)[١] (سلاسلاً وأغلالاً) [٢] (وداً ولا سواعاً ولا يغوثاً ويعوقاً ونسراً)[٣] ، فى قراءة من قرأ بذلك[٤] .

٣ – (إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره)[٥] :

حذف الفاء من قوله : إنْ لأن الغرض اتصال هذه الجملة بما قبلها كأنهما أفرغا فى قالب واحد ، وسبكا معاً ، ولو جاءت الفاء لأبطلت هذه السبك ، وحصلت المغايرة بينهما وزيد الفاء فى (فيظللن) دلالة على حصول الركودعقيب الإسكان ولو حذفت زال هذا المعنىٰ ، وبطل، وهو مقصود[٦] .

٤ – (ارجعى إلى ربك راضية مرضية ، فادخلى فى عبادى[٧] وادخلى جنتى) :

« فى الآية استعمال ادخلى على وجهين : أحدهما مع حرف الجر (فى) والآخر بغير حرف الجر ، فما سر ذلك ؟

فالزمخشرى على ولوعه بالنكت النحوية والبلاغية لم يقل فى تفسيره ذلك ... والوجه عندى أنه لما استعمل (ادخلى) للظرف المكانى وهو الجنة نصبه على الاتساع ، ولما استعمل لغير الظرف وهو عبادى جىء بحرف الجر كأنك تقول : دخل فلان دور الناس ، ولا تقول : دخل فلان الناس ، بل فى الناس أو بين الناس»[٨] .

وفى رأيى أن النحو القرآنى يقوم على حسن النظم ، ومتانة ، التركيب ، وقوة الصياغة ، فيجب إذا نظرنا إلى النحو القرآنى أن ننظر إليه فى مرآة البلاغة

---

(١) سورة النمل آية : ٢٢ .
(٢) سورة الإنسان آية : ٤ .
(٣) سورة نوح آية : ٢٣ .
(٤) الهمع جـ ١ ص : ٣٧ .
(٥) سورة الشورى آية : ٣٣ .
(٦) الطراز جـ ١ ص : ١٥٩ .
(٧) سورة الفجر آية : ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ .
(٨) المباحث اللغوية فى العراق : الدكتور مصطفى جواد ص : ٣٢ ، ٣٣ مطبعة لجنة البيان العربى .

والبيان ، «فقد تكون العبارة صحيحة التكوين النحوى ، ولكنها مع ذلك سقيمة التراكيب ، صعبة الفهم ، لاترضى الذوق ، وإذاً فلا يمكن أن تسمى بليغة لأن البلاغة تستلزم أمرين : هذا الصواب النحوى ، ثم الجمل والملاءمة لأذواق المخاطبين وعقولهم » [١] وقد كان القرآن الكريم كذلك .

عاشراً : فى الإشباع :

١ – (إنه من يتقى ويصبر)[٢] .

روى قنبل عن ابن كثير إثبات الياء .

والوجه أنه أسقط الياء بدخول الجازم ، ثم أبقى القاف على كسرتها ، وأشبعها لفظاً فحدث الياء للإشباع [٣] .

٢ – (مالك يوم الدين)[٤] .

قرأ نافع فى رواية عنه شاذة ملكى بإشباع كسر الكاف ، وقد ذكر ابن مالك فى شواهد التوضيح أن الإشباع من الحركات الثلاثة لغة معروفة . وحكى الفراء عن بعض العرب : أكلت لحما شاة أى لحم شاة . وأنشد :

تنفى يداها الحصى فى كل هاجرة نفى الدنانير تنقاد الصياريف[٥]

٣ – ومن ذلك قراءة أبى جعفر : (سواءعليهم آستغفرت لهم) [٦] والأصل . استغفرت بهمزة وصل ، ثم دخلت همزة الاستفهام فصارت أاستغفرت بالقطع ، والفتح والقصر مثل : (أصطفى البنات على[٧] البنين) وسقطت همزة الوصل سقوطاً لا تقدير معه ، كما يفعل بها بعد واو العطف ، وفائه ، وأشبعت فتحة همزة الآستفهام ، فتولدت بعدها ألف[٨] .

---

(١) الأسلوب : للإستاذ أحمد الشايب ص : ١٦ . . مطبعة الاعتماد بمصر .
(٢) سورة يوسف آية : ٩٠ .
(٣) الحجة لابن خالوية ورقة ٧٢ مخطوط رقم ١٩٥٢٣ ب .
(٤) سورة الفاتحة آية : ٤ .
(٥) إعراب القرآن : للسفاقسى . . مخطوط رقم ٢٢٢ – تفسير – دار الكتب هذه النسخة غير مرقمة .
(٦) سورة المنافقون آية : ٦ .
(٧) سورة الصافات آية : ١٥٣ .
(٨) شواهد التوضيح ص : ٢٣ – ابن مالك .

٤ — ومن ذلك قراءة الحسن رضى الله عنه : (سأوريكم دار الفاسقين) [١] بإشباع ضمة الهمزة .

ومثله رواية أحمد بن صالح عن ورش : (إياك نعبدُ وإياك نستعين)[٢] ، بإشباع ضمة الدال[٣] .

الحادى عشر : مُراعاة لغات العرب :

قال ابن جنى فى الخصائص : اللغات على اختلافها كلها حجة ألا ترى أن لغة الحجاز فى إعمال « ما » ولغة تميم فى تركه كل منهما يقبله القياس ، فليس لك أن ترد إحدى اللغتين بصاحبتها لأنها ليست أحق بذلك من الأخرى[٤]

وقال ابن خالويه فى شرح الفصيح : قد أجمع الناس جميعًا أن اللغة إذا وردت فى القرآن فهى أفصح مما فى غير القرآن لا خلاف فى ذلك[٥]

فمن اللغات التى وردت فى القرآن ، وتأثرت بها قواعد النحو معترفة أو منكرة ، مسلمة أو مؤولة ما يأتى :

١ — (يوم يأتِ)[٦].

قرئ بغير ياء ، ونحوه قولهم : لاأدر حكاه الخليل وسيبويه ، وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير فى لغة هذيل[٧] .

٢ — (إن هذان لساحران)[٨] .

ذكر الواحدى فى الوسيط أن ابن عباس قال : هى لغة بلحارث بن كعب . ثم قال : إجماع النحويين على أن هذه لغة حارثية ، وذلك أن بلحارث بن كعب وخثعماً ، وزبيداً ، وقبائل من اليمن يجعلون ألف الاثنين فى الرفع ،

---

(١) سورة الأعراف آية : ١٤٥ .
(٢) سورة الفاتحة آية : ٥ .
(٣) شواهد التوضيح لابن مالك ص : ٢٣ .
(٤) المزهر ج ١ ص : ٢٥٧ ط ثالثة الحلبى .
(٥) المرجع نفسه ص : ٢١٣ .
(٦) سورة هود آية : ١٠٥ .
(٧) تفسير الكشاف ج ٢ ص : ٣٣٥ مطبعة الاستقامة .
(٨) سورة طه آية : ٦٣ .

والنصب والخفض على لفظ واحد[١] .

٣ ـ أنا فى ألف أنا الضمير المنفصل لغات إثباتها وصلاً ووقفاً ، وهى لغة تميم ، وبها قرأ نافع[٢] .

٤ ـ (رب العالمين)[٣] .

يقرأ بالهمزة ساكنة ، قال الشيخ : وهذه لغة وردت الرواية بها . قالوا : عألم ، وخأتم[٤] .

٥ ـ (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان)[٥]

حكى أبو العباس عن أبى عثمان عن أبى زيد أنه قال : سمعت عمرو بن عبيد يقرأ : (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جأن) فظننته أنه قد لحن إلى أن سمعت العرب تقول : شأبة ، ودأبة[٦] .

٦ ـ (فى قلوبهم مرض)[٧]

قال ابن دريد عن أبى حاتم ، عن الأصمعى عن أبى عمرو : (فى قلوبهم مَرْض) ساكنة .

قال أبو الفتح : وينبغى أن يكون مَرْض هذا الساكن لغة فى مرض المتحرك . كالحلْب والحلَب ، والطَرْد ، والطَرَد[٨] .

٧ ـ (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام)[٩]

قرأ حمزة وحده « والأرحام بجر الميم » .

قال الفخر الرازى معلقاً وراداً على النحويين الذين ردوا هذه القراءة : « واعلم أن هذه الوجوه ليست وجوهاً قوية فى دفع الروايات الواردة فى اللغات وذلك لأن حمزة أحد القراء السبعة ، والظاهر أنه لم يأت بهذه القراءة من عند

---

(١) حاشية الجابردى على الشافية ص : ٢٧٧ جـ ١ .
(٢) الممتع جـ ١ ص : ٦٠ .
(٣) سورة الفاتحة آية ٢ : .
(٤) إعراب القراءات الشواذ للعكبرى لوحة رقم ٤ مخطوط رقم ١١٩٩ تفسير ـ دار الكتب .
(٥) سورة الرحمن آية : ٣٩ .
(٦) المنصف لابن جنى جـ ١ ص : ٢٨١ .
(٧) سورة البقرة آية : ١٠ .
(٨) المحتسب ص : ٣٤ .
(٩) سورة النساء آية : ١ .

نفسه ، بل رواها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك يوجب القطع بصحة هذه اللغة ، والقياس يتضاءل عند السماع ، لا سيما بمثل هذه الأقيسة التى هى أوهن من بيت العنكبوت»[١] .

وهكذا يصح أن نضيف إلى قواعد النحو بهذه القراءة قاعدة جديدة وهى جواز عطف الاسم الظاهر على الضمير المجرور من غير إعادة الجار .

٨ – (قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيبَ إلا الله)[٢] .

قال ابن مالك : وزعم الزمخشرى أنَّ الاستثناء فى الآية منقطع جاء على لغة تميم ، لأن الله تعالى ، وإن صح الإخبار عنه بأنه فى السموات والأرض فإنما ذلك على سبيل المجاز ، لأنه مقدس عن الكون فى مكان بخلاف غيره ، فإن الإخبار عنه بأنه فى السماء أو فى الأرض ليس مجازاً ، وإنما هو حقيقة ولا يصح حمل اللفظ فى حال واحدة على الحقيقة والمجاز[٣] .

٩ – (فتوبوا إلى بارئكم)[٤] .

روى سيبويه عن أبى عمرو الإسكان ... وذكر أبو عمرو أن لغة تميم تسكين المرفوع من الكلمة[٥] .

الثانى عشر : فى الإضافة :

١ – الفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير ظرف .

جمهور البصريينَ مَنْ تَقَدَّمَ منهم ومن تأخر يمنعون هذا ، ولا يجيزونه إلا فى ضرورة الشعر .

من أجل هذا رفض البصريون قراءة ابن عامر (قَتلُ أولادَهم شركائِهم)[٦] برفع القتل ، ونصب الأولاد ، وجر الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء ، وبعضُ النحويين أجاز هذا الفصل اعتماداً على قراءة ابن عامر ، الآخذ بالقرآن

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ١ ص : ١٣١ الفخر الرازى .
(٢) سورة النمل آية : ٦٥ .
(٣) تمهيد القواعد : ناظر الجيش جـ ٣ ص : ٣٨٠ بتصرف .
(٤) سورة البقرة آية : ٥٤ .
(٥) البحر المحيط جـ ١ ص : ٢٠٦ بتصرف .
(٦) سورة الأنعام آية : ١٣٧ .

عن عثمان بن عفان قبل أن يظهر اللحن فى لسان العرب[١] .

٢ ــ إضافة الصفة إلى موصوفها كقولهم : جرد قطيفة ، وسحق عمامة . البصريون يمنعون ذلك ، فإن ورد من ذلك شيء فإنهم يؤولون « وتأويله أن يقدر موصوف ويقدر إضافة الصفة إلى جنسها ، ويجر جنسها بمن لأن الإضافة فيهما بمعنى مِنْ لأن المضاف إليه جنس للمضاف لا موصوف به ، إذ الموصوف محذوف أى : شيء جرد من جنس القطيفة ، وشيء سحق من جنس العمامة ، فشيء موصوف وجرد أو سحق صفته والصفة فيهما مضافة إلى جنسها معنى وصرح بمن معها لبيان معنى الإضافة »[٢] .

والحق أنه لا داعى لهذا التعسف فى التأويل بهذا الأسلوب الممزق المعقد والواجب اتباع أسلوب القرآن فى هذا ، ومن ثم ذهب الكوفيون « إلى جواز الإضافة إذا اختلف اللفظان من غير تأويل محتجين بقوله تعالى : (حق اليقين)[٣] (ولدار الآخرة)[٤] (بجانب الغربى)[٥] »[٦] .

٣ ــ (وما أنتم بمصرخىَّ إنى)[٧] .

« قرأ حمزة والأعمش ويحيى بن وثاب (وما أنتم بمصرخىِ إنى) بكسر الياء فى الوصل ، ولذلك عقبه (بإنى) وهذه اللغة حكاها الفراء ، وقطرب ، وأجازها أبو عمرو بن العلاء ، قاله الشاطبى ، وبذلك سقط ما قاله المعرى فى رسالته : أجمع أصحاب العربية على كراهة قراءة حمزة وما أنتم بمصرخى بالكسر . قال الموضح فى الحواشى : والمعرى له قصد فى الطعن على علماء الإسلام »[٨] .

٤ ــ حذف المضاف

قال الفاكهى : «وأما نحو (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما)[٩] فإنما

---

(١) انظر هذه المسألة مفصلة فى كتاب/ البحر المحيط لأبى حيان : جـ ٤ من : ص : ٢٢٩ إلى ٢٣٠ .
(٢) شرح التصريح جـ ٢ ص : ٣٤ .
(٣) سورة الواقعة آية : ٩٥ .
(٤) سورة يوسف آية : ١٠٩ .
(٥) سورة القصص آية : ٤٤ .
(٦) شرح التصريح جـ ٢ ص : ٣٤ .
(٧) سورة إبراهيم آية : ٢٢ .
(٨) شرح التصريح جـ ٢ ص : ٦٠ .
(٩) سورة المائدة آية : ٣٨ .

أجمعت القراء السبعة على الرفع فيه مع أن الفعل ذو طلب لأنه يتأول عند سيبويه بحذف الخبر والمضاف ، وإقامة المضاف إليه مقامه ، والتقدير : مما يتلى عليكم حكم السارق والسارقة ، ثم استؤنف الحكم،وذلك لأن الفاء لا تدخل عنده فى الخبر فى نحو هذا»[1] .

الثالث عشر : مراعاة الأصل :

١ ـ ما الاستفهامية :

قال الجرجانى : إذا وصلوا « ما » فى الاستفهام حذفوا ألفها تفرقة بينها وبين أن تكون حرفاً .

ثم قال : وقرأ عكرمة ،فى الشاذ (عما يتساءلون)[2] بإثبات الألف ، رجوعاً إلى الأصل[3] .

٢ ـ (إن هذان لساحران)[4] .

قال أبو جعفر النحاس : « ومن أبين ما فى هذا قول سيبويه " واعلم أنك إذا ثنيت الواحد زدت عليه زائدتين الأولى منهما حرف مد ولين ، وهو حرف الإعراب" .

قال أبو جعفر : فقول سيبويه : وهو حرف الإعراب يوجب أن الأصل ألا يتغير فيكون : إن هذان جاء على أصله ليعلم ذلك . وقد قال الله عز وجل : (استحوذ عليهم الشيطان)[5] ولم يقل استحاذ فجاء على هذا ليدل على الأصل ، وكذلك إن هذان »[6] .

---

(١) مجيب الندا إلى شرح قطر الندى لجمال الدين عبد الله بن على الفاكهى مخطوط رقم ٥٧٩ نحو (الكتاب غير مرقم) .

(٢) سورة عم آية : ١ .

(٣) الغيث المسجم فى شرح لامية العجم جـ ١ ص : ٩٨ .

(٤) سورة طه آية : ٦٣ .

(٥) سورة المجادلة آية : ١٩ .

(٦) إعراب القرآن لأبى جعفر النحاس ورقة ١١٧ نسخة رقم ٤٨ تفسير ـ دار الكتب .

٣ – (ثلاث مائة سنين)[١] .

قراءة حمزة والكسائى إضافة مائة إلى سنين،أضافا إلى الجمع كما يفعلان فى الواحد ، وجاز لهما ذلك إذا أضافا إلى واحد ، فقالا ثلاث مائة سنة ، فسنة بمعنى سنين لا اختلاف فى ذلك ، فحمل الكلام على معناه ، وهو حسن فى القياس ، قليل فى الاستعمال لأن الواحد أخذت من الجميع ، فإنما يبعد من جهة قلة الاستعمال ، وإلا فهو الأصل[٢] .

---

(١) سورة الكهف آية : ٢٥ .
(٢) تفسير مشكل إعراب القرآن لمكى بن أبى طالب ورقة ١٠٢ .

الفصل الثالث

منزلة الاستشهاد بالقرآن الكريم بين أصول الاستشهاد النحوية

(ا) موازنة بين الاستشهاد بالقرآن ، والاستشهاد بالشعر :

١ – إذا قارنا بين الاستشهاد بالقرآن الكريم وبين أصول الاستشهاد الأخرى من شعر، وحديث، وغيرهما فإننا نجد أن القرآن الكريم هو الأصل الأول لهذه الأصول ، وهو الدعامة التي ترتكز عليها أصول الاستشهاد الأخرى .

ذلك لأن الشعر العربي الجاهلي أو الإسلامي كان في نظر النحاة منبعاً يمد النحو بالحياة ، والنمو ، والحركة ، وعلى أساسه ملئت صفحات كتب النحو بالقواعد التي يعزّ حصرها ، ويصعب استيعابها ، ومع ذلك فإن هذا الشعر أثر من آثار القرآن الكريم ، وفضل من أفضاله على النحو واللغة ، فلولا القرآن الكريم ما جمع هذا الشعر وما اهتّم به الرواة .

ولا أدل على ذلك من أن « ابن الأنباري كان يحفظ ثلاث مائة ألف بيت شاهد في القرآن الكريم »[1] .

والشافعي الفقيه الكبير صاحب المذهب المعروف في الفقه « كان يحفظ عشرة آلاف بيت من شعر هذيل بإعرابها ، وغريبها ومعانيها »[2] .

وقد عرف للقرآن منزلته نقاد الأدب فكانوا يصححون الشعر على هدى من أسلوب القرآن الكريم ونهجه ، فأبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكرى م ٤٨٧ هـ يقول في كتابه « التنبيه على أوهام أبي على في أماليه » ما نصه : « وأنشد أبو على رحمه الله للفرزدق :

فقلت ادْعِي وأدعُ فإن أندى لصوت أن ينادى داعيان

هذا البيت ليس للفرزدق ، وقد نسب إلى الحطيئة ، ولم يروه أحد في شعره ، والصحيح إنه لدثار بن شيبان ، ودثار هو الذى حمله الزبرقان على هجاء بني بغيض .

---

(١) مدرسة الكوفة : مهدى المخزومى ص ١٥٨ ط ثانية .

(٢) المزهر جـ ١ ص ٦٠ ط ثالثة الحلبي .

وقوله : وادع على توهم اللام ، ولو أظهرها كان خيراً كما قال الله سبحانه وتعالى : (أتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم)[١]. »[٢].

وروى صاحب « الطراز » أن ذا الرمة قال فى قصيدته الحائية :

إذا غير النأى المحبين لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح

فناداه ابن شبرمة : أراه الآن قد برح ، فأخذ يفكر ، ثم قال :

إذا غير النأى المحبين لم أجد رسيس الهوى من حب مية يبرح

قال عنبسة : فحكيت لأبى القصة ، فقال : أخطأ ابن شبرمة حين أنكر على ذى الرمة ، وأخطأ ذو الرمة حيث غير شعره لقول ابن شبرمة ، إنما هذا كقول الله تعالى : (ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها)[٣] والمعنى أنه لم يرها ولم يقارب رؤيتها[٤] .

والنحاة أنفسهم كانوا يؤمنون بهذا الاتجاه ، ويعتقدون أن الشعر دون القرآن فى موطن الاستشهاد ، وفى مجال بناء القاعدة .

فالفراء يقول فى معرض إعرابه لقوله تعالى (وحور عين)[٥] «والكتاب أعرب ، وأقوى فى الحجة من الشعر»[٦] .

ومن عجب — بعد هذا الذى قدمناه — من أن القرآن الكريم كان قبلة النقاد والعلماء — نرى أن بعض العلماء فى العصر الحديث ينكر أن يكون القرآن الكريم هو الأصل الأول فى الاستشهاد ، لأن الذى يستحق هذه المنزلة إنما هو الشعر وذلك حيث يقول : « ولا نزاع فى أن كلام العرب هو الأصل الذى يقاس به القرآن الكريم حتى تصح الموازنة التى أوجبها التحدى ، وما كان أصلا يجب أن يكون الدليل المقدم»[٧] . وقد نقدت هذا القول ، وبينت زيفه وأظهرت عواره بأدلة قدمتها فى بحثى « الماجستير »[٨] .

---

(١) العنكبوت : آية ١٢ .
(٢) التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه للبكرى ص ١٠٠ ط أولى — دار الكتب سنة ١٩٢٦ م.
(٣) النور : آية ٤٠ .
(٤) الطراز ج ٢ ص ١٩٩ بتصرف .
(٥) الواقعة : آية ٢٢ .
(٦) معانى القرآن للفراء ج ١ ص ١٤ .
(٧) مجلة الأزهر مجلد / ٢٢ ص ٦٠٠ وما بعدها من مقال للمرحوم الشيخ عبد الجواد رمضان (القرآن واللغة) .
(٨) رسالة الماجستير ص ١٨٥ .

٢ – وإذا قارنا بين القرآن الكريم و بين الشعر من زاوية التوثيق نجد أن النص القرآنى سخر الله تعالى جنوده من العلماء والصحابة وأولى الرأى لحفظه وصيانته ، وقد قدمت الكثير من أدلة هذا التوثيق فيما سبق بيانه من البحث .

أما الشعر ، وبخاصة الشعر الجاهلى فقد أثيرت حوله ضجة ، وكان مصدر هذه الضجة الدكتور طه حسين فى كتابه « فى الأدب الجاهلى » فقد شك فى قيمة هذا الأدب الجاهلى ، وألح عليه الشك كما يقول – فأخذ يبحث ويفكر حتى انتهى به هذا كله « إلى شىء إلا يكن يقيناً فهو قريب من اليقين ، ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدبًا جاهليًّا ليست من الجاهلية – فى شىء ، وإنما هى منحولة بعد ظهور الإسلام » . ثم قال : « ولا أكاد أشك فى أن ما بقى من الأدب الجاهلى الصحيح قليل جدًّا لا يمثل شيئًا ، ولا يدل على شىء ، ولا ينبغى الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلى »[1] .

والأدلة التى اعتمد عليها فى هذا الإنكار تتلخص فيما يأتى :

١ – الشعراء الجاهليون معظمهم ينتسب إلى قحطان ، وكثرتهم كانوا ينزلون اليمن ، والقلة منهم قد هاجرت إلى الشمال[2] . مع أن لسان حمير فى اليمن ليس هو لسان عدنان فى الشمال . وقد قال أبو عمرو بن العلاء « وما لسان حمير بلساننا ، ولا لغتهم بلغتنا »[3] .

٢ – وينبنى على هذا أن « الشعر الذى ينسب إلى امرئ القيس أو إلى الأعشى ، أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء ، ولا أن يكون قد قيل ، وأذيع قبل أن يظهر القرآن »[4] .

٣ – الشعر الجاهلى العدنانى لا يقوم على أساس علمى « فالرواة يحدثوننا أن الشعر تنقل فى قبائل عدنان . كان فى ربيعة ، ثم انتقل إلى قيس ، ثم إلى

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٦٥ .

(٢) المرجع نفسه ص ٨٨ .

(٣) المرجع نفسه ص ٨١ .

(٤) المرجع نفسه ص ٦٧ .

تميم ، فظل فيها إلى ما بعد الإسلام أى إلى أيام بنى أمية حين نبغ الفرزدق وجرير . ونحن لا نستطيع أن نقبل هذا النوع من الكلام إلا باسمين ، لأننا لا نعرف ما ربيعة ، وما قيس ، وما تميم معرفة علمية صحيحة » [1] .

رأى ومناقشة :

لا أريد من هذه المقارنة بين القرآن والشعر من زاوية التوثيق أن أهدم الشعر الجاهلى ، مطمئناً إلى رأى الدكتور طه حسين فى ذلك ، لو فعلت ذلك أو أردته لظلمت الحقيقة العلمية ، كما ظلمها ذلك الباحث . وإنما كان هدفى من هذه المقارنة أن توثيق الشعر الجاهلى لم يصل إلى الذروة ، كما حدث فى القرآن الكريم ، وليس معنى ذلك أن الشعر الجاهلى مشكوك فيه ، أو لم يكن له وجود قبل القرآن الكريم .

والشعر الجاهلى — كما قدمت — كان الغرض من جمعه خدمة القرآن الكريم فلا يعقل أن يخدم القرآن الكريم بشعر مشكوك فيه ، لا قيمة له من الوجهة اللغوية .

يدل على ذلك ما قاله ابن عباس : « إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله ، فلم تعرفوه ، فاطلبوه فى أشعار العرب ، فإن الشعر ديوان العرب ، وكان إذا سئل عن شىء من القرآن أنشد فيه شعراً » [2] .

هذا ، ويجب أن نضع فى أذهاننا أن الشعر الجاهلى كان يجرى على ألسنة العرب الفصحاء قبل نزول القرآن الكريم ، وأن العرب ما اشتهروا بالفصاحة والبلاغة إلا لنبوغهم فى هذا الشعر ، لأنه إذا أنكرنا هذا الشعر أنكرنا إعجاز القرآن الكريم ، وهو المعجزة الخالدة للإسلام ولو أنكرنا هذا الشعر لأنكرنا القرآن الكريم نفسه ، فقد أشار القرآن الكريم فى أكثر من موضع إلى فصاحة العرب وبلاغتهم ، ومن ثم تحدى هذه الفصاحة وهذه البلاغة فى آيات عديدة تمثل ذلك .

---

(١) فى الأدب الجاهلى ص ٩٢ .

(٢) العمدة فى صناعة الشعر ونقده لأبى على الحسن بن رشيق القيروانى المتوفى ٤٦٣م، ص ١١ طبعه أولى . مطبعة أمين هند .

أما كذب حماد الذى اعتمد عليه الدكتور طه حسين فى أنه كان « مشهوراً بالكذب ، وعمل الشعر ، وإضافته إلى الشعراء المتقدمين ، ودسه فى أشعارهم حتى إن كثيراً من الرواة قالوا : قد أفسد حماد الشعر لأنه كان رجلا يقدر على صنعه ، فيدس فى شعر كل رجل منهم ما يشاكل طريقته فاختلط لذلك الصحيح بالسقيم»[١] . فالواقع أن الاستناد إلى مثل هذه الرواية وحدها خطأ علمى فليس كل راوية «حماداً» أو«خلفاً». فكثير من الرواة — كما سنبينه — ليسوا على هذا المستوى من الكذب والانتحال .

وقد وضع الأمر فى نصابه الأستاذ أحمد ضيف حيث قال :

« من المستحيل أن تكون كل هذه الأشعار أو أكثرها مخترعة أو منسوبة إلى غير قائلها بدون سبب ، ولا داع إلى ذلك ، وإذا كذب الرواة أو دسوا على بعض الشعراء شيئاً ، فإن ذلك لا يمكن أن يصل إلى مقدار ما نعرفه من الشعر الجاهلى. وكيف يمكن اختراع هذا الشعر الكثير وبه من العبارات والأساليب ما يدل على أنه بدوى صرف ، وأى إنسان يمكنه أن يحصل على هذه القدرة ليشغل وقته بذلك ، وينسبه إلى غيره ، وكان أولى به أن يذكره لنفسه ليفخر به» . . . إلى أن قال : « أنرمى كل الرواة وعلماء اللغة والأدب بالكذب ، أو نتهمهم بعدم الثقة ، لأن حماداً وغيره كذب مرة أو مرتين ، وهل يصح أن نحكم على البلد أجمع بالمرض ، لأن بها إنساناً مريضاً ؟ » [٢] .

وأما كلمة أبى عمرو بن العلاء ، فقد بين الدكتور أحمد الحوفى المراد منها بأنها صالحة لأن يكون معناها :

١ — أن الحميرية الموغلة فى القدم . . هى التى تغاير لغة قريش ، فليست حميرية القرن الخامس الميلادى — وهو عهد الأدب الجاهلى المروى — هى المغايرة للغة قريش ، لأن النصوص التى عثروا عليها فى النقوش ، وفيها خلاف بين اللغتين نصوص معينية أو سبئية أكثرها غير مؤرخ وفى رأى « جلازر » أن أقدمها هى المعينية ، وأقدم هذه يرجع إلى القرن الخامس عشر

---

(١) أمالى المرتضى قسم أ ص ١٣٢ للشريف المرتضى على بن الحسين العلوى تحقيق محمد أبى الفضل . مطبعة الحلبى ط أولى . .

(٢) مقدمة لدراسة بلاغة العرب للأستاذ أحمد ضيف ص ٦٢ ط أولى سنة ١٩٢١ .

أو السادس عشر قبل الميلاد ، وأحدثها يرجع إلى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد .

٢ – إن اللغتين عربيتان ، ولكن التطور ، والمكان ، والزمان ، والأحداث ، والألسنة . . إلخ قد شققت من اللغة الواحدة لهجتين بدليل قوله ، ولا عربيتهم بعربيتنا ، والعرب يطلقون على اللهجة اللسان » [١] .

ويذكر الشيخ الخضر فى هذا المجال أن طه حسين حرّف كلمة أبى عمرو ابن العلاء لهوى فى نفسه[٢] .

وبين الشيخ العاملى خطأ طه حسين فى هذه الفكرة بأن الحميرية لغة عربية ، وكانت القبائل تجتمع من جنوبيين وشماليين فى أسواقها وتتفاهم دون أدنى كلفة ، ويساعدهم على ذلك أن لغاتهم أو لهجاتهم على ما كانت عليه كانت متحدة فى صميمها ، وأن هذا الاختلاف لم يعدُ كونها لهجات للغة واحدة .

ويقدم دليلا لما يقول فى قصة وفد الحجاز عند سيف بن ذى يزن ملك اليمن ، وعلى رأس ذلك الوفد سيد قريش عبد المطلب بن هاشم يخطب ببيانه القرشى العدنانى ، وسيد اليمن يصغى إليه ، ويسمع شاعر الوفد أمية بن أبى الصلت ينشد قصيدته بلهجته الفصحى ، والملك يصغى طروبًا لا يجد غرابة فى ذلك[٣] .

ففى هذه الأدلة التى سجلتها فى هذا المقام ردود ملجمة لدعوى الدكتور طه حسين فى إنكار الشعر الجاهلى .

وأضيف فى الرد على الدكتور طه – إلى الأدلة السابقة ما يأتى :

١ – رواة الشعر العربى لم يكونوا فى غفلة عن نسبة هذا الشعر إلى قائليه فكان لهم إلمام واسع بهذا الشعر ، وبأساليبه ، وبقائليه ، ويتحرون الأمانة فيه . فالأصمعى يقول : « سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : لقى الفرزدق فى

---

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلى – الدكتور أحمد الحوفى جـ ١ ص ٤١ . مطبعة نهضة مصر بالفجالة .

(٢) انظر نقض كتاب فى الشعر الجاهلى ص ٧٤ محمد الخضر حسين ، المطبعة السلفية .

(٣) انظر : مولد اللغة للشيخ أحمد رضا العاملى ص ٥٦ – نشر دار مكتبة الحياة ببيروت .

المربد ، فقلت يا أبا فراس : أحدثت شيئًا ؟ قلت شيئًا ؟ قال : فقال : خذ ، ثم أنشدنى :

كم دون ميَّة من مستعجل قُذُف ومن فلاة بها تستودع العيس[١]

قال : فقلت سبحان الله : هذا للمتلمس ، فقال : التمسها فلَضوالّ الشعر أحب إلى من ضوالّ الإبل»[٢].

والكسائى : يتحدث الفراء عنه فيقول : « دخلت عليه وهو يبكى فقلت له : ما يبكيك ؟ قال : هذا الملك "يحيى بن خالد" يوجه إلىّ ليحضرنى ، فيسألنى عن الشيء ، فإن أبطأت فى الجواب الحقنى منه عتب ، وإن بادرت لم آمن الزلل . . فقلت له : يا أبا الحسن : من يعترض عليك ؟ قل ما شئت فأنت الكسائى ؟ ! فأخذ لسانه ، وقال : قطعه الله إذن إذا قلت ما لا أعلم »[٣] .

والأصمعى لم يحتج بشعر ذى الرمة لكثرة ملازمته الحاضرة ففسد كلامه[٤] .

٢ ــ الشعر الجاهلى ، كان معظمه مدونًا ، وبخاصة المعلقات ، وهذا ينبنى على أساس أن العرب فيهم من يجيد الكتابة ، والقراءة ، وليسوا أميين . أما وصف العرب بالأمية فى قوله تعالى : (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم)[٥] وقوله تعالى : (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل)[٦] وقوله تعالى: (هو الذى بعث فى الأميين رسولا)[٧] فليس المقصود « الأمية الكتابية ولا العلمية ، وإنما يعنى الأمية الدينية ، أى أنهم لم يكن لهم قبل القرآن كتاب دينى . والدليل على ذلك (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانىّ) [٨]» [٩] .

---

(١) يقال : ناقة قذاف ، وقذوف ، وقذف ، وهى التى تتقدم من سرعتها ، وترمى بنفسها أمام الإبل فى سيرها . اللسان جـ ١١ ص ١٨٥ . المطبعة الأميرية .

(٢) الموشح لأبى عبد الله محمد بن عمران المرزبانى م سنة ٣٨٤ هـ ص ١١١ المطبعة السلفية .

(٣) الأسس المبتكرة لدراسة الأدب الجاهلى لعبد العزيز مزروع الأزهرى ص ٢٢٢ مطبعة العلوم .

(٤) الهمع جـ ١ ص ١٢٠ .

(٥) آل عمران : آية ٢٠ .

(٦) آل عمران : آية ٧٥ .

(٧) الجمعة : آية ٢ .

(٨) البقرة : آية ٧٨ .

(٩) مصادر الشعر الجاهلى من ص ٤٤ إلى ٤٦ .

وإذا كان معظم الشعر الجاهلى مكتوبًا مدونًا ، وكتب بيد الجاهليين أنفسهم فلا داعى للإنكار ، وقد أثبت القرآن الكتابة للعرب فقال : (وقالوا أساطير الأولين اكتتبها)[١] كما أثبت لهم القراءة فقال : (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً) إلى قوله تعالى : (أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابًا نقرؤه)[٢] .

وواضح أن الدكتور طه حسين يؤمن بأن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذى يجب أن تدرس الحياة الجاهلية فى مرآته حيث يقول : « فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلى »[٣] ومن المعلوم لدى الدكتور أنه من غير المعقول أن يقوم الشعراء بتأليف الشعر . وهو مجهود عقلى يحتاج إلى وقت من غير أن يكون لدى الشاعر صحيفة يكتب فيها شعره ليعاوده مرة بعد مرة ومن ثمّ قال جويدى : « إن قصائد القرن السادس الميلادى لجديرة بالإعجاب ، تُنبئ بأنها ثمرة صناعة طويلة ، فإن ما فيها من كثرة القواعد والأصول فى لغتها ، ونحوها ، وتراكيبها ، وأوزانها يجعل الباحث يؤمن بأنه لم تستولِ عليها تلك الصورة الجاهلية إلا بعد جهود عنيفة بذلها الشعراء فى صناعتها »[٤] .

ومالى أذهب بعيداً والجاحظ الناقد يدلى برأيه فى هذه المشكلة فيقول : « ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتاً ، وزمنًا طويلا ، يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ، ويقلب فيها رأيه اتهامًا لعقله ، وتتبعًا على نفسه فيجعل عقله زمامًا على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره ، إشفاقًا على أدبه ، وإحرازاً لما خوله الله من نعمته ، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات ، والمحكمات ، ليصير قائلها فحلا خنذيذاً ، وشاعراً مفلقًا »[٥] .

وأوضح الأدلة على كتابة الشعر الجاهلى « المعلقات » « فقد ذهب الأكثرون من العلماء إلى أنها استمدت تسميتها من تعليقها على الكعبة »[٦] .

---

(١) الفرقان : آية ٥ .
(٢) الإسراء : آية ٩٣ .
(٣) فى الأدب الجاهلى ص ٧٠ .
(٤) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص ١٤ للدكتور شوقى ضيف ط دار المعارف.
(٥) البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ٩ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ط ثانية .
(٦) الحياة العربية من الشعر الجاهلى للدكتور الحوفى ص ١٣١ . ط أولى .

وعلى الرغم من أن الدكتور الحوفى يرفض « رأى القائلين بتعليقها على الكعبة جملة وتفصيلا »[١] حيث قال : «كيف نصدق أن العرب كتبوا هذه القصائد بماء الذهب على القباطى ، وهم كانوا أمة أمية ندر فيها من يقرأ ويكتب ، وهل من المعقول أن ينبغ فيهم من يجيد الكتابة ، حتى يكتب بماء الذهب على القباطى ؟ وماذا يدعوهم لكتابة هذه القصائد ، وتعليقها على الكعبة ما دامت الأمية فاشية فيهم »[٢] .

على الرغم من هذا الرفض فإننا نؤمن بالاتجاه الذى يقول : إنها علقت على الكعبة أما دليل الدكتور الحوفى فقد نقضناه وهدمناه حينما أثبتنا أن العرب ليسوا أميين بشهادة القرآن نفسه .

وقد كانت الكعبة لدى العرب مقدسة ، وكان هذا التقديس فى نفوسهم يدفعهم إلى تعليق ما كثرت قيمته عندهم . فهذه القصائد كانت لديهم ذات قيمة فعلقوها كما علقوا غيرها ، وظل هذا التعليق سنة متبعًا ، وعرفًا لا ينكر . حدث محمد بن يحيى عن الواقدى عن أشياخه قال : «لما فتح عمر بن الخطاب رضى الله عنه مدائن كسرى كان مما بُعِثَ به إليه هلالان فبعث بهما فعلقهما فى الكعبة . . .

وكان هارون الرشيد قد وضع فى الكعبة قصبتين علقهما مع المعاليق فى سنة ست وثمانين ومائة ، وفيهما بيعة محمد وعبد الله ابنيه ، وما عقد لهما ، وما أخذ عليهما من العهود »[٣] .

وبعد ، فأرانى قد وفيت ردى على الدكتور طه حسين حقه بما ذكرته من أدلة ، وما قدمته من حجج ، دفاعًا عن إعجاز القرآن ، وبلاغته ، ودفاعًا عن النحو القرآنى الذى جاء على سنن ما تنطق العرب ، ولكنه فى قوة لا تجارى ، وبلاغة لا تنازع ، وفصاحة لا تبارى .

أقول : إن هذه الأدلة كلها تثبت أن العصر الجاهلى لم يكن خيالا ، وإنما كان حقيقة واقعة ، وتاريخًا ينطق بالحق والبرهان .

---

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلى للدكتور الحوفى المصدر نفسه والصفحة ص ٣٣١ أولى ، ص ٢١٢ ط رابعة . نهضة مصر .

(٢) الحياة العربية من الشعر الجاهلى ص ١٣٣ (أولى) ، ص ٢٠٧ ط رابعة نهضة مصر .

(٣) انظر أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار لأبى الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد الأزرقى جـ ١ ص ١٤٧ و ١٤٨ . المطبعة الماجدية بمكة المكرمة .

٣ — عيوب الشعر الجاهلي :

ولا نعنى بالدفاع عن الشعر الجاهلي، وقيمته التاريخية أنه كان خلْواً من العيوب، بريئاً من النقد، ومن هذه الناحية لا نستطيع أن نضعه بجانب القرآن الكريم في مجال الاستشهاد به على اللغة والنحو، وإنما نضعه إذا وضعناه في منزلة تلى منزلة القرآن الكريم. أما عيوب هذا الشعر، فقد تجرد لها العلماء منذ قديم محاولين الكشف عنها بما أوتوه من خبرة ، تضع الموازين القسط لهذا الشعر، وتقيم الأسس التي تبين خطأه أو صحته.

ومن النقاد الذين قاموا بهذا النقد أبو العلاء المعرى، فقد ذكر المعرى بشأن البيتين التاليين اللذين تنطوى عليهما معلقة عمرو بن كلثوم :

تصد الكأس عنا أمَّ عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا
وما شر الثلاثة «أمَّ عمرو» بصاحبك الذى لا تَصبحينا

أن أم عمرو هذه قينة من قيان الجنة، فلما سألها السامعون عن هذين البيتين، ألعمرو بن عدى هما أم لعمرو بن كلثوم ؟ أجابت : أنا شهدت نَدْمَانَىْ جَذيمة مالكاً وعقيلا، وصبحتهما الخمر المشعشعة لما وجدا «عمرَو ابن عدى» فكنت أصرف الكأس عنه، فقال هذين البيتين، فلعل عمرو ابن كلثوم حسّن بهما كلامه واستزادهما في أبياته [١] ونستطيع أن نرجع عيوب الشعر الجاهلي إلى الأمور الآتية :

١ — التصحيف :

فقد كثر هذا التصحيف في الشعر العربي، وهذا يدل على أن الشعر العربي كان مسجلا في صحف أو في دواوين يقرأ منها.

«يروى أن الأصمعى قرئ عليه يوماً في شعر أبي ذؤيب :

* بأسفل ذات الدير أفرد جحشها[٢] *

---

(١) النقد واللغة في رسالة الغفران ص ٥٧.

(٢) الجحش : ولد الظبية (هذلية) أى في لغة هذيل، وتكملة البيت :

* فقد ولهت يومين، فهى خلوج *

اللسان جـ٨ ص: ١٥٧ المطبعه الأميرية، وجاء في اللسان جـ ٥ ص: ٣٦٠ ما نصه وقول أبى ذؤيب
بأسفل ذات الدبر أفرد خشفها . . وقد طردت يومين فهى خلوج
عنى شعبة فيها دبر (والدبر . قال أبو حنيفة : النحل بالكسر).

فقال أعرابى حضر المجلس : ضل ضلالك أيها القارئ إنما هى "ذات الدّبر" وهى ثنيّة عندنا ، فأخذ الأصمعى بذلك فيما بعد»[١] .

والقرآن الكريم بقراءاته العديدة مرجعه الرواية والنقل ، وقد عيب على هؤلاء الذين يعتمدون على خط المصحف فى قراءة القرآن .

٢ – الاضطراب فى رواية هذا الشعر :

فالكثير من الشعر العربى روى بروايات عديدة ، وفى كل رواية كانت تقوم القاعدة وتبنى الأصول مما أدى إلى اضطراب هذه القواعد ، فالكوفيون مثلا يجوزون تأكيد النكرة المحدودة بألفاظ الشمول ويستدلون بقول الشاعر :

* ياليت عدة حول كله رجب *

ولو علمنا أن الرواية فى البيت بنصب رجب ، وأن النحاة غيروا رواية البيت ليتفق مع المشهور من لغة العرب لعرفنا كيف يكون الاضطراب فى رواية هذا الشعر ، فالقصيدة التى منها هذا البيت كما ذكر ياقوت فى معجم البلدان لعبد الله بن مسلم بن جندب الهذلى قالها حينما منعه الحسن بن زيد والى المدينة من إمامة الناس فقال له : أصلح الله الأمير ، لِمَ منعتنى مقامى ، ومقام آبائى وأجدادى من قبل ؟ فقال : ما منعك منه إلا يوم الأربعاء يريد قوله :

يالَلرجال ليوم الأربعاء أمَا ينفك يحدث لى بعد النهى طربَا

إلى أن قال :

لكنه شاقه أن قيل ذا رجب ياليت عدة حول كله رجبا

ونصب رجب جاء على لغة العرب الذين ينصبون المبتدأ والخبر جميعاً بعد إن[٢] .

والرواية فى مجال القرآن وقراءاته موثقة تقوم على سند متين لا يتسرب إليه الشك ولا يعتريه الريب .

٣ – وقد يرتكب الشاعر الضرورات فى شعره ، لأن الوزن وقيوده ، والقافية

---

(١) أبو هلال العسكرى ومقاييسه البلاغية للدكتور بدوى أحمد طبانة ص : ٩٢ ط ١٩٥٢ .

(٢) هامش الأشمونى جـ ٤ ص : ٣٦٥ تحقيق محيى الدين ط ثانية الحلبى بتصرف .

ورويّها ، ومراعاة الموسيقى بين الكلمات أمور يضعها الشاعر نصب عينه ، ومن أجلها قد يخرج عن القاعدة ، ويتنكب عن الجادة ، ويجوز ما لم تجوزه أساليب العربية . يقول الشيخ بهاء الدين » : إن كل ضرورة ارتكبها شاعر فقد أخرجت الكلمة عن الفصاحة »[١] .

من الأمثلة على ذلك قول ابن هشام : لا تظهر أن بعد كىْ[٢] إلا فى الضرورة كقوله :

فقالت : أكل الناس أصبحت مانحًا لسانك كيما أن تغرَّ وتخدعا[٣]

ومن ذلك ثبوت الحرف مع الجازم فى نحو قوله :

وتضحك منى شيخة عبشمية كأن لم ترى قبلى أسيراً يمانيا[٤]

ومن ذلك الإتيان بضمير منفصل فى موضع يجب فيه اتصاله كقوله :

بالباعث الوارث الأموات قد ضمنت إياهم الأرض فى دهر الدهارير

ومن ذلك تقديم المستثنى وعامله على المستثنى منه كقوله :

خلا الله لا أرجو سواك وإنما أعد عيالى شعبة من عيالكا[٥]

والقرآن الكريم ليس موضع ضرورات .

٤ ـ كثرة الأبيات المجهولة :

والشعر العربى : كثرت فيه الأبيات المجهولة النسب ، فزيادة أن بعد كى بهذا البيت المجهول القائل :

أردت لكيما أن تطير بقربتى فتتركها شنًّا ببيداء بلقع

لا يمكن أن نضعه بمنزلة آية من آيات الله قرئت بوجه ما ، وبرواية مسلسلة معروفة لا تمتد إليها الجهالة أو الشك .

ومن العجيب أن بعض النحويين يستدلون بشطر بيت لا يعرف شطره الآخر

---

(١) المزهر جـ ١ ص : ١٨٨ .
(٢) المغنى جـ ١ ص : ١٥٧ .
(٣) حاشية الخضرى جـ ١ ص : ٥١ ط الحلبى .
(٤) شرح ابن عقيل جـ ١ ص : ٦٠ ط الحلبى .
(٥) حاشية الخضرى جـ ١ ص : ٦ ، ط الحلبى .

«كالشاهد الذى يحتجون به على جواز دخول اللام فى خبر لكن ، وهو قول القائل المجهول :

ولكننى من حبها لعميد »[١] .

ومع ذلك نجد هؤلاء النحويين يقفون من بعض قراءات القرآن التى لم يجهل سندها موقف النقد والمعارضة كما فعل الزمخشرى فى قراءة ابن عامر .

٥ ـ كثرة الأبيات المدسوسة أو المنحولة :

فقد وضع بعض رواة الشعر أشعاراً ، ودسوها فى القصائد ونسبوها إلى غير أصحابها كحماد الذى «كان ينحل شعر الرجل غيره ، ويزيد فى الأشعار»[٢]. وقد قال يونس عنه : «العجب لمن يأخذ عن حماد، كان يكذب ، ويلحن ، ويكسر» [٣] .

وابن دأب الذى كان «يصنع الشعر ، وأحاديث السمر ، وكلاماً ينسبه إلى العرب»[٤] . .

وخلف الأحمر الذى تحدث عن نفسه فقال : «أتيت الكوفة لأكتب عنهم الشعر فبخلوا علىَّ به ، فكنت أعطيهم المنحول ، وآخذ الصحيح ، ثم مرضت ، فقلت لهم : ويلكم : أنا تائب إلى الله ، هذا الشعر لى ، فلم يقبلوا منى ، فبقى منسوباً إلى العرب لهذا السبب»[٥] .

وكان هذا الشعر المدسوس يعتمد عليه النحاة فى استنباط القاعدة واستخراج الأصول حتى كتاب سيبويه لم يخلُ من وبائه أو يسلم من شره ، فقد «وضع المولدون أشعاراً ، ودسوها على الأئمة ، فاحتجوا بها ظنًّا أنها للعرب ، وذكر أنه فى كتاب سيبويه منها خمسين بيتاً ، وأن منها قول القائل :

أعرف منها الأنف والعينانا ومنخرين أشبها ظبيانا »[٦]

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى ج ١ ص : ٣٧١ .
(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ص : ٢٣ المطبعة المحمودية.
(٣) المرجع نفسه ص : ٢٤ .
(٤) المزهر للسيوطى : ج ٢ ص : ٣٥٩ ـ مطبعة السعادة سنة : ١٣٢٥ .
(٥) النوادر فى اللغة لأبى زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصارى .
تعليق سعيد الخورى ص : (و) ـ من مقدمة المؤلف ـ المطبعة الكاثوليكية .
(٦) الاقتراح ص : ٢٦ ط الهند .

٦ — الإقواء :

ومن عيوب الشعر الإقواء « وهو اختلاف حركة الروى ، وزعموا أن بعضًا من الشعراء القدماء ، قد وقعوا فى هذا العيب ، ويروون لهذا قصة عن النابغة الذبيانى ويقولون : إنه نظم قصيدته التى مطلعها :

أمن آل مية رائح أومغتدى ... عجلان ذا زاد ، وغير مزود[١]

وجعل حركة الروى فى أبياتها الكسرة إلا فى بيت قال فيه :

زعم البوارح أن رحلتنا غداً ... وبذاك حدثنا الغراب الأسود »

وينكر هذا العيب أستاذنا الدكتور إبراهيم أنيس فى الشعر الجاهلى فيقول : « وعندى أنه لو صحت مثل هذه الروايات يجب أن تعد خطأ نحويًّا ، لا خطأ شعريًّا ، فالشاعر صاحب الأذن الموسيقية والحريص على موسيقى القافية لا يعقل أن يزل فى مثل هذا الخطأ الواضح الذى يدركه حتى المبتدئون فى قول الشعر »[٢] .

وفى رأيى أن خطأ النابغة فى الشعر أسهل من خطئه فى النحو ، لأن العربى لا يخطئ فى اللغة ، لأنه يتكلمها سليقة وطبعًا وبخاصة فى مجال القول ، والنابغة الذبيانى صاحب هذا الخطأ النحوى — كما يقول الدكتور أنيس — كانت « تضرب له قبة حمراء من أدم بسوق عكاظ فتأتيه الشعراء ، فتعرض عليه أشعارها »[٣] .

كيف يخطئ النابغة فى النحو ، وهو الناقد للشعر ، بل الحكَم بين الشعراء ؟ على أن النابغة ليس أول من أقوى من الشعراء « فقد قيل لأبى عمرو ابن العلاء : هل أقوى أحد من فحول شعراء الجاهلية كما أقوى النابغة ؟ قال : نعم بشر بن أبى خازم ، قال :

ألم تر أن طول الدهر يسلى ... وينسى مثل ما نَسِيَتْ جذام

وكانوا فوقنا فبغوا علينا ... فسقناهم إلى البلد الشآمى »[٤]

وقال قدامة بن جعفر : « وقد ركب بعض الفحول الإقواء فى مواضع

---

(١) موسيقى الشعر للدكتور إبراهيم أنيس ص : ٢٥٧ .
(٢) المرجع نفسه والصفحة .
(٣) الموشح للمرزبانى ص : ٦٠ المطبعة السلفية سنة ١٣٤٣ هـ .
(٤) المصدر نفسه ص : ٥٩ .

ما قال سحيم بن وثيل الرياحى :

عذرت البزل إن هى خاطرتنى فما بالى ، وبال ابن اللبونِ
وماذا تدّرى الشعراء منى وقد جاوزت حد الأربعينَ

فنون الأربعين مفتوحة ، ونون اللبون مكسورة»[١] .

وكما أقوى بعض شعراء الجاهلية أقوى بعض شعراء الإسلام كجرير الذى روى أنه قال :

عرين من عرينة [٢] ليس منا برئت إلى عرينة من عرين
عرفنا جعفراً وبنى عُبَيْد وأنكرنا زعانف آخرينا[٣]

ومالى أذهب بعيداً وقد ذكر صاحب القاموس فى مادة (قوى) ما نصه « وقلت قصيدة لهم بلا إقواء»[٤] .

ففى هذه النصوص التى قدمتها ما يدل على أن الإقواء ليس بدعاً ، وليس مقصوراً على النابغة وحده ، وإنما شارك فى ذلك شعراء سابقون ، ولا حقون ، أيقال عن هؤلاء جميعاً إنهم يخطئون فى النحو ، والنحو من كلامهم أخذ ؟ فعلى أىّ الشعراء إذاً نعتمد فى تقعيد القواعد ، واستخراج الأصول ؟

على أنه كان من الممكن لأستاذنا الدكتور أن يخرج من هذا المأزق كما خرج منه نقاد الأدب فيقول كما يقول قدامة فى هذا الإقواء: إن الشاعر « وقف القوافى فلم يحركها»[٥] أو كما يقول الدكتور عبد الله الطيب فى هذا الموضع: « ويظهر أن الأذواق الجاهلية كانت تقبل هذا ، ولعل السبب فى قبولها له أنهم كانوا يقفون كثيراً بالسكون فى القوافى المطلقة ، فيقولون : مزود ، والأسود»[٦] .

---

(١) نقد الشعر لقدامة تصحيح س . أ . بوينبا كر . ط ليدن ص : ١٠٩ ، ١١٠ .

(٢) قال الأزهرى :

عرينة : حى من اليمن ، وعرين حى من تميم . . اللسان ١٧ / ١٥٥ الأميرية . ومما يذكر أن الدكتورة بنت الشاطئ جعلت عرينة بطناً من تميم وهى من اليمن كما يقول الأزهرى . .

رسالة الغفران ص : ٤٥٤ .

(٣) نقد الشعر لقدامة ص : ١١٠ .

(٤) القاموس المحيط جـ ٤ ص : ٣٨١ مطبعة دار المأمون ط رابعة .

(٥) نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص : ١١٠ .

(٦) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها للدكتور : عبد الله الطيب : جـ ١ ص : ٣١ ط الحلبى.

أليس هذا القول أجدى وأولى من أن يقال : إن الشاعر الجاهلى أخطأ فى النحو ؟

٧ ــ الخلط بين القبائل فى جمع هذا الشعر :

وحينما جمع الشعر العربى من أفواه الرجال ، أو من صفحات الكتب لم يعن الرواة بإسناد كل شعر إلى القبيلة التى ينتمى إليها الشاعر ، ومن ثمّ فإننا نجد فى الشعر لهجات عديدة ، ولغات مختلفة ، ولم يحاول النحاة حينما وضعوا قواعدهم أن يميزوا بين القبائل ، وأن يضعوا لكل قبيلة قواعدها الخاصة فى مرآة شاعرها أو شعرائها .

إنهم لو فعلوا ذلك لأراحونا من هذا الاضطراب ، والتناقض فى وضع القواعد .

من أجل هذه العيوب كلها التى أجملناها فى هذا المقام نرى أن القرآن الكريم هو المصدر الذى يجب أن نتجه إليه فى كل قاعدة نقيمها ، وفى كل حكم نصدره ، وفى كل أسلوب ننشئه .

(ب) موازنة بين الاستشهاد بالقرآن ، والاستشهاد بالحديث الشريف :

الاستشهاد بالحديث الشريف لم يكن موضع اتفاق بين النحاة ، فأبو الحسن ابن الضائع وأبو حيان ذهبا إلى أن الاحتجاج بالحديث فى الدراسات النحوية واللغوية لا يجوز . قال ابن الضائع فى شرح الجمل : «تجويز الرواية بالمعنى هو السبب عندى فى ترك الأئمة كسيبويه وغيره ــ الاستشهاد على إثبات اللغة بالحديث ، واعتمدوا فى ذلك على القرآن ، وصريح النقل عن العرب ، ولولا تصريح العلماء بجواز النقل بالمعنى فى الحديث لكان الأولى فى إثبات فصيح اللغة كلام النبىّ صلى الله عليه وسلم ، لأنه أفصح العرب»[١] .

وقد بينت فى رسالتى « الماجستير »[٢] خطأ هذه الوجهة ، وأنه مهما أنكر

---

(١) خزانة الأدب للبغدادى ج ١ ص : ٢٣ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون المطبعة السلفية سنة ١٣٤٧ هـ .

(٢) رسالة الماجستير من ص : ١٩٥ إلى ص : ٢٠٧ بمكتبة دار العلوم ، مخطوط .

النحاة هذا الاحتجاج بالحديث ، فإن إنكارهم لا قيمة له إذا عرفنا أن الرواة كانوا يتحرون ويضبطون الأحاديث حتى لا يزيدوا فيها ، أو ينقصوا منها ، أو يغيروا فى كلماتها ، وهى فى هذا الميدان ميدان التوثيق والضبط أقوى من الأشعار التى صنعت أو دست ، أو الأشعار الحائرة التى لا تعرف لها أبًا ولا جدًّا .

على أن بعض العلماء كالإمام أبى حنيفة كانوا لا يجوزون « نقل الحديث إلا باللفظ دون المعنى . . وبما يروى عن الإمام أبى حنيفة أنه قال : لا ينبغى للرجل أن يحدث من الأحاديث إلا بما حفظه من يوم سمعه إلى يوم يحدث به »[١] .

وعلى الرغم من دفاعنا عن الاستشهاد بالحديث ، فإنه لهذه الثغرة ، ثغرة الرواية بالمعنى لا يصل إلى القرآن الكريم فى باب التوثيق ومجال القاعدة ، واستنباط الأصول اللغوية والنحوية .

(ج) آراء العلماء فى الاستشهاد بالقرآن وأثره فى النحو واللغة :

أحب أن أختم هذا الفصل — وهو آخر فصل فى هذا الكتاب — بتسجيل آراء العلماء فى فضل القرآن على اللغة ، وأثره فى النحو لأشعر نفسى أننى لست وحدى صاحب هذا الاتجاه ، أو رائد هذا الميدان .

١ — إن أممًا كثيرة تركت لغتها تتطور وتتفرع إلى لغات كثيرة دون أن تعنى بضبطها ، والوقوف فى سبيل تطورها ، ولكن علماء الإسلام عنوا بضبط لغتهم من أجل المحافظة على القرآن الكريم ، فنشأت هذه الظاهرة العجيبة ، وهى أنه لو قدر أن يحيا اليوم رجل مات منذ ألف سنة فسمع المتحدثين بالعربية لما أنكرها ، ولفهمها[٢] .

٢ — إن هذا الكتاب السماوى منارة تتلألأ يهتدى بها العاملون لإرساء قواعد اللغة ، وإبقائها فى سلامة وصحة ، وأنا أعتقد أن كل تيسير ، وكل أمر ينزع بنا بعيداً عن هذه المنارة المتلألئة التى نقدر جميعًا بإيمان أنها كانت سببًا فى نشر اللغة ، وفى ربطها بشعوب كبيرة ، كل تيسير ينأى بنا عن قواعد وأصول

---

(١) الغزالى : لأحمد فريد رفاعى ص : ١٣٥ — المجلد الثانى — مطبوعات دار المأمون .

(٢) رأى الأستاذ محمد عرفة مجلة الأزهر م ٢٤ ص : ٦١ .

هذه المنارة لا يؤبه له ، ولا يعمل به[1] .

٣ – لولا القرآن الكريم لكان من المشكوك فيه كثيراً أن يتوافر العلماء على وضع علم النحو ، وعلوم البلاغة ، واستقصاء المفردات وتحرّى مصادر الفصيح والدخيل . . .

ومما لا خلاف فيه أن اللغة العربية نشطت هذا النشاط ، وتقدمت هذا التقدم لأنها لغة كتاب مقدس يدين به المسلمون ، وهو القرآن الكريم [2] .

٤ – لولا هذه العربية التى حفظها القرآن الكريم على الناس ، وردهم إليها ، وأوجبها عليهم لما اطرد التاريخ الإسلامى ، ولا تراخت به الأيام إلى ما شاء الله[3] .

٥ – يقول المعجم الفرنسى الكبير : « إن اللغة تشارك الأمة أقدارها ، فإذا ضعفت الأمة وتهافتت ماتت اللغة ، ولا أمل فى بعثها بعد أن تموت » .

أما اللغة التى تبقى بعد تفرق أمتها فهى التى أودعتها السماء رسالة أو التى أودعها الشعراء والأدباء والعلماء أفكاراً سامية .

ولغتنا العربية تجمع بين رسالة السماء ، ورسالة الأرض ، فيها شعر خالد ، وفيها نثر خالد ، وفيها القرآن[4] .

---

(١) رأى الأستاذ الدكتور منصور فهمى مجلة المجمع العلمى العربى مجلد ٣٢ جـ ١ ص : ٦٧ .

(٢) رأى الأستاذ العقاد مجلة الأزهر مجلد ٢٤ ص : ٥٥ .

(٣) رأى الأستاذ مصطفى صادق الرافعى (تحت راية القرآن ص : ٥٢) مطبعة الاستقامة .

(٤) مجلة المجمع العلمى العربى مجلد ٣٢ جـ ١ ص : ٤٣ (مقال للأستاذ : منير العجلانى) .

اقتراحات

١ ــ تكوين لجنة من العلماء والمتخصصين لنشر وتحقيق كتب إعراب القرآن والقراءات ، والمعانى والغريب ، لأن المطبوع من هذه الكتب قليل بالنسبة لما لم يطبع .

٢ ــ القراءات منبع غزير يثرى اللغة ، ويمدها بالنحو والحياة لتصمد أمام التيارات الفكرية على اختلاف العصور والأزمنة .

والقراءات سجل واف للغات العرب ولهجاتها ، فإذا أردنا أن نقارن بين هذه اللهجات أو هذه اللغات من حيث النحو أو التطور فإننا نجد خير معوان لنا فى تحقيق هذا الغرض هو كتب القراءات .

٣ ــ لا يلجأ إلى الشواهد الأخرى إلا بعد الرجوع إلى القرآن الكريم وقراءاته المختلفة ، لأنه أوثق فى مجال الاستشهاد من غيره ، هذه ناحية ، ولربط لغتنا بالقرآن ربطًا محكمًا يكتب لها الخلود ، ويحول بينها وبين الفناء من ناحية أخرى .

٤ ــ إبعاد الأبيات المجهولة القائل أو القواعد التى تقوم على الفلسفة والمنطق من مجال اللغة ، وقصرها على السماع والرواية من غير تعليل أو فلسفة .

٥ ــ القياس على كل ما ورد فى القرآن الكريم بقراءاته العديدة .

٦ ــ تيسير النحو ، وذلك باعتماد قواعد منتخبة من القراءات يراعى فيها السهولة ، وبخاصة للمبتدئين ، ليسهل عليهم تعلم العربية فى ظلال القرآن الكريم .

٧ ــ تكوين لجنة من النحاة لدراسة القراءات واقتباس قواعد جديدة منها تضاف إلى قواعدنا الموثقة بعد استبعاد القواعد التى لا نطمئن على صحتها لأنها قامت على أبيات مجهولة النسب أو على تخريجات تعتمد على الفلسفة والمنطق .

وبعد ، فلا أريد فى مجال العلم والمعرفة أن يتملكنى الغرور فأقول :

إن البحث من ألفه إلى يائه جديد، لأنى لم أسبق إليه ولم أجد كتاباً عالج هذا الموضوع كما عالجته .

ولكنى أحنى رأسى لربى إجلالا وتعظيماً فلولا إلهامه وتوفيقه ما خطوت خطوة واحدة فى هذا البحث . وأرجو الله أن يثيبنى عليه ، ويجعله خالصاً لوجهه فهو سبحانه أعلم بأسرار القلوب ، وخفايا النفوس .

المصادر والمراجع

أولا : المخطوطات :

١ ـ الاتجاهات النحوية فى الأندلس وأثرها فى تطوير النحو : الدكتور أمين السد (رسالة دكتوراه)

٢ ـ أخبار الزجاجى ، نسخة مصورة ضمن مجموعة رقم : ٢٢٠٩٦٧ ، مكتبة جامعة القاهرة .

٣ ـ ارتشاف الضرب من لسان العرب : أبو حيان الأندلسى . مخطوط رقم ١١٠٦ نحو دار الكتب المصرية .

٤ ـ إعراب القرآن : أبو جعفر النحاس رقم ٤٨ ـ تفسير دار الكتب .. ورقم ١٧٨ تفسير ـ تيمور ، ورقم ١٩٦٦٧ ب نسخة مصورة بدار الكتب .

٥ ـ إعراب القرآن : ابن خالويه . مخطوط رقم ٧ تفسير « ش » دار الكتب .

٦ ـ إعراب القرآن : وهو منسوب خطأ إلى الزجاج . مخطوط رقم ٥٢٨ تفسير ـ دار الكتب .

٧ ـ إعراب القرآن : السفاقسى رقم ٢٢٢ تفسير ـ دار الكتب . مخطوط .

٨ ـ إعراب القرآن : السمين الحلبى مخطوط رقم ٣٢١ ـ تفسير دار الكتب . ورقم ١٠٧ ـ تفسير ـ دار الكتب .

٩ ـ إعراب القرآن المجيد : المنتجب بن أبى العز رقم ٧٤ م ـ دار الكتب .

١٠ ـ إعراب القرآن : لمؤلف مجهول نسخة مصورة (ميكروفيلم) رقم ٢١ تفسير ـ معهد المخطوطات العربية ، وقد أثبت أن هذا الإعراب للسمين الحلبى .

١١ ـ الإغفال : أبو على الفارسى . مخطوط رقم ٦٩٩ تفسير ـ دار الكتب .

١٢ ـ الأمالى : ابن الحاجب مخطوط رقم ١٠٣٤ ـ نحو ـ دار الكتب .

١٣ ـ البرهان فى علوم القرآن : الحوفى مخطوط رقم ٥٩ تفسير ـ دار الكتب .

١٤ ــ البيان فى غريب إعراب القرآن : ابن الأنبارى رقم ٦٤٤ ــ تفسير ــ دار الكتب .

١٥ ــ التذييل والتكميل : أبو حيان الأندلسى مخطوط رقم ٦٢ نحو ــ دار الكتب .

١٦ ــ تفسير جزء عم : للرمانى مخطوط رقم ٢٠١ تفسير ــ تيمور ــ دار الكتب .

١٧ ــ تفسير مشكل إعراب القرآن : أبو محمد مكى بن أبى طالب مخطوط رقم ٢٣٢ تفسير دار الكتب .

١٨ ــ تمهيد القواعد : ناظر الجيش . مخطوط رقم ٣٤٩ نحو . دار الكتب .

١٩ ــ سر الصناعة : ابن جنى مخطوط رقم ٥٨١٦ هـ ــ دار الكتب .
والمطبوع الجزء الأول منه ينتهى بحرف الكاف .

٢٠ ــ غاية الإحسان فى علم اللسان : أبو حيان الأندلسى . مخطوط رقم ٢٤ ش . نحو دار الكتب .

٢١ ــ فهرس شواهد سيبويه : للأستاذ عبد السلام هارون . مخطوط .

٢٢ ــ مجيب الندا إلى شرح قطر الندى : جمال الدين عبد الله بن على الفاكهى رقم ٥٧٩ نحو .

٢٣ ــ المحاجاة بالمسائل النحوية ؛ الزمخشرى . مخطوط رقم ٢٨ ش ــ دار الكتب .

٢٤ ــ المحتسب : ابن جنى . مخطوط رقم ٣٧٩ تفسير ــ تيمور . دار الكتب .

٢٥ ــ مدرسة البصرة : الدكتور عبد الرحمن السيد . مخطوط .

٢٦ ــ المدرسة النحوية فى مصر والشام : عبد العال سالم على (رسالة ماجستير) مخطوطة .

٢٧ ــ المسائل : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة . مصور رقم ٢٠٩٦٧ مكتبة جامعة القاهرة .

٢٨ ــ المسائل الخلافية : العكبرى . مخطوط رقم ٢٨ ش نحو ــ دار الكتب .

٢٩ ــ مشكل إعراب القرآن : أبو محمد مكى بن أبى طالب الأندلسى . مخطوط رقم ٢٣٢ ــ تفسير . دار الكتب .

٣٠ ـ معانى القرآن : أبو جعفر النحاس مخطوط . رقم ٣٨٥ تفسير — دار الكتب .

٣١ ـ معانى القرآن : الزجاج (أبو إسحاق) مخطوط رقم ١١١ تفسير — دار الكتب .

٣٢ ـ معانى القرآن : الزجاج (أبو إسحاق) نسخة مصورة (ميكروفيلم) رقم ٢٥٢ تفسير ـ معهد المخطوطات .

٣٣ ـ ملتقط من كتاب التبيان فى إعراب القرآن : للعكبرى . . من كتب خليل بن أيبك الصفدى رقم ٩ ـ تفسير — مكتبة سوهاج .

ثانياً : المطبوعات :

٣٤ ـ الإتقان : جلال الدين السيوطى ـ طبعة ثالثة . مطبعة الحلبي

٣٥ ـ أثر القرآن فى تطور النقد العربى : الدكتور محمد زغلول سلام . مطبعة دار المعارف .

٣٦ ـ إحياء النحو : المرحوم الأستاذ إبراهيم مصطفى . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٣٧ ـ أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار : أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقى المطبعة الماجدية بمكة المكرمة .

٣٨ ـ أدب الكتاب : أبو محمد يحيي الصولى . المطبعة السلفية سنة ١٣٤١ هـ.

٣٩ ـ أدب مصر الإسلامية : الدكتور محمد كامل حسين ، مطبعة الوفد .

٤٠ ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة : أبو الحسن على بن محمد بن عبد الكريم الجزرى المعروف بابن الأثير طبع سنة ١٢٨٦ هـ .

٤١ ـ أسرار العربية : ابن الأنبارى . مطبعة الترقى بدمشق .

٤٢ ـ الأسس المبتكرة لدراسة الأدب الجاهلى : للأستاذ عبد العزيز مزروع الأزهرى مطبعة العلوم .

٤٣ ـ الأسلوب : للأستاذ أحمد الشايب . مطبعة الاعتماد بمصر .

٤٤ ـ الأشباه والنظائر فى النحو : السيوطى . طبع الهند .

٤٥ ــ الإصابة فى تمييز الصحابة : ابن حجر . المطبعة الشرفية .
٤٦ ــ إصلاح المنطق : أبو يوسف يعقوب بن إسحاق . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون مطبعة دار المعارف . طبعة ثانية .
٤٧ ــ أصول الأحكام الشرعية : الشيخ على حسب الله . مطبعة العلوم . طبعة أولى .
٤٨ ــ إعجاز القرآن : مصطفى صادق الرافعى .. مطبعة الاستقامة ، طبعة سادسة .
٤٩ ــ إعراب ثلاثين سورة من القرآن : ابن خالويه : مطبعة دار الكتب سنة ١٩٤١ م
٥٠ ــ الأعلام ــ خير الدين الزركلى . طبعة ثانية ــ الخانجى .
٥١ ــ الأغانى : أبو الفرج الأصبهانى . مطبعة التقدم .
٥٢ ــ الاقتراح : السيوطى . طبع الهند .
٥٣ ــ اقتراح بشأن كتابة الهمزة (مقال للمرحوم الأستاذ إبراهيم مصطفى) مجلة المجمع العربى بدمشق .
٥٤ ــ الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب : ابن السيد البطليوسى : تحقيق عبد الله البستانى : المطبعة الأدبية ببيروت سنة : ١٩٠٢ .
٥٥ ــ أقرب الموارد : سعيد الخورى الشرتونى . مطبعة مرسلى اليسوعية .
٥٦ ــ ألف باء : أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوى سنة : ١٨٨٩ م .
٥٧ ــ الأمالى : ابن الشجرى : طبع الهند طبعة أولى سنة : ١٣٤٩ هـ
٥٨ ــ الأمالى : أبوعلى القالى: مطبعة دار الكتب طبعة ثانية سنة : ١٩٢٦م .
٥٩ ــ الأمالى : أبو القاسم الزجاجى . مطبعة السعادة . طبعة أولى سنة ١٣٢٤هـ .
٦٠ ــ أمالى المرتضى : للشريف المرتضى على بن الحسين العلوى : تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل . مطبعة الحلبى طبعة أولى .
٦١ ــ الأمالى : اليزيدى : طبع الهند . طبعة أولى سنة : ١٣١٠ هـ .
٦٢ ــ الإمتاع والمؤانسة ، أبو حيان التوحيدى . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٦٣ ـ إملاء ما منّ به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات : أبو البقاء العكبرى ـ مطبعة الحلبى ـ طبعة أولى .

٦٤ ـ إنباه الرواة : القفطى ، تحقيق الأستاذ أبو الفضل . مطبعة دار الكتب

٦٥ ـ الانتصاف : أحمد بن المنير . مطبعة الاستقامة (هامش الكشاف : للزمخشرى) .

٦٦ ـ الإنصاف فى مسائل الخلاف : ابن الأنبارى ـ تحقيق محمد محيى الدين . مطبعة السعادة : طبعة رابعة .

٦٧ ـ أول من وضع النحو (مقال للمرحوم الأستاذ إبراهيم مصطفى) مجلة كلية الآداب .

٦٨ ـ إيثار الحق على الخلق فى رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد : أبو عبد الله بن المرتضى اليمانى من مجتهدى القرن الثامن الهجرى . مطبعة الآداب بمصر سنة : ١٣١٨ هـ .

٦٩ ـ البحر المحيط : أبو حيان الأندلسى . مطبعة السعادة . طبعة أولى .

٧٠ ـ البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع : القاضى محمد بن على الشوكانى مطبعة السعادة . طبعة أولى سنة : ١٣٤٨ هـ .

٧١ ـ بديع القرآن : ابن أبى الأصبع . تحقيق الدكتور حفنى محمد شرف ـ طبعة أولى سنة : ١٩٥٧ م .

٧٢ ـ البرهان فى علوم القرآن : الزركشى .

٧٣ ـ البصائر والذخائر : أبو حيان التوحيدى . تحقيق المرحوم الأستاذ أحمد أمين مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٧٤ ـ البغية : السيوطى ، مطبعة السعادة . طبعة أولى .

٧٥ ـ البيان والتبيين : الجاحظ : تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . طبعة ثانية .

٧٦ ـ تاريخ آداب العرب : الرافعى . طبعة ثانية سنة ١٩٤٠ .

٧٧ ـ تاريخ آداب اللغة العربية : جرجى زيدان . مطبعة الهلال .

٧٨ ـ تاريخ الأدب ـ حفنى ناصف . مطبعة جامعة القاهرة . طبعة ثانية .

٧٩ ـ تاريخ الأدب العربى : بروكلمان .ترجمة المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار دار المعارف بمصر .

٨٠ ـ تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى : الأستاذ السباعى بيومى : مطبعة العلوم . .

٨١ ـ تاريخ بغداد : الخطيب البغدادى . مطبعة السعادة سنة : ١٩٣١ .

٨٢ ـ تاريخ التمدن الإسلامى : جرجى زيدان : مطبعة دار الهلال . طبعة رابعة .

٨٣ ـ تاريخ العرب : فيليب حتى : ترجمة المرحوم الدكتور محمد مبروك نافع طبعه ثانية سنة : ١٩٤٩ م .

٨٤ ـ تاريخ القرآن : أبو عبد الله الزنجانى . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٨٥ ـ تاريخ بن الوردى : المطبعة الوهبية .

٨٦ ـ تحت راية القرآن : مصطفى صادق الرافعى . مطبعة الاستقامة .

٨٧ ـ تذكرة الحفاظ : أبو عبد الله شمس الدين الذهبى . طبع الهند . طبعة ثالثة سنة : ١٩٥٦ .

٨٨ ـ التصحيف والتحريف : أحمد العسكرى : مطبعة الظاهر بمصر سنة : ١٣٢٦ هـ .

٨٩ ـ التعريفات : السيد الشريف على بن محمد بن على السيد . مطبعة الحلبى سنة : ١٩٣٨ .

٩٠ ـ تفسير الطبرى : أبو جعفر بن محمد بن جرير الطبرى . المطبعة الميمنية .

٩١ ـ تفسير غريب القرآن : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة : تحقيق السيد أحمد صقر ـ مطبعة الحلبى .

٩٢ ـ تفسير ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشى . مطبعة الحلبى .

٩٣ ـ تقييد العلم : الخطيب البغدادى : تحقيق الأستاذ يوسف العش طبع دمشق سنة : ١٩٤٩ م .

٩٤ ـ تلخيص البيان فى مجازات القرآن : الشريف الرضى : تحقيق الأستاذ

محمد عبد الغنى حسن . مطبعة الحلبى .
٩٥ – التنبيه على أوهام أبى على فى أماليه للبكرى طبعة أولى . دار الكتب سنة : ١٩٢٦ .
٩٦ – التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة الدكتور صالح أحمد العلى . مطبعة المعارف ببغداد سنة : ١٩٥٣ م .
٩٧ – تهذيب تاريخ ابن عساكر : مطبعة الترقى بدمشة سنة : ١٣٥٦ هـ .
٩٨ – الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة (مجموعة البحوث التى ألقيت فى مؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية) جمع ومراجعة وتقديم الأستاذ محمد خلف الله مكتبة النهضة .
٩٩ – ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن الكريم : للرمانى ، والخطابى ، وعبدالقاهر الجرجانى .حققها وعلق عليها الأستاذان محمد خلف الله — ومحمد زغلول سلام — دار المعارف بمصر .
١٠٠ – جهود المسلمين فى النحو والبلاغة (مقال للأستاذ محمد عرفة) مجلة الأزهر .
١٠١ – حاشية الأمير على المغنى . مطبعة الحلبى .
١٠٢ – حاشية الخضرى على ابن عقيل . مطبعة الحلبى .
١٠٣ – حاشية ياسين على التصريح . مطبعة الحلبى .
١٠٤ – الحاوى للفتاوى : جلال الدين السيوطى .إدارة الطباعة المنيرية .
١٠٥ – حسن المحاضرة : السيوطى . المطبعة الشرفية .
١٠٦ – الحضارة الإسلامية : فون كريمر – تعريب الأستاذ مصطفى بدر . دار الفكر العربى .
١٠٧ – حول بحث أول من وضع النحو (مقال للأستاذ عبد الوهاب حمودة مجلة كلية الآداب) .
١٠٨ – الحياة العربية من الشعر الجاهلى : الدكتور أحمد الحوفى . مطبعة نهضة مصر بالفجالة .
١٠٩ – خزانة الأدب : للبغدادى . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون — المطبعة السلفية .

١١٠ ــ الخصائص : ابن جنى : طبع دار الكتب .

١١١ ــ الخطط : المقريزى . . دار الطباعة المصرية ببولاق سنة : ١٢٧٠هـ.

١١٢ ــ خطط الشام : محمد كرد على . المطبعة الحديثة بدمشق سنة : ١٩٢٥ .

١١٣ ــ الخليل بن أحمد (مقال لطه الراوى . منشور بمجلة الرسالة) .

١١٤ ــ دائرة المعارف الإسلامية : ترجمة الدكتور عبد الحميد يونس وزملائه .

١١٥ ــ دائرة معارف القرن العشرين : محمد فريد وجدى .

١١٦ ــ دراسات فى نقد الأدب العربى : الدكتور بدوى طبانة ، مطبعة مخيمر طبعة ثانية .

١١٧ ــ الدرر الكامنة : ابن حجر العسقلانى . طبع الهند . . ط أولى.

١١٨ ــ الدرر اللوامع : الشنقيطى. مطبعة كردستان . طبعة أولى سنة : ١٢٣٨هـ .

١١٩ ــ ديوان أبى الأسود تحقيق عبد الكريم الدجيلى شركة النشر والطباعة العراقية ببغداد طبعة أولى سنة ١٩٥٤ م .

١٢٠ ــ ديوان أوس بن حجر : تحقيق الدكتور محمد يوسف نجم بيروت سنة ١٩٦٠ .

١٢١ ــ ديوان الفرزدق : مطبعة الصاوى .

١٢٢ ــ ديوان المفضليات : أبو العباس المفضل بن محمد الضّبى من شرح أبى القاسم ابن محمد الأنبارى مطبعة الآباء اليسوعيين .

١٢٣ ــ ذيل الأمالى والنوادر : أبو على القالى . مطبعة دار الكتب . طبعة ثانية .

١٢٤ ــ رأى فى بعض الأصول اللغوية والنحوية : الأستاذ عباس حسن . مطبعة العالم العربى .

١٢٥ ــ الرد على أبى بكر الخطيب البغدادى : الملك المعظم عيسى . مطبعة السعادة ــ طبعة أولى .

١٢٦ ــ الرد على النحاة : ابن مضاء القرطبى : تحقيق الدكتور شوقى ضيف مطبعة دار الفكر العربى.

١٢٧ ــ رسالة الخطابى فى إعجاز القرآن الكريم (من كتاب ثلاث رسائل فى

إعجاز القرآن) تحقيق الأستاذين محمد خلف الله ، محمد زغلول سلام . دار المعارف.

١٢٨ — روضات الجنات : محمد باقر بن زين العابدين الخونسارى الشيعى .

١٢٩ — أبو زكريا الفراء : الدكتور أحمد مكى الأنصارى . مطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب .

١٣٠ — زهر الآداب : القيروانى . تحقيق الدكتور زكى مبارك . . . المطبعة الرحمانية طبعة ثانية .

١٣١ — الزينة فى الكلمات الإسلامية والعربية ، أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازى تحقيق : حسين بن فيض الله الهمدانى الحرازى ، مطابع دار الكتاب العربى، طبعة ثانية سنة : ١٩٥٧ .

١٣٢ — سر صناعة الإعراب : ابن جنى — مطبعة الحلبى .

١٣٣ — سر الفصاحة : ابن سنان الخفاجى — مطبعة صبيح .

١٣٤ — شذرات الذهب : ابن العماد الحنبلى طبع ١٣٥٠ هـ .

١٣٥ — شرح الأشمونى : مطبعة الحلبى ، نسخة أخرى تحقيق : الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد .

١٣٦ — شرح التصريح : الشيخ خالد. مطبعة الحلبى .

١٣٧ — شرح الجاربردى على الشافية . مطبعة دار الطباعة العامرة .

١٣٨ — شرح الرضى على الكافية. مطبعة مجمع الرضى سنة : ١٢٧٥هـ .

١٣٩ — شرح الشاطبية : على بن محمد الصباغ . مطبعة صبيح .

١٤٠ — شرح شذور الذهب : ابن هشام : تحقيق محمد محيى الدين . مطبعة مصطفى محمد .

١٤١ — شرح الشواهد : للعينى (هامش حاشية الصبان) مطبعة الحلبى .

١٤٢ — شرح شواهد سيبويه : الأعلم الشنتمرى (هامش الكتاب) .

١٤٣ — شرح ابن عقيل : تحقيق محمد محيى الدين : المطبعة الرحمانية .

١٤٤ — شرح ابن الفاصح على الشاطبية . المطبعة الأزهرية . طبعة أولى .

١٤٥ — شرح القطر : ابن هشام : تحقيق محمد محيى الدين ، مطبعة مصطفى محمد .

١٤٦ ــ شرح الكافية لابن الحاجب . دار الطباعة العامرة سنة ١٣١١ هـ .
١٤٧ ــ شرح الكوكب المنير ، المسمى بمختصر التحرير فى أصول فقه السادة الحنابلة شهاب الدين أبى العباس أحمد بن عبد العزيز القنوّجى ، تحقيق حامد الفقى ــ مطبعة السنة المحمدية .
١٤٨ ــ شرح المفصل : ابن يعيش . دار الطباعة المنيرية .
١٤٩ ــ الشعروالشعراء : ابن قتيبة .. مطبعة المعاهد . طبعة ثانية .
١٥٠ ــ شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح : ابن مالك : تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى . مطبعة لجنة البيان العربى .
١٥١ ــ شواهد المغنى : السيوطى . المطبعة البهية بمصر .
١٥٢ ــ الصاحبى : أحمد بن فارس . مطبعة المؤيد سنة : ١٩١٠ .
١٥٣ ــ صبح الأعشى : الشيخ أبو العباس أحمد القلقشندى . طبع دار الكتب .
١٥٤ ــ صحيح البخارى : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى . المطبعة الأميرية سنة : ١٣١٢ .
١٥٥ ــ صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام : جلال الدين السيوطى مطبعة السعادة ... طبعة أولى : تحقيق الأستاذ على سامى النشار .
١٥٦ ــ ضحى الإسلام : المرحوم الأستاذ أحمد أمين . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . طبعة ثانية ، وثالثة .
١٥٧ ــ طبقات الشعراء : ابن سلام : المطبعة المحمودية .
طبقات فحول الشعراء : ابن سلام : مطبعة دار المعارف .
١٥٨ ــ الطبقات الكبرى : ابن سعد ، تصحيح إدوارد سخو . مطبعة ليدن سنة ١٣٣٢ هـ .
١٥٩ ــ طبقات المفسرين : السيوطى . طبع أوربا .
١٦٠ ــ طبقات النحويين واللغويين : الزبيدى : تحقيق الأستاذ محمد أبى الفضل . طبعة أولى سنة : ١٩٥٤ م .
١٦١ ــ الطراز : يحيى بن حمزة بن على إبراهيم العلوى . مطبعة المقتطف بمصر سنة : ١٩٢٤ . .

١٦٢ ــ ظهر الإسلام : المرحوم الأستاذ أحمد أمين . طبعة أولى ، وثالثة .
١٦٣ ــ العربية : يوهان فك : ترجمة المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار .
مطبعة دار الكتاب العربي سنة : ١٩٥١ .
١٦٤ ــ أبو على الفارسى : الدكتور عبد الفتاح شلبى : مطبعة نهضة مصر بالفجالة .
١٦٥ ــ العمدة فى صناعة الشعر ونقده : أبو على الحسن بن رشيق القيروانى .
طبعة أولى ، مطبعة أمين هندية .
١٦٦ ــ غاية النهاية فى طبقات القراء : ابن الجزرى . نشر برجستراسر ، مطبعة السعادة .
١٦٧ ــ الغزالى : أحمد فريد . مطبوعات دار المأمون .
١٦٨ ــ الغيث المسجم فى شرح لامية العجم : لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ط ١٢٩٠ هـ .
١٦٩ ــ الفائق فى غريب الحديث : الزمخشرى . مطبعة الحلبى . طبعة أولى .
١٧٠ ــ الفصل فى الملل والأهواء والنحل : ابن حزم الظاهرى ، المطبعة الأدبية طبعة أولى سنة : ١٣١٧ هـ .
١٧١ ــ فقه اللغة : الدكتور على عبد الواحد وافى . مطبعة لجنة البيان العربى طبعة ثالثة .
١٧٢ ــ فلسفة اللغة العربية وتطورها : جبر ضومط . مطبعة المقتطف سنة : ١٩٢٩ م
١٧٣ ــ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى : الدكتور شوقى ضيف . مطبعة دار المعارف .
١٧٤ ــ الفهرست : ابن النديم : مطبعة الاستقامة .
الفهرست : ابن النديم . المطبعة الرحمانية سنة ١٣٤٨ هـ .
١٧٥ ــ فهرس الكتب العربية الموجودة بالدار لغاية سنة ١٩٢١ .
١٧٦ ــ فهرس المخطوطات : القسم الأول من أ ــ س . تصنيف الأستاذ فؤاد سيد .

١٧٧ — فهرس المخطوطات المصورة : معهد إحياء المخطوطات بالجامعة العربية.
١٧٨ — فى الأدب الجاهلى : الدكتور طه حسين مطبعة دار المعارف .
١٧٩ — فى أصول النحو : الأستاذ سعيد الأفغانى ، مطبعة الجامعة السورية طبعة ثانية .
١٨٠ — القاموس المحيط : مجد الدين الفيروزابادى . مطبعة دار المأمون ط رابعة.
١٨١ — القراءات واللهجات : الأستاذ عبد الوهاب حمودة . مطبعة السعادة ط أولى .
١٨٢ — القرآن واللغة (مقال للمرحوم الشيخ عبد الجواد رمضان) مجلة الأزهر .
١٨٣ — الكامل فى اللغة والأدب : المبرد . الجزءان الأول والثانى تحقيق الدكتور : زكى مبارك ، والجزء الثالث : تحقيق الشيخ أحمد شاكر .
١٨٤ — الكتاب : سيبويه . المطبعة الأميرية .
١٨٥ — الكشاف : الزمخشرى : مطبعة الاستقامة . طبعة ثانية : ودار الطباعة المصرية سنة : ١٢٨١ هـ .
١٨٦ — كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون : حاجى خليفة . طبعة وكالة المعارف بإستانبول .
١٨٧ — كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال : علاء الدين على المتقى بن حسام الهندى : مطبعة دائرة المعارف النظامية بالهند .
١٨٨ — لسان العرب : ابن منظور الأفريقى : المطبعة الأميرية : طبعة أولى ١٣٠١ هـ .
١٨٩ — اللغة : ج فندريس : ترجمة الأستاذين عبد الحميد الدواخلى ، ومحمد القصاص : مطبعة لجنة البيان العربى .
١٩٠ — اللغة بين الفرد والمجتمع : أوتو جسبرسن ترجمة الدكتور عبد الرحمن أيوب مكتبة الأنجلو المصرية .
١٩١ — لمع الأدلة : ابن الأنبارى . تحقيق سعيد الأفغانى . مطبعة الجامعة السورية .
١٩٢ — اللهجات العربية : الدكتور إبراهيم أنيس . مطبعة الرسالة .

١٩٣ ـ مباحث فى علوم القرآن : الدكتور صبحى الصالح . مطبعة الجامعة السورية سنة : ١٩٥٨ م .
١٩٤ ـ المباحث اللغوية فى العراق : الدكتور مصطفى جاد . مطبعة لجنة البيان العربى .
١٩٥ ـ المثل السائر : ضياء الدين بن الأثير .
١٩٦ ـ مجاز القرآن : أبو عبيدة معمر بن المثنى : تحقيق محمد فؤاد سركين ، طبعة أولى سنة : ١٩٥٤ نشر الخانجى .
١٩٧ ـ المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول : الدكتور : شكرى فيصل . مطبعة دار الكتاب العربى سنة : ١٩٥٢ .
١٩٨ ـ مجمع الأمثال : الميدانى : تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين : مطبعة السعادة .
١٩٩ ـ محاضرات عن مشكلات حياتنا اللغوية : أمين الخولى . مطبعة معهد الدراسات العربية .
٢٠٠ ـ مختصر المنتهى الأصولى : ابن الحاجب . مطبعة كردستان العلمية .
٢٠١ ـ مدرسة الكوفة : الدكتور مهدى المخزومى . مطبعة الحلبى طبعة ثانية .
٢٠٢ ـ مذاهب التفسير الإسلامى : جولد تسهير . تحقيق المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار . مطبعة السنة المحمدية .
٢٠٣ ـ مراتب النحويين : أبوالطيب . مطبعة نهضة مصر بالفجالة .
٢٠٤ ـ المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها : الدكتور عبد الله الطيب مطبعة الحلبى .
٢٠٥ ـ المزهر : السيوطى . طبعة ثانية ، مطبعة الحلبى .
٢٠٦ ـ المسائل فى الخلاف بين البصريين والبغداديين . إملاء الشيخ أبى رشيد سعيد بن محمد النيسابورى . طبع ليدن .
٢٠٧ ـ مشكل القرآن : ابن قتيبة : تحقيق : السيد أحمد صقر . مطبعة الحلبى .
٢٠٨ ـ المصاحف : ابن أبى داود : تحقيق الدكتور أرثر جفرى . المطبعة الرحمانية طبعة أولى سنة : ١٣٥٥ هـ .

٢٠٩ — مصادر الشعر الجاهلي : الدكتور : ناصر الدين الأسد : دار المعارف بمصر سنة : ١٩٥٦ .

٢١٠ — المصحف الشريف .

٢١١ — مصر فى عهد الإخشيديين : الدكتورة سيدة إسماعيل الكاشف . مطبعة جامعة القاهرة سنة : ١٩٥٠ .

٢١٢ — معانى القرآن : الفراء : تحقيق الأستاذين أحمد يوسف نجاتى ، ومحمد على النجار . مطبعة دار الكتب .

٢١٣ — معجم الأدباء : ياقوت الحموى . مطبعة الحلبى .

٢١٤ — معجم البلدان : ياقوت الحموى . طبع ألمانيا (ليبزج) .

٢١٥ — معجم مقاييس اللغة : ابن فارس . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون طبعة أولى سنة : ١٣٦٦ .

٢١٦ — المعلقات السبع : تحقيق الشنقيطى . مطبعة الموسوعات سنة : ١٣١٩

٢١٧ — مغنى اللبيب : ابن هشام . مطبعة الحلبى .

٢١٨ — مفتاح السعادة : طاش كبرى زاده . دائرة المعارف النظامية — الهند .

٢١٩ — مقدمتان فى علوم القرآن : وهما مقدمة : ١ — كتاب المبانى لمؤلف مجهول فى القرن الخامس الهجرى ٢ — مقدمة ابن عطية . تحقيق أرثر جفرى مطبعة السنة المحمدية .

٢٢٠ — مقدمة بديع القرآن لابن أبى الأصبع ؛ للدكتور حفنى محمد شرف .

٢٢١ — مقدمة تفسير غريب القرآن : لابن قتيبة . للأستاذ السيد أحمد صقر .

٢٢٢ — مقدمة تلخيص البيان فى مجازات القرآن : الأستاذ محمد عبد الغنى حسن ، مطبعة الحلبى .

٢٢٣ — مقدمة ابن خلدون ؛ مطبعة مصطفى محمد .

٢٢٤ — مقدمة الرد على النحاة : الدكتور شوقى ضيف .

٢٢٥ — مقدمة فى أصول التفسير : تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن عبد السلام بن تيمية . . تحقيق جميل الشطى . مطبعة الترقى بدمشق طبعة أولى .

٢٢٦ ـ مقدمة كتاب الزينة : الدكتور إبراهيم أنيس .
٢٢٧ ـ مقدمة لدراسة بلاغة العرب للأستاذ أحمد ضيف طبعة أولى سنة : ١٩٢١ م
٢٢٨ ـ مقدمة مجاز القرآن لأبي عبيدة : الدكتور محمد فؤاد سركين .
٢٢٩ ـ مقدمة معاني القرآن للفراء : الشيخ محمد النجار .
٢٣٠ ـ المقصور والممدود : ابن ولاد : تحقيق محمد بدر الدين النعساني ، مطبعة السعادة . طبعة أولى .
٢٣١ ـ المقنع : أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني : تحقيق محمد أحمد دهمان مطبعة الترقي بدمشق سنة : ١٩٤٠ .
٢٣٢ ـ من أسرار اللغة : الدكتور إبراهيم أنيس ، مطبعة لجنة البيان العربي .
٢٣٣ ـ مناهج البحث عند مفكري الإسلام : الدكتور على سامى النشار . دار الفكر العربي . طبعة أولى .
٢٣٤ ـ مناهل العرفان في علوم القرآن : الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني . مطبعة الحلبي ط ثالثة .
٢٣٥ ـ المنصف : ابن جني . مطبعة الحلبي طبعة أولى سنة : ١٩٥٤ .
٢٣٦ ـ منطق أرسطو والنحو العربي (مقال للدكتور إبراهيم مدكور) مجلة الأزهر .
٢٣٧ ـ منهج الزمخشري : مصطفى الصاوى الجويني ـ مطبعة دار المعارف بمصر .
٢٣٨ ـ موسيقى الشعر : الدكتور إبراهيم أنيس .
٢٣٩ ـ الموشح لأبي عبد الله محمد بن عمران المرزباني ـ المطبعة السلفية .
٢٤٠ ـ مولد اللغة : الشيخ أحمد رضا العاملي ، نشر دار مكتبة الحياة ببيروت .
٢٤١ ـ الناسخ والمنسوخ : أبو جعفر النحاس . مطبعة السعادة . طبعة أولى سنة : ١٣٢٣ هـ .
٢٤٢ ـ النجوم الزاهرة : ابن تغرى بردى . مطبعة دار الكتب ، طبعة أولى .
٢٤٣ ـ نحو عربية ميسرة : الدكتور أنيس فريحة . دار الثقافة ببيروت .

٢٤٤ ـ نزهة الألبا : عبد الرحمن بن محمد الأنبارى طبع سنة ١٢٩٤ هـ .
٢٤٥ ـ نشأة التفسير (مقال للأستاذ أمين الخولى فى دائرة المعارف الإسلامية) .
٢٤٦ ـ نشأة النحو : المرحوم الشيخ محمد الطنطاوى .
٢٤٧ ـ النشر فى القراءات العشر : ابن الجزرى : تحقيق محمد أحمد دهمان مطبعة التوفيق بدمشق .
٢٤٨ ـ نفح الطيب : المقرى ، مطبعة الحلبى ، والمطبعة الأزهرية .
٢٤٩ ـ نقد الشعر : لقدامة بن جعفر تصحيح س . أ. بونيباكر طبع ليدن .
٢٥٠ ـ النقد واللغة فى رسالة الغفران : الدكتور أمجد الطرابلسى . مطبعة الجامعة السورية .
٢٥١ ـ نقض كتاب (فى الشعر الجاهلى) للشيخ محمد الخضر حسين . المطبعة السلفية .
٢٥٢ ـ نكت الهميان : صلاح الصفدى . طبع ١٩١٠ بمصر .
٢٥٣ ـ النوادر فى اللغة لأبى زيد سعيد بن أوس بن ثابت الأنصارى ـ تعليق سعيد الخذرى . المطبعة الكاثوليكية .
٢٥٤ ـ أبو هلال العسكرى ، ومقاييسه البلاغية : الدكتور بدوى طبانه ط ١٩٥٢ م .
٢٥٥ ـ همع الهوامع : السيوطى . مطبعة السعادة ، طبعة أولى .
٢٥٦ ـ الهوامل والشوامل : أبو حيّان التوحيدى ومسكويه مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة : ١٩٥١ م .
٢٥٧ ـ الوسائل فى مسامرة الأوائل : السيوطى .
٢٥٨ ـ وفيات الأعيان : ابن خلكان طبع سنة ١٣١٠ هـ .

ثالثاً : الدوريات :

٢٥٩ ـ مجلة الأزهر .
٢٦٠ ـ مجلة الرسالة .
٢٦١ ـ مجلة الكتاب .

٢٦٢ — مجلة كلية الآداب
٢٦٣ — مجلة المجمع العلمى العراقى
٢٦٤ — مجلة المجمع العلمى العربى
٢٦٥ — مجلة المجمع اللغوى
٢٦٦ — مجلة المشرق
٢٦٧ — مجلة الهلال

فهرس الأعلام

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

فهرس القبائل

فهرس الأماكن والبلدان

رقم الايداع : ٩٥/٣٢٩٣
الترقيم الدولى : ٨/ ٤٥/ ٥١٦٥/ ٩٧٧

مطابع دار التراث العربى
ت ٩٣٦١٤٥ - القاهره


الورشة العربية للتجليد الفني
٨ عطفة الجبرانية ـ الجمالية ـ ت: ٥٩١٨٢٠٥


الورشة العربية للتجليد الفني
٨ عطفة الحزانية - الجمالية - ت: ٥٩١٨٢٠٥

